



جامعة غرداية

كلية العلوم الإجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الإنسانية

شعبة التاريخ

**العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء من
مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر
الميلاديين**

مذكرة مقدمة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إشراف الدكتور:

صالح بن محمد بوسليم

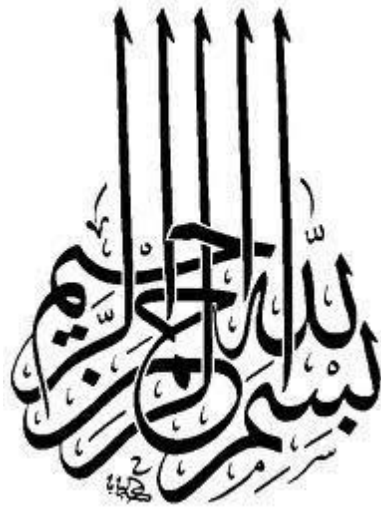
إعداد الطالب:

بالحاج بن عمر أوزايد

لجنة المناقشة

- أ.د. إبراهيم بحاز.....أستاذ تعليم عالي جامعة غرداية رئيسا
د. صالح بوسليم.....أستاذ محاضر جامعة غرداية مشرفا ومقررا
أ.د. محمد حوتية.....أستاذ محاضر جامعة أدرار عضوا مناقشا
د. رضوان شافو.....أستاذ محاضر "أ" جامعة الوادي عضوا مناقشا
د. محمد الزين.....أستاذ محاضر جامعة سيدي بلعباس عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 1436-1437هـ/2015-2016م



قال الله تعالى: " وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله. "

سورة الأعراف، الآية: 43.

وقال عز وجل: " وقُلْ رَبِّ زدني علما. "

سورة طه، الآية: 114.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " ومن سَلَكَ طريقًا
يلتمس فيه علمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ طريقًا إلى الجنة "

رواه مسلم.

وقال الشاعر:

وَمَا مِنْ كَاتِبٍ إِلَّا سَيْفَنِي	وَيُتْقِي الدَّهْرَ مَا كَتَبَتْ يَدَاهُ
فَلَا تَكْتُبْ بِكَفِّكَ غَيْرَ شَيْءٍ	يَسْرُكُ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَرَاهُ
فَإِنْ خَيْرًا فَكُنْ عَنْهُ شَكُورًا	وَإِنْ شَرًّا فَعُذْ رَبِّي قَضَاهُ

إهداء

إلى معلم البشرية سيّد الخلق ورسول الحق محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

إلى روح أبي تعمّده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته.

إلى أمي الفاضلة حفظها الله وبارك في عمرها.

إلى زوجتي التي بذلت جهدها ووفرت لي الظروف المساعدة على إنجاز هذه الدراسة

جزاها الله عني خيرا.

شكر وعرفان

الشكر لله أولاً وأخيراً، فهو الذي وفّقني وسدد خُطاي ومنحني القوة والصبر والعزيمة لإتمام هذا العمل. كما أشكرُ أستاذي المشرف الدكتور صالح بوسليم على نصائحه الهامة، وتوجيهاته السديدة، وتصحيحاته القيمة، وصبره علي وسعة صدره، وتقديمه لي للعون والمساعدة. والشكر موصول إلى أعضاء اللجنة الموقّرين الذين سيتولون مناقشة هذه المذكرة، على تحمّلهم عبء قراءتها. كما لا يفوتني أن أشكر كل من ساعدني من قريب أو بعيد ولو بكلمة طيبة، جزى الله الجميع عنّا كل خير.

بالحاج بن عمر أوزايد

1. قائمة المختصرات المستعملة باللغة العربية:

تص: تصحيح.	تر: ترجمة.	تخ: تخريج.	تع: تعليق.
ط: طبعة.	ع: عدد.	ص: صفحة.	مج: مجلد
ج: جزء.	ح: حجم.	ت: توفي.	د.ع: دون عدد.
د.م.ن: دون مكان النشر.	د.ت.ن: دون تاريخ النشر.		
د.ر.ط: دون رقم الطبعة	د.د.ن: دون دار النشر.		
د.ر.ص: دون رقم الصفحة .	م.ج.ط: المؤسسة الجزائرية للطباعة		
م.و.ف.م: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.	م.و.ك: المؤسسة الوطنية للكتاب.		
م.و.ف.م: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية.	ش.و.ن.ت: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.		
م.و.ب.م.إ.ت: المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ.			
م. و.د.ح.ث.أ: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م			

2. قائمة المختصرات المستعملة باللغة الفرنسية:

P : page.	PP : page contenue.
OP.Cit : O uvrage P réci t é.	IBID : i bidem
R : R evue	N° : N uméro
Trad : T raduit.	Ed : E dition
T : T ome	S.D : S ans D ate.

O.P.U : **O**ffice des **P**ublications **U**niversitaire.

R .A. C : **R**evue **A**lgérienne et **C**oloniale

S.N.E.D : **S**ociété **N**ationale d'**E**dition et **D**istribution

المقدمة

تناولتُ في هذه الدراسة العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، وقد تبين لي من خلال البحث أن للموقع الجغرافي الهام للجزائر تأثير واضح على علاقاتها السياسية والإقتصادية مع جيرانها سواء القريين أو البعيدين، مما جعلها همزة وصل بين القارتين الإفريقية والأوروبية، وقد سمحت لها حدودها المشتركة مع عدد من الدول الإفريقية، بأن تكون معبرا تجاريا رئيسيا نحو كل الإتجاهات، ومحورا تتقاطع فيه الحضارات المختلفة.

وقد كان اختياري لفترة مهمة جدا من تاريخ الجزائر وهي فترة الحكم العثماني، والتي مازال الكثير من الغموض يكتنفها خاصة في المجال الإقتصادي، حيث تميزت الساحة الإقتصادية بالجزائر أوائل القرن السادس عشر الميلادي بعدم الإستقرار، وذلك راجع إلى الإضطرابات التي شهدتها البلاد آنذاك، وهي الحالة التي وجدها الإخوة بربوس عند بداية تشكيلهم لصرح الدولة الجزائرية الحديثة التي بدأ معها النمو التدريجي في الحياة الإقتصادية.

كانت للجزائر خلال العهد العثماني علاقات تجارية هامة مع بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، حيث كانت القوافل التجارية تغدو وتروح بين موانئ الشمال وحواضره لكقسنطينة والجزائر ووهران وتلمسان، وأسواق واحات أعماق الصحراء الكبرى في كل من تشاد، ونيجيريا، وإفريقيا الوسطى، والنيجر، ومالي، والسنغال، وغيرها. فلقد استطاع التجار الجزائريون بعون الله واعتمادهم على أنفسهم وبتضحياتهم الجسام أن يتأقلموا مع الظروف الصعبة المحيطة بهم أثناء تناقلاتهم، وظلت الجزائر تحتل مكانة مرموقة في مجال تمرير التجارة من أوروبا وبلاد المغرب صوب إفريقيا جنوب الصحراء أو العكس، وكانت المحطة الآمنة لمرور القوافل عبر الصحراء التي كانت تموج بتحركات هذه القوافل بصفة مستمرة ومنتظمة.

1- دواعي اختيار الموضوع:

يرجع سبب اختياري للموضوع أولا إلى وجوب التقيد بمشروع الماجستير حول العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الإسلامي وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء، وثانيا إلى شعوري أثناء الدراسة بميل خاص إلى معرفة الدور الذي قامت به القوافل التجارية في التواصل الحضاري بين جانبي الصحراء الكبرى في الفترة المدروسة، وثالثا وأخيرا محاولة معرفة مساهمة الجزائر ودورها في التجارة الدولية.

2- الإطار الزمني و المكاني للدراسة:

ولضبط الموضوع زمنيا حددت له إطارا زمنيا يمتد من مطلع القرن العاشر الهجري/مطلع القرن السادس عشر الميلادي، إلى نهاية القرن الثالث عشر الهجري/نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، حيث يتميز مطلع القرن السادس عشر بحدث هام جدا يتمثل في اكتشاف فاسكو دا جاما لطريق الهند حول القارة الإفريقية عبر رأس الرجاء الصالح، هذا الإكتشاف الذي يمثل منعطفًا حاسمًا ليس فقط في تاريخ القارة الإفريقية بل وفي تاريخ المعمورة، فقد بدأ معه بداية تفوق الأوروبيين وتوسعهم خارج أوروبا من جهة، وبسط العثمانيين لنفوذهم على الجزائر من جهة أخرى. أما بالنسبة لنهاية القرن التاسع عشر فهو يمثل استكمال الإحتلال الفرنسي لجنوب الجزائر، بإقامة مراكز وحاميات عسكرية في عدة مناطق صحراوية قصد مراقبة حركة القبائل المتنقلة والقوافل التجارية. أما فيما يخص إفريقيا جنوب الصحراء، فقد عملت فرنسا بعد إحكام سيطرتها على الصحراء الجزائرية، على الإستيلاء على المناطق الداخلية فيما وراء الجزائر حتى الحدود الشمالية لمجال نفوذ شركة النيجر الملكية، والإمتداد إلى الجانب الغربي من بحيرة تشاد.

أما الإطار المكاني، فيتمثل في الصحراء الكبرى و حدودها الشمالية والجنوبية، والحيز الأكبر الذي تشمله الجزائر.

3- الإشكالية المطروحة في هذه الدراسة:

تتمثل الإشكالية المحورية في محاولة الكشف عن العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء. وقد انطلقت في هذا البحث بمجموعة تساؤلات ظلت تلاحقني منذ اختياري للموضوع لعلني سأوفق في الإجابة عنها في متن الدراسة وهي:

- كيف كانت الأوضاع السياسية والإجتماعية في الجزائر في مطلع القرن السادس عشر؟
- وما هي الجذور التاريخية للعلاقات التجارية بين الجانبين؟
- وما مدى تأثير القوافل التجارية اقتصاديا واجتماعيا في المناطق التي تعبرها أو تتوقف بها؟
- وما هي أهم الأسواق والمراكز التجارية التي ساهمت في هذه العلاقات من كلا الجانبين؟
- وهل تأثرت العلاقات التجارية بين الجانبين بالتدخل الأوروبي والفرنسي في الجزائر والصحراء الكبرى؟

4- الدراسات السابقة:

تجدد الإشارة إلى أن هناك بعض الدراسات التي تناولت جوانب عدة في الموضوع، بحيث لا يمكن للباحث في مجال العلاقات تجاوزهها، وهو بصدد البحث في علاقات الجزائر مع إفريقيا جنوب الصحراء نذكر منها:

- دراسة للباحث الهادي المبروك الدالي الموسومة ب: **التاريخ السياسي والإقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر** ، نشر الدار المصرية اللبنانية، أوت، 1999م، تناول فيها التطور التاريخي والوضع السياسي والبنية الإقتصادية للمنطقة، بكل دقة وموضوعية.

- دراسة يحيى بوعزيز بعنوان: **تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين**، نشر دار البصائر، الجزائر، 2009م، تناول فيها بالتفصيل تاريخ المنطقة وأهم الممالك التي ظهرت فيها، إضافة إلى طرق القوافل التجارية بالصحراء الكبرى كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر.

- دراسة عثمان منصوري الموسومة ب: **التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، مساهمة في تاريخ المغرب الإقتصادي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، طبع: مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1422هـ/2001م، حيث تطرق الباحث إلى التجارة الداخلية والخارجية للمغرب، مع ذكر أهم المسالك والطرق التي كانت تتبعها القوافل التجارية، إضافة إلى الأسواق والمراكز التجارية بالمغرب الأقصى في ذلك العهد، وكذا السلع والبضائع المتبادلة داخليا وخارجيا، والضرائب والرسوم المفروضة على القوافل والتجار أثناء تنقلاتهم.

- دراسة الباحث أحمد ذكار: (حاضرة وارجلان وعلاقتها التجارية بالسودان الغربي 1591-1883م)، مذكرة ماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر غير منشورة، قسم التاريخ، جامعة أدرار، 2009-2010م، تناول فيها مدينة وارجلان عبر التاريخ ودورها في العلاقات التجارية بين الجزائر والسودان الغربي منذ القدم إلى أن قضى عليها الفرنسيين بعد احتلال الجزائر وصحرائها.

- الدراسة القيّمة للباحث إبراهيم مياسي الموسومة ب: (الإهتمام الفرنسي بالصحراء)، المنشورة في كتاب طريق القوافل، الجزائر، 2001م، تناول فيها رحلات ومغامرات المستكشفين الفرنسيين والأوروبيين في الصحراء الإفريقية عامة والجزائرية خاصة، خدمة لسياسة حكوماتهم.

5- المنهج المتبع في الدراسة:

إعتمدتُ في هذه الدراسة على المنهج التاريخي ، والمنهج الوصفي، والمنهج التركيبي، والمنهج التحليلي، لكونه مناسباً كمنهج لوصف الأحداث التاريخية وتركيبها، كما استعنتُ بالمنهج التحليلي لتفسير وتحليل بعض الوقائع والأحداث التاريخية، محاولاً في ذلك تحري الأسلوب العلمي والأمانة العلمية. فجمعتُ المادة العلمية أولاً، ثم قمتُ بتحليلها ومناقشتها وتركيب المعلومات المستخرجة من المصادر والمراجع والدوريات التي تيسر لي الحصول عليها حول الموضوع، وفي الأخير استخلصتُ أهم النتائج منها.

6- الخطة المتبعة في الدراسة:

لقد قسمتُ هذا البحث إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، وجاء **الفصل الأول** بعنوان (المجال والإنسان) وقد تضمن خمسة مباحث، هي على التوالي: **الأول**: تناولت فيه الإطار الجغرافي والبشري للجزائر. أما **الثاني**: فقد قدمت فيه لمحة عن الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية بالجزائر مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي. في حين أن **الثالث**: تطرقت فيه إلى الإطار الجغرافي والبشري لإفريقيا جنوب الصحراء. وفي **الرابع**: لمحة عن الأوضاع السياسية بإفريقيا جنوب الصحراء. أما **الخامس**: فخصصته إلى الجذور التاريخية للعلاقات التجارية بين الإقليمين بداية من حكم الدولة الرستمية إلى حكم الزيانيين.

أما **الفصل الثاني**: فعنوانه (القوافل التجارية ومسالكها من الجزائر إلى إفريقيا جنوب الصحراء في العصر الحديث)، وقد ضمنته أربعة مباحث أيضاً، وهي كالتالي: **الأول**: تطرقت فيه لتنظيم القافلة وتحضيرها للسفر، متناولاً العناصر المكونة للقافلة ونظام سيرها في مختلف الظروف والأحوال.

أما **الثاني**: فقد خصصته لدور وتأثير القوافل التجارية المنطلقة من الجزائر والعبارة لها على الحياة الإجتماعية والإقتصادية للمناطق التي تتوقف بها أو تمر بها. وجاء **الثالث**: ليذكرنا بالمخاطر والصعوبات التي تواجه القوافل التجارية في حلها وترحالها، سواء طبيعية أو بشرية، خاصة منها الغارات التي تتعرض لها من طرف قطاع الطرق. أما **الرابع**: فقد تتبعته فيه مسالك التجارة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، والتي تربط بين أهم حواضر الجزائر في الشمال والجنوب مع مثيلاتها في الضفة الجنوبية للصحراء الإفريقية، والتي استمرت في حركتها ونشاطها إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي.

أما **الفصل الثالث** : فعنوانه (الأسواق والمعاملات التجارية بالجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء)، و عرضت فيه أربعة مباحث، تناولت في **الأول**: أهم المراكز والأسواق التجارية بالجزائر في شمالها وجنوبها كقسنطينة والجزائر وتلمسان، وورقلة ومزاب وتوات، وما تميزت به من نشاط تجاري.

وفي **الثاني**: عرجت على أهم الأسواق والمراكز التجارية بإفريقيا جنوب الصحراء مثل تمبكتو، وغاو، وجني، وأغاديس وغيرها. أما في **الثالث**: فذكرت أهم السلع والبضائع المتبادلة بين الطرفين، حيث كانت الجزائر تصدر الحبوب، والزيت، والتمور، والملح، وتستورد الذهب، والعبيد، والعاج، والصمغ، إلخ. أما في **الرابع**: فتطرق إلى المعاملات التجارية بالأسواق الجزائرية والسودانية والتي كانت تستعمل فيها في مجال القياسات الشبر، والذراع، وفي المكايل المد، والصاع، والقنطار، وفي الأوزان الأوقية، والمثقال، والرطل، كما أشرت إلى الرسوم والضرائب المختلفة التي كانت تفرض على تجار القوافل، وكذا إلى العملات النقدية المتداولة بالأسواق الجزائرية والسودانية.

وأخيرا **الفصل الرابع**: الذي عنوانه (الإختراق الأوروبي للعلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء وتطور الإهتمام الفرنسي 1845-1900م)، وضمنته ثلاثة مباحث، بينت في **الأول**: بدايات حركة الكشوف الأوروبية في الصحراء الإفريقية الكبرى، ودوافعها الاقتصادية، متطرقا إلى مختلف البعثات الإستكشافية الأوروبية عامة والفرنسية خاصة. وفي **الثاني**: تطرقت لواقع التجارة الداخلية والخارجية للجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، مع ذكر المبادلات الداخلية والخارجية للجزائر مع بلدان المغرب والمشرق وعبر البحر. أما في **الثالث**: فقد بينت فيه نتائج وانعكاسات السياسة الفرنسية على الإقليمين، وكيف أثرت سلبا على العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، مما أدى إلى تراجعها وانكماشها.

وأهميت هذه الدراسة ب **خاتمة** رصدت فيها مجمل النتائج التي توصلت إليها، وذيلتها ب **ملاحق** مكتملة للموضوع، كما ضبطت **ثبنا** للمصادر والمراجع العربية والأجنبية، مرتبة حسب الحروف الأبجدية. وفي الأخير وضعت **فهارس** للأعلام والقبائل والجماعات، والأماكن والبلدان، وأخيرا فهرسا للموضوعات وملخصا للدراسة باللغتين العربية والفرنسية.

7 .تحليل مصادر ومراجع الدراسة:

لقد اعتمدت في هذه الدراسة على مجموعة متنوعة من المصادر العربية والأجنبية، وكثير من المراجع والمقالات المتخصصة، فقد عدتُ إلى مصادر عاصرت الأحداث، وأخرى تخلفت عنها، ولكن كانت قريبة من فترة الدراسة، ومن أهمها:

أ - الوثائق المنشورة:

- المجلة الإفريقية (Revue Africaine): التي لا يمكن إهمالها لأنها تحتوي وثائق منشورة هامة عن الفترة الحديثة، والمتعلقة بالتجارة الصحراوية والقوافل، والتدخل الفرنسي في الصحراء الجزائرية.

ب - المصادر العربية والمعربة:

1 - المصادر المحلية العربية: نذكر منها:

- كتاب **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب** ، لمؤلفه أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري(ت487هـ/1094م)، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، مطبعة زيتا قرافيك، الجزائر، 1432هـ/2011م، خصص فيه جزء كبير للمغرب وبلاد السودان، يعتبر هذا الكتاب من أهم المصادر لأنه يغطي إطارا زمني يمتد لعدة قرون، وكذا إطارا مكانيا يشمل دولا وممالك عديدة. وصف فيه مؤلفه الصحراء والبلاد المجاورة لها من الشمال والجنوب وصفا دقيقا، كما دقق في وصف يوميات القوافل التجارية العابرة للصحراء، وقد أفادني في معرفة المسافات ما بين المدن و الحواضر، وكذا المسالك الصحراوية والأسواق، والحركة التجارية بصورة عامة، وقد اعتمدتُ عليه لكون طرق القوافل الصحراوية لم تغير مسالكها من عصر البكري إلى غاية القرن التاسع عشر الميلادي بسبب ارتباطها ارتباطا وثيقا بمصادر المياه عبر الصحراء.

- كتاب **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، مقتبس من كتاب **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق** ، لأبي عبد الله محمد الشريف الإدريسي(ت 548هـ/1159م)، تحقيق وتقديم وتعليق: إسماعيل العربي، نشر ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983. ويشتمل الكتاب على معلومات مهمة عن جغرافية وتاريخ المناطق التي زارها الإدريسي والمعروفة في تلك الحقبة الزمنية، إضافة إلى الحديث عن القوافل التجارية والمسافات بين أهم الحواضر، وذكر مختلف السلع المتبادلة، إستفدت منه في الحديث عن الحياة الإقتصادية للجزائر وعن الطرق التجارية.

كما استفدتُ كثيرا من مصادر أخرى مثل **الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسماة ماء الموائد**، لأبي العباس عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، تحقيق وتخرّيج وتعليق: الشيخ أحمد فريد المزيدي، المجلد 1، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011م. و**تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي المعروف بابن بطوطة المولود سنة (703هـ/1403م)، في جزأين، تحقيق وتقديم وتعليق: علي المنتصر الكتاني، نشر مؤسسة الرسالة، ط4، بيروت، لبنان، 1405هـ/1985م.

2- المصادر المعربة:

- كتاب **وصف إفريقيا**، للحسن بن محمد الفاسي الوزان المعروف بليون الإفريقي، الجزء الأول و الثاني، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط 2، بيروت، لبنان، 1983م. يُعتبر من أهم الكتب التي كتبت عن إفريقيا في القرن السادس عشر الميلادي، وهو بمثابة موسوعة تاريخية وجغرافية، أورد فيه معلومات وافية عن مدن وحوضر بلاد المغرب ووحدات الصحراء وبلاد السودان، وتكمن أهميته في مشاهدة الوزان لمعظم ما ورد في كتابه حيث قام بثلاث رحلات إلى بلاد السودان، منها رحلة إلى مملكة سنغاي سنة (917هـ/1551م)، إستفدتُ منه في الحصول على بعض المعلومات عن الأسواق، والمعاملات التجارية، والمواد التي كان يقبل عليها الناس، وبعض الأسعار، وكيفية التعامل بين التجار، والذهب وكثرته وأهميته في بلاد السودان، وبعض الأخبار عن الرحلة و المسالك.

ج- المصادر الأجنبية:

هي عديدة ومتنوعة خاصة باللغة الفرنسية، بحكم اهتمام الفرنسيين بكل ما يقع في الجزائر، وبتجارة القوافل الصحراوية، واستحالة ترجمة نصوص من لغات أخرى، منها :

- كتاب ديغو دي هايدو ، **Diego de Haedo: Topographie et Histoire générale d'Alger, Espagne, 1612.** وكان قد زار الجزائر في بداية القرن التاسع عشر، وترك لنا وصفا لكثير من الأوضاع في العديد من مناطق الجزائر. - كتاب الرحالة الألماني جيرهارد رولفس

Gerhard Rohlfs: **Voyage et exploration au sahara**, tome1, Draa-Tafilelt-sud Oranais –Touat-Tidikelt– Rhadames

Paris,2001) (1861-1864) حيث قدم فيه وصفا دقيقا لرحلاته المتعددة إلى درعة،

وتافيلالت بالمغرب الأقصى، والجنوب الوهراني، وإقليم توات، وتيديكلت بالجزائر، وغدامس بليبيا، في الفترة الممتدة من 1861 إلى 1864م. واصفا المناطق التي زارها من حيث التضاريس والسكان وعاداتهم بدقة متناهية، مع ذكر القوافل التجارية ونظامها والمسالك التي تتبعها في تنقلاتها.

د- المراجع العربية والأجنبية:

1 - المراجع العربية الحديثة:

- كتاب ناصر الدين سعيدوني **النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-**

1830م)، نشر: م.و.ك، ط 2، الجزائر، 1985م. تستعرض هذه الدراسة جوانب متعددة تتعلق

بالإقتصاد الجزائري، كما أرفقت بمعطيات وإحصائيات مالية دقيقة، تخص مداخيل الدولة، العملة، الصناعة، الزراعة، التجارة...

- كتاب مروش المنور **دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخيل** ،

ج1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009. ويعتبر صاحب هذا الكتاب من أهم الباحثين في التاريخ

الإقتصادي للجزائر في العهد العثماني، وقد تناول في هذه الدراسة، قضايا متعددة تخص الشأن

الإقتصادي، مثل تطور حركة الأسعار والمداخيل والنظام المالي...

- كتاب محمد العربي الزبيري **التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين (1792-**

1830م)، نشر: م.و.ك، ط 2، الجزائر، 1984م. الذي يعتبر كتاب مرجعي في الموضوع، إذ

يتحدث عن الأوضاع السياسية والإجتماعية والإقتصادية بالجزائر في الفترة المدروسة، كما يتحدث عن

العلاقات التجارية الخارجية للشرق الجزائري مع كل من تونس وليبيا والمشرق وإفريقيا جنوب الصحراء

وأوروبا، وتحكم اليهود في التجارة الخارجية للجزائر في العهد العثماني.

2- المراجع الأجنبية: وهي كثيرة ومتعددة، نذكر منها الكتب التالية:

- كتاب رونيه بوتيه، **Renné Pottier: Histoire du Sahara**, éditions

Alger livres, Alger, 2013. الذي استفدت منه كثيرا في معرفة تاريخ الصحراء الجزائرية

وسكانها منذ القديم إلى قدوم الفرنسيين، وكذا مختلف البعثات الإستكشافية الأوروبية والفرنسية إلى

الجنوب، ثم التوغل الفرنسي العسكري وبسط نفوذه في الواحات الصحراوية مع نهاية القرن التاسع

عشر الميلادي.

- كتاب دينيس بيلي، **Pillet : Repers pour l'histoire de Ouargla**، Denys 1872-1992, Ouargla, Algeria, 1993. الذي هو عبارة عن كرونولوجيا أحداث، يروي أهم المحطات في تاريخ ورقلة منذ العصور القديمة إلى الفترة المعاصرة، يحتوي على معلومات مهمة عن تاريخ ورقلة، وقد استفدنا منه في التعرف على حركة بعض القوافل التجارية العابرة للصحراء.

- دراسة البارون هنري أوكايتن، **Aucapitaine : Etude sur la caravane de la Mecque et le commerce de l'interieur de** Henri 1857-1867), France, juillet 1861. وفيه يقدم الكاتب وصفا جيدا لركب الحجيج إلى البقاع المقدسة، والمسالك التي تتبعها في الصحراء، وأهم المحطات التي تستريح فيها، إضافة إلى الصعوبات والمخاطر التي تعترض القوافل في ذلك العهد

- كتاب العقيد الفرنسي كروزيت، **Crouzet : Tidikelt - Touat - Gourara**، Librairie Militaire de L Boudin, Paris, 1893، يعتبر هذا الكتاب فريد من نوعه مقارنة بما كتبه الفرنسيون عن الجزائر، فالكاتب رغم كونه عسكريا فرنسيا، إلا أنه يقدم نظرة مختلفة كلياً عن السياسة الفرنسية في الجزائر، حيث يكشف مخططاتها والأخطاء التي وقعت فيها، خاصة في المناطق الصحراوية، كما ينتقد المشاريع الإستعمارية التي لا تخدم مصالح السكان الأصليين.

هـ - الرسائل والأطروحات والمقالات:

أما الرسائل والأطروحات الجامعية والمقالات في الدوريات فهي كثيرة ومتنوعة، وقد غطت جوانب مختلفة من الدراسة، لا يمكن حصرها في هذا الحيز المحدود، وكانت الإستفادة منها متفاوتة، وقد أوردتها في قائمة البيبليوغرافيا.

8 . أهم الصعوبات التي اعترضتني أثناء الدراسة:

لقد اعترضني عدة صعوبات في إنجاز هذه الدراسة، أولها صعوبة التنقل لجمع المادة العلمية من مصادرها المتفرقة والبعيدة بسبب الأحداث المؤلمة والمؤسفة التي مر بها وادي مزاب عامة وغرداية خاصة في السنتين الأخيرتين، والتي كان من ورائها يد الإجرام وأعداء الدين والحضارة والإنسانية. وكذا إستحالة السفر إلى الدول الإفريقية جنوب الصحراء للإطلاع على ما كتبه الأفاقة أنفسهم عن العلاقات التجارية، بسبب تدهور الوضع الأمني هناك في السنين الأخيرة، كما أنه رغم طول الإطار

الزماني للدراسة إلا أن هناك انعدام شبه كلي لمصادر القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين حول الموضوع.

يضاف إلى ذلك تداخل الموضوع وتشابكه وتشعبه، مما صعب عليّ وضع خطة محكمة، ربما لقصر تجربتي في المجال. إضافة إلى عامل ضيق الوقت الذي زاحمني مع كثرة الأعمال والواجبات العائلية.

ورغم الجهود الذي بذلته في إنجاز هذه الدراسة، لكنه مازال في نظري قابلاً للتوسع، خاصة إذا تم العثور على مصادر أخرى لم تكتشف بعد، أو لم نصل إليها لسبب من الأسباب. وفي الختام أشكر الله العليّ القدير على أن وفقني إلى إنهاء هذا العمل، وتقديمه على الشكل الذي هو عليه. وما توفيقني إلا بالله عليه توكلتُ وإليه أنيب.

بالحاج أوزايد

تغردايت

2015/12/31م

الفصل الأول

المجال والإنسان

أولاً: الإطار الجغرافي والبشري للجزائر

ثانياً: لمحة عن الأوضاع بالجزائر وعلاقتها السياسية مع دول الجوار في العهد العثماني

ثالثاً: الإطار الجغرافي والبشري لإفريقيا جنوب الصحراء

رابعاً: لمحة عن الأوضاع السياسية في إفريقيا جنوب الصحراء

خامساً: الجذور التاريخية للعلاقات التجارية بين الإقليمين.

الفصل الأول

المجال والإنسان

أولاً: الإطار الجغرافي والبشري للجزائر

أ. الإطار الجغرافي:

1. أصل التسمية:

الجزائر إسم لمدينة عظيمة على البحر المتوسط، كانت تُعرف في القديم باسم إكوزيوم (Icosium)⁽¹⁾، ثم بعد الفتح الإسلامي أصبحت تُدعى بـ"المغرب الأوسط" إلى سنة 1500م، حين تدخل الأتراك العثمانيون في أمرها، استجابة لطلب أهلها، وساعدوا على إنقاذها من السقوط تحت ضربات الإسبان، بعد أن انتهى أمر الأندلس⁽²⁾.

فأخذ الأتراك العثمانيون وأهل البلاد يعمرّون تلك المدينة، وينشؤون بها الدور والقصور، إلى أن تضخمت وأصبحت من أكبر المدن الإفريقية، وصارت تدعى باختصار "مدينة الجزائر"، ثم أُطلق اسمها على كامل البلاد المترامية الأطراف التي تدين بحكمها، وهكذا نشأت في مستهل القرن 10هـ/16م، بلاد الجزائر الحديثة⁽³⁾.

2. الموقع الفلكي والجغرافي:

تقع الجزائر في القسم الشمالي من القارة الإفريقية، بين خطي طول 9° غرباً و12° شرقاً، وبين دائرتي عرض 18° و38° شمالاً، أي في إقليم مناخ البحر الأبيض المتوسط، وتظهر تلك الإحداثيات، مدى اتساع الجزائر، إذ يتراوح امتدادها من الشرق إلى الغرب ومن الشمال إلى الجنوب، ما بين 1200 و1500 كلم ومساحة تقدر بـ2381741 كلم².

إن من يتأمل في الخريطة الجغرافية للجزائر، يتبيّن له أن الجزائر تعدّ من الدول التي تتمتع بموقع استراتيجي هام، فهي تطلّ على البحر المتوسط من جهة الشمال، وتضرب في أعماق الصحراء من الجنوب، وتحتضنها من جهتي الشرق والغرب بقية الدول المغاربية، مما جعلها همزة وصل بين القارتين

1، م.و.ك، الجزائر، ودار

(¹) مبارك بن محمد المليبي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح: محمد المليبي، ج الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، د.ت.ن، ص45.

(²) أحمد توفيق المدني: هذه هي الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص23.

(³) المدني: نفسه، ص23.

الإفريقية والأوروبية، وقلب المغرب الكبير، وقد سمحت لها حدودها المشتركة مع عدد من الدول الإفريقية، بأن تكون معبرا رئيسيا نحو كل الإتجاهات؛ وهذا الموقع ساعد الجزائر على أن تكون عبر العصور، محورا تتقاطع فيه الحضارات المختلفة. وهذا ما يُفسر التنوع البشري، والثراء الثقافي، الذي تنزخر به⁽¹⁾

3 . الحدود:

تتوسط الجزائر بلدان المغرب الكبير، وتقع شمال بلدان الساحل الإفريقي، بحدود إجمالية تقدر بـ6343 كم. فتحدها من الشرق: تونس (965 كلم)، وليبيا (982 كلم)، ومن الغرب: المغرب (1559 كلم)، والصحراء الغربية (42 كلم)، وموريطانيا (463 كلم)، ومن الجنوب الغربي: مالي (1376 كلم)، ومن الجنوب الشرقي: النيجر (956 كلم)، ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط.

4 . التضاريس:

يمكن القول بأن المظاهر التضاريسية في الجزائر لم تنشأ مرة واحدة، وهي مختلفة من حيث أنها تحمل طابع الجبال والأحواض والسهول والنجود والهضاب، ومتحدة من حيث أنها تمثل ظاهرة طبيعية لا يمكن الفصل بين أجزائها المتكاملة. والتضاريس في الجزائر لها مظهرين كبيرين هما: سلاسل جبلية في الشمال ومتقطعة تنحصر بين فكيتها أراض مرتفعة تسمى النجود. وفي الجنوب قاعدة عظيمة متسعة الأرجاء، فيها سهول تحتاتية وجبال بركانية وكتبان رملية وهضاب صخرية⁽²⁾.

كما يمكن تقسيم الجزائر إلى خمسة أقاليم تضاريسية متباينة هي من الشمال إلى الجنوب: إقليم الشواطئ، إقليم الأطلس التلي، إقليم النجود، إقليم جبال الأطلس الصحراوي، إقليم الصحراء.

4.1 - إقليم الشواطئ:

⁽¹⁾ أرزقي شويتام: المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في

التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور عمار بن خروف، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2005-2006م، ص12.

⁽²⁾ عبد القادر علي حليمي: جغرافية الجزائر، طبيعية- بشرية- اقتصادية، مطبعة الإنشاء، ط 2، دمشق، سوريا، 1968م،

ص32.

وهي المنطقة الفاصلة بين اليابس والماء، أو ما يسمى بسيف البحر. ويمتد الشاطئ الجزائري على شكل خط منحرج يبلغ طوله من غرب الغزوات حتى شرق القالة 1200 كلم تقريبا، وهي شواطئ صخرية صلبة تمتد على طول الساحل⁽¹⁾.

وتتخلل الشاطئ الجزائري ظاهرة الخلجان التي تشبه أنصاف الدوائر، مثل خليج وهران، وأرزويو، والجزائر، وبجاية، وسكيكدة، وعنابة. وكلها مفتوحة أمام الرياح الغربية وتيار البحر المتوسط القادم من جبل طارق. ولا تتعمق هذه الخلجان إلا قليلا داخل اليابس، ماعدا خليج بجاية الذي يعتبر أكبر خليج في الجزائر.

وإلى جانب الخلجان نجد ظاهرة الرؤوس المتعمقة داخل البحر، والمنتشرة من الغرب إلى الشرق على طول الساحل، ومن أهمها: رأس ملوية عند الحدود الجزائرية المغربية، ثم رأس فالكون غرب مرسى الكبير، وفرات وكربون بالقرب من أرزيو، وتنس والعموشي، والبرج البحري شرق مدينة الجزائر، والحديد، وبوقرعون، الحارس، وروزا وروكس بالقرب من الحدود الجزائرية التونسية⁽²⁾.

4.2 إقليم الأطلس التلي:

وينقسم إلى سهول وسلاسل جبلية ممتدة من الغرب إلى الشرق وموازية للساحل. أما السهول فمنها الساحلية المنخفضة والداخلية المرتفعة. وهي سهول متقطعة محصورة بين الجبال. وأشهر السهول الساحلية: سهل وهران، سهل متيجة، سهل عنابة، وهي سهول مشهورة بالغللال والخضر والبساتين والكروم. أما السهول الداخلية فهي للحبوب ومن أهمها: سهل تلمسان، سهل بلعباس، السرسو أوتيارت، عين بسام، قسنطينة. فكل هذه السهول الداخلية تقع على ارتفاع يزيد عن 500 متر، وهي أقرب إلى النجود منها إلى السهول⁽³⁾.

أما السلاسل الجبلية التلية، فهي تمتد من الغرب إلى الشرق بادية من جبال تلمسان بالحدود الجزائرية المغربية، ومنتهاية بجبال سوق أهراس بالحدود الجزائرية التونسية، ويمكن تقسيمها إلى كتل جبلية

⁽¹⁾ حليمي: المرجع السابق، ص35. وأيضا: المدني: المرجع السابق، ص24.

⁽²⁾ الميلبي: المرجع السابق، ص48.

⁽³⁾ شويتام: المرجع السابق، ص ص 19-20. وأيضا: dans la Thomas.Shaw :Voyage régence régence d'Alger au 18^{em} siècle, tradde l'anglais par E.Mac carthy(1830), Editions Grand Alger Livres, Alger, Algerie, 2007, pp34-35

غربية، وكتل جبلية شرقية، تفصل بينها جبال مليانة أو زكار، وهذا التقسيم على أساس النضج والتطور والإتساع⁽¹⁾.

فالكتل الجبلية الغربية تبدأ بجبال تلمسان، وهي الحد الفاصل بين جبال الريف بالمغرب وجبال الأطلس التلي بالجزائر، ويليهما إذا اتجهنا شرقا جبال تاسالا، ثم سعيدة، وفرندة، والونشريس، والظهرة، وزكار، وإلى الشرق من جبال زكار تبدأ الكتل الجبلية الشرقية، بداية بجبال البليدة أو الأطلس المتيجي، ثم جبل بوزقة، وجرجرة، والبابور، وإيدوغ، وإلى الجنوب نجد جبال التطري، والبيبان، وفرجيوة، وقسنطينة، وسوق أهراس أو مجردة⁽²⁾.

4.3 إقليم النجود أو الهضاب العليا:

ونقصد به المنطقة الممتدة من جبال التندارة غربا إلى منخفض الحضنة شرقا، حيث يتسع الأطلس التلي ويمتد إلى الجنوب ليلتقي مع الأطلس الصحراوي، وتمتد أراضي النجود في شكل طولي بين السلسلتين الأطلسيتين الشمالية والجنوبية، وهي أقل ارتفاعا منهما، تسير من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي على طول 700 كلم متبعة في ذلك الإتجاه العام لسلسلة الأطلس الصحراوي⁽³⁾. وتعرف الجهات الغربية للنجود أنها أكثر ارتفاعا واتساعا من الجهات الشرقية، فالمسافة بين الأطلس التلي والصحراوي في الجهة الغربية تزيد عن 150 كلم، بينما هي تقل عن 50 كلم في الجهة الشرقية، وما عدا بعض الجبال والإنكسارات التي تقطعه في شكل طولي من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي، فإن سطح أرض النجود يظهر في شكل انتفاخ واسع تتخلله روابي⁽⁴⁾.

4.4 إقليم الأطلس الصحراوي:

تمتد جبال الأطلس الصحراوي على طول 700 كلم من فقيق غربا حتى إقليم الزاب شرقا، و يعتبر اتجاهها من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي فاصل بين أراضي النجود في الشمال والكتلة الصحراوية القديمة في الجنوب، وهي حاجز للرمال الصحراوية، ولولاها لاكتسحت الرمال مناطق

(1) الميلي: المرجع السابق، ص 49.

(2) حليمي: المرجع السابق، ص 40 وما بعدها. وأيضا: الميلي: نفسه، ص 49.

(3) الميلي: نفسه، ص 53.

(4) حليمي: نفسه، ص 43-44.

النجود، وربما وصلت إلى ساحل البحر، كما هو الحال في الصحراء الليبية التي تصل رمالها في بعض الأجزاء حتى شاطئ البحر المتوسط⁽¹⁾.

وتتخلل جبال الأطلس الصحراوي ممرات ودروب تتبعها الأودية المنحدرة نحو الصحراء، وقد كانت هذه الدروب تمثل ممرات طبيعية للقوافل التجارية القادمة من الصحراء إلى إقليم التل أو العكس، كما نجد الطرق المعبدة الحالية والسكك الحديدية كثيرا ما تسلك هذه الممرات الطبيعية لتصل بين الشمال والجنوب أو بين إقليم التل وإقليم الصحراء. والأطلس الصحراوي في جملته أعلى من الأطلس التلي، أما الإنحدار العام في هذا الإقليم الجنوبي فهو من الغرب إلى الشرق كما يلي: جبال العين الصفراء، جبال عمور، جبال أولاد نايل، وهذا الإنحدار يأخذ في النقصان والجبال في الضمور، كلما اتجهنا شرقا حتى تكاد تختفي عند بسكرة التي تسمى عتبة الصحراء، أو الممر الطبيعي بين الشمال والجنوب، ثم بعد ذلك تظهر جبال الأوراس الشاخمة⁽²⁾.

4.5 - إقليم الصحراء:

تبلغ مساحة الصحراء الجزائرية حوالي 1987600 كلم²، وهي في تركيبها الجغرافي أبسط من المنطقة التالية، إذ لا يوجد بها الجبال المتقطعة، ولا المرتفعات المعقدة، ولا السهول الضيقة، ولكن بالصحراء نجد السهول التحاتية الواسعة، والأحواض المغلقة، والجبال الشديدة الإنحدار، والعروق الرملية المتنقلة. وهي تمتد خلف جبال الأطلس الصحراوي حيث نجد بالصحراء ثلاثة مظاهر تضاريسية متباينة، وهي الحمادة والرق والعرق. فالحمادة هضبة صخرية محترقة بوهج الشمس، حيث لا حياة لحيوان أو لنبات، من أهم الحمادات حمادة الذراع، حمادة القلاب، وحمادة تادمايت⁽³⁾.

أما الرق فهو سهل صخري أو حوض منخفض، ملأته السيول الجارفة بالرواسب الصخرية، وأخيرا العرق وهو سطح واسع الأطراف تغطيه كثبان رملية تشبه أمواج البحر، جاءت بها الرياح من الحمادة أو الرق، وتحتل العروق مساحة كبيرة من الصحراء الجزائرية وتوجد بها الحياة كلما وجد نبع ماء، فهناك الواحات الواسعة الغنية التي يضرب بنخيلها الأمثال. ولا تنزل الأمطار بهذا الإقليم

(1) الميلي: المرجع السابق، ص 49-50. وأيضا: حليمي: المرجع السابق، ص 45.

(2) حليمي: نفسه، ص 46-47.

(3) حليمي: نفسه، ص 48، 50. وأيضا شويتام: المرجع السابق، ص 19-20.

الصحراوي إلا نادرا جدا. وجوه حار صيفا حيث تصل حرارته نهارا إلى 70 درجة، وتنزل ليلا إلى درجة منخفضة جدا، أما في الشتاء فالبرد في الصحراء لا يطاق⁽¹⁾.

والصحراء الجزائرية هي جزء من الصحراء الكبرى⁽²⁾، وهي قليلة الارتفاع بوجه عام باستثناء جبالها البركانية التي يصل ارتفاع بعض قممها ثلاثة آلاف متر، والصحراء الجزائرية تمثل أكثر من 80 % من مساحة الجزائر الإجمالية⁽³⁾. وبهذا تكون بلاد مغامرة حقيقية، تمر بها طرق القوافل التجارية الكبرى نحو الجنوب، حيث تقع واحات مزاب، وتوات، وعين صالح، وغيرها. وبها بلاد الهقار التي يسكنها رجال التوارق المثلثين منذ القدم وتعتبر صحراء الجزائر من أكثر المناطق الصحراوية في العالم سخونة، يعيش فيها منذ القدم القبائل الرحل وهم يعتبرون الصحراء مقرا لهم⁽⁴⁾.

وللتضاريس تأثير في توزيع السكان، وطبيعة نشاطهم، ونمط معيشتهم، وسلوكهم، وعلاقاتهم، وغيرها من الجوانب، وقد كان لشساعة الجزائر وتنوع تضاريسها، أثر وانعكاسات مباشرة على توزيع السكان، ونشاطهم الإقتصادي⁽⁵⁾.

5. المناخ:

مناخ الجزائر مثل مناخ بلدان شمال إفريقيا، فهو مناخ متوسطي، ممطر وبارد في فصل الشتاء في الشمال، وحار وجاف في فصل الصيف. أما في الجنوب فالمناخ مختلف، إنه مداري وجاف وفيه تفاوت كبير في درجات الحرارة، خاصة في الصحراء الكبرى⁽⁶⁾.

لقد كان للتضاريس واتجاهها دور في تحديد الأقاليم المناخية، ونسبة تساقط الأمطار. فكانت الأمطار أكثر غزارة في المنطقة الشمالية، ولا سيما في الجهة الشرقية من البلاد. وتقل كميتها كلما اتجهنا نحو الجنوب. وقد حالت سلسلة جبال الأطلس التلي دون تسرب المؤثرات المناخية الرطبة الساحلية إلى السهول الداخلية، عكس سلسلة جبال الأطلس الصحراوي، الذي تتخلله منخفضات

⁽¹⁾ المدني: المرجع السابق، ص 29.

⁽²⁾ الصحراء الكبرى: هي صحراء تحتل الجزء الأكبر من شمال إفريقيا، وهي أكبر الصحارى الحارة في العالم بمساحة تفوق التسعة ملايين كلم². لمزيد من المعلومات، أنظر: مقالة بعنوان: "الصحراء الكبرى"،

موقع: <http://ar.wikipedia.org/wiki/>، الزيارة لهذا الموقع كاتيوم 2015/06/29، الساعة 12:20.

⁽³⁾ حلیم ميشال حداد: قصة وتاريخ الحضارات العربية، منشورات كريس، بيروت، لبنان، 1998-1999م، ص 105.

⁽⁴⁾ المدني: المرجع نفسه، ص 29-30.

⁽⁵⁾ شويتام: المرجع السابق، ص 19-20.

⁽⁶⁾ حداد: المرجع نفسه، ص 105.

واسعة، مما كان يسمح للمؤثرات المناخية الصحراوية بالتسرب إلى السهول الداخلية. وهذا ما جعل المناخ يتميز بالرطوبة، وغزارة الأمطار وتساقط الثلوج في المنطقة الشمالية، وشبه الجاف في المنطقة الداخلية، والجاف في المنطقة الصحراوية⁽¹⁾.

وقد أدى تنوع المناخ إلى تعرض البلاد في بعض الفترات إلى كوارث طبيعية، كالفيضانات، والجفاف، مما كان يتسبب في القحط وانتشار المجاعات. وغالبا ما كانت تلك الكوارث، سببا في قلة الأوقات، واضطراب أحوال السوق، والهجرة الجماعية للسكان نحو المدن، وانتشار الأوبئة، وهلاك عدد كبير من السكان. ولهذا يمكن القول أن المناخ يعد من العوامل الأساسية في التنمية الاقتصادية والبشرية.

ما يمكن استخلاصه من هذا العرض، هو أن الجزائر لم تستفد من موقعها الجغرافي، بل كان من عوامل ضعفها، إذ انشغل الحكام طوال العهد العثماني بخوض الحروب مع جيرانهم، مما استنزف قدرات البلاد المادية والبشرية. كانت قضية الحدود من العوامل التي حالت دون تحقيق الوحدة الإقليمية بين الأقطار المغاربية، وقيامها بعمل جماعي للوقوف في وجه الأطماع الخارجية. إن تنوع تضاريس الجزائر، قد ساعد بعض القبائل الجبلية والصحراوية على التمتع بالإستقلال النسبي، عكس القبائل السهلية التي جعلها موقعها تكون خاضعة للإدارة العثمانية. إلا أن العوامل الطبيعية نفسها قد أرغمت بعض القبائل الممتنعة على الإعتراف بسيادة الإدارة عليها⁽²⁾

ب. الإطار البشري:

كان للموقع الجغرافي المهم للجزائر أثر في أنها تمثل إحدى المحطات التي توافدت عليها الأجناس من جهات مختلفة. وعرفت هذه الظاهرة انتشارا واسعا في العهد العثماني (مطلع القرن 10هـ/16م- بداية القرن 13هـ/19م)، إذ استقطبت الجزائر عددا من الوافدين من المشرق، وأوروبا، وإفريقيا للإقامة الدائمة بها، أو لفترة مؤقتة⁽³⁾.

1. سكان السهول:

تقيم في المناطق السهلية القبائل المتحالفة والخاضعة للسلطة المركزية العثمانية. وكان نشاطها يعتمد أساسا على الزراعة، وتربية الحيوانات. وقد ساعد موقعها السهل، وقربها من مراكز السلطة، المتمثلة في

⁽¹⁾ شويتام: المرجع السابق، ص22.

⁽²⁾ شويتام: نفسه، ص 23. وأيضا: حليمي، المرجع السابق، ص ص71-72.

⁽³⁾ شويتام: نفسه، ص12.

المدن، والحاميات العسكرية، والأبراج، على أن تكون تحت المراقبة المباشرة للإدارة العثمانية، التي كانت تشرف بنفسها على استغلال الأراضي، وجباية الضرائب، معتمدة على هذه القبائل.

2. سكان الجبال:

كانت تقطن في المناطق الجبلية، مثل الأوراس، والبابور، والبييان، وجرجرة، والونشريس، مجموعة من القبائل التي كان يتركز نشاطها على الإقتصاد المعاشي. وقد ساعدها موقعها الجغرافي، الذي يتميز بالمرتفعات الوعرة، وطذا قساوة مناخها في فصل الشتاء، على أن تتمتع بنوع من الإستقلال، وأن تقف في وجه الإدارة العثمانية، وأن تتصدى للحملة العسكرية التي كانت تشنها ضدها من حين لآخر وكان لعامل التضاريس دور حاسم في تحديد طبيعة العلاقات بين سكان تلك المناطق والإدارة العثمانية⁽¹⁾.

3. سكان الصحراء:

يقيم في المناطق الجنوبية عدد من القبائل، التي يعتمد نشاطها الرئيسي على حرفة الرعي. وقد ساعدها بعدها عن مواقع السلطة، واتساع مساحة مواطنها، ودرجة الحرارة المرتفعة في معظم فصول السنة، على أن لا تعترف بسيادة الإدارة العثمانية. إلا أن ندرة المياه، والمراعي، والأراضي الزراعية في المناطق الجنوبية، كانت من العوامل التي تسبب في اندلاع الحروب بين مختلف القبائل. وهذا ما جعل بعض القبائل تستنجد بالقوات العثمانية، للظفر ببعض المواقع في الصحراء، وبلقب المشيخة، مقابل تقديم خدمات للإدارة العثمانية، كتزويد محلات جمع الضرائب بالفرسان.

وقد أرغمت الظروف الطبيعية القبائل الصحراوية على التنقل في مواسم معينة إلى المناطق التلية، باحثة عن المراعي لمواشيها، وعن الأسواق لاقتناء الحبوب، وبيع إنتاجها. فكانت القبائل التي تتوافد على الأسواق مطالبة بدفع ضريبة العسة، وضريبة حق العبور لممثل الإدارة العثمانية في تلك الجهة. فمثلا فكانت تفرض على قبائل أولاد نايل المقيمة بالجلفة، وبوسعادة، وبسكرة، التي تتردد على سهول قسنطينة وأسواقها ضريبة تدفعها للإدارة في أواخر العهد العثماني قيمتها مائة ألف فرنك⁽²⁾.

⁽¹⁾ شويتام: المرجع السابق، ص 20.

⁽²⁾ شويتام: المرجع السابق، ص 21-22.

ثانيا: لمحة عن الأوضاع بالجزائر وعلاقتها السياسية مع دول الجوار في العهد العثماني

لقد نتج عن صراع القرن السادس عشر الميلادي بين القوى المسيحية بزعامة اسبانيا الكاثوليكية، وبين القوى الإسلامية بزعامة الدولة العثمانية، امتداد النفوذ العثماني إلى غرب المتوسط. وإعطاء صورة واضحة عن العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء في الفترة المدروسة، نلقي الضوء على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت سائدة آنذاك، باعتبارها تمهيدا ومدخلا للموضوع المدروس⁽¹⁾.

أ. الأوضاع السياسية:

إن موقع الجزائر المطل من الناحية الشمالية على البحر المتوسط، قد جعل حكامها طوال فترة حكمهم في حالة تأهب دائمة للتصدي للهجمات الأوروبية، التي كانت تهدف إلى احتلال الجزائر. كما أنهم كانوا مضطرين إلى مواجهة العراقل التي اعترضت تجارتها الخارجية، والصمود في وجه المنافسة التجارية الشرسة التي فرضتها عليها الدول الأوروبية. وما يمكن قوله أن الجزائر قد تضررت كثيرا من موقعها، إذ كلفها خسائر مادية وبشرية معتبرة. وكان ذلك على حساب تنميتها واستقرارها السياسي⁽²⁾.

وكانت الجزائر تتمتع بوضع دولي خاص، يتجاوب مع سياسة الأتراك العثمانيين العامة تجاه البلدان التي دخلت تحت حكمهم، والتي تتصف بعدم التدخل في الحياة الخاصة لهذه الاقطار الخاضعة، مما يجعل الحكم التركي ظاهريا أكثر منه حقيقيا لا سيما في المناطق النائية، حيث يتضاءل تدخل السلطة المركزية. وأمام هذا الوضع أصبحت الجزائر شبه جمهورية عسكرية لا يربطها بالدولة العثمانية سوى رباط ديني ووازع أدبي، فحكماها - خاصة في عهد الدايات - كانوا يتعاملون مباشرة بالدول الأوروبية دون الرجوع إلى السلطان العثماني بالقسطنطينية⁽³⁾.

ولقد مر الحكم العثماني بالجزائر بأربع مراحل أساسية، أولها مرحلة البيلبايات (1518-1588م)، وابتدأت بحكم خير الدين بربوس، وانتهت بمغادرة علق علي الجزائر عام 1587م، لتبدأ مرحلة الباشوات (1588-1659م) الذين حددت فترة حكم كل واحد منهم بثلاث سنوات، والتي

(1) ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830م)، م.و.ك، ط2، الجزائر،

(1) ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني

1985م، ص 21.

(2) شويتام: المرجع نفسه، ص 13.

(3) سعيدوني: المرجع نفسه، ص ص 21-22.

امتازت بكثرة الإضطرابات والفوضى، مما ساعد الأوغوات، وهم قادة الجيش، من الإستيلاء على الحكم تدريجيا عن طريق مجلس الأوجاق الذي يرأسه عادة أحد الأوغوات، وبذلك ابتدأت المرحلة الثالثة وهي مرحلة الأوغوات (1659-1671) القصيرة المملوءة بالفتن واغتيالات الحكام نتيجة عجز هؤلاء عن توفير الإستقرار الداخلي والوقوف أمام قوة الرياس المتزايدة. أما المرحلة الرابعة والأخيرة لنظام الحكم العثماني بالجزائر فهي مرحلة الدايات (1671-1830م)، الذين طبقوا نظاما حكوميا شبيها بالحكم الجمهوري الحديث، يمارس فيه الدايا سلطة شبه مطلقة في مجال جمع الضرائب وحفظ الأمن الداخلي⁽¹⁾.

لقد كان حكام الجزائر يعتمدون في تسيير أمور الدولة على مجموعة من الموظفين السامين هم: الخزناسي⁽²⁾، وبيت المالجي⁽³⁾، وخوججة الخيل⁽⁴⁾، وآغا العرب⁽⁵⁾، ووكيل الحرج⁽⁶⁾. ويخضع لأوامر هؤلاء الموظفين السامين الخمسة، مجموعة كبيرة من الموظفين الثانويين مثل كتاب الدولة أو الخوججات، وموظفي الخدمات الإجتماعية والإقتصادية، ورجال الأمن وغيرهم⁽⁷⁾. أما إداريا فقد قُسمت الجزائر إلى أربع مقاطعات أو بيلكات تخضع لنظام لا مركزي⁽⁸⁾ وهي:

1. دار السلطان:

هي مقاطعة إدارية تشمل العاصمة وضواحيها، تمتد من دلس شرقا إلى شرشال غربا، يحدها جنوبا بايلك التيطري، وشمالا البحر المتوسط، تضم مقر الحكم (الوالي والديوان). تنقسم إلى أوطان يحكمها

⁽¹⁾ سعيدوني: المرجع السابق، ص ص 23-24 .

⁽²⁾ الخزناسي: هو المشرف على الخزينة.

⁽³⁾ بيت المالجي: المتصرف في الأملاك والثروات التي تؤول إلى الدولة بعد موت أصحابها أو فقدهم فيما انعدم ورثة شرعيون من إخوة وأبناء.

⁽⁴⁾ خوججة الخيل: هو الموظف الذي يدير أملاك البايك ويشرف على مواشي الدولة المأخوذة من الأهالي، فهو بهذه الصفة يضمن لموظفي الدولة التزود بالمواد الغذائية الضرورية ويسهر على تجنيد الفرسان ويقود أحيانا الفرق العسكرية لتأديب الثائرين.

⁽⁵⁾ آغا العرب: هو قائد فرق الإنكشارية والصبانجية المعسكرة خارج مدينة الجزائر، مما خول له مراقبة إقليم دار السلطان والسهر على توطيد الأمن في أنحاء الجزائر عن طريق قمع الثورات وتجريد الحملات.

⁽⁶⁾ وكيل الحرج: وهو المكلف بمراقبة النشاط البحري وأعمال الترسانة البحرية، وتهيئة عتاد الحرب وتوزيع غنائم البحر، وقد يشمل نشاطه أحيانا الشؤون الخارجية.

⁽⁷⁾ سعيدوني: المرجع نفسه، ص ص 27-28 .

⁽⁸⁾ شاهد خريطة المواصلات والتقسيم الإداري للجزائر في القرن 19م في الملحق رقم (7).

قواد تحت إشراف آغا العرب قائد الجيش، وكل وطن مكون من دواوير يسكنها الأهالي، ومن أحواش يملكها موظفو السلطة والإنكشارية والمرابطون وبعض الأثرياء الجزائريين⁽¹⁾.

2. ايلك الشرق:

عاصمته قسنطينة، وهو أكبر البايلكات مساحة وسكانا، يمتد من الحدود التونسية شرقا إلى بلاد القبائل الكبرى غربا، ومن الصحراء الكبرى جنوبا إلى المتوسط شمالا، يتميز بانعدام نفوذ الأتراك فيه قياسا ببقية البايلكات⁽²⁾.

3. بايلك الغرب:

عاصمته مازونة، ثم معسكر، ثم وهران بعد تحريرها عام 1792م من الإسبان، يمتد من الحدود المغربية غربا إلى بايلك التيطري شرقا، ومن المتوسط شمالا إلى الصحراء الكبرى جنوبا، كانت له صبغة حربية بسبب توتر العلاقات بين الجزائريين والمغاربة، وانتفاضات درقاوة، وطول مدة بقاء الإسبان بوهران⁽³⁾.

4. بايلك التيطري:

عاصمته المدية وهو أصغر البايلكات وأفقرها وأكثرها ارتباطا بالسلطة المركزية، يمتد من سهل متيجة شمالا إلى الصحراء الكبرى جنوبا، وبين حدود البايلكات شرقا وغربا. ومما يلاحظ على هذا التقسيم الإداري، أن حدود الجزائر جنوبا كانت غير واضحة، كما أن الأراضي الخاضعة مباشرة للسلطة الحاكمة لم تكن تتعدى سدس مساحة الجزائر الحالية حسب المعلومات التي أثبتتها بعض الكتاب الفرنسيين⁽⁴⁾.

ب. الأوضاع الاقتصادية:

لقد تميزت الساحة الاقتصادية بالجزائر أوائل القرن السادس عشر الميلادي بعدم الاستقرار، وذلك راجع إلى الإضطرابات التي شهدتها البلاد آنذاك، ويبدو أن الوضع بالنسبة للدولة الزيانية المسيطرة على البلاد تقريبا، لم يصل إلى حد الإنهيار الذي يسبب المجاعات، أو الإستقرار الذي يؤدي إلى الرقي

⁽¹⁾ الميلي: المرجع السابق، ص295. وأيضا سعيدوني: المرجع السابق، ص29. والمدني، المرجع السابق، ص67.

⁽²⁾ سعيدوني: المرجع نفسه، ص29.

⁽³⁾ الميلي: المرجع نفسه، ص ص297-298. وأيضا سعيدوني: نفسه، ص29.

⁽⁴⁾ سعيدوني: نفسه، ص ص29-30. وأيضا الميلي: نفسه، ص ص295-296.

والتقدم في المجال الإقتصادي، وهي الحالة التي وجدها الإخوة بربوس عند بداية تشكيلهم لصرح الدولة الجزائرية الحديثة التي معها بدأ النمو التدريجي في الحياة الإقتصادية⁽¹⁾.

كما عرفت بعض المدن الجزائرية، كقسنطينة، والجزائر، وتلمسان، ومستغانم، وندرومة، وشرشال في بداية العهد العثماني تطورا ملحوظا شمل مختلف القطاعات الإقتصادية، خاصة بعد أن هاجر إليها المسلمون واليهود من الأندلس⁽²⁾.

فقد كان يبلغ عدد حوانيت مدينة الجزائر ألفي حانوت في القرنين 16 و17م. ولأهمية البضائع والسلع الموجودة داخلها، كان يخصص لها حراس⁽³⁾ طول الليل، يقيمون أمام الحوانيت والمخازن⁽⁴⁾. ويمكن إبراز الخطوط العريضة لاقتصاد الجزائر العثمانية بالتعرض للنشاطات الإقتصادية الرئيسية من زراعة وصناعة وتجارة.

1. الزراعة:

كانت الزراعة هي المورد الرئيسي التي تؤمن معيشة السكان في الجزائر، وقد اختصت كل منطقة بالإيالة بإنتاج نوع من المحاصيل حسب ظروفها الطبيعية والمناخية.

فالحبوب اشتهرت بها نواحي غريس ووهران ومجانة وقسنطينة، وكانت تعتبر محصولا رئيسيا معدا للإستهلاك الداخلي والتصدير الخارجي. بينما ارتبطت زراعة الأشجار المثمرة بالمناطق الجبلية والمدية، وازدهرت البساتين بأراضي الفحوص المحيطة بالمدن الرئيسية كوهران ومعسكر وتلمسان والمدية ومليانة والبليدة والقليعة وعنابة وقسنطينة. ويضاف إلى إنتاج البساتين بعض المزروعات النادرة مثل القطن بنواحي مستغانم، والتبغ بالقرب من الجزائر وعنابة، والأرز بالأراضي المرورية بسهول الشلف وميلة⁽⁵⁾.

(1) سالم بوتراة: تاريخ شمال إفريقيا من خلال كتابات مارمول كرنخال والحسن الوزان، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في

التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور حنيفي هلايلي، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجليلي

ليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 1431-1432هـ/2010-2011م، ص110.

(2) أرزقي شويتام: نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800-1830م، دار الكتاب العربي للنشر والطباعة

والتوزيع والترجمة (DKA)، الجزائر، 2011م، ص81.

(3) كانت حراسة الأسواق في مدينة الجزائر تسند إلى الأهالي القادمين من بسكرة، والذين يبلغ عددهم 150 فردا. أنظر

أندري ريمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة،

مصر، 1991، ص183

(4) ريمون: نفسه، ص183، 180.

(5) سعيدي: المرجع السابق، ص31-32. وأيضا حنيفي هلايلي: أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار

الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1429هـ/2008م، ص153.

ورغم تنوع هذه المحاصيل فإن الفلاحة الجزائرية في أواخر الفترة التركية كانت تعاني عدة مشاكل وصعوبات عاقت تطورها وازدهارها. وتعود هذه الصعوبات إلى الأساليب العتيقة المتبعة في الري والآلات البدائية المستعملة في خدمة الأرض، مثل المحراث الخشبي والمنجل البدائي والفرشاة البسيطة. إضافة إلى الظروف الصعبة التي كان يعيشها الفلاح الجزائري الذي كان معرضا للحملات العسكرية، ومهددا من قبائل المخزن المسلحة، كما كان عرضة للأمراض والمجاعات التي كانت تجتاح البلاد بين الحين والآخر.⁽¹⁾

كل هذه المشاكل والصعوبات دفعت بكثير من الفلاحين إلى تفضيل تربية المواشي على الإستقرار في الأرض لخدمتها، أو الإلتجاء إلى الرعي المتنقل لا سيما في المناطق التي انعدم فيها الأمن. فقد شجعت السلطة العثمانية بالجزائر القبائل على استغلال الغابات، حيث أزيل قسم كبير منها في أوائل القرن التاسع عشر نتيجة انتشار الحياة الرعوية والإستغلال المفرط، فمنطقة الساحل المجاورة لمدينة الجزائر قطعت أشجارها سنة 1789م بأمر من الداوي لبناء خمسين سفينة.⁽²⁾

وقد عبر عن هذه الأوضاع التي كانت سائدة بالجزائر في الفترة الأخيرة من العهد العثماني العنتري القسنطيني، بقوله: "... لا تجد في ذلك الزمان ولا في الذي قبله وبعده من يهتم بأمر الزرع أبدا... وكانت الحراثة زمن الترك ضعيفة لم تتعلق بما أغراض الناس..."⁽³⁾.

2. الصناعة:

لقد ظل النشاط الصناعي بالجزائر في العهد العثماني متواضعا لا يتعدى الصناعات المحلية اليدوية وبعض الصناعات المعدنية التحويلية البسيطة. فالصناعات المحلية التي استمدت تقاليدها من الماضي السحيق⁽⁴⁾، تعتمد في نشاطها على إرضاء متطلبات أسواق المدن والأرياف من المصنوعات اليدوية مثل: الأغطية الصوفية والأحزمة الحمراء بتلمسان، والبرانس والزراي والحصر بالأطلس الصحراوي⁽⁵⁾، والفخار بندرومة، والأحذية والزراي بقلعة بني راشد، والأدوات الجلدية والأقمشة

⁽¹⁾ سعيدوني: نفسه، ص 33-34. وأيضا: هلايلي، نفسه، ص 152.

⁽²⁾ هلايلي: نفسه، ص 152. وأبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث (بداية الإحتلال)، نشر: ش.و.ن.ت، ط3، الجزائر، 1982م، ص 151-152.

⁽³⁾ محمد الصالح العنتري: سنين القحط والمسغبة بلد قسنطينة، نقلا عن هلايلي، نفسه، ص 156-157.

⁽⁴⁾ يرجع الفضل في المحافظة على هذه الصناعات المحلية المختلفة إلى بعض الأسر الأندلسية واليهودية، التي توارثت صناعتها وحافظت عليها من الزوال. أنظر سعيدوني: المرجع السابق، ص 34.

⁽⁵⁾ هلايلي، المرجع السابق، ص 157.

بمازونة، والأسلحة والفضة بمرجرة، ومعالجة الأصواف والجلود وصنع السروج والجواهر بقسنطينة⁽¹⁾، والشواشي والحلي والأحذية بمدينة الجزائر⁽²⁾.

وعكس هذا النشاط والحيوية التي عرفتها الصناعات اليدوية المحلية، فإن الصناعة المعدنية لم تشهد تطورا ملموسا لا من حيث الكم ولا الكيف، فهي لا تتعدى استخراج الملح من سبخا وهران، ومعالجة الجير المستخرج من المحاجر الموجودة قرب المدن، أو بناء الفن الخشبية بميناء الجزائر، أو تحضير البارود وسبك المدافع بقسنطينة والجزائر⁽³⁾.

لقد امتازت الصناعة الجزائرية في العهد العثماني بصفات وخصائص يمكن تلخيصها في النقاط الآتية:

- إعتمدت على الموارد الأولية المتوفرة كالأصواف، والجلود، والأخشاب

- خضعت في المدن لتحكم ومراقبة النقابات المهنية.

- أحرزت منافسة المصنوعات المستوردة المصنوعات الجزائرية، وقد ساعد على هذه المنافسة غلاء

أسعار المصنوعات الجزائرية، وعدم انتهاج الحكومة سياسة الحماية الجمركية، والعمل على تشجيع الإستيراد الخارجي.

ومع مرور الزمن تحولت الضرائب الكثيرة وتحكم النقابات المهنية في الصناع من أهم العوامل التي

أعاقت التطور الصناعي في الجزائر العثمانية، وحالت دون قيام صناعات حقيقية، إضافة إلى المنافسة الأجنبية وفتح باب الإستيراد الخارجي⁽⁴⁾

3. التجارة:

أما القطاع التجاري في الجزائر في العهد العثماني فعرف ركودا بسبب إهمال العلاقات التجارية

مع إفريقيا والدول الأوروبية، وذلك بسبب سيطرة القرصنة على الحياة الاقتصادية في الإيالة.

فأصبحت الجزائر أقل بلدان المغرب حضا في ميدان التجارة العالمية⁽⁵⁾. وقد كان العائق الأساسي الذي

الذي عرقل النشاط التجاري، هو الإحتكار الحكومي، فقد كان الديوان أكبر تاجر في الإيالة، فله

⁽¹⁾ اختص اليهود بصنع الجواهر الثمينة والأحجار الكريمة في مدن تلمسان والجزائر وقسنطينة، يجنون منها أرباحا وفيرة قد تصل فوائدها إلى 50%. أنظر سعيدوني: المرجع السابق، ص 35. وأيضا: هلايلي، المرجع نفسه، ص 157.

⁽²⁾ سعيدوني: المرجع نفسه، ص 34-35.

⁽³⁾ سعد الله: المرجع السابق، ص 153-154. وأيضا سعيدوني: المرجع نفسه، ص 35.

⁽⁴⁾ سعد الله: نفسه، ص 154-155. وهلايلي: المرجع نفسه، ص 158.

⁽⁵⁾ سعد الله: المرجع السابق، ص 155-156. وأيضا: هلايلي، المرجع السابق، ص 158.

الحق وحده في بيع الحبوب، فهو الذي يحدد السعر، ويحرم بيع المنتوجات للشركات الأجنبية إلا بفوائد تتراوح ما بين 50 إلى 60%.⁽¹⁾

إن احتكار الدولة للجانب الأكبر للتجارة الخارجية ليس معناه أن الحكومة كانت تتولى التجارة فعلا. فالإحتكار كان يخدمها في فرض الرسوم على الصادرات، وفي أخذ عائدات من التجار الأوروبيين واليهود ومن بعض الجزائريين القليلين، وهذا مقابل الإمتيازات الممنوحة لهم⁽²⁾.

فمثلا كان الشرق الجزائري في العهد العثماني يقيم علاقات تجارية هامة مع بلاد بلدان إفريقيا جنوب الصحراء التي تشمل في الوقت الراهن كلا من مالي، والنيجر، ونيجيريا، وأن ورقلة، وتقرت، والوادي، وقسنطينة هي أهم الأسواق التي تنطلق منها القوافل التجارية إلى أعماق إفريقيا⁽³⁾.

ويقدم الشويهد في "قانون أسواق مدينة الجزائر" صورة متكاملة للنشاط الإقتصادي بالجزائر وخاصة المبادلات التجارية منها في الفترة العثمانية التي سبقت الإنكماش الإقتصادي الذي عرفته الجزائر مع حلول القرن 12هـ/18م، هذا الإنكماش الذي يعود إلى ظروف محلية تتصل بالسياسة الجبائية للحكام، وتأثير الآفات الطبيعية⁽⁴⁾ التي أضرت كثيرا بالإقتصاد وحدث من نمو السكان وتطور الإنتاج. كما يرجع هذا الإنكماش الإقتصادي إلى أسباب خارجية تمثلت خاصة في تطور أوروبا في وقت ضعفت فيه البحرية الجزائرية، وتناقصت الغنائم، وزاد فيه ضغط الأساطيل الأوروبية، وتحكم الإحتكارات الأجنبية في المبادلات التجارية للجزائر⁽⁵⁾.

إن مداخيل الدولة الجزائرية في العهد العثماني في القرن الثامن عشر للميلاد كانت تعتمد أساسا على الضرائب التي تدفعها القبائل على القمح والجلود، وأثناء بيعها للأوروبيين، مقابل الأقمشة،

(1) هلابلي: المرجع نفسه، ص 158-159.

(2) عبد القادر جغلول: تاريخ الجزائر الحديث، دراسة سوسبولوجية، ترجمة: فيصل عباس، مراجعة: خليل أحمد خليل، دار للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1982م، ص52.

(3) محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830م، نشر: م.و.ك، ط2، الجزائر، 1984م، ص187.

(4) أصيبت الجزائر سنة 1184هـ/1770م بقحط شديد، ووقع الغلاء في القمح مدة ست سنوات، حتى صارت قيمة الصاع الجزائري (34 كيلو تقريبا) أربع بجة (الريال بجة ين 10 غرام فضة) وهو مقدار دورو ونصف إسبانية، والناس يموتون جوعا في الأسواق. أنظر: الحاج أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشرف الجزائر 1168-1246هـ/1754-1830م، تحقيق وتقدم وتعليق: أحمد توفيق المدني، ش.و.ن. ت، ط2، الجزائر، 1980م، ص31.

(5) الزهار: المصدر السابق، ص21.

والسكر، والأدوات الحديدية. لكن فوائد هذه التجارة كانت ترجع فقط إلى الموظفين الأتراك، ورجال الأعمال اليهود، والمؤسسات التجارية الأوروبية، بينما أبعد عنها الأهالي⁽¹⁾.

وفي عهد الداوي حسين (1818-1830م) وحسب رواية الرحالة الألماني مورتيس فاغنز، تحول قسم كبير من الأقاليم في الجزائر إلى صحراء كبيرة وتدهورت التجارة والزراعة، بسبب أعمال السلب التي أمر بها الداوي السابق علي باشا (1817-1818م)، وأضرار الطاعون⁽²⁾. فلم تعد محاصيل الحبوب والزيتون تكفي حاجيات البلاد، ووصلت واردات الجزائر من المواد الغذائية والألبسة إلى مليون قرش سنويا، أما صادرات الجزائر فكانت تتمثل في الصوف والشمع ومنتجات أخرى صغيرة⁽³⁾.

ج. الأوضاع الاجتماعية:

اختلفت المصادر الأجنبية والمحلية في تقدير عدد سكان الجزائر في أواخر العهد العثماني، فتشير بعض الدراسات إلى أن مجموع السكان لا يتجاوز مليون نسمة، بينما روايات أخرى ترفعه إلى عشرة ملايين نسمة⁽⁴⁾. والأكثر احتمالا أن عدد السكان حوالي ثلاثة ملايين ونصف مليون نسمة⁽⁵⁾.

ومن الواضح أن غالبية سكان الجزائر في هذه الفترة كانت تعيش في الأرياف، بينما يؤلف سكان المدن أقلية ضئيلة لا تتعدى 5% من مجموع السكان، ففي الناحية الغربية 7% أو 8%، وفي الناحية الوسطى تنخفض إلى 6%، بينما في الناحية الشرقية لا تتجاوز 3% من مجموع السكان⁽⁶⁾.

وإذا أخذنا مدينة الجزائر كنموذج للمدن الجزائرية في العهد العثماني فقد عرفت ازدهارا كبيرا وتوسعا عمرانيا مهما خاصة في القرنين 16 و 17م. حيث بلغ عدد سكانها قرابة ألف نسمة من أجناس مختلفة، بينهم الأتراك والأوروبيون الذين اعتنقوا الإسلام، وكان هؤلاء يشكلون نصف سكان

(1) cornevin, R.et M: Histiore de L' afrique des origines à nos jours, 2^{em} édition, payot, Paris, imprimerie Bussiere, saint- Amand, France 1966, p211

(2) أصاب الوباء الكبير الجزائر مدة عشر سنوات بداية من سنة 1201هـ/1787م، حتى وصل عدد الأموات أحيانا 500 جنازة كل يوم. أنظر: الزهار... المصدر السابق، ص51.

(3) أبو العيد دودو: الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان 1830-1855م، م.و.ك، الجزائر، 1989، ص75

(4) حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تق وتع وتح: محمد العربي الزبيدي، تصدير: عبد العزيز بوتفليقة، منشورات ANEP، طبع: م.و.ف.م، الجزائر، 2006م، ص13.

(5) هلايلي: المرجع السابق، ص162.

(6) هلايلي: المرجع السابق، ص161.

المدينة. أما النصف الثاني فكان مؤلفا من المهاجرين الأندلسيين، ومن أبناء القبائل العربية، ومن أبناء القبائل الأمازيغية القريبة من مدينة الجزائر⁽¹⁾.

والظاهر أن مدينة الجزائر في العهد العثماني كانت مدينة دولية فسكانها كانوا من مختلف الأجناس، بالإضافة إلى أهلها الأصليين، وكان فيها أيضا مختلف الأديان واللغات، وكانت مفتوحة للتيارات الخارجية⁽²⁾.

وقد كان المجتمع الجزائري في العهد العثماني مقسما إلى طبقتين متميزتين: الطبقة الحاكمة⁽³⁾ وأدواتها (من كراغلة ويهود وقبائل المخزن)⁽⁴⁾، والطبقة المحكومة وتمثلها الرعية⁽⁵⁾. ولا شك أن هذه النظرة التركبية نحو تقسيم المجتمع، قد تركت آثار سلبية أدت بالجزائري إلى عدم شعوره بالولاء للسلطة وازدياد إحساسه بالولاء للعشيرة والقبيلة، وهذا ما يفسر لنا ضالة التأثير التركي في الجزائر رغم مكوثه زهاء ثلاثة قرون⁽⁶⁾.

ويجب الملاحظة في هذا السياق أن الجزائر قد شهدت في القرن التاسع عشر ولسنوات متلاحقة موجة من فترات المجاعة والقحط، مما ترتب عنه فقدان الموارد الغذائية في الأسواق، وارتفاع أسعارها، حتى أصبح القمح يباع بأثمان مرتفعة⁽⁷⁾، فراح الناس يتغنون بهذا المحصول إذ يقول أحدهم:

القمح ياباهي اللون من شبعتك لا زيادة
أنت القوت كل مسكين بك الصلاة والعبادة⁽⁸⁾

(1) حداد: المرجع السابق، ص122.

(2) هلايلي: المرجع نفسه، ص176.

(3) الطبقة الحاكمة هي في أساسها خليط من مختلف الأجناس: أتراك، يونان، كورسيكيون، مالطيون، ألبان، ومرتدون(أعلاج) من بلدان أوروبية، وكان لهذه الطبقة في الجزائر جميع الإمتيازات السياسية والإقتصادية والإجتماعية . أنظر: هلايلي: المرجع نفسه، ص176.

(4) كانت هذه الفئات تحظى بعدد الإمتيازات، إما بسبب أصولها، أو نشاطها الإقتصادي، أو تعاونها مع السلطة الحاكمة. أنظر: هلايلي: نفسه، ص ص 177- 178 .

(5) قبائل الرعية: هم غالبية السكان الأصليين، وكانوا مهمشين مما أدى إلى القطيعة بينهم وبين الحكام الأتراك العثمانيين، تجلت في العديد من الثورات ذات الطابع السياسي. أنظر: هلايلي: نفسه، ص178.

(6) هلايلي: المرجع السابق، ص174. وأيضا: الزبيري، المرجع السابق، ص24.

(7) صاع القمح أصبح يباع في مدينة البليدة بسبع دنانير سنة 1794م، وفي مدينة الجزائر بأربع سلطاني، وصاع الشعير بثلاثة سلطاني. أنظر هلايلي: نفسه، ص164

(8) هلايلي: المرجع السابق، ص ص 163-164 .

فبعد تفاقم المجاعة في 1604 و1637م، قررت السلطات الجزائرية منع تصدير الحبوب⁽¹⁾، كما حدث نفس الشيء سنة 1800م حيث حدثت مجاعة بالبلاد اختفت فيها الأقوات من الأسواق حتى اضطر الداوي مصطفى باشا الإلتجاء إلى استيراد القمح من موانئ البحر الأسود لتوزيعه على السكان، وأعطيت الأوامر بعدم تصدير هذه المادة وتشديد الحراسة على مخازن الحبوب، وهذا ما أشار إليه حمدان خوجة⁽²⁾ بقوله: ". وفي سنة 1800م أصيبت الجزائر بمجاعة كبرى، ووقعت الحاجة إلى الأقوات، فأمر الداوي لتموين البلاد بالذهاب إلى موانئ البحر الأسود لشراء القمح، وقد بيع هذا القمح بثمانية وعشرين فرنكا للصاع الواحد، وعلى من ذلك كان لا بد من تنصيب الجنود عند باب كل مخزن..."⁽³⁾. وقد عرفت الجزائر في الفترة ما بين 1630 و1685م عدة مجاعات وأوبئة⁽⁴⁾ رهيبة، إنتشرت كالنار في الهشيم، فهذا الرحالة العياشي⁽⁵⁾ يصف انتشار الوباء في مدينة بسكرة عند عودته من الحجاز سنة 1060هـ/1650م قائلا: "...وكان وباء مفرطاً مات به في بسكرة على ما قيل لنا نحو من سبعين ألفاً نفس..."⁽⁶⁾، كما عرفت إضطرابات سياسية لم يسبق لها مثيل⁽⁷⁾. كان للوباء المنتشر في البلاد آثاره السيئة التي أخلت البلاد وأفنت العباد فكتب الزباني⁽⁸⁾ هذه الملاحظة عند خروجه من تلمسان سنة 1793م متجهاً نحو العاصمة: "...ثم بعد إقامتنا بها سنة

⁽¹⁾ المنور مروش: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخيل، ج 1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009م، ص401.

⁽²⁾ حمدان خوجة: هو أحد أعيان مدينة الجزائر أثناء الإحتلال الفرنسي للبلاد، كانت عائلته تملك أراضي شاسعة في سهول متيجة، وبنيات في العاصمة، كان أبوه فقيهاً وأميناً عاماً للإيالة (مكتابجي)، وكان ضليعاً باللغات الأجنبية، كما زار العديد من العواصم الأوروبية، ويعتبر من ألمع وجوه المقاومة السياسية الوطنية، غادر الجزائر سنة 1833م. أنظر: هلايلي: المرجع نفسه، ص161.

⁽³⁾ خوجة: المرجع السابق، ص122.

⁽⁴⁾ بسبب المجاعات انتشرت الأمراض والأوبئة في الجزائر في ذلك العهد، لجهل أغلبية السكان بأبسط القواعد الصحية، كما أن قلة الأدوية زادت الحالة الصحية سوءاً، فالجزائر كادت تخلوا من الصيدليات، ما عدا صيدلية واحدة بمدينة الجزائر، بالقرب من قصر الداوي، والتي لا تحتوي حسب الرحالة الألماني مارصبول (Marsiol) إلا على بعض الزجاجات والكؤوس الموجود بها بعض العقاقير والتوابل. أنظر: هلايلي: المرجع السابق، ص164.

⁽⁵⁾ أنظر خط سير رحلته في الملحق رقم(2).

⁽⁶⁾ مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979م، ص102.

⁽⁷⁾ مروش: المرجع السابق، ص399.

⁽⁸⁾ الزباني: رحلة مغربي عاش بين 1743 و1833م، زار الجزائر في أواخر القرن 18م، وأنهى كتابة رحلته سنة 1818م. أنظر: بلحميسي: المرجع نفسه، ص39.

ونصفها، خرجنا منها إلى مدينة الجزائر فرارا من الوباء الذي حل بها، وكان عاما في العمائر التي بينها وبين الجزائر، فما نزلنا منزلا إلا وجدنا أهله يدفنون موتاهم...⁽¹⁾.

ومن أهم الأوبئة وباء 1817م الذي دام ثلاث سنوات وعم جميع أنحاء البلاد، وحسب شهادة القنصل البريطاني بيربروجير (Berbrugger) فإن جماعات كثيرة من الأهالي في مدينة وهران كانت تموت في الشوارع⁽²⁾.

كما عرفت الجزائر أزمة حادة في سنة (1221هـ/1805م)، حيث توالى الأحداث بهذا الشكل: ضعف في المحاصيل، مجاعة، اضطرابات، مقتل الداى مصطفى باشا (1798-1805م) ووزرائه، تبعه إنقلاب عسكري وتصفية حسابات في قمة السلطة أدت إلى إنقلابات متوالية رافقتها ثورات شعبية ضد السلطة الحاكمة في الجزائر في عدة جهات من الجزائر⁽³⁾، هذه الأخيرة أثرت سلبا على الأوضاع الإجتماعية. حيث يصف الزياني تلك الأوضاع قائلا: "...وخبر ما مررنا به من الجزائر إلى قسنطينة من المدن فكله خراب غير مدينة بجاية..."⁽⁴⁾.

كما أصيبت الجزائر سنة 1230هـ/1814م بأفة الجراد، والذي يصفه الشريف الزهار قائلا: "... أوله أتى طائرا، ثم غرس وأقام أياما في الأرض ثم خرج وأكل الزرع والأشجار والثمار، ووقع الغلاء في تلك السنة..."⁽⁵⁾.

د. علاقات الجزائر السياسية مع دول الجوار:

1. مع المغرب الأقصى:

كانت إحدى أولويات العثمانيين بعد أن تمكنوا من مد نفوذهم إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، وضمهم لمصر والجزائر إلى الدولة العثمانية، في مطلع القرن 10هـ/16م، الدفاع عن مراكزهم من الخطر الإسباني والبرتغالي، وقد أدرك العثمانيون أن تحقيقهم لذلك الهدف، يتطلب منهم ضم المغرب الأقصى إلى ممتلكاتهم وجعله حدا فاصلا بينهم وبين أعدائهم الإسبان والبرتغاليين. ولهذا

⁽¹⁾ بلحميسي: نفسه، ص168.

⁽²⁾ هلايلي: المرجع نفسه، ص165.

⁽³⁾ مروش: المرجع السابق، صص400-401.

⁽⁴⁾ بلحميسي: المرجع السابق، ص183.

⁽⁵⁾ الزهار: المصدر السابق، ص117.

راح سلاطين آل عثمان بالتنسيق مع حكام الجزائر، يخططون للإستيلاء على المغرب الأقصى إلا أنه لبلوغ هذا الهدف كان عليهم في البداية إخضاع الناحية الغربية من الجزائر، ومد حكمهم إليها.

بعد أن تمكن العثمانيون من تثبيت حكمهم في تلمسان، وفي بعض المناطق في الجهة الغربية، شرعوا في إعداد العدة لضم المغرب الأقصى إلى حكمهم⁽¹⁾. وكان هذا الهدف يندرج ضمن الإستراتيجية التي رسمها سلاطين آل عثمان في البحر المتوسط . والواقع أن هناك عدة أسباب وراء إقبال العثمانيين على مد حكمهم إلى المغرب الأقصى، منها:

- منع سلاطين المغرب الأقصى من عقد تحالفات مع الإسبان والبرتغاليين ضدهم.
- إحباط مشاريع سلاطين المغرب الرامية إلى احتلال تلمسان وبعض أجزاء الجهة الغربية.
- تضيق الخناق على القبائل الجزائرية الحدودية، أمثال قبائل الأنجاد، التي كانت تتخذ من أراضي المغرب ملاذا لها في مواسم جمع الضرائب.
- منع المغرب من تقديم الدعم لبعض القبائل المتمردة، واحتضان حكامه لبعض المعارضين للوجود العثماني في الجزائر.

وقد أثبتت الأيام أن كل هذه التوقعات كانت حقيقة واقعية تم تجسيدها ميدانيا عبر المراحل المختلفة للوجود العثماني في الجزائر. فكان يغلب طابع الصراع والحروب على علاقات البلدين، طوال القرنين 10 و 11هـ/16 و 17م. فقد كان الحكام الجزائريون يتدخلون في شؤون المغرب الداخلية، كمساندتهم لبعض الأمراء، وتدعيمهم عسكريا، واحتضانهم للمعارضين وكان سلاطين المغرب من جهتهم يشنون حملات عسكرية على الناحية الغربية من الجزائر⁽²⁾.

وقد اتخذت بعض القبائل الحدودية أراضي المغرب ملجأ لها في مواسم جمع الضرائب وفي أوقات تمردها على السلطة، مما صعب من مهمة البايات في جمع الضرائب وضمان الإستقرار الداخلي⁽³⁾.

⁽¹⁾ شويتام: المجتمع الجزائري ...، المرجع السابق، ص 16. وكذلك Diego de Haedo : Histoire des rois d'Alger, trad de l'espagnol par Henrie.Delmas de Grammont, éd : GrandAlgerLivres,Alger,Algerie,2014,p123

⁽²⁾ للمزيد من التفاصيل عن العلاقات بين العثمانيين والمغرب الأقصى في القرن 10هـ/16م، أنظر: عمار بن خروف، العلاقات السياسية بين الجزائر و المغرب في القرن 10هـ/16م، ج1، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م.

⁽³⁾ شويتام: المرجع السابق، ص 18.

إن انشغال حكام الجزائر بمسألة ضم المغرب إلى الدولة العثمانية، وتأمين حدودهم الغربية، قد أخرهم عن إخضاع قبائل الغرب الجزائري لطاعتهم، وتفرغهم لاستتباب الأمن في المناطق الداخلية الأخرى. وإن حروبهم المتجددة مع المغرب، قد كلفتهم خسائر مادية وبشرية معتبرة، مما قلل من قدراتهم العسكرية في مواجهة الإسبان، الذين احتفظوا بمدينة وهران إلى غاية عام 1207هـ/1792م، مما عرقل الإستغلال الإقتصادي الأمثل لتلك الجهة⁽¹⁾.

2. مع تونس:

تميزت العلاقات بين الجزائر وتونس منذ أن ألحقت الجزائر بالدولة العثمانية بالصراع والحروب. وقد أدى هذا الأمر إلى إبرام معاهدة بين الجزائر وتونس في عام 1023هـ/1614م، تم خلالها تحديد الحدود الفاصلة بين البلدين. إلا أن عدم التزام الطرفين بها، إذ ظلت القبائل الحدودية في تنقل دائم من منطقة لأخرى، بحثا عن المراعي، وقد تسبب في اندلاع الحرب في 1035هـ/1628م. وبالرغم من ذلك، فإن قضية الحدود لم يُحسم فيها نهائيا⁽²⁾، حيث بقيت مسألة القبائل الحدودية تشكل محور الصراع بين حكام البلدين. فكان كل طرف يدعي أحقية سلطته عليها، وذلك بغرض استخلاص الضرائب منها، وتوظيفها في نفس الوقت، أثناء قيام الحروب ضد دولتها الأصلية⁽³⁾.

وقد اعتمد الجزائريون في حملاتهم على تونس على بعض القبائل التونسية الحدودية، أمثال أولاد سعيد. كما كان بايات تونس يستعينون بشيوخ قبائل الحنانشة، التابعة لبايلك قسنطينة، خلال حملاتهم على الجزائر. وكان النظام الضريبي الذي أقره حكام البلدين، من العوامل التي أدت بالقبائل الحدودية إلى الهجرة في الإتجاهين المعاكسين. وكانت هذه الظاهرة أكثر انتشارا في مواسم جمع الضرائب. ولهذا نص أحد البنود للمعاهدة السالفة الذكر، على أنه لا يحق لحكومي البلدين المطالبة مستقبلا، بالأشخاص الذين يعبرون الحدود في اتجاه إحدى الدولتين. فهم يصبحون من رعايا الدولة التي هاجروا إليها. ويبدو أن هذا البند بقي ساري المفعول إلى غاية مطلع القرن 13هـ/19م⁽⁴⁾.

إن من يحكم في أحد البلدين ويشعر بالقوة، يحاول أن يتوسع على حساب البلد الآخر. ومن هنا كانت التوترات والحروب تحصل بين البلدين من حين إلى آخر. وكان الحكام فيهما يسعون إلى

⁽¹⁾ شويتام: المجتمع الجزائري...، المرجع السابق، ص 19.

⁽²⁾ يذكر حمدان خوجة في مرآته أن آخر غزوة شنّها الجزائريون على تونس وقعت سنة 1754م، وقد انتصر فيها الجزائريون انتصارا كبيرا. لأكثر تفاصيل أنظر: خوجة، المرجع السابق، ص 124.

⁽³⁾ شويتام: المرجع نفسه، ص 14.

⁽⁴⁾ شويتام: نفسه، ص 14.

التحالف مع غيرهم لضمان تحقيق أهدافهم. وليس غرضنا في هذا العرض التعرض إلى الحملات التي خاضها أولئك الحكام بعضهم على بعض، وإنما حسبنا القول أن هذه الحملات العسكرية من الطرفين كانت من العوامل التي أدت إلى تدهور أوضاع البلدين السياسية⁽¹⁾.

إن الدول المغاربية عامة، لم تستغل الحدود المشتركة فيما بينها، لتحقيق وحدة إقتصادية وعسكرية، وتوحيد شملها للقيام بعمل جماعي لمواجهة الأطماع الأوروبية. فكانت قضية الحدود عاملا معرقلا للوحدة والتعاون، وأثر سلبيا على الوضع الداخلي لتلك الدول، مما أخرجها عن مسطرة الركب الحضاري الأوروبي، الذي كانت انطلاقته الفعلية في أواخر القرن 9هـ/15م⁽²⁾.

إن حوار الجزائر لكل من تونس، والمغرب الأقصى قد أدى منذ قيام الحكم العثماني في الجزائر، وحتى قبل ذلك، إلى قيام مشكلة الحدود بينها وبين الدول المجاورة لها، ولا سيما من جهتي الشرق والغرب، لأن الجغرافية لم تضع فواصل طبيعية بحرية أو جبلية تفصلها أو يمكن أن تتخذ فواصل بين البلدان الثلاثة، ولذلك كانت كل دولة تنشأ في أحدها تطمع إلى التوسع فيما يليها⁽³⁾.

وكانت قضية الحدود تعد إحدى القضايا الجوهرية، التي كانت سببا في معظم الحروب التي اندلعت بين البلدان المغاربية، نظرا لما تمثله من رهانات سياسية، واقتصادية، واجتماعية. فكان كل طرف يدافع عن حدود دولته، لضمان سيادتها الترابية⁽⁴⁾.

ثالثا: الإطار الجغرافي والبشري لإفريقيا جنوب الصحراء.

أ. الإطار الجغرافي:

إذا ذكرت الصحراء اليوم، فكثيرا ما يرتبط اسمها في الأذهان بمعاني الجفاف والقحط، وما ذلك إلا لأن رمال الصحراء وقفارها الشاسعة قد ندرت فيهما معطيات الحياة خلال الأحقاب الأخيرة من تاريخ حياة الإنسان على الأرض، وانحصرت في بعض المنخفضات الضيقة المساحة، حيث تفسح بعض الظروف الطبيعية لبعض الينابيع أن تسبب في تكون الواحات المتناثرة هنا وهناك⁽⁵⁾.

(1) شويتام: المجتمع الجزائري ...، المرجع السابق، ص15.

(2) نفسه، ص19.

(3) نفسه، ص13.

(4) نفسه، صص13-14.

(5) عبد القادر زبادة: الأثر الحضاري لقوافل التجارة السودانية عبر العصور، مقال/في/مجلة الأصالة، ع

3، السنة

الأولى، إصدار وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، طبع دار البعث، قسنطينة، الجزائر، جمادى الثاني، أوت،

1391هـ/1971م، ص106.

1. الموقع الجغرافي:

تشمل إفريقيا جنوب الصحراء على منطقة تضم كبرى صحاري العالم، حيث تمتد من المحيط الأطلسي غربا إلى البحر الأحمر شرقا، أي لمسافة 4000 كلم، يحدها من الشمال سفوح التلال الخضراء والسلاسل الجبلية التي تفصلها عن البحر المتوسط، أما في الجنوب فتختلط الصحراء تدريجيا بمنطقة أقل جفافا هي بلاد السودان، وتساير حدودها الجنوبية بصفة خاصة خط عرض 10 شمالا، مختزقة أعرض جزء في قارة إفريقيا، مساحتها عشرة ملايين كيلومتر مربع، أي أكثر من ربع مساحة القارة بأكملها، وتساوي تقريبا مساحة أوروبا⁽¹⁾

وقد ذكرها ابن خلدون في مقدمته: "... صحراء ... متصلة من الغرب إلى الشرق ذات مفاوز تسلك فيها التجار ما بين المغرب وبلاد السودان، وفيها مجالات المثلثين من صنهاجة وهم شعوب كثيرة..."⁽²⁾. وتنقسم منطقة إفريقيا جنوب الصحراء إلى ثلاثة أقسام:

1.1- السودان الغربي:

ويشمل حوض نهر السنغال، ونهر غامبيا، والمجرى الأعلى لنهر الفولتا، والحوض الأوسط لنهر النيجر، ويشمل السودان الغربي بمفهومه الواسع حاليا البلدان التالية: موريطانيا، الصحراء الغربية، مالي، السنغال، غامبيا، غينيا بيساو، غينيا كوناكري، سيراليون، ليبيريا، ساحل العاج، بوركينا فاسو، الطوغو، البنين، نيجيريا، الكاميرون، الغابون، الكونغو الأوسط.

1.2- السودان الأوسط:

وهو يشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد، وتضم هذه المنطقة اليوم الدول التالية: النيجر ونيجيريا، والكامرون، وإفريقيا الوسطى والتشاد وغرب جمهورية السودان الحالية.

1.3- السودان الشرقي:

ويشمل الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل⁽¹⁾. وحسب الحسن الوزان: "...تنقسم بلاد السودان إلى ممالك، من الغرب إلى الشرق: ولاته، جني، مالي، تمبكتو، كاوو(أي غاو)، كوير(أي

⁽¹⁾ حسن عيسى عبد الظاهر: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني، نشر: الزهراء للإعلام العربي، د.م.ن، د.ت.ن، ص37.

⁽²⁾ عبد الرحمن بن خلدون: مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة جديدة، بيروت، لبنان، 1428هـ/2007م، ص73.

جوبيير)، أغدس، كانو، كاتسينه، زكرك، زنفرة، ونكرة، بورنو، كاوكا، ونوبة... إلى أن يقول: إلا أنها اليوم خاضعة لثلاثة ملوك: ملك تمبكتو، وملك بورنو، وملك كاوو...⁽²⁾

2. التضاريس:

تمتاز الصحراء الكبرى بالرمال والسهول الصخرية الملساء، فضلا عما بها من أحادييد، ومرتفعات وجبال، وأكبر مرتفعاتها وجبالها هي هضبة الهقار، التي تتصل من شمالها بجنوب الجزائر، ومن جنوبها بهضبة أير، وهذا الخط من المرتفعات يمتد نحو الشرق خلال هضبة جادو وهضبة تبستي ثم ينحني جنوبا حتى دارفور في السودان الحالي.

ظلت الصحراء الكبرى بفضائها وجبالها تفصل الشمال الإفريقي عن بلاد السودان يكاد يكون اختراقها مستحيلا على الإنسان والحيوان حتى أطلق عليها المسافرون بلاد الرعب، لكن المسلمين استطاعوا عبر الأزمنة تذييلها ووصلوا الشمال بالسودان، بعد أن كان أهلها منعزلين. فعبر هذه الصحراء انتشر الإسلام والحضارة الإسلامية من بلاد المغرب إلى بلاد السودان. وأصبحت طريقا للمواصلات والربط بين المغرب وبلاد السودان أكثر منها حاجزا وفاصلا⁽³⁾

ويطلق على الأقاليم شبه الصحراوية من إفريقيا التي انتشر فيها الإسلام، والممتدة جنوب الصحراء الكبرى اسم بلاد السودان⁽⁴⁾، وحدوده حسب الحسن الوزان: "... فيبتدئ شرقا بمملكة كاوكا، ويمتد غربا إلى مملكة ولاته، ويتأخم في الشمال صحراء ليبيا، وينتهي جنوبا إلى المحيط"⁽¹⁾.

(1) عبد القادر زبادة: الحضارة العربية والتأثير الأوربي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، نشر: م.و.ك، الجزائر، د.ت.ن، ص11. وأيضا: يحيى بوعزيز، تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين وويليه الإستعمار الأوربي في إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص8. وكذلك: عبد الرحمن عمر الماحي: "مساهمة قوافل الصحراء في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في السودان الأوسط"، مقال نشر في مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع4، مطبعة دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، رمضان 1413هـ/مارس 1993م.

(2) الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ج 1، تر: محمد حجي ومحمد الأخصر، دارالغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983م، ص33. أنظر الخريطة التي وضعها الوزان في الملحق رقم(1).

(3) حسن عيسى: المرجع السابق، ص38.

(4) بلاد السودان تعني بلاد السود(أي الجنس الأسود)، وذلك مقابل بلاد البيضان ويقصد بها شمال إفريقيا والصحراء، وكان العرب أول من أطلق كلمة السودان على الأقوام التي تسكن الصحراء الكبرى، وهموا بلادهم (بلاد السودان). والسودان صيغة جمع أسود والمقصود الرجال ذوي البشرة السوداء، الذي يتحدث عنهم اليعقوبي قائلا: "...وأما السودان الذين غربوا وسلكوا نحو المغرب فإنهم قطعوا البلاد، فصارت لهم عدة ممالك...". لمزيد من المعلومات أنظر أحمد بن أبي يعقوب المعروف باليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، مج1، نشر دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.ن، ص193.

ب. الإطار البشري:

تنتشر في إفريقيا عدة سلالات تنتمي في مجملها إلى الجنس القوقازي والجنس الزنجي، فالصفات المشتركة عندهم أصيلة، مثل سواد البشرة والشعر المجعد والأنف العريض والشفاه الغليظة، وبالرغم من هذا التشابه في الاجناس فإنهم يتقسمون إلى عدة قبائل تختلف عن بعض في نسبة التأثير الخارجي واللغة والدين والحرف⁽²⁾. وأهم هذه القبائل:

1- قبائل الولوف:

يسمون بالجنف ويعني أسود، وكانوا يقطنون مساحة كبيرة من السنغال وغامبيا. ويبدو أن العرب والتكرور والبربر أجبروا هذه المجموعة إلى الهجرة جنوبي نهر السنغال. وتنتشر هذه القبائل بشكل خاص في السنغال وغامبيا، كما توجد في موريطانيا مجموعة من الولوف الناطقة بهذه اللغة، ويعتبر الولوف الناطقين بهذه اللغة من أعرق الشعوب الإفريقية في الإسلام، وأعظما إسهاما في الثقافة العربية الإسلامية، والولوفية هي اللغة الكبرى ولغة الإتصال في السنغال. وعندما بدأ الفرنسيون زحفهم على المنطقة جمع زعيم من التكرور اسمه مابا الناس حوله ونادى فيهم بالجهاد ضد الفرنسيين، لكنه لم يستطع الصمود أمام المستعمر الفرنسي الذي ساد بعد سنة 1886م⁽³⁾.

2- قبائل الماندي:

يمثلون الآن حوالي أربعون بالمائة من سكان مالي في الغرب يسموئهم مليل والبربر مليت ومنهم جاءت مالي.

3- قبائل الفولاني:

هي قبائل لم يتضح أصلها إذ أن هناك آراء متعددة حولها، فهناك من ينسبهم إلى التوارق، يتمتعون بدكاء حاد، لهم بشرة حمراء عكس الولوف، كانوا في بادئ الأمر مستقرين على شواطئ نهر السنغال، ويبدو أنه عندما تكاثر عددهم خرجت موجات منهم نحو مجال زراعي ورعوي أوسع، حيث وصلوا إلى بحيرة تشاد في حوالي القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي. وفي أواخر القرن الثامن عشر قاد أحدهم وهو الشيخ عثمان دان فوديو ثورة دينية إصلاحية في غرب إفريقيا، شملت

⁽¹⁾ الوزان: المرجع السابق، ج1، ص29.

⁽²⁾ محمد الصالح حوتية: إفريقيا الإسلامية جنوب الصحراء (1391-1318هـ/1900-1900م)، مجموعة محاضرات

مرقونة، قسم التاريخ، جامعة أدرار، الجزائر، د.ت، صص10-11.

⁽³⁾ حوتية: المرجع السابق، صص93-94.

كل بلاد الهوسا ووجدت تجاوبا كبيرا حتى عمت كل نيجيريا، وهم حاليا ينتشرون من السنغال حتى الكاميرون الأوسط وبوركينا فاسو⁽¹⁾.

4- قبائل البامبرا:

البامبرا من القبائل المنتشرة في وادي النيجر الأعلى، يلحقها علماء الأجناس بشعب الماندي. كانت هذه القبائل تعيش متفرقة خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، إلا أن تقدم الإسلام فيها والذي كان قد وصلها عن طريق التجارة والمجرات، حثها على التجمع في مملكة "سيغو" الوثنية خلال القرن السابع عشر الميلادي بعد أن كانت عبارة عن كتل صغيرة من الوثنية، مما دفع بملوك البامبارا الأقوياء إلى مهاجمة عدة مدن إسلامية كتمبكتو وجني وشرق السنغال في الفترة ما بين 1660 و1710م. وقد ضعف دور هذه الدولة في مطلع القرن التاسع عشر، وانتهت على يد المجاهد الحاج عمر⁽²⁾ سنة 1861م، لما وحد المسلمين ضد الإستعمار الفرنسي⁽³⁾.

5 قبائل الهوسا:

الهوسا مصطلح يطلق على الذين يتكلمون بلغة الهوسا، ولذلك فليس هناك جنس يمكن أن يتسمى بهذا الاسم، فالهاوسيون لا ينحدرون من أصل واحد بل جاء أغلبهم نتيجة امتزاج حدث بين جماعات قبلية وعرقية أهمها: السودانيون أهل البلد، والتوارق من البربر، والفولانيين وغيرهم، ونتج عن هذا الإمتزاج هذا الشعب الذي أصبح يتكلم لغة واحدة هي لغة الهوسا التي انتشرت انتشارا كبيرا؛ وأصبحت لغة التخاطب والمعاملات المالية والتجارية، وكانت هذه القبائل تتمركز في المنطقة المحصورة بين سلطنتي مالي وسنغاي غربا، وسلطنة بورنو شرقا، تحدها من الشمال بلاد أير والصحراء الكبرى،

(1) فيصل محمد موسى: موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مراجعة: ميلاد.أ. المقرحي، منشورات جامعة قاريونس المفتوحة، بنغازي، ليبيا، 1997م، ص ص 58-59.

(2) الحاج عمر بن سعيد الفوتي التيجاني: ولد عام 1212هـ/1797م، في قرية حلوار على الحدود السنغالية الموريطانية، كان والده من كبار علماء الدعوة في حوض السنغال، تتلمذ على يد والده وحفظ القرآن، ودرس علوم العربية والتفسير والحديث والتاريخ الإسلامي، حج عام 1826م، إنضم إلى الطريقة التيجانية في مصر، بعد رجوعه أخذ ينشر مبادئ التيجانية في بنو وسوكوتو وماسينا وغيرها، بعد أن تجمع حوله: ثير من الأنصار أعلن الجهاد سنة 1848م ضد الإمارات الوثنية، قتل غدرا عام 1864م وهو في قمة قوته وبجده قبل أن يكمل بناء دولته الإسلامية. أنظر بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 137-138.

(3) حوتية: المرجع السابق، ص 93. وأيضا بوعزيز: نفسه، ص 135..

ومن الجنوب ما يعرف الآن بنيجيريا الجنوبية، وقد كانت تتكون من سبعة إمارات أو ممالك وهي: كانو، كاتسينا، زاريا، جوبير، رانو، زمفرة⁽¹⁾.

لقد اعتنقت قبائل الهوسا الإسلام في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، وبرز فيها حكم إسلامي استمد أصوله وقواعده من الشريعة الإسلامية، بزعامة عثمان دان فوديو⁽²⁾، الذي قام بجهد كبير في نشر الإسلام ببلاده والبلدان المجاورة⁽³⁾.

6- قبائل التوارق:

إختلف المؤرخون في سبب هذه التسمية اختلافا كبيرا، فقد ذهب ابن خلدون أن سبب تسميتهم "توارق" أنهم نركوا دينهم المسيحية واعتنقوا الإسلام، وأن صنهاجة هم المثلثون القاطنون بالصحراء الجنوبية واتخذوا اللثام شعارا لهم. بينما يرى عبد القادر جامي أن كلمة توارق جمع تارقي، على أن العرب أطلقوا لفظ التوارق نسبة لقبيلة تسمى "تارغا" وتكتب تاركا، وهي إحدى قبائل السكان الأصليين الذين يسكنون الصحراء الممتدة من المحيط الأطلسي إلى غدامس، وكان ذلك في القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي. وهناك من يورد أن تسميتهم بالتوارق جاءت لأنهم ينتسبون إلى طارق بن زياد فاتح الأندلس. ينتشر التوارق في الصحراء الكبرى ما بين حدود جمهورية مالي الشمالية الغربية مع موريطانيا إلى حدود السودان مرورا بشمال مالي وشمال النيجر وشمال تشاد وجنوب غرب ليبيا وجنوب شرق الجزائر؛ كما تنتشر مجموعات منهم ببوركينا فاسو ونيجيريا.

أما عن أصولهم فتجتمع جل الدراسات أنها ترجع إلى صنهاجة التي يصل عدد قبائلها إلى أزيد من سبعين قبيلة، أشهرها: جدالة، ملتونة، ومسوفة، قدمت من اليمن والجزيرة العربية إلى شمال إفريقيا ومنها إلى غربها عبر هجرات متتالية، ومنهم من يرى أن ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا إلى إفريقيا بعد طردهم من طرف الأشوريين. وقد أدت هذه القبائل دورا مهما في نشر الإسلام والثقافة العربية بغرب إفريقيا بتأسيسهم لدولة المرابطين في الجزء الغربي من الصحراء الكبرى، اعتمادا على

(1) حوتية: نفسه، ص 92. وأيضا: محمد موسى: المرجع نفسه، ص 57-58.

(2) الشيخ عثمان بن فودي القادري (1754-1817م): ولد في نيجيريا الحالية، في أسرة علم وثقافة، تتلمذ على يد والده وحفظ القرآن الكريم، وتعلم علوم عصره، إشتغل في بداية دعوته بالوعظ والإرشاد، وتعليم الدين الصحيح للعامة، بعد مضايقات كبيرة من الامراء الوثنيين أعلن الجهاد ضدهم سنة 1802م، وانتصر عليهم، متخذا من مدينة سوكونو الذي بناها عاصمة له، إعتزل الحكم سنة 1227هـ/1813م حيث تفرغ للدعوة والتدريس. أنظر بوعزيز: المرجع السابق، ص 118 وما بعدها.

(3) بوعزيز: نفسه، ص 118.

الدور الفاعل لقبائل جدالة وملتونة ومسوفة بقيادة عبد الله بن ياسين الجدالي عام 427هـ/1035م⁽¹⁾.

مع قدوم الهجرة الهلالية في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي من مصر إلى المغرب الإسلامي، تغيرت الأحوال وعم الإضطراب الحياة الإقتصادية، مما اضطرت معه القوافل التجارية إلى تحويل خط سيرها نحو المسلك الذي يمر بديار المثلثين من جدالة وملتونة، فأصبح التوارق يتحكمون في القوافل التجارية العابرة للصحراء. حيث ساهموا في هذه التجارة، كأدلاء للقوافل أو كوسطاء بين تجار شمال الصحراء و سكان إفريقيا جنوب الصحراء⁽²⁾.

7- قبائل البوهل:

هي قبائل من أصل أبيض يرى بعض العلماء أنهم جاؤوا من السودان منذ أزمنة قديمة جدا، ولشعب البوهل صفات العرق الأبيض، أنف مستقيم وشفاه رقيقة سمراء، وشعر سبط، وجسم رشيق وطويل. إلا أن مجاورتهم الطويلة للزنج جعل أكثرهم يفقدون صفاتهم الأصلية، لا سيما أنهم تبعثروا في بلاد واسعة، كما أن لغتهم سودانية من شعب زنجي لا يزال يتمثل في شعب التكرور، لذا نستنتج من هذا أمرين هما: اللغة البوهلية لغة زنجية، وشعب البوهل ليس شعبا زنجيا.

ولقد أثار البوهل نقاشا واسعا بين علماء الأجناس البشرية، وأغلب هؤلاء يرون يرون في البوهل شعبا حاميا جاء إلى السودان من إفريقيا الشرقية عن طريق الصحراء الكبرى. إلا أن هناك من العلماء أمثال "دولافوس" يرون أن أصل البوهل سامي من الشام، جاؤوا في مطلع الميلاد من منطقة برقة بليبيا واستقروا في بداية الأمر في منطقتي تمبكتو وماسينا، وفي القرن التاسع الميلادي هاجروا إلى منطقة فوتا السنيغالية التي كان قد وصلها الإسلام فاعتنقوه منذ ذلك الحين وأصبحوا من دعاة المخلصين.

وفي مطلع القرن لحادي عشر الميلادي هاجر شعب البوهل هجرة معاكسة لهجرتهم الأولى أي من الشرق مجتازين السودان من منطقة السنيغال الأسفل إلى حوض النيل، تاركين على طول هذا الطريق جماعات من البوهل.

⁽¹⁾ حوتية: المرجع السابق، ص ص86-87.

⁽²⁾ حوتية: نفسه، ص91.

لقد عاش شعب البوهل حياة الرعي وتربية المواشي، كما هو الحال في غينيا والكاميرون، وقد فقد الكثير من هؤلاء المستقرين صفاتهم العربية الإسلامية حينما غرقوا في خضم جماهات زنجية كثيرة العدد⁽¹⁾.

8- قبيلة كنته:

هي قبيلة عربية مشهورة تتواجد في الصحراء الكبرى من موريطانيا إلى النيجر، وفي جنوب الجزائر. ترجع تسميتها عند البعض إلى إحدى مناطق السودان، وبالضبط إلى كتنة قورابسنغا؛ وقد حمل الكنتيون تسمية هذه المنطقة التي أصبحوا يعرفون بها، بينما ينتهي نسبها إلى عقبة بن نافع الفهري فاتح شمال إفريقيا، ومؤسس القيروان. وحسب محمد حوتية واستنادا إلى الروايات الشفوية والأقوال المتناقلة أن قبيلة كنته هاجرت نحو الجنوب، واستقرت بالصحراء بعد أن أصبحت الأوضاع غير ملائمة في المناطق الشمالية ببلاد المغرب خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين⁽²⁾.

تشتهر قبيلة كنته بالعلم والورع والتقوى ونشر الإسلام في المناطق الإفريقية المتاخمة لها؛ وقد أنجبت عدد كبير من العلماء في المنطقة، وتمتد جذور القبيلة إلى إقليم توات، زاوية كنته حاليا⁽³⁾.

أما الكثافة السكانية لهذه القبائل فنجدها منخفضة بالرغم من توفر جميع الإمكانيات؛ منها شساعة المساحة، إضافة إلى مقومات الإنتاج الزراعي. ويرجع هذا الانخفاض لعدة أسباب أهمها:

- إنتشار الأوبئة كالطاعون والجذري ومرض النوم.

- إنتشار المجاعات التي يسببها الجفاف من حين إلى آخر.

- هجرة الرجال من مواطنهم الأصلية بحثا عن ظروف معيشية أفضل، إضافة إلى ارتفاع عدد الوفيات.. الخ⁽⁴⁾.

وفي الأخير نلخص إلى جملة من الإستنتاجات أهمها:

- كانت هذه القبائل في إفريقيا تعيش حياة الوثنية المليئة بالبدع والضلال إلى أن وصلها الإسلام بمبادئه السمحة عن طريق التجارة والدعوة والهجرات العربية.

(1) حوتية: المرجع السابق، ص 94-95.

(2) محمد الصالح حوتية: آل كنته، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ق 18-19م، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، 2008م، ص 52-53.

(3) حوتية: إفريقيا الإسلامية...، المرجع السابق، ص 95. وأيضا: حوتية، آل كنته، نفسه، ص 53-54.

(4) حوتية: إفريقيا الإسلامية...، المرجع السابق، ص 10-11.

- أصبحت أغلب هذه القبائل تركز في حياتها على الدين الاسلامي والثقافة الإسلامية.

- تختلف أغلب هذه القبائل عن بعضها من حيث أسلوب الحياة.

رابعا: لمحة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية في إفريقيا جنوب الصحراء

وبما أن موضوع هذه الدراسة يتمحور حول منطقة إفريقيا جنوب الصحراء، أي السودان الغربي والأوسط، فسنتصر فيما يلي بالحديث عن الممالك الهامة التي قامت هناك، حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي؛ حيث ظهرت بمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء منذ القديم عدة ممالك وإمبراطوريات مشهورة في التاريخ الإفريقي من أبرزها:

أ- في السودان الغربي:

1. مملكة غانة (469-600هـ/1076-1203م)⁽¹⁾:

غانة القديمة كانت تشمل جنوب موريطانيا وشرقي السنغال وجزءا من مالي وربما غينيا أيضا، وهي غير غانا الحالية، وهذه الحدود قد بلغت في أوج قوتها وعزها، لكن في أواخر عهدها أصابها الضعف فاستقلت ولاياتها، وبقيت لها تبعية اسمية فقط. ويرجح أنها قامت خلال القرن الثالث الميلادي وامتد عمرها حتى القرن الثالث عشر الميلادي⁽²⁾. أما عاصمتها فهي كمي صالح، وتقع على بعد حوالي 205 كم إلى الشمال من مدينة باماكو، وقد قدر عدد سكانها بثلاثين ألف نسمة، وهي على حسب تعبير البكري "... مدينة واسعة الأرجاء ذات أسواق عديدة، تزينها أشجار النخيل الغزيرة... مليئة بالمنازل الجميلة والأبنية القوية الراسخة..."⁽³⁾.

لقد فرضت غانة سلطتها وامتدت سلطتها على الأقاليم المجاورة⁽⁴⁾، بفضل تمكن شعبها من استعمال الحديد كسلاح، قبل غيره من شعوب إفريقيا الغربية، كما عرفت ازدهارا اقتصاديا بفضل

(1) يطلق اسم غانة كذلك على المدينة، حيث يصفها يصفها الحموي في معجمه بأنها: "... مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان يجتمع إليها التجار ومنها يدخل في المفاوز إلى بلاد التبر. أنظر: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي: معجم البلدان، الجزء 4، دار صادر، بيروت، لبنان، 1377هـ/1977م، ص184.

(2) زيادة: الحضارة العربية ...، المرجع السابق، وانظر أيضا: الحموي، المرجع السابق، ص ص 11-12.

(3) أبو عبيد البكري: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، تصميم وإخراج وطبع مطبعة زيتا قرافيك، الجزائر، 1432هـ/2011م ص24.

(4) يقول عنها اليعقوبي: "... ثم مملكة غانة، وملكها... عظيم الشأن، وفي بلاده معادن الذهب وتحت يده عدة ملوك..." . أنظر: اليعقوبي، المصدر نفسه، ص194 .

النشاط التجاري الذي عرفت به نظرا لموقعها الإستراتيجي بين مناجم الذهب في بامبوك وبوري إلى الجنوب ومناجم الملح في الشمال، فقد نجح ملوك غانة أن يفتحوا البلاد في وجه التجارة بين شمالي الصحراء وجنوبها، منذ وقت مبكر، ونظموا استخلاص الضرائب للخرزينة⁽¹⁾. حيث يذكر البكري أن مناجم الذهب الموجودة في غانة كانت كلها بيد الحكومة، التي لا تسمح لأحد أن يستخرج منها شيئاً، سوى بعض الذرات الصغيرة التي يعثر عليها الناس في بعض الفلزات حول المناجم⁽²⁾. وبواسطة التجارة واستغلال مناجم الذهب بلغت مملكة غانة درجة كبيرة من الإزدهار والقوة، فقد كان لها جيش دائم يبلغ تعداداه أربعة آلاف مقاتل.

أصاب غانة الضعف في آخر أيامها وذلك بسبب هجوم المرابطين عليها سنة 1054م واستيلائهم على مدينة أودغست، ثاني أهم مدينة في المملكة سنة 1055م، أما العاصمة كمي صالح فلم يستولوا عليها إلا في سنة 1067م، مما أدى إلى ضعف سيطرتها على الأقاليم المجاورة التي استقلت شيئاً فشيئاً، ثم سقطت العاصمة في أيدي حكام قبائل السوشو من مملكة مالي المجاورة؛ وكان ذلك سنة 1240م.

ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مملكة مالي هي المسيطرة في المنطقة، وأصبحت غانة مجرد اسم لامع لأول إمبراطورية سوداء نمت في ظلها حضارة مشرقة لاتزال انجازاتها في ميدان الحضارة الإفريقية تستدعي من الأفرقة التقدير والإحترام⁽³⁾.

2. إمبراطورية مالي (596-874هـ/1200-1469م):

إمتد حكم الإمبراطورية التي شكلها شعب الماندينغو على جمهورية مالي الحالية وعلى السنغال الشرقي وشمالي غينيا وشمال كل من بوركينا فاسو والبنين والجنوب الأقصى من جمهورية موريطانيا، جاء ذكرها في تاريخ اليعقوبي باسم ملل: "...ثم مملكة أخرى يقال لهم، ملل، ويبادون صاحب كانم، ويسمى ملكهم ميوسى..."⁽⁴⁾. أما الحسن الوزان في روايته فيصف مالي بأنها مملكة تمتد على طول

(1) زيادة: الحضارة العربية...، المرجع نفسه، ص ص 12-13.

(2) البكري: المصدر السابق، ص 24.

(3) زيادة: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص ص 15-16.

(4) اليعقوبي: المصدر السابق، ص 193.

أحد فروع نهر النيجر في مسافة نحو 300 ميل متاخمة لمملكة جني من الشمال، والقفر مع جبال وعرة من الجنوب، وتحدها غربا غابات مهجورة تمتد إلى المحيط، وشرقا إقليم غاو⁽¹⁾.

لقد مرت إمبراطورية مالي بثلاثة مراحل أساسية هي: دور التأسيس، والإزدهار، والضعف. حيث يمتد الدور الأول بين 1225 و1455م، وفي هذا الدور امتد حكم مالي على كل مملكة غانة القديمة التي ألحقت بمالي نهائيا سنة 1240م، كما بدأت في التوسع باتجاه الشرق وفي الفوتاجالون. وفي هذا العهد كذلك اتخذ أمراء الماندينغو لقب منسا(أي السلطان) لأول مرة وبدأوا في تنظيم مملكتهم، حيث قسموها إلى مقاطعات يحكمها أفراد من العائلة الملكية وجعلوا حكمها وراثيا فيهم، وقد اتبع ملوك مالي سياسة الصداقة والمصاهرة مع زعماء القبائل في إمبراطوريتهم فانقادت لهم⁽²⁾.

أما دور الإزدهار فقد استمر طيلة القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي تقريبا، فعم الأمن والرخاء كل جهات الإمبراطورية، ومن أسباب هذا الإزدهار، انتظام المؤسسات الإدارية، توفير الأمن، حيث جاب التجار أقاصي المملكة، وتوافد عليها الرأسمال الأجنبي، وخاصة من بلاد المغرب ومصر، فامتلأت خزائن الدولة بالأموال المجبأة من الضرائب على الواردات والصادرات مما ساعدها على تكوين جيش قوي، فعمت شهرتها الآفاق⁽³⁾، وفي هذه الفترة أيضا ربطت مالي علاقات دبلوماسية نشيطة مع بلدان المغرب ومصر، كما اتصلت لأول مرة بالبرتغاليين⁽⁴⁾.

مع بداية القرن الخامس عشر للميلاد، دخلت مملكة مالي في طور الضعف واستمرت تعاني من الإضطرابات التي أثارها المتنافسون على العرش من بين أفراد الأسرة الحاكمة، ومع بداية القرن السادس عشر، اقتطعت منها مناطق شاسعة في الشرق والشمال والجنوب فأصبحت عبارة عن مملكة صغيرة ضمن ممالك ناشئة في عدة جهات من الإمبراطورية، حيث تمكنت إحداهن وهي مملكة سنغاي في

(1) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص164.

(2) cornevin: op.cit,p163.

(3) في هذه الفترة (1324م) حج كانكان موسى الذي يعتبر من أعظم ملوك مالي، ومر في طريقه إلى الحج بالقاهرة، ولكثرة ما أنفق في شراء الكتب والهدايا والجواري خفضت قيمة الذهب بأسواقها لمدة عشر سنوات، أما في مكة فقد أنفق عشرين ألف قطعة من الذهب، أنظر: cornevinop.cit, p164.

(4) زيادة: الحضارة العربية...، المرجع السابق، من ص 17 إلى ص19.

النصف الثاني من القرن السادس عشر، أن تبسط نفوذها نهائيا على جميع أراضي المملكة، وتقيم على أنقاضها إمبراطورية جديدة⁽¹⁾.

3. مملكة سنغاي (777-1000هـ/1275-1591م)⁽²⁾:

تأسست دولة سنغاي في القرن السابع الميلادي، واستمرت تقوى باستمرار وتوسع، حتى القرن السادس عشر، حيث دخلت في طور الضعف نتيجة انهماك الأمراء المتأخرين في المنازعات العائلية التي أعاقتهم عن الإهتمام بشؤون الدولة وخدمة البلاد، وانتهى وجودها بحملة المغاربة على البلاد سنة 1591م⁽³⁾.

كانت العاصمة هي مدينة كوكيا على نهر النيجر الأدنى، ثم تحولت إلى مدينة غاو منذ القرن الحادي عشر الميلادي (1009م)، حكمت سنغاي في البداية عائلة ضياء حتى عام 1335م، ثم انتقل الحكم بعدها إلى عائلة سني⁽⁴⁾ التي حكمت بين 1335 و 1493م، وبلغ عدد أمرائها ثمانية عشر أميراً، وقد دخلت سنغاي في عهد سني علي (1464 - 1493م) طور الإمبراطورية، حيث وسع حدود مملكته على حساب القبائل المجاورة⁽⁵⁾. ثم اتسعت إمبراطورية سنغاي أكثر خلال عهد الأسقيا⁽⁶⁾ محمد الكبير (1493 - 1528م) الذي أنهى حكم آل سني، ومعه بدأ عهد انتظام

(1) أحمد بابا التمبكتي: معراج الصعود، تحقيق وترجمة فاطمة الحراق وجون هانويك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية، د.ت، ص 17.

(2) نسبة إلى قبيلة سنغاي، وهي قبيلة كانت تسكن النيجر حول حدود الغابات الإستوائية في سنوات الميلاد، ثم أخذت تنتقل إلى الشمال مع النيجر، وفي القرن السابع الميلادي كانت مساكنها تمتد حول النيجر بحوالي 150 كلم، وكانت تمتص الأسمك وزراعة الدخان، وفي هذا الوقت بدأ شعبها ينتظم تحت سلطة واحدة. أنظر: زيادية، الحضارة العربية...، المرجع نفسه، ص 20، الهامش رقم (1).

(3) زيادية: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص 20.

(4) لفظة أطلقها عدد من المؤرخين الذين كتبوا بالعربية تاريخ البلاد، ثم شاع استعمالها لدى غيرهم، رغم أن تدعى بلسان سنغاي أيون. أنظر: زيادية، الحضارة العربية...، المرجع نفسه، ص 21، الهامش رقم (1).

(5) زيادية: نفسه، ص 21.

(6) أصل الأساق من السراكولين الذين هربوا أمام الغزو المرابطي في القرن الحادي عشر ميلادي من جنوب موريطانيا الحالية (منطقة الحوض)، ثم تفرقوا في جهات عديدة من السودان الغربي على أن جلهم تركز حول نهر النيجر واختلط بقبايلهم. أنظر: زيادية: نفسه، ص 21.

المملكة وبداية حكم التكروريين⁽¹⁾ في البلاد، لذا فقد اقتزن ذلك الحادث بفرح عم غالبية سكان بلاد سنغاي⁽²⁾.

لقد حرص ملوك سنغاي خاصة في عهد الأساقي على تمكين شعبهم من الإسلام الصحيح والثقافة الإسلامية، فأصبحت بلادهم في عهدهم ذات ارتباطات وثيقة بالعالم الإسلامي وخاصة بلدان المغرب ومصر والحجاز، واتخذوا عاصمتان: عاصمة إدارية هي غاو وعاصمة علمية هي تمبكتو التي كان لها دور كبير في نشر الثقافة العربية الإسلامية ببلاد السودان.

وفي سنة 1591م غزاها جيش سلطان المغرب أحمد المنصور السعدي الذي أنهى حكم آل سنغاي وبه بدأت مرحلة الإنحطاط في كل بلدان الساحل، حيث بدأ حكم العسكريين المغاربة المعروفين بـ(اللاما)، ثم خلفتهم في القرن السابع عشر أسرة السوشو الزنجية⁽³⁾.

أ. في السودان الأوسط:

1. مملكة الكانم - بورنو (479-1262هـ/1086-1846م):

قامت هذه المملكة في المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد ونهر الكانوري والتي تشملها اليوم جمهورية تشاد وقسما من شمال نيجيريا، وقد شكلها شعب البولالا قبل مجيء الإسلام، وقد وصل الإسلام إلى هذه المنطقة في وقت مبكر، وما إن حل القرن العاشر الميلادي حتى أصبحت هذه المملكة قد أسلمت كليا، وقد ورد اسم كانم⁽⁴⁾ لأول مرة في رواية لليعقوبي (ت: 384هـ)، عند ذكره للسودان: "... فأول ممالكهم الزغاوة، وهم النازلون بالموضع الذي يقال له كانم..."⁽⁵⁾. ويبدو من نص اليعقوبي أن قبيلة زغاوة - التي كانت تجوب الصحراء بين موطن التوارق والنيل - هي التي أسست دولة كانم.

أما برنو وهي منطقة تقع غربي بحيرة تشاد، فأقدم من ذكر اسمها هو المؤرخ العمري (حي: 738هـ)، في كتابه "التعريف بمصطلح الشريف"⁽⁶⁾. ينسب ملوك بورنو أنفسهم إلى سيف بن

⁽¹⁾ كلمة التكرور: أصل إطلاقها كان على منطقة السنغال الشرقية حاليا، ربما من أيام المرابطين، ثم عم

السودان الغربي كله. أنظر: زيادية، نفسه، ص21، الهامش رقم(2).

⁽²⁾ نفسه، ص21.

⁽³⁾ زيادية: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص24.

⁽⁴⁾ هي جزء من بلاد البربر بأقصى المغرب في بلاد السودان، قال البكري "بين زويلة وبلاد كانم أربعون مرحلة، وهم وراء

الصحراء... لا يكاد أحد يصل إليهم، وهم سودان مشركون..."، أنظر: الحموي، المرجع السابق، ج4، ص432.

⁽⁵⁾ اليعقوبي: المصدر السابق، مج1، ص193.

⁽⁶⁾ نبيلة حسن محمد: تاريخ إفريقيا الإسلامية، طبع وتوزيع دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2013م، ص

ذي يزن اليميني، وتحتل بسكانها قبائل عربية من أهمها قبائل بني سليمان والشوا الذين نزحوا في وقت لاحق إلى هذه البلاد، كما أن قبائل الزغاوة الذين يرجع الرواة إليهم أصل تأسيس النواة الأولى لإمارة الكانم قبل اتحادها مع إمارة البورنو، ربما يكونون قد هاجروا من منطقة فزان في ليبيا حالياً. ويبدو أن منطقة الكانوري وبحيرة تشاد كانت منذ القديم ملتقى امتزاج سكاني متنوع ولذلك نتج عن هذه الوضعية في معظم العصور حروب متوالية، وقد دخلت مملكة الكانم بورنو فترة التوسع والقوة في أيام السلطان عبد الجليل سيما (1196-1220م) الذي قام بفتوحات متوالية، فامتد نفوذه إلى كل من فزان⁽¹⁾ ووداي⁽²⁾.

بعد فترة من الإضطرابات نتيجة للتنافس على الحكم بين أفراد الأسرة المالكة ومناوئهم من القبائل الأخرى، إستقرت أوضاع هذه المملكة من جديد على أيام السلطان علي روناما (1472-1504م) وابنه إدريس (1504-1526م)، ويعتبر إدريس علومه (1571-1603م) من أشهر السلاطين الذين خاضوا معارك طاحنة في سبيل القضاء على الإضطرابات وتثبيت السلطة⁽³⁾.

أما عن علاقات هذه المملكة مع العالم الإسلامي، فقد كانت لها علاقات تجارية وثقافية ودبلوماسية مزدهرة مع دول شمال إفريقيا ومصر، وهذا ما أشار إليه الحسن الوزان من استيراد كانم وبنو الخيول والأسلحة وغيرها من السلع وتصديرها إليها العبيد ومحصولات البلاد⁽⁴⁾.

لقد كانت نهاية القرن العاشر هجري/ نهاية القرن السادس عشر ميلادي، نقطة تحول في تاريخ هذه المنطقة عامة وفي علاقاتها بالشمال الإفريقي بصفة خاصة، حيث تميز بدخولها مرحلة جديدة من العلاقات الدولية. فرغم كون العلاقات الإقتصادية والثقافية والدينية التي تربطها بشمال إفريقيا عريقة في القدم، فإن القرن السادس عشر قد وضع دولتي بورنو والسنغاي- وكانتا أكبر وأقوى الدول في

(1) فزان: هي ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب، قيل سميت بهذا الإسم نسبة إلى فزان بن حام بن نوح عليه السلام، يصفها الحموي بكثرة النخيل والتمر، وأغلب أهلها سود. أنظر: الحموي، المصدر السابق، ج4، ص270، وص80، العاشم رقم(2).

(2) زيادة: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص24

(3) التمبكتي: المصدر السابق، ص18.

(4) مجموعة مؤلفين: الموسوعة الإفريقية، مج 2، تاريخ إفريقيا، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، مصر، مايو1997م، ص199.

المنطقة- ولأول مرة في تاريخها في مواجهة قوى دولية توسعية هي الإمبراطورية العثمانية وغربمتها السعدية المتطلعة إلى نفس الدور⁽¹⁾.

وهكذا فإن نهاية القرن السادس عشر قد شهدت بداية تشتت إمبراطورية السنغاي وضعف مملكة بورنو ونشأة مشاريع دويلات صغيرة في المنطقة، أمثال كانو وكاشنة وكبي وكانم وزكرك وزنفرة، تصارع بعضها البعض وتغير على بعضها البعض وتسبي بعضها البعض⁽²⁾. مما أثر سلبا على النشاط التجاري خاصة مع دول الشمال الإفريقي.

وقد أستؤنفت التجارة عن طريق القوافل بعد ظروف الإضطراب الأولى، والتي كان سببها الأول الهجوم المغربي على السنغاي سنة 1591م، ولكن في وقت غلبت عليه قلة الأمن وكثرة الفوضى، فلم يعد للتجارة مع إفريقيا جنوب الصحراء ذلك الإزدهار الذي كانت عليه في السابق⁽³⁾.

لقد تميز تاريخ مملكة الكانم بورنو عن بقية الممالك الإسلامية الأخرى التي تأسست في جنوب الصحراء بالإستمرارية، حيث ظل يتوالى على حكمها أمراء اشتهروا بالعلم وقوة الشخصية من أمثال محمود الأمين الكانيمي وأبنائه الذين اتخذوا مدينة كوكوا عاصمة لمملكتهم وعملوا على تقويتها، إلى أن غزتها فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر واحتلتها، بعد أن اجتاحت كل الممالك الأخرى في المنطقة⁽⁴⁾.

هذه فكرة موجزة عن أكبر مملكة إسلامية قامت في السودان الأوسط، وهناك دولا أخرى قامت في هذا السودان لكنها لا ترقى إلى هذه المملكة في العظمة والقوة، وهذه الدول تتمثل في إمارات الهوسا الإسلامية التي قامت في غرب بورنو في الجزء الذي يعرف الآن بنيجيريا الشمالية، وسلطنة البولالا الإسلامية التي قامت في غرب كانم فيما يعرف بحوض فترى. ونبدأ الحديث عن إمارات الهوسا الإسلامية⁽⁵⁾.

(1) التبعي: المصدر نفسه، ص 16-17 .

(2) التبعي: المصدر السابق، ص 20.

(3) عبد القادر زبادة: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، ش.و.ن.ت، الجزائر، د.ت.ن، ص 95.

(4) زبادة: الحضارة العربية... المرجع السابق، ص 25.

(5) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق، ص 203.

2- إمارات الهوسا:

تشمل بلاد الهوسا ما يعرف الآن ببنيجيريا الشمالية وجزءا من جمهورية النيجر، وكانت تقع في العصور الوسطى في المنطقة المحصورة بين سلطنتي مالي وسنغاي غربا، ومملكة البرنو شرقا، وتحدها من الشمال بلاد أهير والصحراء الكبرى، ومن الجنوب ما يعرف الآن ببنيجيريا الجنوبية⁽¹⁾.

تتألف إمارات الهوسا من سبع إمارات صغيرة وهي: كانو، وكاتسينا، وزاريا، وجويبر، ودورا، ورانو، وزنفرة، وكانت كل إمارة مستقلة عن الأخرى كما كانت الحروب تندلع بينهما من حين إلى آخر لرغبة حكامها في التوسع، وقد اشتهر الهوسويون بالمهارة في الزراعة وبعض الحرف والصناعة و كذلك في التجارة. وقد استغلوا موقع بلادهم المتوسط بين السودان الشرقي والسودان الغربي، ووقعها عند الطرف الجنوبي لواحد من طرق القوافل التجارية الصحراوية وهو الطريق الذي يمتد من تونس مارا بمدينة غات وغدامس وأهير ثم إلى بلاد الهوسا في الإشتغال بالتجارة، فكانت قوافلهم تخترق الصحراء الكبرى ثلاثة أشهر من كل عام كي تزود بلدان شمال إفريقيا ومنها الجزائر بمنتجات بلاد السودان من ذهب وعاج وعبيد⁽²⁾.

لقد مرت إمارات الهوسا بفترات مختلفة تميزت أحيانا بالإستقرار وأحيانا أخرى بالإضطرابات والنزاعات، فإمارة كانو مثلا التي دخلها الإسلام بين القرنين الثاني عشر والرابع عشر الميلاديين، حارب ملوكها المسلمون الوثنيين ودمروا معابدهم، كما شجعوا العلماء المسلمين على نشر الإسلام بين السكان، خاصة في عهد الملك علي ياجي الذي حكم في الفترة (750-778هـ/1349-1385م)، ولقد اتبع من جاء بعده نفس السياسة مما شجع العلماء بالهجرة إلى كانو والإستقرار بها لتوعية السكان ونشر العلم الصحيح النافع، كما هاجر إلى هذه الإمارة واستقر بها أعداد كبيرة من العرب والبربرالذين جاءوا من الشمال، فانتعشت التجارة وخاصة تجارة الملح وازدهرت الأحوال الإقتصادية وعم السلم مما أدى إلى انتشار الإسلام والثقافة العربية الإسلامية في البلاد⁽³⁾.

غير أن الحروب الأهلية التي اندلعت بين أمراء كانو طمعا في الحكم، والحروب الخارجية التي اندلعت بين كانو وكاتسينا، وبينهما وبين قبائل الكورارافا، وقيام هؤلاء بالهجوم على مدينة كانو

(1) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق، ص201.

(2) نفسه، ص204.

(3) نفسه، ص205 وما بعدها.

وتدميرها، كل ذلك أدى إلى ضعف هذه الإمارات وفقدان استقلالها ووقوعها في النهاية في يد الفولانيين في بداية القرن التاسع عشر للميلاد.

وإذا كانت هذه أوضاع كانوا السياسية والإقتصادية، فما هي أوضاع بقية إمارات الهوسا؟ وفي هذا الصدد يمكن القول بأن الظروف التي تعرضت لها كانوا من حيث التنافس على الحكم ورواج التجارة وهجرة العلماء إليها لنشر الإسلام، تعرضت لها أيضا بقية إمارات الهوسا وإن اختلفت الدرجة أو التوقيت في بعض الأحيان⁽¹⁾.

3- سلطنة البولالا (766-1218هـ/1365-1900م):

قامت هذه السلطنة في حوض بحيرة تشاد، أي في بلاد السودان الأوسط وعلى وجه التحديد في حوض بحيرة فترى وإلى الشمال منها حتى بحيرة تشاد، وظهرت كدولة منذ عام 766هـ/1365م، واستمرت حتى بداية القرن العشرين عندما سقطت المنطقة كلها في يد الإستعمار الفرنسي. ورغم طول بقاء هذه الدولة إلا أن المؤرخين لم يذكروها كثيرا بسبب أنها كانت في كثير من فترات حياتها تابعة لمملكة الكانم برنو⁽²⁾.

لقد ظهر خطر البولالا على سلاطين دولة كانم منذ وقت مبكر رغم صلة القرابة التي تربط بينهما. ويعود ذلك إلى أن البولالا كانوا يحاولون التخلص من تبعيتهم لأقربائهم من حكام كانم. وقد ظهر هذا الخطر منذ عهد أول سلاطين كانم الإسلامية وهو الماي أوم بن عبد الجليل (1086-1097م) الذي حاربهم وانتصر عليهم وقتل منهم ثلاثة آلاف، فأعلنوا الطاعة والخضوع، وظاوا يتقبلون بين التبعية والتحرر من سلطان كانم حتى ظهر زعيمهم عبد الجليل سيكومامي الذي حقق لهم الإستقلال التام في عام 766هـ/1365م⁽³⁾.

حكم البولالا إقليم كانم لمدة قرن من الزمان، والتي كانت مدة كافية كي يستعيد حكام برنو قوتهم، حيث بدأ الصراع منذ سنة 1472م مع حاكم برنو القوي الملقب بالغازي، الذي انتصر على البولالة واستطاع خلفاؤه استعادة كانم ودخول العاصمة نجيبي في عهد علي بن إدريس (1545-1546م). لقد أدى هذا الصراع الطويل للبولالة مع حكام برنو، والفتن والإضطرابات والحروب الأهلية إلى

(1) مجموعة مؤلفين: المرجع السابق، ص 210.

(2) نفسه، ص 216.

(3) نفسه، ص 218-219.

ضعف دولة البولالا، إضافة إلى ظهور سلطنات أخرى في المنطقة منذ القرن السادس عشر مثل وادي وياجرمي اللتان اصطدمتا معها عدة مرات⁽¹⁾.

لقد أدت هذه السلطنة دورا إقتصاديا وعلميا ودينيا هاما في تاريخ المنطقة نظرا لموقعها بين دارفور والنوبة في الشرق، وكانم وبحيرة تشاد وما وراءها من بلاد الهوسا ومالي في الغرب، وليبيا في الشمال مركزا هاما من مراكز تجارة القوافل التي تأتي من هذه البلدان، مما دعم اقتصادها وربط بينها وبين دول تقع خارج منطقة تشاد. ورغم مظاهر الضعف التي أصابت هذه السلطنة إلا أنها ظلت قائمة حتى بداية القرن العشرين حينما سقطت في عام 1900م في قبضة الإستعمار الفرنسي مثل بقية السلطنات الأخرى التي كانت قائمة في حوض بحيرة تشاد⁽²⁾.

خامسا: الجذور التاريخية للعلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء

حينما نود التحدث عن أي علاقة ما بين منطقة وأخرى، وشعب وآخر، نجد أنفسنا مجبرين على توضيح المعالم الهامة لربط الصلات التي يصبح العمل معها ممكنا، والتوازن النسبي ظاهرا في الأخذ والعطاء، وبذلك تصبح لفظة العلاقات لها قيمة، وحس تاريخي مقبول في كل الأبعاد⁽³⁾.

إن المحطات التجارية على حواف الصحراء ووسطها لم تكن من ابتكار القرون الوسطى، بل كانت أقدم من ذلك بكثير. فتذكر كتب التاريخ أن أول اتصال حدث بين الشمال الإفريقي وبلدان ما وراء الصحراء قام به القرطاجيون الذين كانت لهم مراكز تجارية في الشمال، حيث تعاملوا مع السكان تجاريا منذ ما قبل الميلاد⁽⁴⁾، وقد حاول الرومان بعد احتلال شمال إفريقيا الإتصال بسكان تلك المناطق حيث وصلوا إلى فزان، ثم اتصل المسلمون بالمنطقة بعد نشرهم للإسلام في شمال إفريقيا وظلوا على اتصال وثيق بسكانها حتى مجيء الأوروبيون في القرن السادس عشر الميلادي⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ مجموعة مؤلفين: المرجع السابق، ص ص220-221.

⁽²⁾ نفسها، ص221.

⁽³⁾ بودواية مبخوث: العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية 1426-1427هـ / 2006-2007م، ص14.

⁽⁴⁾ أول رحلة معروفة في التاريخ طافت بإفريقيا هي رحلة حنون الفينيقي قبل الميلاد بقرنين. أنظر: زيادة: مملكة سنغاي ...، المرجع السابق، ص80، الهامش رقم(2).

⁽⁵⁾ زيادة: المرجع نفسه، ص80.

ويذكر بعض المؤرخين⁽¹⁾ أن أول اتصال بين المسلمين الفاتحين والأفارقة قام به عقبة بن نافع الفهري⁽²⁾ الذي بعث بحملة استكشافية صغيرة إلى بلاد السودان حين قدومه إلى القيروان لأول مرة في القرن الأول الهجري/السابع الميلادي⁽³⁾.

لقد تواصلت العلاقات التجارية بين المنطقتين بعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب؛ بل لقد زادت قوة مع الوقت خاصة بعد استقلال المغرب الأوسط (الجزائر) عن المشرق الإسلامي.

أ. في العهد الرستمي:

إهتم الرستميون بالتجارة مع بلاد السودان منذ وقت مبكر جدا، أي منذ عهد الإمام الأول عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة بالمغرب الأوسط (الجزائر)⁽⁴⁾، فتوسعت تجارة الصحراء حيث تحكمت هذه الدولة في المسلكين الشرقي والأوسط، فأشرفت بذلك على تجارة القوافل المارة عبرهما. وقد اهتم الرستميون بحفر الآبار على هذه المسالك، وساهموا في تأمينها، بإرسال الجنود بصحبة القوافل لاجتياز المراحل غير الآمنة في داخل الصحراء لضمان تدفق ذهب السودان الذي يبدو أنه كان حافزا مهما لعبور التجار المسلمين الصحراء وممارسة نشاطهم التجاري مع الأفارقة⁽⁵⁾، مما أدى إلى انتقال التجارة والأموال إلى تيهرت من مصر والمغرب وإفريقية لخوفهم من أئمة الجور، فنشطت حركة التجارة بالمغرب الأوسط (الجزائر) في العهد الرستمي، وجذبت إليها قطاعات كبيرة من المواطنين، وحتى أئمة الدولة الرستمية كانوا يقومون بأعمالهم التجارية الخاصة، فالإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن⁽⁶⁾ مثلا كان

⁽¹⁾ هو المؤرخ المعروف ابن عبد الحكم، أنظر: أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم القرشي المصري، فتح

إفريقية والأندلس، تق: زهير إحدادن، مؤسسة إحدادن للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004م، ص 18-19.

⁽²⁾ عقبة بن نافع (ت 63هـ/683م): فاتح من كبار قادة المسلمين، غزا إفريقية وافتتح كثيرا من تخوم السودان، بني القيروان وجامعها. حارب البربر، قُتل على حدود الصحراء الجزائرية. أنظر: مجموعة مؤلفين: منجد اللغة والأعلام، ط 40، منشورات دار المشرق، توزيع المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، 2003م، ص 376. وأيضا: محمد عبد الغني جاسر، الموسوعة الإسلامية، دار البرهان، القاهرة، مصر، 2006م، ص 8.

⁽³⁾ عبد كريم عباس: "الصلات التجارية بين المغرب والسودان الغربي"، مقال نشر في مجلة التربية الأساسية، ع 4، جامعة بابل، العراق، سبتمبر 2010م، ص 48. وأيضا زيادية: مملكة سنغاي... المرجع نفسه، ص 81.

⁽⁴⁾ إبراهيم بكر بحاز: الدولة الرستمية 160-296هـ/777-909م، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط 2، نشر: جمعية التراث، القرارة، طبع: المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1994م، ص 208.

⁽⁵⁾ أحمد إلياس حسين: الإباضية في المغرب العربي، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السبب، سلطنة عمان، 1412هـ/1992م، ص 63. وأيضا الملي: المرجع السابق، ج 2، ص 75.

⁽⁶⁾ عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (ت: 209هـ/824م): هو ثاني أئمة الرستمين الإباضية في تاهرت (784م) بوع بوع بالإمامة بعد وفاة أبيه، قال عنه ابن الصغور المالكي: "... وكان عبد الوهاب ملكا ضخما وسلطانا قاهرا، اجتمع له أمر

يمارس التجارة قبل توليه الإمامة، حتى أنه أراد السفر إلى بلاد السودان لهذا الغرض لكن أباه منعه من ذلك⁽¹⁾.

وقد لعبت الإرتباطات القديمة بين سكان المنطقة واستتباب العدل والأمن في ربوع الدولة الرستمية دورا كبيرا في تطور العلاقات التجارية مع إفريقيا جنوب الصحراء، علما أن ارتباط الدولة الرستمية بممالك إفريقيا جنوب الصحراء كان بواسطة مسالك أربعة، ينطلق اثنان منها من العاصمة تيهرت، أما الإثنان الآخران فينطلقان من جبل نفوسة في شرق الدولة، إلا أن المسلكين الأولين هما الأساسيان⁽²⁾. علما أن الإرتباط الأقوى بالممالك الإفريقية جنوب الصحراء كان عبر المسلك الأوسط في الصحراء الكبرى والذي يمر عبر واحات الجزائر التي تمتد لمسافة 1200 كلم إلى الجنوب⁽³⁾.

ولقد أدى استقرار الإباضية على أطراف الصحراء في واحات فزان وجبل نفوسة وغدامس⁽⁴⁾ وواحات الجزائر منذ القرن الثاني هجري / الثامن ميلادي إلى ارتباطهم القوي بتجارة الصحراء، وعزز ذلك الإرتباط إعتناق مجموعات من قبيلتي هواة وزناتة للمذهب الإباضي وتخصص كثير منهم بالتجارة عبر الصحراء⁽⁵⁾. مما أدى إلى ازدهار كبير لتجارة الصحراء في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي، والذي كان سببا في قيام وتطوير كثير من المراكز التجارية في شمالي الصحراء، مثل: أودغست، وسجلماسة،⁽⁶⁾ وتوات، ودرعة، وأغمات، وغيرها... وبدأت بذلك تجارة المغرب الإسلامي تنتظم مع إفريقيا جنوب الصحراء⁽⁷⁾.

الإباضية وغيرهم ما لم يجتمع لإباضي غيره... " أنظر: مجموعة مؤلفين: منجد... المرجع السابق، ص 369. وأيضا: الميلي، المرجع السابق، ج2، ص72.

⁽¹⁾ مجاز: المرجع السابق، ص210.

⁽²⁾ نفسه، ص210.

⁽³⁾ إلياس حسين: المرجع نفسه، ص ص 64-65.

⁽⁴⁾ غدامس : مدينة تقع في جنوب بلاد المغرب ضاربة في بلاد السودان، تشتهر بدباغة الجلود، أهلها بربر. ينظر: الحموي،

المرجع السابق، ج4، ص187.

⁽⁵⁾ إلياس حسن: المرجع نفسه، ص16.

⁽⁶⁾ سجلماسة: هي مدينة تقع في جنوب المغرب الأقصى في طرف بلاد السودان بينها وبين فاس مسيرة عشرة أيام نحو

الجنوب، أهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالا لأنها على طريق القوافل إلى غانة التي بها معدن الذهب. ينظر: الحموي، المرجع

السابق، ج3، ص192.

⁽⁷⁾ إلياس حسن: المرجع السابق، ص11.

وقد لعبت خلال القرون الثلاثة التالية القوى السياسية⁽¹⁾ في المغرب الإسلامي دورا كبيرا في تشجيع تجارة القوافل الصحراوية وتوثيق صلة التجار المغاربة المسلمين مع بلاد السودان، خاصة مع مملكة غانة. ومع ظهور إمبراطورية مالي (1235-1488م) كأغنى مركز تجاري في السودان الغربي، بعد غانة، أخذ التجار يفتدون إليها من الشمال الإفريقي قبل نهاية القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي، خاصة بعد أن سيطر حكامها على منطقة وانقارا الغنية بمعدن الذهب⁽²⁾.

ب. في العهد المرابطي:

لقد ارتبطت تلمسان في العهد المرابطي بعلاقات تجارية طيبة مع ملوك مالي، فقد كانت لهلال القطلاني حاجب عبد الرحمن أبو تاشفين الأول مثلا صداقة مع منسي موسى ملك مالي بين سنتي (707-712هـ/1308-1313م) مما ساعد على تبادل تجاري بين تلمسان ومالي، كما أقام بعض التجار التلمسانيين بمالي منهم: محمد الفقيه الجزولي وصهره الفقيه عبد الواحد المقرري، والشيخ اللبان التلمساني، وغيرهم...⁽³⁾.

ج. في العهد الموحيدي:

زادت العلاقات التجارية مع السودان الغربي قوة في العهد الموحيدي بسبب الموقع الإستراتيجي للمغرب الأوسط، وكثافة الطرق الجبلية بين سجلماسة وتلمسان خير دليل على أنهما كانتا المركزين الرئيسيين في تجارة ما وراء الصحراء، كما أن تلمسان ظلت طوال القرن السادس هجري/الثاني عشر ميلادي منفذا أساسيا للتجارة بين الشرق والغرب⁽⁴⁾.

(1) يقصد بالقوى السياسية: الدول التي تعاقبت على حكم بلاد المغرب الإسلامي: الرستميون، الأغالبة، الأدارسة،

الفاطميون، الزيرون، الحماديون.

(2) بسام كامل عبد الرازق شقدان: تلمسان في العهد الزياني (633-962هـ / 1235-1555م)، ماجستير في التاريخ،

إشراف الدكتور هشام أبو رميلة، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، السنة الجامعية:

1422هـ/2002م، ص 200.

(3) شقدان: المرجع السابق، ص 200.

(4) علي زازو صورية: النشاط الإقتصادي بالمغرب الأوسط في العهد الزياني من القرن السابع إلى القرن التاسع هجريين/

الثالث عشر إلى الخامس عشر ميلاديين، مذكرة التخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ تخصص: المغرب الأوسط الحضاري،

إشراف الدكتورة بلهوارى فاطمة، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجليلي لياس، سيدي بلعباس،

الجزائر، السنة الجامعية: 2010/2011م، ص 102.

د. في العهد الزياني:

لقد أصبحت تلمسان في أيام حكم يغمراسن بن زيان (1236-1283م)⁽¹⁾ الذي اتخذها عاصمة للدولة مركزا تجاريا وماليا رئيسيا ليس في الجزائر فقط بل في المغرب الإسلامي كله، فقد كان يتم عن طريق مينائها هنين وعن طريق وهران تبادل تجاري مهم بين إفريقيا وأوروبا⁽²⁾.

كما قام يغمراسن ومن جاء بعده بتشجيع الحركة التجارية مع إفريقيا جنوب الصحراء وذلك بتوفير الأمن والماء للقوافل التجارية، وإقامة مؤسسات تجارية داخل تلمسان تعمل على جذب التجار من داخل المملكة وخارجها مثل الفنادق والأسواق، وسن القوانين التي تنظم التعامل بين التجار، فارتفعت مكانة تلمسان الاقتصادية في عهد الدولة الزيانية⁽³⁾.

لقد إهتم تجار عاصمة الزيانيين بتوفير السلع للسكان على مدار السنة، يستوردونها من مناطق مختلفة أهمها بلاد السودان. وساعدت الدولة التجار على توفير السلع حتى تصمد المدينة أمام أي تهديد خارجي. وخير دليل على ذلك شهادة الرحالة المغربي الحسن الوزان الذي يروي أنه شاهد بنفسه سفينة جنوية بميناء هنين تحمل بضائع وسلع لتلمسان تكفي المدينة لمدة خمس سنوات⁽⁴⁾.

إضافة لما ذكر فقد كانت تلمسان خلال القرن السابع هجري/الثالث عشر ميلادي من أكبر أسواق السلاح الوارد من أوروبا عن طريق ممالك إسبانيا النصرانية، وقطولونية خاصة، ثم من الجمهوريات الإيطالية والموانئ الجنوبية لفرنسا، وكان تجار تلمسان يبادلون هذا السلاح بالعاج والأبنوس وذهب إفريقيا بصورة خاصة، والصوف وريش النعام والريش الملون والتوابل والطرائف الإفريقية التي كان الناس يقبلون عليها، وهذا الإهتمام باستيراد السلاح فرضته الأوضاع العسكرية لدولة بني زيان الذين كانت جهودهم منصبة إلى المحافظة على كيانهم وسط حشد من الأعداء الذين يحيطون بهم من كل جانب، حيث كانت تلمسان مطمعا لجيرانهم الحفصيين والمرينيين⁽⁵⁾.

(1) يغمراسن بن زيان (أبو يحيى): (ت 681هـ/1283م)، زعيم بني زيان من قبيلة زناتة البربرية ومؤسس دولة بني زيان في المغرب الأوسط، استقل بتلمسان (633هـ/1235م)، حارب بني مرين. أنظر: مجموعة مؤلفين: منجد... المرجع السابق، ص 620.

(2) إسماعيل بن الأحمر: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تق، وتغ، وتع: هاني سلامة، نشر مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، جمهورية مصر العربية، 1421هـ/2001م، ص 48.

(3) الميلي: المرجع السابق، ج 2، ص 483. وأيضا: شقدان، المرجع السابق، ص ص 192-193.

(4) الوزان: المصدر السابق، ج 2، ص 16.

(5) ابن الأحمر: المرجع السابق، ص 16.

خلاصة القول قامت تلمسان في العصر الزياني بدور تجاري بارز بحكم موقعها الجغرافي المهم، فهي تقع على الطريق الواصل بين المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، وهي في نفس الوقت حلقة وصل بين أوروبا وإفريقيا جنوب الصحراء، ومينائها هنين محطة للسفن التجارية التي تجوب البحر الأبيض المتوسط، مما مكنها من التحكم في الحركة التجارية بين الشمال (أوروبا والمدن الإيطالية) والجنوب (إفريقيا جنوب الصحراء)، خاصة بعد تراجع المدن الساحلية مثل أرشكول، بالإضافة إلى تراجع الطريق التجاري الواقع غرب المغرب الأقصى، وتوجه القوافل التجارية نحو طريق سجلماسة- تلمسان، الأمر الذي أدى إلى تقدم تلمسان في جميع النواحي، فأصبحت تلمسان بذلك محط أنظار التجار من البلاد الإسلامية والممالك الأوروبية، لكن هذه المكانة التجارية بدأت تتراجع بشكل ملحوظ مع بداية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي بسبب تأثير القبائل العربية الهلالية على الحركة التجارية سلبا ونهبا، وزيادة سيطرة المدن الإيطالية مثل البندقية وجنوه على التجارة في المتوسط والعمل على إضعاف تجارة الزيانيين⁽¹⁾.

أضف إلى ذلك تحول مسالك التجارة الصحراوية خاصة تجارة مالي نحو مصر بدل تلمسان لقطع الإحتكار التجاري الزياني مع بلدان جنوب الصحراء، كما كان لمحاولات المرينيين السيطرة على الطريق التجاري الصحراوي الرابط بين بلاد السودان وتلمسان للحصول على ما تحصل عليه تلمسان من عائدات التجارة تأثيرا سلبيا على تلمسان والدولة الزيانية، ولم يتوقف الضغط المريني والحفصي إلا بعد طرد المسلمين من الأندلس، وبداية ضغط الإسبان والبرتغاليين على سواحل بلدان المغرب الإسلامي⁽²⁾.

لقد أدى هذا الضغط إلى اشتداد الصراع بين العثمانيين والإسبان للسيطرة على مدن المغرب الأوسط، إلى أن سقطت الدولة الزيانية وألحقت الجزائر بالدولة العثمانية فأصبحت ولاية تابعة لها⁽³⁾. مما نتج عنه هجرة التجار المسلمين إلى المغرب وأعقبهم اليهود فيما بعد إلى فاس، وتصف جل الكتب القديمة مدينة تلمسان أنها كانت تعتبر حتى أوائل القرن العاشر هجري/ السادس عشر ميلادي بمثابة ملتقى القوافل التجارية المتعاملة مع بلاد المغرب وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء، إلا أن دورها التجاري

(1) شقدان: المرجع السابق، ص 192، 247.

(2) نفسه، ص 247.

(3) زازو: المرجع السابق، ص 137.

تضاءل إلى حد كبير بعد سقوط وهران سنة 1505م ومرساها الكبير، خاصة مع البلدان الأوروبية⁽¹⁾.

لكن رغم هذه التطورات السياسية بقي المغرب الأوسط(الجزائر) يحتل مكانة مرموقة في مجال تمرير التجارة من بلاد المغرب صوب إفريقيا جنوب الصحراء أو العكس، وكان المحطة الآمنة لممر القوافل عبر الصحراء التي كانت تموج بتحركات هذه القوافل بصفة مستمرة ومنتظمة⁽²⁾.

لكن كيف كان يتم تنظيم وتحضير وتسيير هذه القوافل؟ وماهي المخاطر التي كانت تعترضها؟ وماهي أهم المسالك التي كانت تسلكها؟ وما مدى تأثير تجارة القوافل في الجانبين؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفصل القادم إن شاء الله.

(1) سيد أحمد بلبوري: وهران وضواحيها: إجتماعيا، سياسيا، إقتصاديا، إبان الإحتلال الإسباني 1505-1792م، أطروحة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتورة نور الهدى بوخالفة، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية: 1427-1428هـ / 2006-2007م، ص 338.

(2) بلبوري: نفسه، ص 325.

خلاصة الفصل:

تطرت في المبحث الأول إلى التعريف بالإطار الجغرافي والبشري للجزائر، بدءا بأصل التسمية ثم الموقع الجغرافي للجزائر وأهميتها الإستراتيجية، فهي تعتبر بوابة إفريقيا بالنسبة إلى أوروبا، كما تعتبر همزة وصل بين هذه الأخيرة وإفريقيا جنوب الصحراء. أما عن التضاريس فهي تختلف من منطقة إلى أخرى، حيث توجد الجبال والوديان والسهول والهضاب والصحراء، لذا فالجزائر تنقسم تضاريسيا إلى خمسة أقاليم متباينة من الشمال إلى الجنوب.

مناخ الجزائر يشبه مناخ بلدان شمال إفريقيا، فهو في الشمال متوسطي وفي الجنوب مداري وجاف. أما عن السكان فالجزائر تعتبر إحدى المحطات التي توافدت عليها الأجناس من جهات مختلفة منذ القدم، فهم ينقسمون إلى سكان السهول والجبال والصحراء. ولإعطاء فكرة أكثر وضوحا عن الأوضاع في الجزائر في تلك الفترة، أشار الباحث في البداية إلى الأوضاع السياسية والتي عرفت في العهد العثماني تقلبات وعدم استقرار داخليا وخارجيا لعدة عوامل منها: أن الأتراك كانوا مضطربين منذ البداية وطوال مدة حكمهم للجزائر أن يكونوا دائما في حالة تأهب لصد الهجمات المحتملة للأوروبيين على المناطق والمدن الساحلية، وكذا الصمود في وجه المنافسة التجارية الشرسة التي فرضتها عليهم الدول الأوروبية، لمواجهة العراقيين التي تعترض تجارتها الخارجية.

أما عن الأوضاع الاقتصادية فإن الساحة الاقتصادية بالجزائر لم تكن مستقرة في أوائل القرن السادس عشر الميلادي بسبب الإضطرابات التي كانت تحدث من حين لآخر نتيجة ضعف الدولة الزبانية في أواخر عهدها، لكن مع قدوم العثمانيين بدأ النشاط يدب في الحياة الاقتصادية حيث عرفت عدة مدن كقسطنطينة والجزائر وتلمسان تطورا ملحوظا شمل مختلف القطاعات مثل الزراعة والصناعة والتجارة، خاصة بعد لجوء الأندلسيين واليهود إلى الجزائر فارين بدينهم من بطش الإسبان المتعصبين. فقد عرفت الزراعة تنوعا ونشاطا كبيرا بفضل مهارة وحيوية المهاجرين الأندلسيين وما أدخلوه على الزراعة من طرق جديدة لم تكن معروفة من قبل، حيث اختصت كل منطقة من المناطق بانتاج نوع خاص حسب ظروفها الطبيعية والمناخية، كالحبوب والأشجار المثمرة والقطن والتبغ والأرز وغيرها من المحاصيل. لكن رغم هذا التنوع فإن الفلاحة في الجزائر كانت في أواخر العهد العثماني تعاني من عدة مشاكل وصعوبات عاقت تطورها وازدهارها. في حين بقيت الصناعة متواضعة أين انحصرت في الصناعات المحلية اليدوية وبعض الصناعات المعدنية التحويلية البسيطة.

أما عن الأوضاع الإجتماعية في الجزائر في تلك المرحلة فقد كانت هناك طبقتين متميزتين: الطبقة الحاكمة التركية ومعاونيها من كراغلة ويهود وقبائل المخزن، والطبقة المحكومة وتمثلها قبائل الرعية، وقد شهدت الجزائر في العهد العثماني موجة من المجاعات الأوبئة والجفاف والجراد في فترات مختلفة منها مجاعات 1604-1637م-1794 و1800م، وانتشار الوباء سنتي 1650 و1793م، وزحف الجراد سنة 1814م.

ثم تحدثت بعد ذلك عن علاقات الجزائر السياسية مع المغرب الأقصى وتونس في تلك الفترة، والتي طغا عليها التوتر والصراع والمواجهة العسكرية أحيانا بسبب قضية الحدود خاصة، مما أثر سلبا على وضعها الداخلي، وأدى إلى تأخرها عن مسايرة الركب الحضاري الأوروبي الذي انطلق مع أواخر القرن الخامس عشر ميلادي.

في المبحث الثالث تطرق الباحث إلى الإطار الجغرافي لإفريقيا جنوب الصحراء من حيث الموقع الجغرافي والأقاليم المكونة لهذه المنطقة، بالإضافة إلى تضاريسها، وفي الأخير عرج في المبحث الرابع على الجذور التاريخية للعلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، والتي كانت قديمة قدم وجود الإنسان على جانبي الصحراء الكبرى، فقد أقام القرطاجيون منذ ما قبل التاريخ مراكز تجارية في الشمال، واتصلوا بالسكان في الجانب الآخر من الصحراء، وسار على دربهم الرومان حتى أنهم وصلوا إلى إقليم فزان، أما بعد انتشار الإسلام في بلاد المغرب فقد أقامت الدول المتعاقبة على حكم الجزائر (المغرب الأوسط) علاقات تجارية قوية مع ممالك إفريقيا جنوب الصحراء، مثل الدولة الرستمية والمرابطية والموحدية والزيانية هذه الأخيرة التي اتخذت لتلمسان عاصمة، مما جعلها مركزا تجاريا رئيسيا في الجزائر وفي كل المغرب الإسلامي، بفضل تشجيع حكامها للتجار والتجارة داخل المملكة وخارجها، لكن هذا الدور لتلمسان أخذ يضعف مع مطلع القرن السادس عشر ميلادي وبالضبط منذ احتلال الإسبان لوهران ومرساها الكبير سنة 1505م، إلا أنه رغم هذه التطورات السياسية بقيت الجزائر تحتل مكانة متميزة في مجال تمرير التجارة من بلاد المغرب صوب إفريقيا جنوب الصحراء أو العكس.

الفصل الثاني

القوافل التجارية ومسالكها من الجزائر إلى إفريقيا جنوب الصحراء في العصر الحديث

أولاً: تنظيم وتحضير القافلة.

ثانياً: دور القوافل التجارية وتأثيرها

ثالثاً: المخاطر والصعوبات التي تواجه القافلة.

رابعاً: مسالك التجارة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء

الفصل الثاني

القوافل التجارية ومسالكها من الجزائر إلى إفريقيا جنوب الصحراء

في العصر الحديث

تُعد قوافل الصحراء من أهم العوامل المساهمة في توثيق الروابط بين الشعوب، ورمزا من رموز الإتصال المحكم بين اللغة والعقيدة والثقافة والفكر والتفاعل الحضاري. فقد كانت الصحراء الكبرى تموج بقوافل التجار والعلماء والدعاة والرحالة المسلمين الذين ينتقلون من بلد إلى آخر. كما كانت تموج أيضا باللاجئين السياسيين الذين يعملون من أجل استرداد أمجادهم في كل مكان يجلون فيه⁽¹⁾.

ولم تكن التجارة عبر الصحراء في العصر الإسلامي هدفا في حد ذاتها بقدر ما كانت وسيلة لنشر الإسلام وحضارته، وكانت تحمل إلى البلدان الإفريقية علاوة على الإسلام والحضارة الإسلامية مجموعة من السلع التجارية، وتجلب منها ما تحتاجه بلدان المغرب.⁽²⁾

ولقد جابت قوافل الجزائر مناطق عديدة، وبمختلف الاتجاهات، لترتاد المراكز التجارية المختلفة، وكان حجمها يختلف من حيث العدد من قافلة إلى أخرى، وسارت في طرق مختلفة، كما غيرت من مسارها حين اقتضى الأمر ذلك بحثا عن الأمن والسلامة، واختلفت حمولتها من حيث النوع والكمية والأهمية، حسب متطلبات السوق، وكانت هذه القوافل في كثير من الأحيان عرضة لقطاع الطرق، لذا فنحن نتساءل: ما هو مفهوم القافلة؟ وهل كانت تسير وفق نظام معين؟ وما هي المخاطر التي كانت تعترضها أثناء تنقلها؟ وماهي أهم المسالك التي كانت ترتادها للوصول إلى الأسواق المقصودة؟

(1) عبد الرحمن عمر الماحي: "مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل

الإفريقي"، مقال نشر في مدونة أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، أيام: 15-17 محرم 1428 من ميلاد الرسول(ص) / 12-14، 1998 أفرنجي، تنظيم كلية الآداب تطوان، المغرب، وكلية

الدعوة الإسلامية طرابلس، الجماهيرية، مر وتق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،

الجماهيرية العظمى، 1999 أفرنجي، ص68.

(2) نفسه، ص68.

أولاً: تنظيم وتحضير القافلة

يمكن القول إن تنظيم القوافل التجارية، ومواعيد تحركاتها ومسيرتها، ومدى ضخامتها ومقدار حملتها، إلى غير ذلك من التفاصيل، لاتزال غير معروفة بشكل محدد ودقيق⁽¹⁾.

أ. مفهوم القافلة:

1 - لغة: ورد تعريف للقافلة في لسان العرب على النحو التالي⁽²⁾:

يقال جاءهم القفل والقُفول، واشتق اسم القافلة من ذلك لأنهم يقفلون، وقد جاء القفل بمعنى القُفول (بالضم). قال أبو منصور: سميت القافلة قافلة، تفاعلاً بقُفولها عن سفرها الذي ابتدأته، قال: وظن ابن قتيبة أن عوام الناس يغلطون في تسميتهم الناهضين في سفر أنشؤوه قافلة، وأنها لا تسمى قافلة إلا منصرفة إلى وطنها، وهذا غلط، مازالت العرب تسمى الناهضين في ابتداء الأسفار قافلة تفاعلاً بأن يبسر الله لها القُفول وهو شائع في كلام فصحاءهم إلى اليوم. والقافلة: الرفقة الراجعة من السفر.

والمقفل: مصدر قفل يقفل إذا عاد من السفر، والجمع هو القفل.

قال: وقد يقال للسفر قفول في الذهاب والمجيء، وأكثر ما يستعمل في الرجوع.

نستنتج مما سبق أن التعريف اللغوي للقافلة مقترن فقط بفعل الرجوع أو العودة إلى الديار.

2- أما اصطلاحاً: فالمقصود بها القافلة التجارية، وهي تنظيم مسبق تقوم به جماعات أغلبها تجار قد تختلف أصولهم ولكن هدفها اقتصادي هو الربح التجاري، والمتاجرة بيعاً وشراءً، هذه القافلة لها مكونات بشرية وحيوانية.

تعتبر القافلة الوسيلة الوحيدة الممكنة للتنقل في الصحراء في ذلك الوقت، وذلك باستخدام الجمال، حيث تضم مجموعات متعددة من التجار الذين لا تربط بينهم سوى مصلحة الطريق⁽³⁾، كما

(1) عمار بن خروف: العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر

هجري/السادس عشر ميلادي، ج2، نشر وتوزيع وطبع دار الأمل، الجزائر، 2008م، ص63.

(2) الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور: لسان العرب المحيط، مج 5، (ل)، تح: عامر أحمد حيدر، مر: عبد

المنعم خليل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005، ص634.

(3) محمد المبارك الميلي: صحراؤنا، نشر كتاب البعث، تونس، 1958م، ص23.

أن هناك ما يسمى بالنجع أو القبيلة السيارة التي تنتقل بكاملها، ولذلك فهي أبطأ من الأولى ولكنها أضمن بالنسبة للتجار⁽¹⁾.

ولا نستطيع تقدير عدد القوافل التي كانت تجهز من الجزائر إلى إفريقيا جنوب الصحراء في القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي وما بعده، غير أنها على ما يبدو للباحث أنها كانت أقل نشاطا مما كانت عليه في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، فقد قدر ابن خلدون (عاش في القرن الرابع عشر الميلادي) حجم كل قافلة بما لا يقل عن إثنا عشر ألف جمل، وذهب إلى أن كل القرى والمدن الواقعة على مشارف الصحراء الشمالية كانت تشترك في تجهيز تلك القوافل باتجاه إفريقيا جنوب الصحراء⁽²⁾.

أما عن عدد أفراد القافلة فليس هناك عدد محدد للأشخاص المشاركين في القافلة، أقلها إثنان إلى أكثر من ذلك، وكثيرا ما يرتبط العدد بأمن الطريق، فإذا كان الطريق آمنا يستطيع إثنان أن يسيرا قافلة، أما إذا كانت به أخطار فالمسافرين يكونون في حاجة إلى بعضهم البعض⁽³⁾.

أما عن وسائل النقل، فهي تختلف من مكان لآخر: ففي التل يستعمل التجار الجمال والبغال للسلع، والخيول للأشخاص، وفي الصحراء، يستعملون الجمال والحمير معا⁽⁴⁾.

فالجمال هي وسيلة النقل الرئيسية في القوافل التجارية البرية، ثم يأتي بعدها الخيل، والبغال، وغيرها من الحيوانات القادرة على حمل البضائع الثقيلة، وقطع المسافات البعيدة وتحمل المشاق⁽⁵⁾.

فظهر الجمال أعطى فرصا مثالية لتعمير الصحراء واستغلال مواردها الطبيعية، وبفضله أصبحت الصحراء منطقة عبور للتجارة بين البحر الأبيض المتوسط وإفريقيا جنوب الصحراء⁽⁶⁾. ويتميز الجمال بخصائص عديدة جعلته وسيلة النقل المفضلة لتجار القوافل خاصة في الصحراء، منها:

(1) الزبيدي: المرجع السابق، ص 68.

(2) زيادة: الحضارة العربية...، المرجع السابق، الهامش رقم (11)، ص 62.

(3) محمد الصالح حوتية: "توات والقوافل التجارية"، مقال نشر في كتاب طريق القوافل، نشر: م. و. ب. ع. ق. ت. ع. إ. ت، مطابع عمار قربي، باتنة، الجزائر، 2001م، ص 36.

(4) الزبيدي: المرجع نفسه، ص 68.

(5) بن خروف: العلاقات الاقتصادية...، المرجع السابق، ص 64.

(6) إسماعيل العربي: الصحراء الكبرى وشواطئها، نشر: م. و. ك. طبع: م. و. ف. م. وحدة الرغبة، الجزائر، 1983م، ص 44.

أنه الحيوان الوحيد الذي يستطيع العيش خارج الواحات، وقطع مسافات طويلة في الصحراء في كل الإتجاهات دون أن يرتبط بنقاط الماء، كما بإمكانه تخزين كميات كبيرة من الماء بين جنبه. وهو الحيوان الوحيد الذي ساعد الإنسان في التغلب على العائق المرعب المتمثل في آلاف الكيلومترات من القفار، لعب دورا أساسيا في تاريخ الصحراء⁽¹⁾. كما باستطاعة هذا الحيوان العجيب العيش ثمانية أيام دون أن يأكل وحتى دون أن يشرب، وبدونه لم يكن بالإمكان معرفة الصحراء⁽²⁾.

ب. مكونات القافلة وهيكلتها:

تقود القوافل مجموعات بشرية اختلفت حسب مهامها، معتمدة على الوسيلة الأساسية للنقل والتي تتمثل في الحيوانات التي يتم اختيارها وفق شروط معينة لتؤدي هذا الدور، لذا وجب الوقوف عند هذه المكونات سواء البشرية مع تحديد وإبراز مهام كل واحدة منها، أو الحيوانية منها⁽³⁾.

1. المكونات البشرية:

1.1- قائد القافلة:

ويطلق عليه أيضا شيخ القافلة، وهو المسؤول الأول عن القافلة، وأمنها ذهابا وإيابا، وعادة ما يكون ممن له خبرة وتجربة سابقة في الأسفار البعيدة خاصة عبر المسالك الصحراوية، وفي تسيير قوافل تجارية لمرات عديدة، كما يجب أن يتمتع باحترام وثقة مرافقيه. فقد ذكر الرحالة ابن بطوطة في سفره سنة 753هـ/1352م إلى بلاد السودان قائلا: "... ثم سافرت.. في رفقة مقدمها (أي قائدها) أبو محمد يندكان المسوفي... وفي القافلة من تجار سجلماسة وغيرهم..."⁽⁴⁾ ؛ ويذكر الفرنسي دوما (ma Dau) في كتابه "الصحراء الكبرى"، الذي نشره عام 1848م، أنه أثناء رحلته في الصحراء الجزائرية

(1) Lieutenant d'Armagnac: Le M'zab et les pays chaamba (sahara), Edition Baconnier Frères, Alger, 1937,p14.

(2) Jean-marc Durou: L'exploration du sahara, éditions Actes Sud,France,1993,p109.

(3) رشيد خفيان: الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنين 11-12هـ/17-18م، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تخصص: العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير، إشراف الدكتور خليفة حماش، قسم التاريخ، كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2013-2014م، ص62.

(4) أبو عبد الله محمد ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، تح وتقع علي المنتصر الكتاني، نشر مؤسسة الرسالة، ط4، بيروت، لبنان، 1405هـ/1985م، ص773.

تَعْرِفُ فِي مِثْلِي عَلَى شَخْصٍ يَدْعَى شَقُومَ (cheggum)⁽¹⁾، يَعْمَلُ قَائِدًا لِلْقَوَافِلِ الْمُتَجَهَّةِ مِنْ مِثْلِي إِلَى عَيْنِ صَالِحٍ⁽²⁾.

أما دوره الرئيس فيكمُن في توجيه نواة القافلة، وتنظيم سيرها الذي يتغير بتغير التضاريس، وحالة الأمن في الطريق، وبوزن الحمولة وثقلها⁽³⁾.

1.2 - الدليل:

وهو يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية بعد قائد القافلة، ويطلق عليه أيضا اسم الخبير أو المنير أو المرشد، باعتباره سائق القافلة. لذا كانت القافلة تعتمد في أغلب الأحيان على دليل ذو معرفة دقيقة بالبراري والقفار التي تقطعها القافلة، ودراية بالنجوم ومنازلها، وهاته المعرفة هي علم قائم بذاته تُعرف به أحوال الأمكنة من غير دلالة عليه بالأمارات المحسوسة، إذ أن بعض أجزاء المسلك مطموسة المعالم، لا يهتدي فيها إلا من سار عليها مرارا، وهذا شأن المسالك الصحراوية على الخصوص⁽⁴⁾، وهؤلاء الأدلاء على مستوى من الحذق والدراية لكثرة ترددهم على تلك المناطق، مهمتهم إختيار الطريق الأفضل والأقصر لضمان المرور بمناطق تنتشر فيها الآبار لتوفير الماء والمرعى للقافلة. فقد ذكر ابن خلدون في هذا الصدد: "... لا يهتدي فيها للسبيل ولا يمر الوارد إلا بالدليل الخبير من المثلثين الطواعن بذلك القفر، يستأجره التجار على الدربة بهم فيها بأوفر الشروط..."⁽⁵⁾

ومن العجائب ذات الصلة بالموضوع ما حكاه ابن بطوطة من اكتشافه أن الدليل الذي كان يقودهم في رحلتهم "... هو أعور العين الواحدة، مريض الثانية، وهو أعرف الناس بالطريق..."⁽⁶⁾.

إن المناطق المؤدية لبلاد السودان مقفرة، مما يعني أن هؤلاء الأدلاء امتهنوا هذه الحرفة واعتمدها مصدرا للدخل، كون المناطق بين الجزائر و بلاد السودان هي مناطق يُسيطر عليها بإحكام رجال

⁽¹⁾ هو تارقي من الحفار، إتمى منذ 1839م إلى قبيلة الشعانية براقة. أنظر:

JeanMelia:Ghardaia,Bibliothèquecharpentier,Fasquelle Editeurs, Paris,

1930,p189.

⁽²⁾ Melia: Ibid,p182.

⁽³⁾ خفيان: المرجع السابق، ص62.

⁽⁴⁾ بن خروف: العلاقات الإقتصادية... المرجع السابق، ص 64.

⁽⁵⁾ عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصروهم من ذوي السلطان الأكبر، مج7، نشر دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، لبنان، 1427هـ/2006م، ص216.

⁽⁶⁾ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص774.

التوارق، ولا يمكن العبور من دون الإتصال بهم والإستعانة بهم على الأقل من باب تأمين سلامة القوافل⁽¹⁾. من هنا نستنتج أنه عادة ما يكون الدليل أهل المنطقة بحكم إقامته وتأقلمه مع طبيعة بلاده.

إن دور الدليل تواصل واستمر عبر الأزمنة، فهذا المستكشف الفرنسي رينيه كايبه (René caillie) يصف بإعجاب سنة 1828م، دور دليل القافلة التي كان يوجد فيها، بأنه يتقدم القافلة ليدهم على الطريق، مستدلا بالكثبان، والصخور، وتغير لون الرمل، و باقات الأعشاب، والتي يعتبرها علامات مؤكدة على صحة المسلك، رغم أنه لا يملك لا بوصلة ولا أي وسيلة أخرى مساعدة، مع عدم وضوح المسلك⁽²⁾.

إن الإستعانة بالدليل في الطريق لا يخص القوافل التجارية فقط، فحتى قوافل الحج أو ما يسمى بركب الحجيج كانت تُؤجّر عارفا بالطريق وخباياها لأخذ أفضل السبل وتفادي المرور على المناطق غير الآمنة والصعبة، إذ كثيرا ما يتصارع الأدلاء مع المهاجمين من توارق وخنافسة وغيرهم⁽³⁾. فيذكر العياشي في رحلته إلى الحج: "... وخرج معنا جملة من أهلها (أي بلاد أوقروت) قاصدين الحج وأخذنا على طريق وادي أمقيدن ومعنا رجل من عرب الخنافسة اكتراه أمير الركب يدهم على الطريق..."⁽⁴⁾ ويتم كراء الدليل بثمن معين كمتقالين من الذهب، أو ثلاثون دورو فضية، هذا الثمن الذي يشترك فيه أصحاب القافلة، مع العلم أنه يختلف حسب طول الطريق، وعدد الأيام، والمحطات التي يقضيها الدليل، لأنه يتم أحيانا استبداله في بعض المحطات. فهذا الدرعي في كتابه "الرحلة الناصرية" في بداية القرن الثامن عشر يقول: "...واستأجرنا هناك رجلا يهدينا الطريق إلى بوسمغون بمثقال اسمه محمد بن عيسى..."⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ عمار غرايسة: من الأدوار الحضارية للمدن الصحراوية وارجلان أنموذجا، مقال /بي/ مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع15، جامعة غرداية، الجزائر، 2011م، ص ص 422 - 423.

⁽²⁾ René caillie : Voyage à Tombouctou 2 Editions la découverte , Paris, 1985,p253

⁽³⁾ الزيري: المرجع السابق، ص162.

⁽⁴⁾ عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسماة ماء الموائد، تح وتخ وتع: أحمد فريد المزيدي، مج1، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011م، ص63.

⁽⁵⁾ خفيان: المرجع السابق، ص65.

1.3 - الترجمان:

يظهر دور وأهمية الترجمان مع وصول القافلة التجارية إلى بلاد السودان، حيث تظهر الفوارق اللسانية بين المتعاملين من الجانبين، وقد كان دورهم ذو أهمية بالغة بالنسبة للتجار المغاربة والجزائريين، على اعتبار أن جانبا من العملية التجارية يتحقق بواسطتهم ووساطتهم بين قطبي المبادلة التجارية، فرغم أن هذه المبادلات التجارية في بداياتها الأولى كانت تعتمد على لغة الإشارة، إلا أنه مع كثافة هذا النشاط عبر الأزمنة الطويلة لم يعد من المعقول استدامة هذه الطريقة البدائية في التفاهم والحوار، كما أن ضرورة معرفة التجار بالسوق وأحوالها يقتضي أن تجري الألسن بين المتعاملين⁽¹⁾. ومن الرحالة الذين تحدثوا عن الترجمان ابن بطوطة، حيث يذكر أن التجار عند وصولهم إلى والاتن وقفوا بين يدي نائب سلطانها وهو يكلمهم بترجمان⁽²⁾، ويذكر في موضع آخر اسم ترجمان في مالي: "... ولقيت الترجمان دوغا، وهو من أفاضل السودان وكبارهم..."⁽³⁾.

كما يخبرنا ابن خلدون في تاريخه أن سلطان مالي منسا موسى (ت 1233م) حينما أرسل وفادته للسلطان أبي الحسن بتلمسان كان يرافقتها "...ترجمان من المثلثين المجاورين لممالكهم من صنهاجة..."⁽⁴⁾، مما يؤكد الحقيقة الدالة على مرافقة الترجمة للدخول بالتجارة لبلاد السودان وبواسطتهم يتم تصريف شؤونهم وتدار عملياتهم.

من خلال كلام ابن خلدون يمكن أن نستنتج أن أغلب هؤلاء الترجمة كانوا من رجال التوارق كذلك بحكم وسطية موقعهم بين أهل المغرب الأوسط (الجزائر) وأهل السودان، مما يعني كذلك تحكّمهم في مسار الحركة التجارية بين طرفي الصحراء الكبرى⁽⁵⁾.

وأكد الحسن الوزان وجود المترجم ودوره في القافلة قائلا: "...ونظرا لعدم فهمه لساننا، وعدم فهمنا لغته، فقد كان من اللازم أن يكون بيننا ترجمان..."⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ غرايسة: المرجع السابق، ص 423.

⁽²⁾ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 776.

⁽³⁾ نفسه، ص 781.

⁽⁴⁾ ابن خلدون: تاريخ...، المرجع السابق، ص 316.

⁽⁵⁾ غرايسة: المرجع نفسه، ص 423.

⁽⁶⁾ الوزان: المصدر السابق، ص 71.

1.4- الشواف:

ويسمى أيضا التكشيف، وهو إسم يُطلق على كل رجل تكتريه القافلة بثمن متفق عليه مسبقا، وعمله ينحصر غالبا في أنه عند اقتراب القافلة من أحد المراكز التجارية المهمة في الصحراء، يتقدم القافلة حاملا معه رسائل من تجار القافلة إلى أصحابهم بالمدينة المقصودة، ليكتروا لهم الدور للنزول بها مدة إقامتهم بها، وحسب ابن بطوطة فغالبا ما ينتمي هذا الشخص إلى قبيلة مسوفة، فيقول: "...واكثرنا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب، وهو من مسوفة... " (1).

1.5 - الطيب:

وهو شخص له معرفة جيدة بالأعشاب المفيدة لبعض الأمراض التي يمكن أن تصيب المسافرين خلال تنقلهم.

1.6 الفقيه:

ويشترط فيه فهم الأمور الشرعية، بحيث يكون قادرا على الإفتاء عما لبس لأعضاء القافلة من تساؤلات تتصل بالأمور الدينية.

1.7- الحراس:

ومن بين التنظيمات المسبقة لانطلاق القوافل التجارية، هو اتخاذ احتياطاتها من مخاطر الطريق خاصة قطاع الطرق، واللصوص، لذا وجب عليها تكليف حراس لحماية القافلة والدفاع عنها أثناء سيرها ليلا أو نهارا من شر هؤلاء، إذ كانت من عادة التجار استئجار حراس حمايتهم من أخطار المناطق الغير الآمنة، و يكون هؤلاء الرجال مسلحون بالبنادق، مقابل أجرة شهرية تتراوح ما بين عشرة وإثنا عشر مثقالا، ومن خصائص هؤلاء الحراس القوة والشجاعة، وتنوع الإنتماءات القبلية، حتى يكثر أنصارها ويصعب الإعتداء عليها (2).

(1) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص ص774-775.

(2) حوتية: آل كنتة، المرجع السابق، ص 103. وبعزيز: المرجع السابق، ص 45. وأيضا: خفيان: المرجع السابق،

ص67.

1.8- الوكلاء:

ويعتبرون من العناصر المهمة في القافلة، إذ عادة ما يتم اختيارهم على أساس القرابة، دورهم يتمثل في الإهتمام بالمصالح التجارية، وإعداد البضائع، والمشتريين وإخبار القوافل بالأسعار، والسلع المطلوبة، وأوضاع الحركة التجارية وتغيراتها.

ويتم اختيار الوكلاء لأسباب منها: بعد المسافات بين المراكز التجارية، وبغية تحقيق الربح، ولذلك يحتاج التجار أن يكون لهم عيون في المناطق المختلفة، لتزويدهم بحركة الأسواق، من حيث السلع المطلوبة وأسعارها، وفي نفس الوقت السيطرة على العملية التجارية، ويستقبلون ما يرسل إليهم من السلع، من طرف موكلهم وبالتالي تسهيل العملية التجارية⁽¹⁾.

2. المكونات الحيوانية:

لقد كانت الوسيلة الأساسية للسفر قديما وحتى الفترة المدروسة تتمثل أساسا في الحيوانات بمختلف أنواعها، من خيل وبغال وحمير وإبل، وحتى المشي على الأقدام، فالقافلة التجارية كانت تضم عدد معتبر من الحيوانات المختلفة، بعضها ملك لأصحابها، والبعض الآخر مكتراة⁽²⁾. ففي المناطق الشمالية كانت تخصص الجمال والخيل لنقل البضائع، أما الأشخاص فيستعملون البغال والخيول، وفي الجنوب تخصص الجمال والأحمر المصرية لنقل البضائع، أما الأشخاص فيستعملون الجمال (المهر خاصة)، وفيما يلي أهم الحيوانات مع ذكر بعض خصائصها:

2.1- الإبل:

تحتل في المرتبة الأولى من حيث العدد والأهمية لما تمتاز بها من قدرة كبيرة على قطع المسافات الطويلة، وتحمل مشاق الطريق⁽³⁾، وقد ظلت الإبل أهم وسيلة للنقل خاصة في المناطق الصحراوية، لما تمتاز به من تكوين جسماني يؤهلها على التحمل، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن طعامها غير مكلف لأنه متوفر في الطريق، إذ هي ترعى على النباتات الجافة والشوكية التي تنمو في الصحراء، كما أن الجمال معروفة بمقاومتها للعطش، إذ باستطاعتها البقاء لمدة أسبوع كامل دون ماء، وتعتبر في حد ذاتها مصدر مهم للغذاء والماء بعد ذبحها، كما بإمكانها قطع مسافات طويلة قد تتعدى أحيانا

⁽¹⁾ خفيان: المرجع السابق، ص 67.

⁽²⁾ نفسه، ص 68.

⁽³⁾ بن خروف: العلاقات الاقتصادية ...، ج 2، المرجع السابق، ص 64.

أربعمئة ميل في أربعة أيام، إضافة إلى ذلك فإنها قادرة على السير ما بين أربعة عشر وخمسة عشر ساعة دون توقف، حمل قطارين نصف (250 كلغ) من السلع والحمولة⁽¹⁾. أما فيما يخص سعرها فإن أحسن الجمال كان يصل إلى 400 بوجو أي حوالي 720 فرنك⁽²⁾.

2- الخيل والبغال:

تعتبر الخيل والبغال من أهم المكونات الحيوانية للقوافل التجارية، ومن أهم وسائل نقلها، ولقدرتها على حمل الأثقال، يقول العياشي: "...وقد قدمنا معنا بثلاثة من الخيل... في أرض مزقت من حروثها النعال، وآلت أخفاف الإبل وحوافر البغال..."⁽³⁾

ج. تنظيم القافلة:

تتخذ القافلة في تجارتها تنظيماً محكماً بدءاً من الإنطلاق إلى اتخاذ التجهيزات المهمة من أجل الوصول إلى الهدف والعودة سالمة. ولقد كان التجار يسيرون في قوافل كثيرة، يحمل جزء من الإبل البضائع والجزء الآخر يحمل الماء والزاد، والباقي لا يحمل هذا ولا ذلك، بل يستخدم خزاناً للمياه فقط، ولذلك مثلت الإبل جسر التلاقي بين شمال الصحراء وجنوبها⁽⁴⁾.

1. عدد الجمال:

إن عدد الجمال في القافلة الواحدة لم يكن ثابتاً عبر الأزمنة والعصور، فبينما قدر ابن خلدون عددها في زمانه (القرن الرابع عشر ميلادي)، بما لا يقل عن إثنا عشر ألف جمل، إلا أننا نلاحظ أن هذا العدد قد انخفض كثيراً بعد ذلك، حيث ذكر الرحالة الفرنسي كاييه (caillie) في عشرينات القرن التاسع عشر، أنه سافر في قافلة بها حوالي ستمائة جمل فقط⁽⁵⁾.

بينما يذكر دورو (Durou) متحدثاً عن كاييه، أن هذا الأخير رجع سنة 1828م، من بلاد السودان مع قافلة تضم ألف وأربع مائة جمل، محملة بالذهب، والأقمشة، وريش النعام، ومواد سودانية أخرى، إضافة إلى عدد كبير من العبيد الذين سباعون في المغرب الأقصى، لكنه في موضع آخر، عند

⁽¹⁾ حوتية: "توات والقوافل..."، المرجع السابق، ص68.

⁽²⁾ خفيان: المرجع السابق، ص70.

⁽³⁾ خفيان: نفسه، ص70.

⁽⁴⁾ الهادي المبروك الدالي: التاريخ السياسي والإقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن 15م إلى بداية القرن 18م، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ربيع الثاني 1420هـ/ أوت 1999م، ص76.

⁽⁵⁾ caillié : op-cit,p255.

حديثه عن رجوع كاييه إلى الجزائر، يقدم الرقم ست مائة عدد جمال القافلة التي انضم إليها، والتي يقودها مغاربة (Maures Zenagues) (1).

وحسب رأي الخاص فإن هذا الإنخفاض الكبير في عدد الجمال المكونة للقوافل التجارية بين القرنين الرابع عشر والتاسع عشر للميلاد، يعود إلى تراجع تجارة الجزائر وبلدان المغرب مع دول إفريقيا جنوب الصحراء عن طريق البر، لأسباب وعوامل كثيرة نذكر من بينها:

- الكشوفات الجغرافية: إكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من طرف البرتغاليين.

- التدخل الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء: إنشاء مراكز تجارية على السواحل.

كما أن عدد الجمال المكونة القافلة يتراوح حسب المواسم والفترات، وتشتري من القبائل الرحل الصحراوية. وعندما يصل التجار إلى السودان يبيعون الجمال لاقتصاد نفقات تغذيتها والعناية بها. وعند عودتهم يشترون جمالا جديدة، وبعد انتهاء السفر يبيعون ما تبقى لهم منها (2).

2. حمولتها:

لأخذ فكرة عن عن حمولة الجمل الواحد، نشير إلى ما أورده أحد الكتاب الفرنسيين مارتين (Martin) سنة 1246هـ/1830م، بأن أحد الأشخاص تعهد لأحد التجار الجزائريين بنقل عشر حمولات من التبغ من تمنطيط إلى أروان وبيعها مقابل تسعة مئتا كيل من الذهب، مما يجعل الحمولة الواحدة يساوي ثمنها أقل من مئتا كيل، أي ما ينقله الجمل الواحد ثماني غرامات من الذهب الخالص وهو ما يعادل إثنا وثلاثون فرنك بسعر ذلك الوقت للقنطار الواحد (3).

أما رونييه كاييه (René caillié) في كتابه "سفر إلى تمبكتو" فأورد أن حمولة جمل واحد تساوي خمس مائة رطل (Livres) (حوالي 227 كلغ)، وهو تقريبا نفس الوزن الذي ذكره حوتية (250 كلغ)، و ثمن نقلها من تمبكتو إلى تافيلالت يتراوح بين عشرة وإثنا عشر مئتا كيل ذهب (4)، والتي تدفع

(1) Durou: op-cit,p109 .

(2) عثمان منصورى: التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، مساهمة في تاريخ المغرب الإقتصادي، منشورات الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1422هـ/2001م، ص 153.

(3) حوتية: آل كتنة، المرجع السابق، ص 100.

(4) مئتا كيل الذهب قدر بـ 12 فرنك، وبـ 4 فرنكات نقدا. أنظر: caillié: op-cit,p257.

مسبقاً⁽¹⁾. في حين أن هناك من الباحثين من أشار إلى أن الجمل يستطيع أن يحمل ما بين 120 و150 كلغ⁽²⁾.

3. نظام سيرها:

تبدأ القافلة سيرها مع الصباح الباكر، وتستغرق عملية تحميل الجمال بالبضائع عدة ساعات، بسبب تمنع الجمال وخاصة في الأيام الأولى من السفر، وتحمل القافلة معها جمالا إضافية، من أجل التغذية وحمل الزاد ونقل الماء والأمتعة⁽³⁾، وفي منتصف النهار تتوقف القافلة ليستريح المسافرون مدة ساعتين يخرجون فيها زادهم المكون أساسا من التمر والقديد والشاي، عندها تكون القافلة قد سارت عشر ساعات قطعت خلالها حوالي 45 كلم، علما أن هذه النسبة ليست ثابتة فقد تزيد أو تنقص بين رحلة وأخرى، فهي خاضعة لطبيعة المسلك وتوزيع الآبار واختلاف الفصول⁽⁴⁾.

فإذا كان فصل الشتاء فإن القافلة تقطع أربعين كيلومترا بسبب قصر اليوم، أما في فصل الصيف فإن المسافة قد تصل إلى خمسين، وهذا راجع إلى طول اليوم، وعادة ما يكون السير شتاء في الفترة الصباحية ليستريح الإبل في الليل، أما في الصيف فإنها تبدأ السير من الليل، وعليه فالإبل قادرة على السير ما بين 14-15 ساعة في اليوم دون توقف⁽⁵⁾.

وقد يتغير نظام سير القافلة بسبب الحرارة الشديدة في الصحراء، فحسب رواية الرحالة المغربي ابن بطوطة "... ودخلنا صحراء شديدة الحر... وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسري الليل كله وننزل عند الصباح..."⁽⁶⁾.

وهذا ما يؤكد النقيب روجيه ليسيل (Reger Leselle) أثناء رحلته في القرن التاسع عشر في صحراء الجزائر، قائلا: "... في الشتاء نمشي طول اليوم، أما في الصيف فنغادر المخيم بعد القايلة ولا نتوقف إلى الفجر..."⁽¹⁾

⁽¹⁾ حوتية: " توات والقوافل... "، المرجع السابق، ص36. وكذلك: caillié: op-cit,p257

⁽²⁾ منصورى: المرجع السابق، ص153.

⁽³⁾ نفسه، ص152.

⁽⁴⁾ حوتية: آل كنتة، المرجع نفسه، ص105.

⁽⁵⁾ حوتية: " توات والقوافل التجارية..."، المرجع السابق، ص36.

⁽⁶⁾ ابن بطوطة: المصدر السابق، ص775.

ويشير الرحالة الألماني جيرهالد رولفس (G.Rohlfs) في رحلته التي قام بها بين 1863 و1864م، إلى وجود محطات استراحة للقافلة (Caravansérail) في كل 40 كلم تقريبا، وبين هذه المحطات نجد مراكز يحميها رجال الصباحية (Spahis) لتأمين خدمة البريد⁽²⁾.

4. سرعتها:

كانت قوافل الجمال تتهادى عبر الصحراء، رابطة موانئ الجزائر والمتوسط بمدن الغرب الإفريقي، مثل غاؤ، وكانو، وتمبكتو، بسرعة معدلها ميلين ونصف في الساعة (أي حوالي أربع كلم في الساعة)، وهذا ليوم مشي يتراوح بين خمسة عشر وستة عشر ساعة في اليوم، أي يمكن أن تقطع القافلة حوالي ستين كلم في اليوم⁽³⁾.

ويؤكد هذا أحد الرحالة الأوروبيين، حيث يذكر أن الحمل يستغرق مدة ثمانية عشر يوما لقطع المسافة التي تفصل بين عين صالح وورقلة والتي تقدر بسبعمائة وخمسون كيلومتر⁽⁴⁾، أي بسرعة تساوي حوالي أربع كلم/ساعة، ليوم مشي عادي يتكون من عشر ساعات. علما أن الرحلة عبر الصحراء تستغرق في أقصر الطرق حوالي ثلاثة أشهر في الذهاب ومثلها في العودة⁽⁵⁾.

⁽¹⁾Capitaine Roger Leselle: Les noires du souf, mémoire de candidature au centre des hautes études d'administration musulmane de l'université de Paris, France, 1957,p9.

⁽²⁾ Gerhard Rohlfs: Voyage et explorations au sahara, T1, Draa-Tafilelt sud oranais Touat Tidikelt Rhadames(1861-1864), traduits et publiés par Jacques Debetz, édité sous l'egide du centre d'études sur l'histoire du sahara, édition Karthala, Paris, 2001, p81

⁽³⁾ وليام سينسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تع وتق: عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006م، ص143. وكذلك: Bruno verlet: Le Sahara,Imprimerie des presses universitaire de France, paris, France, 1962,p56

⁽⁴⁾ Arlette Etienne-Mondet: Article "Du chameau, de L'auto, de L'Avion", dans Le Saharien, Revue Trimestrielle édité par la Rahla - Amicale des sahariens, n° 200, Mars 2012, p41.

⁽⁵⁾ الماحي: " مساهمة القوافل التجارية ... "، المرجع السابق، ص 67. وأيضا: العربي، المرجع السابق، ص 47 وما بعدها.

إن أقصى ما يمكن للجمل قطعه هو 120 كلم في اليوم. لكن هذه السرعة يمكن أن تؤدي إلى هلاكه، غير أن وجود عدد من الأشخاص الراجلين في القائمة، يفرض المحافظة على السرعة العادية للجمل التي لا تتعدى أربعة كلم في الساعة⁽¹⁾.

ثانيا: حركة القوافل التجارية وتأثيرها:

لقد أدت القوافل التجارية دورا حضاريا هاما سواء داخل بلدان المغرب أواخرها، ويؤكد هذا الدور الباحث عبد الجليل التميمي بقوله: "... فلا غرو إذن اليوم إن قلنا بأن التبادل التجاري كان أحد الروافد الأساسية التي عمّمت وجدّرت هذا الارتباط العضوي للصلات الحضارية بين شعوب الصحراء، وشمال إفريقيا وهو التبادل الذي لم يُنحَ لغيرهم بهذه الأهمية والحجم..."⁽²⁾.

أ- تأثيرها الإقتصادي:

كانت القوافل التجارية الجزائرية تغدو وتروح بين موانئ الشمال وأسواق واحات أعماق الصحراء الكبرى في تشاد، والنيجر، ومالي، وإفريقيا الوسطى، والسينغال وغيرها⁽³⁾. وكان مرحب بها عند عودتها وهي محملة بتبر الذهب، وريش النعام، والتمور، وعدد معتبر من العبيد السود الموجهين للأعمال التي تتطلب المهارة في المدن الجزائرية، وذلك كخدم في منازل الطبقة الجزائرية العليا⁽⁴⁾.

كما كان الأمراء على أيام مملكة سنغاي يستقبلون التجار بحفاوة ويهيئون لهم الأمن ويستدعونهم لحفلاتهم ويستقبلونهم في بلاطهم وما ذلك إلا للأهمية الإقتصادية والحضارية التي كانت تنتج عن مجيء التجار بأعداد كبيرة إلى سنغاي⁽⁵⁾، ويشير الرحالة ابن بطوطة إلى هذا الأمر قائلا: "... ثم إن مُشرف والأتين ويُسمّى منشاجو، إستدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته... فتوجهتُ فيمن توجه..."⁽⁶⁾.

إن هذا الإستبشار بقدوم القوافل التجارية تواصل عبر الزمن حتى أواسط القرن التاسع عشر، سواء في البلدان الجنوبية الواقعة على ضفتي الصحراء الكبرى أو الشمالية، والدليل ما ذكره الكاتب

(1) منصورى: المرجع السابق، ص153.

(2) خفيان: المرجع السابق، ص95.

(3) يحيى بوعزيز: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب، ج 1، طبع دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009م، ص528.

(4) سبنسر: المرجع السابق، ص143.

(5) زبادية: مملكة سنغاي...، المرجع السابق، ص213.

(6) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص776.

الفرنسي مياج (Miège) عن تلهف السكان في الشمال لوصول القوافل الكبرى من الجنوب، حيث أعطانا بايتون (Payton) صورة حية سنة 1870م للفرحة التي تعم اليهود في الملاح (Mellah) وموقادور (الصويرة بالمغرب حاليا)، عند الإعلان عن عودة القافلة بسلام⁽¹⁾.

1. على إفريقيا جنوب الصحراء:

إن ازدهار الممالك السودانية في العصر الوسيط وبداية العصور الحديثة كان قائما إلى حد كبير على التجارة مع بلدان المغرب ومنها الجزائر، ويتضح ذلك بشكل ملموس من أن سلطان بورنو في سنة 1440م كان قد بعث برسالة إلى علماء توات بالجزائر يشتكي لهم فيها أن التجار لم يعودوا يقصدون بلاده بأعداد كبيرة، كما كانوا يفعلون في السابق، وقد كانت هذه الفترة من فترات ازدهار التجارة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء⁽²⁾، مما سبب نقصا في وجود البضائع القادمة من الشمال، ورأت المملكة أن موارد الدولة قلت جزاء ضعف التجارة بها، مما دفع بالسلطان إلى مكاتبة علماء توات ووجهائها⁽³⁾.

2. على الواحات الصحراوية:

يغلب على الظن أن تجار القوافل والمشرفين عليها كانوا المساهمين الأساسيين في حفر الآبار على أطراف معظم شبكات تنقلهم، وذلك للتزود بالمياه الصالحة للشرب التي يحتاجونها إنطلاقا من الجزائر و بلدان المغرب حتى سواحل إفريقية الغربية. وقد أثرت عملية حفر الآبار هذه مع مرور الزمن على مظاهر عديدة منها استقرار بعض القبائل حولها، وأدى فيما بعد إلى تكوين الواحات التي نجدها منتشرة في أغلب مسالك القوافل التجارية، حيث لا يشك في رعاية بعض تجارها للنخيل وغيرها من الأنشطة الزراعية. ونظرا لاحتياج القوافل إلى أماكن للإقامة ومحطات للإستراحة بعد كل مرحلة من

(1) Jean-Louis Miegé: Les Juifs et le commerce transsaharien Au Dix-NeuviemeSiede,communautéjuivesdesmargessahariennesduMaghreb,Revue Francaise d'histoire d'outre mer,1979,p400.

(2) صادف في هذه الفترة أن جالية يهودية سيطرت على مرافق التجارة في توات، وهذا ما دفع بالتوارق الذين تقع بلادهم بين توات وبورنو، إلى عدم السماح للقوافل التجارية التي يسيطر عليها اليهود من المرور بأراضيهم، فقلّ ورودها إلى بورنو.أنظر: زيادية، مملكة سنغاي...، المرجع السابق، ص 312-313.

(3) زيادية: نفسه، ص 312-313.

مراحل السفر، فقد كان من الطبيعي أن تتوطد العلاقات الإجتماعية بين التجار وسكان تلك الواحات⁽¹⁾.

لذا كانت القوافل التجارية عاملا مهما لا في زيادة العمران في الصحراء فحسب، بل أيضا في تحسين ظروف المعيشة والإتصال والتبادل الثقافي والإجتماعي والتجاري بين مختلف أطراف الصحراء وبينها وبين التل، وبدون هذه القوافل كان من المحتمل أن تظل الواحات مغلقة على نفسها، محرومة من كل مد خارجي، ومن كل اتصال بالعالم غير الصحراوي⁽²⁾.

ذلك كان سكان الواحات الصحراوية في جنوب الجزائر في ذلك الوقت يحرصون كل الحرص على إبقاء علاقات تجارية مع مدن الشمال، لأنهم كانوا يرون أن رخاء منطقتهم مرهونا بانتظام القوافل التجارية وزيادة حمولتها⁽³⁾.

ومن مميزات هذه القوافل أنها تتاجر بالبضائع المحلية وبضائع أوروبا المستوردة، فيستغل السكان مرورها ببلدانهم وقراهم، ويحشدون سلعهم وبضائعهم إليها، ويشترون منها بعض بضائعها التي يرغبون فيها: الأوروبية الشمالية والصحراوية الجنوبية⁽⁴⁾.

والثابت أن سكان الواحات قد حافظوا محافظة كبيرة على ما استفادوا به من خلال علاقاتهم بتجارة القوافل، كما يعدون بمثابة الصورة الصادقة لمدى تأثير تلك القوافل الصحراوية في الميدان الإقتصادي وغيره⁽⁵⁾.

3. على الجزائر وبلدان المغرب:

إن تجارة القوافل العابرة للصحراء وفرت لدول المغرب ومدنه كل أسباب النمو والتطور الإقتصادي والإجتماعي على حد سواء، وقد لاحظنا كيف اهتم المغاربة أفرادا وجماعات بالتجارة وغامروا في المشاركة في قوافلها نظرا لما تدر عليهم من فوائد، أقلها تحسين مستوى المعيشة وتحقيق الأمن الغذائي، وغير ذلك من النتائج.

(1) بشار قويدر: " القوافل التجارية المغربية (طبيعة التجارة وآثارها) " ، مقال نشر في كتاب طريق القوافل،

نشر: م.و.ب.ع. ق. ت.ع. إ.ت، مطابع عمار قربي، باتنة، الجزائر، 2001م، ص17.

(2) العربي: المرجع السابق، ص45.

(3) ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، نشر: م.و.ك، الجزائر، 1984م، طبع:

م.و.ف.م، الجزائر، 1985، ص236.

(4) بوعزيز: موضوعات وقضايا ...، المرجع السابق، ص528.

(5) بشار: المرجع نفسه، ص18.

وفوق كل هذا ساهمت تجارة القوافل في تطوير الإقتصاد المغاربي بتوفير رؤوس الأموال ممثلة في قناطر الذهب الخالص والتبر، وقوافل الرقيق الذين كانوا يستغلون في الخدمات والأعمال الكبرى وغير ذلك، مما انعكس إيجابيا على نمو وتطور الحرف وظهور الصناعات المختلفة ووفرة الإنتاج الزراعي، وانعكس كذلك إيجابا على الحياة اليومية للمجتمع الإسلامي في بلاد المغرب ووصل إلى مكانة لم يبلغها من قبل هذا العصر وربما بعده أيضا⁽¹⁾.

ب. تأثيرها الاجتماعي:

كانت القوافل التجارية تحمل إلى أسواق دول إفريقيا جنوب الصحراء بضائع أغلبها مصدرها بلدان المغرب الكبير عامة والجزائر خاصة، وكانت هذه البضائع من الأهمية بحيث ينتج عن ورودها فوائد كثيرة على الأفرقة منها: تنشيط التجارة الداخلية، تغذية الجبايات الحكومية، المساهمة في توفير مجال التشغيل، ترقية الذوق العام في الإستهلاك، وحين يتوقف الوارد من البضائع إلى الأسواق، كان قسم من الناس يضطرون إلى الإلتجاء لجذور الحشائش للتغذي بها، وتحصل الجماعات، المساعدة على إشاعة ظاهرة الأناقة في اللباس خاصة بين الطبقات الموسرة⁽²⁾.

كما استفادت بلاد السودان من علاقاتها التجارية الخارجية مع الجزائر وبلاد المغرب في تصريف منتوجاتها بحيث لم تعرف الركود، وكانت تشكل هذه العلاقات وسيلة اتصالها بالعالم الخارجي، بحيث جلب لها إزدهار حضاري كبير، وهكذا كانت بلدان إفريقيا جنوب الصحراء بواسطة تجارتها الخارجية النشيطة تأخذ من العالم وتعطيه⁽³⁾.

ومن الجدير بالذكر أن كل التأثيرات الخارجية التي عرفتتها بلدان إفريقيا جنوب الصحراء في ميدان الحضارة، حتى نهاية القرن الحادي عشر هجري/ السابع عشر ميلادي، كان الفضل فيها يعود للمغاربة والجزائريين بالدرجة الأولى، نظرا للعوامل الجغرافية⁽⁴⁾.

ج. تأثيرها الثقافي:

لقد عرف المغاربة ومنهم الجزائريون التجارة مع إفريقيا منذ أمد بعيد، ولما ظهر الإسلام وأصبح التاجر مسلما زاد النشاط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها، فأصبح يجمع بين تجارته ونشر الدعوة

(1) بشار: المرجع السابق، ص 17 .

(2) زيادية: مملكة سنغاي...، المرجع السابق، ص 217-218 .

(3) زيادية: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص 40.

(4) زيادية: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص 63، الهامش رقم(15).

الإسلامية، فوجد ترحابا أينما حل وأصبح مكان إقامته منارة للفكر الإسلامي لما يحمله من مدنية وحضارة، واختار مساعديه من خيرة الناس فهياً ذلك للإسلام فرصة الانتشار مع التجارة⁽¹⁾.

فما أن يدخل هذا التاجر قرية وثنية فسرعان ما يلفت الأنظار ويبهز النفوس بتصرفات لم يألفها الأفارقة من قبل، مثل كثرة وضوئه وانتظام أوقات صلاته وعبادته التي يبدو فيها وهو خاشع يناجي ربه وخالقه، ومنظره في سجوده وسكينته يضفي عليه من المهابة والجلال ما يحرك فطرة الإفريقي الوثني، فيدرك أن هناك بدون شك قوة إلهية عظيمة، فضلا عما يتحلى به التاجر المسلم من صفات حميدة وأخلاق فاضلة في معاملاته التجارية، إضافة إلى أعمال البر والإحسان والتي تتجلى خاصة في إخراج الصدقات والزكاة وتوزيعها على المحتاجين، مما أثر فيهم فقلدوه واقتدوا به⁽²⁾.

ومع التجارة وزيادة الإتصال بين المغاربة والأفارقة، زادت الرغبة عند هؤلاء في التعمق في أصول الدين الإسلامي، والشريعة الإسلامية، فسار بعض الأفارقة على نفس طرق القوافل التجارية ذاهبين إلى الشمال، وإلى مراكز الحضارة والثقافة الإسلامية، لكي يزيدوا فقها في الدين وفي العلوم الإسلامية⁽³⁾.

د. القوافل التجارية المنطلقة من الجزائر والعبارة لها:

عرفت الجزائر قبل التدخل الأوروبي في التجارة العابرة للصحراء، حركة تجارية مكثفة بفضل القوافل التي كانت تجوب البلاد طولا وعرضا، ومن ضمن القوافل العرضية بين الشرق والعرض، نذكر:

1. قافلة تونس إلى الكاف وقسنطينة وسطيف وبرج حمزة والجزائر ووهران وتلمسان، إلى فاس ومراكش.

2. قافلة قفصة إلى بسكرة والأغواط والبيض، إلى فقيق بالمغرب الأقصى.

3. قافلة نفطة إلى وادي سوف وتقرت وورقلة والأغواط، إلى تافيلالت بالمغرب.

أما القوافل الطويلة بين الشمال والجنوب، فنذكر منها:

1. قافلة سكيكدة إلى قسنطينة وبسكرة وتقرت وورقلة والأغواط، إلى تمبكتو.

⁽¹⁾ عطية مخزوم الفيتوري،: دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء، مقال نشر في مجلة انتشار الإسلام، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، 1998م، ص 104 .

⁽²⁾ الفيتوري: المرجع السابق، ص 102-101 .

⁽³⁾ جلال يحيى: المرجع السابق، ص 21.

2. قافلة وادي مزاب إلى الأغواط وبوسعادة وقسنطينة والكاف، إلى تونس.
3. قافلة وادي سوف إلى غدامس وطرابلس.
4. قافلة ورقلة إلى غدامس وطرابلس.
5. قافلة طرابلس إلى غدامس وغات وعين صالح وتمبكتو.
6. قافلة عين صالح إلى غات والعكس⁽¹⁾.
7. قافلة وهران إلى تمبكتو عبر تافيلالت بالمغرب الأقصى⁽²⁾.

هـ. نماذج من القوافل الجزائرية:

1- قافلة بني مزاب:

بدأت علاقة المزايين بالتجارة منذ نهاية القرن الثامن هجري/الرابع عشر ميلادي، حيث أخذوا يخرجون من عزلتهم وسط الصحراء، منطلقين صوب مختلف أنحاء القطر الجزائري، وذلك بسبب تزايد السكان في الوادي وضعف المردود الفلاحي الشيء الذي أجبرهم على التفكير في موارد أخرى للعيش يضمنون بها بقاءهم في المنطقة فأخذوا في الإغتراب إلى مدن التل قصد التجارة⁽³⁾.

كان للمزايين نصيب من تجارة الجزائر العاصمة في العهد العثماني، إذ احتكروا التجارة الخاصة بالتبر وريش النعام والتمور وحتى تجارة العبيد، وذلك بعد أن حصلوا على تسهيلات واسعة من طرف الحكومة التركية بالجزائر التي منحتهم حرية التجارة الداخلية والخارجية، فقاموا بعقد عدة اتفاقيات مع

⁽¹⁾ بوعزيز: موضوعات وقضايا...، المرجع السابق، ص528.

⁽²⁾ وليام شالر: مذكرات شالر، قنصل أمريكا بالجزائر (1816-1824م)، تر وتغ وتق: إسماعيل العربي،

ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982م

⁽³⁾ بومدين بوداود: تجارة بني مزاب، تجسيد المنهج الإسلامي في إدارة الأعمال التجارية، تق: الأستاذ بكلي عبد الوهاب،

دار رياض العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 1427هـ/2006م، ص86.

الحكومة⁽¹⁾، فقد كانوا في عهد حسن بن خير الدين يقودون حركة القوافل التجارية⁽²⁾، فكانت عملياتهم التجارية نشطة بين مدينتي تمبكتو والجزائر يسلكون طريق غدامس أو تافيلالت⁽³⁾.

ولعل أقدم النصوص المتعلقة بهذه الفترة (أي الفترة العثمانية) نص للحسن الوزان (حوالي 1552م) يقول فيه: "...مزاب منطقة مأهولة في قفار نوميديا على بعد ثلاث مائة ميل شرق تيكورارين، وعلى نفس المسافة من البحر المتوسط⁽⁴⁾، تشتمل على ستة قصور، وعدة قرى، سكانها أغنياء، وهي أيضا رأس خط تجاري يلتقي فيه تجار الجزائر وبجاية بتجار أرض السودان..."⁽⁵⁾.

وبداية من هذا العهد أخذت الحياة الفكرية والإقتصادية والعمرانية بمزاب في النمو والإزدهار بسبب الطريق التجاري، التي استحدثها المزابيون بكدهم ونشاطهم، فغدت منطقة مزاب معروفة كمحطة تجارية هامة بشمال الصحراء في جنوب الجزائر، وأصبح موقعها لا يغيب عن الخرائط الجغرافية التي أنجزها الأوروبيون خلال القرون الثلاثة الميلادية السادسة عشر، السابع عشر، الثامن عشر⁽⁶⁾.

ولعل انتقال بني مزاب بين الجنوب والشمال قصد التجارة لم يكن شيئا مضمونا، فقد كانت قوافلهم المتنقلة بين الصحراء والتل تتعرض أحيانا في الطريق لغارات النهب والسلب من طرف أعدائهم وقطاع الطرق، حيث أن السلطة العثمانية بالجزائر، لم تفي بالتزاماتها تجاه المزابيين من حيث حماية قوافلهم التجارية، وتأمين طرق المواصلات، لذلك لجؤوا إلى تسليح أنفسهم لحماية قوافلهم⁽⁷⁾،

(1) منها بينها معاهدة سنة 1510م لحماية قوافلهم التجارية، وقد كانت معاهدة "ولاء ودفاع"، مما جعلهم يشاركون في معركة كدية الصابون سنة 1518م ضد الإسبان. أنظر: بوداود: المرجع نفسه، ص57.

(2) Mouloud Gaid: Les berberes dans l'histoire - les Ibadites - tome 6, imprimerie Merkouche, Algerie, SD, p264

(3) محمد وقاد ويوسف أمير: تركيبة مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1700-1830م)، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس في التاريخ الحديث، إشراف زكية زهرة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2004-2005م، ص37.

(4) بل على بعد نحو 600 كلم جنوب البحر المتوسط، و700 كلم من كراة.

(5) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص34-35.

(6) مقالة بعنوان: "ولاية غرداية"، موقع: منتدى ثانوية الحاج علال بن بيتور:

http://ibnbitour47.ahlamontada.net/t4906-topic

12:00، 02.02.2013م، الساعة

(7) يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني مزاب، دراسة إجتماعية واقتصادية وسياسية، المطبعة العربية، ط2، غرداية،

الجزائر، 1427هـ/2006م، ص54. وكذلك: بوداود: المرجع السابق، ص57.

وعقد تحالف دفاعي وتعاوني مع بعض الأعراش مقابل مبلغ مالي متفق عليه بين الطرفين، وبهذا التحالف أصبح الطريق مأمونا نوعا ما طوال الحكم العثماني⁽¹⁾.

ونذكر على سبيل المثال الإتفاق الذي أبرمه جماعة كبيرة من التجار المزابيون المستقرين في قصر البخاري والمدينة والبليدة والجزائر سنة 1050هـ/1640م مع نحو ثلاثين من غير المزابيين، أكثرهم من الشعابنة، وفيهم بعض المخادمة والمذاييح، قصد حماية القافلة المتجهة من الجزائر العاصمة إلى غرداية. والتي التقت في رحلة رحلاتها بمجموعة كبيرة من قطاع الطرق بعد سير مرحلتين خارج مدينة الجلفة، فوقعت معركة بين الطرفين انتهت بهزيمة المعتدين وفرارهم⁽²⁾.

وتشير بعض الوثائق المحلية⁽³⁾ إلى شكوى تقدم بها مجموعة من التجار المزابيين إلى السلطة العثمانية من تعرض قوافلهم الذاهبة إلى الجزائر أو العائدة منها إلى مزاب، إلى هجومات من قبيلة أولاد صالح في جبال الشفة. ومن ذلك، الهجوم الذي تعرضت له قافلة بني مزاب المتوجهة إلى التل في شهر جويلية 1850م قرب قرية تاجموت⁽⁴⁾.

لكل هذه الأسباب، وقصد حماية قوافلهم الذاهبة إلى التل، كانت قرى مزاب تدفع غرامات لبعض القبائل العربية مثل الأرياع والمخاليف وسعيد عتبة⁽⁵⁾.

2- قافلة المشرية:

تعتبر هذه القافلة من القوافل الهامة التي تأتي إلى إقليم تنقورارين وهذا بسبب توفر المرعى أثناء الطريق مما يجعلها تقطع المسافة بين المشرية وتنقورارين دون الحاجة إلى علف الحيوانات إلا أن الماء المتوفر غير صالح نسبيا نظرا لملوحته. أما عن مشاق السفر فتتمثل في موت الإبل والظروف الطبيعية. ففي مطلع القرن العشرين نجد قافلة المشرية فقدت مائة وسبعة وخمسين جملا، وفي السنة الموالية فقدوا سبعة جمال. وبدخول قافلة المشرية إلى تنقورارين فإن التجار يسترجعون قوتهم الصحية، أما إبلهم فتجد المرعى والماء الكافي طيلة وجودها بالإقليم. وفي العادة فإن قافلة المشرية أثناء وصولها إلى

1، دار البعث، فسنطينة، الجزائر، د.ت.ن،

(1) هو محمد عيسى النوري: دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا، مج

ص58.

(2) الحاج سعيد: المرجع نفسه، ص55.

(3) مخطوط بخط الشيخ الحاج ابراهيم بن بيحمان، باسم ممثلي جموع بني مزاب في مجلس عمي سعيد. أنظر: الحاج سعيد:

المرجع السابق، ص55.

(4) الحاج سعيد: نفسه، ص ص55-56.

(5) Melia: op-cit,p58

تنقورارين تبدأ في عملية المقايضة مع السكان، أما فريق آخر فإنهم يعتنون بالجمال المتضررة التي أصابها العياء ليحصلوا على مبالغ مالية تعادل ثلث سعر الجمل⁽¹⁾.

ثالثا: المخاطر والصعوبات التي تواجه القوافل

كانت القوافل التجارية الرابطة بين الجزائر وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء تتعرض في الكثير من الأحيان لصعوبات ومخاطر عديدة ومتنوعة، نورد هنا البعض منها لكي نأخذ فكرة عن المشاق التي يتكبدها تجار القوافل لتحقيق عمليات التبادل⁽²⁾، من أهمها:

أ. المخاطر البشرية:

وتتمثل في القبائل والمجموعات البشرية الساكنة قرب المناطق التي تمر بها القوافل التجارية، و بعض قطاع الطرق الذين استفحل أمرهم في أواخر العهد الزياني بالجزائر، حتى أن ملوك تلمسان عجزوا عن القضاء عليهم، وبالتالي عن توفير الأمن لتجارة مملكتهم مع بلاد السودان⁽³⁾.

وقد استمر هذا الحال طوال الحكم العثماني للجزائر وحتى عهد الإحتلال الفرنسي، حيث كانت مجموعات من قطاع الطرق، ينتمي أفرادها إلى مختلف القبائل الصحراوية، تجوب باستمرار المناطق غير الآهلة بالجنوب الجزائري، باحثة عن المغامرة، يهاجمون كل القوافل التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها⁽⁴⁾. فقد كانت القوافل تتعرض للنهب إن لم تدفع للقبائل الصحراوية ثمن المرور بسلام، كما تضطر إلى تسليح حرس يحميها طوال هذا الطريق المحفوف بالمخاطر⁽⁵⁾.

لقد إهتم بعض حكام الجزائر في العهد الزياني بتأمين الطرق التجارية للقوافل، فكان ملوك بني زيان يدفعون لبعض القبائل إتاوات من أجل تأمين الطريق من أخطارها، ولكنهم لم يستطيعوا إرضائها

⁽¹⁾ محمد الصالح حوتية: توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة/ الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي،

دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية، ج 1، دار الكتاب العربي للطباعة للنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2007م، ص152.

⁽²⁾ الزبيري: المرجع السابق، ص162.

⁽³⁾ بن خروف: العلاقات الإقتصادية...، المرجع السابق، ص71.

⁽⁴⁾ Commendant Déporter: "La question du Touat", Sahara Algérien, Gourara-Touat-Tidikelt, caravanes et transsaharien, deux conférences, imprimerie p. Fontana et compagnie, Alger, 1891, p62 .

⁽⁵⁾ مروش: المرجع السابق، ص30.

جميعا، ولهذا فإن بعضها كان يهدد دائما الطريق، وأمن المسافرين، ولا سيما حين تعود القبائل المتعاونة مع الحكام في فصل الشتاء إلى مشاتيها⁽¹⁾.

أما الأتراك العثمانيون فقد ظهر اهتمامهم بتأمين الطريق البري الشمالي على الخصوص، في إقامة الأبراج والحصون والحاميات في بعض مراحلها، كبسكرة، وقسنطينة، ومجانة، وسور الغزلان، ومليانة، ومازونة، ومعسكر، وتلمسان، وغيرها⁽²⁾، وكلفوا القبائل المخزنية بالأمن في الأجزاء الأخرى. إلا أنه رغم كل هذا فإن الأمن في الطرق كثيرا ما كان يضطرب، حيث أن حكام الجزائر كثيرا ما فقدوا السيطرة على بعض أجزاء هذا الطريق⁽³⁾. فكثيرا ما كانت قبائل التوارق والبرابيش والفلان تتمرد عن السلطة الحاكمة، وتجبر القوافل على دفع إتاوات عالية، كي تسمح لها بالمرور⁽⁴⁾. وهذا الثلاثي من القبائل يتحرك على محور كبير جدا من جنوب عين صالح إلى أوجلة بليبيا شرقا، وأولف وتمبكتو غربا، وفي الجنوب الغربي حتى نهر السنغال، وفي الجنوب الشرقي حتى جنوب بحيرة تشاد⁽⁵⁾. فمن تكون هذه القبائل الثلاث؟

1. التوارق:

وكما يعرفون بالرجال الزرق أو الملتّمين، يُرجعهم ابن خلدون إلى أصول بربرية صنهاجية، سكنوا الصحراء الكبرى قبل الإسلام⁽⁶⁾. يتميزون بلونهم الأبيض وبلغتهم الأمازيغية المكتوبة بحرف تيفيناغ، يرتدي الرجل منهم اللثام مع عمامة كبيرة على الرأس بينما تكون المرأة سافرة الوجه⁽¹⁾.

⁽¹⁾ بن خروف: العلاقات الاقتصادية... المرجع السابق، ص71.

⁽²⁾ فمثلا نجح الباي محمد بن عثمان الكبير (1779-1797م) بواسطة قوته العسكرية في تأمين المسالك التجارية في حدود بايلكه، وإعادة الحيوية لحركة المسافرين، والقوافل التجارية. أنظر: بلبروات بن عتو، "رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الغربي الجزائري سنة 1785م"، مقال نشر في مجلة إرتباد الآفاق، ندوة الجزائر الأولى، الجزائر، 2004م، د.ر.ص.

⁽³⁾ بن خروف: العلاقات الاقتصادية... المرجع نفسه، ص71-72.

⁽⁴⁾ الدالي: المرجع السابق، ص318.

⁽⁵⁾ أحمد ذكار: حاضرة ورجلان وعلاقتها التجارية بالسودان الغربي من سنة 1000-1301هـ/ 1591-1883م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر، إشراف د. محمد حوتيه، قسم التاريخ، كلية العلوم، الجزائر الأولى، الجزائر، 1430-1431هـ/ 2009-2010م، ص65.

⁽⁶⁾ السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران: تاريخ السودان، در وتع وتغ: عبد النعيم ضيفي عثمان، نشر: دار الرشاد، طبع: عربية عريية للطباعة والنشر القاهرة، مصر، 2010م، ص41-42. وأيضا: العربي، المرجع السابق، ص175. وأيضا: ذكار، المرجع السابق، ص65.

يعيش شعب التوارق مثل جميع القبائل الرحل على تربية الماشية ورعيها وتجارة القوافل، لذا يحتاج إلى التنقل الكثير بحثا عن الماء والكلأ، ومجموع رأس مال التوارق يتمثل في قطعان الجمال⁽²⁾ والغنم والماعز، ويعتمدون في معيشتهم اليومية على الألبان ولحم الإبل وقليل من الحبوب، ويستخفون بالزراعة ويسندونها إلى طبقة العبيد، أما مساكنهم فهي عبارة عن خيم مصنوعة من الجلد⁽³⁾.
في أواخر شهر أوت من كل سنة عندما يحل موسم الأمطار في منطقة جنوب الصحراء، يغادر التوارق مضاربهم ويتركون العبيد يحرثون ويزرعون، بينما هم يتوجهون نحو الشمال إلى غاية جنوب عين صالح لرعي مواشيهم والقيام بالمبادلات التجارية مع القوافل القادمة في فصل الخريف من شمال الصحراء⁽⁴⁾.

وينقسم التوارق إلى ثلاثة أقسام:

- توارق جبال طاسيلي ناجر، وينتشرون في جانتي وإيليزي وغات وليبيا.
- توارق جبال أهقار، وينتشرون بتنمغست وضواحيها.
- توارق جبال أدرار نيفوغاس، وينتشرون في إفريقيا جنوب الصحراء بمالي وتمبكتو وإير وأغاديس والنيجر ومنطقة الأزواد، على أن الأهقار هي مركز التوارق وهي المعقل الذي استعصى على النفوذ الأجنبي في جميع الأوقات⁽⁵⁾.

ومن هنا نلاحظ أن التوارق يوجدون في منطقة واسعة جدا بالصحراء شمالها وجنوبها، لذا فإن أراضيهم هي منطقة عبور لكل القوافل التجارية القادمة من شمال إفريقيا ومنها الجزائر، وبالتالي فهي ملزمة بدفع ضرائب إليهم نظير السماح لها بالعبور على ترابها الشاسع في أمن وسلام⁽⁶⁾.

(1) يلاحظ في المجتمع التارقي أن للمرأة حرية كبيرة حيث أنها لها الحق في اختيار زوجها، أما أولادها فهم ينتسبون إليها ويلقبون باسمها العائلي ويرثون أمهم لا أباهم. أنظر: ذكار، نفسه، ص 66.

(2) يعني التوارق بتربية جمال الركوب عناية خاصة ويبدلون كثيرا من الجهد لإعداد الجمل لمهمته منذ السنة الثانية من عمره. أنظر: العربي، المرجع نفسه، ص 178 وما بعدها.

(3) ذكار، نفسه، ص 65.

(4) نفسه، ص 65-66.

(5) العربي: المرجع السابق، ص 175. وأيضا: ذكار، المرجع السابق، ص 66.

(6) ذكار، نفسه، ص 66-67.

ويتحدث الرحالة المغربي ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد السودان عن معاينته لبعض تصرفات التوارق قائلا: "...ووصلنا إلى بلاد هكار(أي هقار)، وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم، ولقينا أحد كبرائهم، فحبس القافلة حتى عزموا له أنوبا وسواها..."⁽¹⁾

كما يذكر الرحالة الحسن الوزان في كتابه "وصف إفريقيا" كيف أن رجال التوارق يجبرون القوافل التي تمر عبر أراضيهم، على دفع رسوم لأمرائهم، وهي عبارة عن قطعة قماش⁽²⁾ عن كل حمل جمل⁽³⁾. أما في القرن التاسع عشر فيشير المستكشف الألماني "بارث" أن أمنوكل (معناه رئيس القبيلة) الهقار، "أجيماما" كان يُسيطر على جميع النشاط التجاري الذي يجري عن طريق القوافل بين مرزق وتمبكتو. حيث كان التوارق يمدون القوافل التي تمر بأراضيهم بأدلاء ومرشدين مسلحين لحمايتها مقابل إتاوة تقدر قيمتها على أساس قيمة البضائع التي تنقلها القافلة وعلى أساس ثروة مسيرتها. وعند رفض أصحاب القافلة دفع هذه الإتاوة، كان التوارق يتعرضون لها بالسلب والنهب ليثبتوا سلطانهم في أراضيهم، وحتى يتخذوا من القافلة الممتنعة موعظة ودرسا لغيرها⁽⁴⁾.

كما يشير الرحالة الجزائري بن الدين الأغواطي إلى أن رجال التوارق يقومون أحيانا بجولات في أرض السودان، من أجل الحصول على العبيد، ومختلف البضائع عن طريق القوة، وقطع الطريق على التجار⁽⁵⁾.

2. البرابيش⁽⁶⁾:

هي قبائل صحراوية تتركز في ولايته، وأروان، وتمبكتو، وغاو، كما ينتشرون في بعض قرى بوركينا فاسو، والسنغال، ونيجيريا، وتشاد، وإقليم السوس⁽¹⁾. يصفها الوزان قائلا: "...وهم كثر وفقراء،

⁽¹⁾ ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص801.

⁽²⁾ هذه القطعة من القماش التي تبلغ قيمتها دينارا واحدا تقريبا في مختلف العملات الأوروبية، والتي كانت تستخدم كعملة في الصحراء الكبرى كانت تدعى بوردا بالفرنسية. أنظر: الوزان: المصدر السابق، ص69، الهامش رقم(144).

⁽³⁾ الوزان: المصدر نفسه، ص69. وأيضا: العربي، المرجع نفسه، ص182.

⁽⁴⁾ العربي: المرجع السابق، ص182. وأيضا: ذكار، المرجع السابق، ص67.

⁽⁵⁾ رابح رمضان: " جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية بالصحراء الجزائرية من خلال رحلة الأغواطي " نشر فيمدونة أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12-13هـ / 18-19م من خلال المصادر المحلية، المنعقد بجامعة وادي سوف أيام 29 صفر - 01 ربيع الأول 1433هـ / 24-25 جانفي 2012م، ص202. وأيضا: العربي، المرجع السابق، ص183.

⁽⁶⁾ هي قبائل جاءت من مناطق مختلفة لا يجمعها رابط إلا الإئتلاف السياسي، وبريش كلمة تعني عند أهل منطقة السودان الغربي وزع الشيء، وهم ينتسبون حسب صاحب الترجمان(محمود الأرواني) إلى بني حسان، أتوا ضمن الهجرة الهلالية إلى الشمال الإفريقي. لمزيد من المعلومات أنظر: الدالي، المرجع السابق، ص250.

ولكن لديهم الكثير من الإبل، وهم يحكمون مقاطعة تيشيت (في موريطانيا الحالية) التي لا تكفيهم دخلها حتى لتكاليف الحديد الذي يضعونه في حوافر القليل مما يملكونه من خيول...⁽²⁾.

كان للبراييش⁽³⁾ في منطقة الصحراء الكبرى ثقلا سياسيا واقتصاديا يحسب حسابه، حتى أن القوى السياسية التي قامت في المنطقة كمملكة سنغاي، تسابقت على كسب ودها من أجل استمراريتها في الحكم⁽⁴⁾.

لقد استطاعت هذه القبيلة أن تسيطر في منطقة إفريقيا جنوب الصحراء على طرق القوافل التجارية الذاهبة والقادمة من الشمال الإفريقي ومن ضمنها القوافل الجزائرية، حيث كانت تأخذ الغفر⁽⁵⁾ عن كل وارد من تجار غدامس، وتوات، وسجلماسة، وطرابلس وغيرهم، كما تأخذ عن التجار الواردين من شنقيط ضريبة عن الإبل، التي يأتون بها؛ بقصد البيع في أروان وما جاورها. ومن هنا ندرك ثقل قبائل البراييش في منطقة السودان، وبذلك مثلت قوة يحسب حسابها⁽⁶⁾.

3. الفُلان:

هي قبائل غير زنجية اختلف الباحثون في أصل نسبهم حيث أرجعهم البعض إلى الجنس العربي⁽⁷⁾، والبعض الآخر إلى الفراعنة⁽⁸⁾، وآخرون إلى الرومان. استوطنوا ضواحي نهر السنغال وانتشروا في جنوب موريطانيا وفي أجزاء كبيرة من إفريقيا جنوب الصحراء مثل ونغارة، وغانا، ومالي، وتكرور، وسنغاي، وبلاد الهوسا، وبرنو، وكان ذلك قبل الإسلام⁽⁹⁾.

⁽¹⁾ الدالي، نفسه، ص 257.

⁽²⁾ الوزان: المصدر السابق، ص 63.

⁽³⁾ يطلق أهل تمبكتو على كل شخص يميل إلى السمرة بروشي. أنظر: الدالي، المرجع نفسه، ص 257، الهامش رقم (1).

⁽⁴⁾ الدالي، المرجع نفسه، ص 257.

⁽⁵⁾ الغفر: هي ضريبة تؤدي عن كل رأس في القافلة، والذي كانت قيمته سبع مثاقيل وثلاث من الذهب، عن كل حمل.

أنظر: الدالي، المرجع السابق، ص 262، الهامش رقم (2).

⁽⁶⁾ الدالي، المرجع نفسه، ص 262.

⁽⁷⁾ تورد بعض الروايات أنهم من قبيلة عربية أصلها من حمير باليمن، وأن نسبهم يتصل بعقبة بن نافع الفهري القرشي.

لمعلومات أكثر أنظر: محمد باي بلعالم، إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر، د.د.ن، د.ر.ط، الجزائر،

1433هـ / 2012م، ص 17.

⁽⁸⁾ يرى بعض علماء الأجناس أن أصول هذا الشعب ترجع إلى أرومة مصرية وأنهم هاجروا من صعيد مصر واتجهوا إلى

الغرب عن طريق بلاد المغرب، ثم انحدروا إلى المحيط الأطلسي حيث استقر بعضهم هناك، بينما واصل بعضهم الآخر مسيره

حتى بلاد السنغال. أنظر: محمد باي بلعالم، قبيلة فلان في الماضي والحاضر ومالها من العلوم والمعرفة والمآثر، د.د.ن، د.ر.ط،

الجزائر، 2004م، ص 13.

⁽⁹⁾ ذكار: المرجع السابق، ص 67. وأيضا: بلعالم، إرشاد الحائر...، المرجع نفسه، ص 17.

يتكلم الفلانيون اللغة البولالية، وقد اعتنقوا الإسلام في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وساهموا في نشره في إفريقيا الغربية وخاصة في منطقة التكرور، وقد أنجبت قبائل الفلان العديد من العلماء مثل الفقيه إبراهيم موسى الفلاني، والشيخ عثمان دان فودي⁽¹⁾، والحاج عمر الفوني، وغيرهم. إمتهن الفلانيون مهنة الرعي والزراعة والتجارة، وسكنوا في مساكن مبنية، وفرضوا الضرائب على القوافل التجارية القادمة من شمال القارة والتي تمر عبر أراضيهم⁽²⁾.

خلاصة القول إن أثر القبائل البدوية الوسيطة في القرن السادس عشر ميلادي وما قبله، كان سلبيًا في مجمله، حيث نجم عن نزاعاتها فيما بينها، وعن غاراتها على الطرق والأسواق والقرى والمدن، وعلى القوافل التجارية، انعدام الأمن والإستقرار، خاصة قبل قيام حكم العثمانيين في الجزائر، الذين سعوا إلى إخضاع تلك القبائل بشتى الطرق⁽³⁾.

لقد أدى تهديد القبائل البدوية للأمن والإستقرار في مناطق كثيرة إلى:

- هجر كثير من الفلاحين فيها حقولهم وبساتينهم، وتركوها بورا، أو تقليص نشاطهم الفلاحي فيها.

- خراب العديد من المدن، كليا أو جزئيا، وانكماش أخرى مثل المسيلة، مازونة، أرزيو...

- تعطل التجارة أو ضعفها في المناطق التي تكثرت فيها الغارات على القوافل التجارية.

يذكر الوزان بهذا الصدد أنه من النادر أن يفلت التجار من أيدي قطاع الطرق في سهل أنجاد القاحل الواقع غربي تلمسان، ونفس المخاطر كان يتعرض لها السالكون للطريق الرابط بين سجلماسة وبسكرة عبر توات أو عبر الأغواط⁽⁴⁾.

إن التأثير السلبي لغزو القبائل البدوية على مختلف جوانب الحياة الاقتصادية عامة وعلى نشاط تجارة القوافل بين الجزائر وبلاد السودان أمر بين في القرن السادس عشر ميلادي، ولكن من الموضوعية الإقرار بما كان للبدو الرحل من إسهام إيجابي في التجارة الداخلية، من خلال رحلاتهم

⁽¹⁾ الشيخ عثمان دان فودي: ينتسب إلى مجموعة تورونكو من نسل موسى جوكوتو الذي هاجر من فوتاتور في القرن

الخامس عشر الميلادي، واستقر أسلاف الشيخ عثمان في أول الأمر في كوني ثم هاجروا إلى دقل. ولد عثمان سنة وتعلم العربية والعلوم الدينية في مسقط رأسه. أنظر: بلعالم، قبيلة فلان ... المرجع السابق، ص 136.

⁽²⁾ ذكار: المرجع السابق، ص 67-68.

⁽³⁾ بن خروف: العلاقات الاقتصادية... المرجع السابق، ص 13.

⁽³⁾ الوزان: المصدر السابق، ص 63.

⁽⁴⁾ بن خروف: المرجع نفسه، ص 13-14.

الصيفية في الجزائر إلى الشمال، والشتوية إلى الصحراء في الجنوب، بما كانوا ينقلونه هم أنفسهم من بضائع الشمال إلى الجنوب، وطلع الجنوب إلى الشمال⁽¹⁾.

ب. المخاطر الطبيعية:

إن السفر عبر الصحراء هو دائما متعب جدا للإنسان والحيوان (الجمال)، وتعتبر الظروف الطبيعية من بين أهم العناصر المؤثرة على التجارة عبر الصحراء، فالطبيعة قوة قاهرة من الصعوبة التغلب عليها، حيث يتعرض المسافر إلى صعوبات ومشاق كثيرة، كقلة الماء، وهبوب الزوابع الرملية، وعدم وضوح معالم الطريق، ونهش الهوام، وغيرها من المخاطر التي تلاحقها القوافل التجارية، و التي لا يمكن حصرها، منها على سبيل الذكر لا الحصر:

1. مشكل الماء:

ينعدم الماء في الصحراء الفاصلة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء لمسافات طويلة تتراوح بين يومين وأربعة عشر يوما، فيضطر المسافرون إلى ترشيد استعمالهم لما توفر لديهم منه، وقد يموت أحد أفراد القافلة أو عدد منهم، أو تموت دوابهم أثناء الرحلة بسبب العطش، وقد يضلون الطريق بسبب خطأ الدليل، أو تغيير القافلة لاتجاه سيرها لاحتلال قطاع الطرق للممرات المؤدية إلى آبار المياه، فيكتفون طوال عشرة أيام باستعمال ما كانوا قد أعدوه لحمسة أيام فقط، ناهيك عما يسببه في بعض الأحيان احتكاك الجمال أثناء سيرها من انفجار للقرب⁽²⁾ والأوعية⁽³⁾.

فقد تحدث ابن بطوطة عن حادثة عايشها أثناء رحلته في الصحراء قائلا: "...ولقد لقينا قافلة في طريقنا فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم، فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل، وعليه ثيابه وفي يده سوط، وكان الماء على نحو ميل منه..."⁽⁴⁾.

(1) بن خروف: العلاقات الاقتصادية...، المرجع السابق، ص 14-15.

(2) على كل مسافر أن يحمل معه قريتين، والقربة سعتها من 20 إلى 25 لتر، تملأ عند كل بئر تصل القافلة إليه. أنظر: حوتية، آل كنته، المرجع السابق، ص 36.

(3) الوزان: المصدر السابق، ج 1، ص 104. وكذلك: حسن حافظي علوي: " طرق الاستدلال على وجود الماء وتدير قلته ودفع مضاره بصحراء بلاد المغرب في العصر الوسيط "، مقال نشر في مدونة الندوة الدولية الثالثة حول الماء ببلاد المغرب في العهدين القلم والوسيط، المنعقدة بالمكتبة الوطنية بتونس أيام 15-16-17 نوفمبر 2007م، نشر كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2009م، ص 181-182.

(4) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج 1، ص 774.

كما ذكر الوزان في معرض حديثه عن صحراء بلاد المغرب، أن الماء لا يوجد في بعض نواحيها طول مسافة سفر ستة أيام أو سبعة، خصوصا في المسلك الرابط بين فاس وتمبكتو، وبين تلمسان وأغاديس. قال: "... وأسوأ من هذا خط السفر المفتوح حديثا بين فاس والقاهرة مرورا بصحاري ليبيا..."، مضيفا: "وليبيا هي الأخرى بلاد صحراء ورمال، لا نهر فيها ولا ماء باستثناء بعض الآبار ذات الماء المالح الأجاج⁽¹⁾، وهي مع ذلك قليلة"⁽²⁾.

وأشار في موضع آخر أن التجار عندما يتجهون من سجلماسة إلى تمبكتو يعبرون فلاة وعرة جدا طولها أكثر من ثلاثمائة كلم تقع بين بئر أزواد وبئر أروان⁽³⁾، لا تسلك إلا بمشقة عظمى يموت فيها كثير من الناس حرا وعطشا⁽⁴⁾. وللتغلب على مشكل انعدام الماء في الصحراء وإنقاذ أنفسهم من موت محقق، يلجأ المرافقون للقافلة إلى قتل جمل واستخراج الماء من بطنه، فيشرب بعضه ويقسم الآخر إلى أن يتم العثور على بئر أو أن يهلك المسافرون عطشا.

وتروي بعض المصادر أنه يوجد في صحراء أزواد قبران مبنيان بنوع من الحجر نقشت عليه كتابة تقول بأن رجلين دفنا هاهنا، كان أحدهما تاجرا غنيا مر بهذه الصحراء فاشتد عطشه فاشترى من الدليل قدحا من الماء بعشرة آلاف مثقال، لكنهما ماتا معا من العطش⁽⁵⁾. كما يضطر المسافرين إلى التضحية في كثير من الأحيان بما بقي من ماء في القافلة بإفراغه في أنوف الحيوانات العطشى جدا لكي تستطيع مواصلة السير إلى الهدف المنشود⁽⁶⁾.

دفعت كل هذه العوامل وغيرها بالمسافرين في الصحراء إلى استخدام طرق وقائية كثيرة من أجل الإبقاء على حياتهم أثناء تنقلهم في ذلك الوسط الصعب، منها تفادي السير في الهجير، واتخاذ اللثام، والتقليل من الكلام، ووضع قطع البلور أو الحصى في الفم لتسهيل انسياب اللعاب، وتفادي الأطعمة المسببة للعطش.

(1) يحصل أحيانا أن يتناول المسافرون في الصحراء مياه فاسدة مهلكة، لأن مياه الآبار غالبا ما تكون من الماء المالح، أو من الزعاق، أو من الأجاج، فيعانون من شربهم لها أضرارا صحية عديدة. أنظر: علوي، المرجع نفسه، ص182.

(2) الوزان: المصدر نفسه، ج1، ص75.

(3) هو بئر معروف لدى تجار القوافل يقع على بعد 240 كلم من تمبكتو. أنظر: الوزان:، المصدر نفسه، ج 2، ص148.

(4) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص148.

(5) الوزان: المصدر السابق، ج1، ص76.

(6) Leselle :op-cit, p14

كما استعانوا بخبرة أهل الصحراء في اكتشاف مواضع الآبار التي طمرتها الرياح، وبما كان لديهم من الفراسة الحاذقة في الإستدلال على وجود الماء في باطن الأرض ببعض العلامات الدالة على بعده أو قربه كشم التراب لتمييز بعض النباتات فيه، أوالتصت على انسياب الماء في باطن الأرض⁽¹⁾.

ولقد لعبت الآبار دورا مهما في توفير الماء للقوافل، حيث يتحدث المؤرخ ابن خلدون عن وجود آبارا إرتوازية بالصحراء⁽²⁾، وقد كانت هذه الآبار محطات تستريح فيها القوافل ويملاً بها المسافرين قريهم ويراقبون حمولتهم، ويتبادلون فيها أخبار الطريق ويتعرفون على الأسعار، ويؤدون بها الصلاة، وعادة ما تكون الآبار محفورة في وسط الأودية⁽³⁾، وتختلف أعماقها باختلاف المنطقة التي حفرت بها، وإلى جانب البئر عادة ما تكون سواقي ترد عليها الإبل والغنم، وبانعامها يصبون لها الماء في أحواض مصنوعة من جلود الإبل أو البقر⁽⁴⁾.

2. الرياح والزوابع الرملية:

تشكل الرياح والزوابع الرملية أضرارا كبيرة للقوافل التجارية، لأنها تحمل ذرات الرمل الدقيقة وتدفع بها إلى كل أجزاء جسم المسافر، فتكون كالكساكين الحادة، وإذا تراكمت درات الرمال حول الواقف قبرته في عدة دقائق⁽⁵⁾.

ويذكر الرحالة ابن بطوطة في إحدى رحلاته عبر صحراء بين تغازي وإيالاتن، عدم وضوح الطريق الذي تسلكه القافلة بسبب الرمال التي تسفيها الرياح، فيقول: "...فترى جبالا في مكان، ثم تراها قد انتقلت إلى سواه..."⁽⁶⁾.

(1) علوي: المرجع السابق، ص182.

(2) يصف ابن خلدون طريقة حفر هذه الآبار في الصحراء قائلا: "...وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة الهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس إلى أن يرق ثم تصعد ويقذفون عليها زرة من الحديد تكسر طبقتها على الماء فينبعث صاعدا فيفعم البئر ثم يجري على وجه الأرض واديا. أنظر: ابن خلدون، تاريخ...، مج 7، المصدر السابق، ص119.

(3) معظم الآبار المذكورة هي قصيرة العمق حيث لا تتعدى ستة أمتار، أنظر: حوتية، آل كنتة، المرجع السابق، ص36.

(4) حوتية، نفسه، ص104.

(5) خالد بلعري: " تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط " مقال نشر في مجلة الواحات للبحوث

والدراسات، ع15، عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي الأول حول الإنسان والصحراء الكبرى قراءات تاريخية واجتماعية، المنعقد يومي 27-28 ذوالحجة 1432هـ/ 23-24 نوفمبر 2011م بالمركز الجامعيغرداية،المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 2011م، ص38.

(6) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص774.

ويصف لنا العياشي في رحلته للحج في جانفي 1663م، المعاناة التي يلاقيها المسافرون من الرياح في صحراء الجزائر، أثناء تنقلهم بين وارجلان ووادي ريغ في أرض ذات رمال لا يهتدي فيها إلا من سار فيها كثيرا. "... وفي اليوم الثالث منها أصبحت علينا ريح باردة في مكان كثير الرمل وجاءتنا من أمام حتى لا يكاد الرجل يرى من بجنبه ودامت علينا إلى الليل ولقينا منها شدة..."⁽¹⁾.

إن الضرر الذي تسببه الرياح يختلف حسب اتجاه هبوبها والفصل الذي تهب فيه، فهناك رياح القبلي الحارة التي تعمل على جفاف الماء من القرب، وقد تعرض ركب الأسكيا الحاج محمد ملك سنغاي، لمثل هذه الرياح في رحلته للحج، كما توجد رياح يطلق عليها اسم الريح الأحمر بما تثيره من غبار أحمر⁽²⁾.

وأكد الوزان أن رياح الصحراء لا تجفف الماء في الأسقية وتغير معالم الطريق فقط بل تطمر الآبار أيضا، قال: "... ومن الخطر جدا على التجار أن يقوموا بهذا السفر في غير فصل الشتاء، لأنه تهب في غير هذا الفصل رياح قبلية تحمل معها من الرمال ما يغطي الآبار، حتى أن من يذهب مؤملا أن يجد الماء في الأماكن المعتادة لا يعثر للآبار التي غطتها الرمال على رسم ولا أثر، ويكون مضطرا إلى أن يموت عطشا"⁽³⁾.

وكثيرا ما يتصارع الأدلاء مع كثران الرمل المتنقلة بفعل الرياح القوية، مثل ما يحصل لقوافل ورقلة في طريقها إلى كانو مروراً ببغات وأحير، عبر صحراء قاحلة مليئة بالكوارث التي تحدثها رياح الجنوب التي كثيرا ما تقضي على قوافل بأكملها⁽⁴⁾.

ويستشهد الزبيري بواقعة نقلها عن موروي (Mauroy)، أن رياح الجنوب داهمت إحدى القوافل القادمة من تمبكتو سنة 1805م، وكانت مكونة من ألفي رجل وألف وثمانمائة جمل، فشربت [كذا] المياه من طريقها ولم ينج منها أحد⁽⁵⁾.

كما يذكر النقيب الفرنسي روجييه ليسيل (Capitaine Roger Leselle) في دراسته السابقة، أن كبار السن السوافة يحكون القصة المرعبة لعائلة قداد (Gheddad) من قبيلة

⁽¹⁾ بلحميسي: المرجع السابق، ص 89.

⁽²⁾ الدالي: المرجع السابق، ص 318.

⁽³⁾ الوزان: المصدر السابق، ج 1، ص 76.

⁽⁴⁾ الزبيري: المرجع السابق، ص ص 162-163.

⁽⁵⁾ الزبيري: نفسه، ص 163، الهامش رقم (3).

الأرباع (Rebaia) والتي تتكون من ثمانية أفراد وأحد عشر عبدا مع جمالها والتي ماتت عن آخرها عطشا عند رجوعها من غدامس إلى وادي سوف بسبب الزوابع الرملية (رياح الشيلي) وحرارة الشمس⁽¹⁾.

3. الثلج:

كثيرا ما يفاجئ الثلج التجار الذين اعتادوا السفر من شمال الصحراء بأحمال التمر في آخر شهر أكتوبر لمبادلتهم بالبضائع السودانية، ويصف الحسن الوزان هذه الحالة: "...ذلك أن الثلج إذا بدأ يسقط ليلا أصبحت القافلة مدفونة تحته ومخنوقة، وليست القافلة هي التي يكسوها الثلج وحدها، بل يكسو الأشجار المحيطة بها أيضا بحيث تتعذر رؤية الطريق وتختفي المعالم للعثور على الجثث..."⁽²⁾.

4. الأرض الحرشة:

في بعض الأحيان تضطر القافلة التجارية بأن تمر بمنطقة مشهورة بأرضها الحرشة لاحتطب فيها ولا كلاً ولا ماء، إلا ما في القرب، تتمزق فيها النعال، وتتألم أخفاق البغال وحوافر البغال من حروشتها، يضطر المسافرون لكي يستطيعوا مواصلة السير إلى لف الخرق والرقاع على الأرجل⁽³⁾.

5. الحيوانات الضارة:

غالبا ما يلاقي التجار والمرافقون للقوافل التجارية في تنقلاتهم وتحركاتهم عبر الصحراء، أخطارا حقيقية قد تؤدي إلى الموت المحقق، فالوزان يؤكد كثرة الوحوش والحيات في صحراء الأزواد وصحراء صنهاجة⁽⁴⁾.

وينقل بلحميسي عن العياشي وصفه لكثرة العقارب في بعض المناطق من جنوب الجزائر. قائلا: "...ثم ارتحلنا... فلما كان الضحى وسخنت الأرض أخرجت الأرض من مخبر عقاربها ما ملأ الأرض حتى لا تكاد ترمي ببصرك إلى ناحية إلا وقعت على عقرب وأخذ الناس يقتلونها..."⁽⁵⁾. ويظهر أن وصف العياشي فيه شيء من المبالغة، و قد يكون بسبب شدة خوفه ورعبه مما رآه.

⁽¹⁾ Leselle: op-cit, pp13-14.

⁽²⁾ الوزان: المصدر السابق، ص 73.

⁽³⁾ بلحميسي: المرجع السابق، ص 82.

⁽⁴⁾ الوزان: المصدر نفسه، ج 2، ص 148.

⁽⁵⁾ بلحميسي: المرجع نفسه، ص 108.

ج. الحلول والإجراءات المتخذة:

إتخذت السلطة الحاكمة في الجزائر جملة من التدابير والإجراءات للحد من الصعوبات والمشاكل

التي تعترض القوافل التجارية منها:

- تزويد القوافل بالأسلحة الكافية لتدافع عن نفسها، وترغم المهاجمين على الإرتداد، ودفع تعويض عن كل خسارة يلحقونها بها.
- تأليف القافلة من رجال أقوياء، أشداء، محاربين. وتنوع انتمائهم القبلي حتى يكثر أنصارها ويصعب الإعتداء عليها.
- فرض ضرائب متنوعة على العربان مثل ضريبة العشر، وضريبة المرور، وإلزامهم بتقديم الرجال لخدمة القافلة وإرشادها، لكي لا تغلق في وجوههم أسواق الشمال التي يترددون هم عليها كذلك.
- تنظيم شرطة صحراوية على طول طريق القافلة خلال الذهاب والإياب، ولمراقبة البدو الرحل، والقيام باستعلامات سريعة، ومسبقة تتكلف إبلاغ القافلة مسبقا بكل تحركات العصابات البدوية حتى تحتاط لنفسها، وتنظم دفاعها.
- إتخاذ أدلاء أو قياد عارفين بمسالك الطرق، ومواطن المياه، وظروف الأمن، وأماكن العصابات المهاجمة، وهوية المهاجمين وأساليب هجومهم، وتحركاتهم⁽¹⁾.

رابعا: مسالك التجارة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء

تعتبر المسالك البرية أهم وسيلة لارتباط الجزائر بعلاقات تجارية بإفريقيا جنوب الصحراء، فهناك عدة طرق ومسالك تربط بين المنطقتين، وقد اختلف المؤرخون والباحثون في بدايات هذه المسالك ونهاياتها، كما ركّز بعضهم على أهمية بعضها دون غيرها، والتي كانت وسيلة الإتصال الإقتصادي والثقافي والسياسي في أواخرها⁽²⁾. ذلك أن التجارة تُعدّ أهمّ الروابط التي تصل بين الأقاليم الجغرافية، وبين الشعوب والحضارات. لهذا هتمّ المسلمون بهذه المسالك، لإعادة إحياء الحركة التجارية بين السكان⁽³⁾.

⁽¹⁾ بوعزيز: تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص 45-46.

⁽²⁾ الفيتوري: المرجع السابق، ص 323.

⁽³⁾ نور الدين شعباني: علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية بين القرنين الرابع والتاسع

المحريين / 10 و15م، رسالة ماجستير في تاريخ العلاقات بين السودان الغربي والمغرب الإسلامي، إشراف الدكتور موسى

لقبال، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1426-1427هـ / 2005-2006

ص 71م، 2006م.

والمتأمل في حركة التجارة الدائبة، يجد أن المسالك المتبعة نوعان: أحدهما أفقي من الشرق إلى الغرب والعكس، والآخر رأسي يأتي من أعماق إفريقيا جنوب الصحراء إلى الشمال، ومن الأسواق الشمالية إلى غات وتمبكتو وأغاديس وكانو وغيرها⁽¹⁾.

أما أهم المسالك التي تربط الجزائر بإفريقيا جنوب الصحراء فهي:

أ. المسلك الشرقي:

1- مسلك سكيكدة إلى تمبكتو: عبر قسنطينة ثم أمقيد والهقار، ويمرّ على باتنة، وبسكرة، وتقرت، وورقلة، والبيوض، وأمقيد، والهقار، وتيميساو، وأيفروان، إلى مبروك، وتمبكتو، أو إلى شط بوروم (برنوح). وقد مرّ على جانب من هذا المسلك الضابط فلاترس (Flaters) عبر حوض إغرغر⁽²⁾. ويضطرّ التجار المارين بهذه المسلك اجتياز صحراء جافة وخطيرة⁽³⁾. ولهذا المسلك فرع يبدأ من جنوب بسكرة، ويتجه إلى وادي سوف، ومن هناك إلى غدامس، وغات، وجبادو، وبلما، وأقاديم، وماو. وفرع من البيوض إلى عين صالح، وفرع ثالث إلى غات⁽⁴⁾.

2 مسلك طرابلس إلى تمبكتو: ويمرّ على سناون، وغدامس، وتيمياسين، والبيوض، أين يتصل بطريق قسنطينة إلى تمبكتو، ولهذا المسلك فرع إلى غات، وبئر عيسو، وأغاديس، ثم إلى سوكتو، وكاتسينا غربا، وإلى أقاديم، وماو شرقا⁽⁵⁾.

ب. المسلك الأوسط⁽⁶⁾:

1- مسلك مدينة الجزائر إلى تمبكتو (يتجاوز طوله 3500 كلم):

ويمرّ على البليدة، وبوغار، والأغواط، وغرداية، والمنيعه، وعين صالح، وأقبلي، وبئر تيريشومين حيث يلتقي بطريق توات إلى تمبكتو، وقد سلكه الضابط بالا. ولهذا المسلك فرع آخر من عين صالح إلى بئر عيسو، حيث يتفرع إلى فرعين كذلك: فرع إلى أقاديم، وماو شرق بحيرة تشاد، وإلى أقاديم

(1) الزبيدي: المرجع السابق، ص 104-105.

(2) بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية...، المرجع السابق، ص 42. وكذلك إبراهيم مياسي: مقاربات في تاريخ الجزائر، 1830-1962م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م، ص 36.

(3) تبتدئ هذه الصحراء عند إيغدي وتمتد إلى تخوم القفر الذي يسكنه شعب برداوة، وتناخم شمالا فقار تقرت وورقلة وغدامس، وجنوبا حتى كانو مملكة بلاد السودان. أنظر: الوزان، المصدر السابق، ج 2، ص 153.

(4) بوعزيز: المرجع نفسه، ص 42. وكذلك مياسي: المرجع نفسه، ص 36.

(5) مياسي: المرجع السابق، ص 35.

(6) أنظر الخريطة في الملحق رقم (8)

وكوكا جنوبا. وفرع إلى الجنوب الغربي نحو أغاديس، حيث يتفرع هو الآخر إلى فرعين: فرع إلى سوكتو، وفرع إلى كاتسينا بنيجيريا حاليا⁽¹⁾.

ج. المسلك الغربي:

1- مسلك وهران إلى تمبكتو: ويمر على خيثر، ومشربة، وعين الصفراء، وفقيق، ويتبع مجرى

واد زوزوفانة إلى إيغلي، حيث يلتقي بمسلك فاس إلى تمبكتو. ولهذا المسلك فرع آخر إلى شرق الأول مستقيم، يبدأ من خيثر إلى البيض، والأبيض سيدي الشيخ، والمنقب، وتوات، أين يلتقي بمسالك: وهران، وفاس، ومكناس، إلى تمبكتو. وقد سلكه كولونيو (Colonio) عام 1860م⁽²⁾.

2 - مسلك مراكش إلى تمبكتو: ويمر على تارودانت، وتاوريرت، وتندوف، ويخترق رمال إيقدي،

وعرش شاش، ويتجه إلى تاوديني، كما يخترق الجوف شرقا مارا بأوتان، وأروان، ليتجه إلى تمبكتو. ولهذا مسلك فرع من تندوف يتجه إلى الجرف الأصفر، وأوقلت العزل، وقرونه، وزمور، والقلته، وسماميت، وحاسي بوتلان. ومن هناك يتجه فرع منه إلى تمبكتو، وفرع إلى قصر البرشان، وعطار، وأوجيفت، وتنورت، على شاطئ المحيط الأطلسي⁽³⁾.

3- مسلك فاس ومكناس إلى تمبكتو: ويمر بقصبة المخزن وأم دريبينة، ويتبع حوض واد قير إلى

إيغلي، ثم حوض الساورا إلى توات، وأقبلي، وبئر تيريشومين، ووالن⁽⁴⁾، وعين رنان، ومبروك، وتمبكتو⁽⁵⁾. وفي هذا مسلك توجد بعض الآبار المكسوة من داخلها بجلد الإبل أو المبنية بعظامها⁽⁶⁾.
بعظامها⁽⁶⁾.

وهناك مسلك آخر يخرج من مراكش ليتصل بهذا مسلك في توات، ويمر على ممسينة، والمسيتر، والمعسف، وتمنيط، إلى أقبلي، وبئر تيريشومين⁽⁷⁾.

(1) بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية...، المرجع السابق، ص 42. وكذلك مياسي: مقاربات...، المرجع السابق، ص ص35-

36. و أيضا واحميدة عمراوي وآخرون: السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916م)، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2009م، ص18.

(2) بوعزيز: تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص41. وكذلك مياسي: المرجع السابق، ص ص35-36.

(3) مياسي: المرجع السابق، ص35.

(4) والن أوولاة: مدينة ببلاد السودان، تبعد عن نون ب 1900 كلم جهة الجنوب، وعن تمبكتو ب 450 كلم شمالا، وعن المحيط ب900 كلم، أنظر: الوزان، المصدر السابق، ج2، ص161.

(5) مياسي: المرجع نفسه، ص36.

(6) الوزان: المصدر نفسه، ج1، ص76.

(7) مياسي: مقاربات...، المرجع السابق، ص36.

أما برونو فيرلي (Bruno verlet) فيرى أنه في عهده (أي القرن 19م) يوجد في الصحراء خمسة مسالك تربط إفريقيا الشمالية بإفريقيا السمراء، أهم ثلاثة منها هي:

مسلك في الجهة الشرقية، والذي يربط بسكرة بالحدود الليبية عبر تقرت، ورقلة، برج فلاتير وجانت، أي حوالي 2170 كلم. وفي الوسط مسلك الهقار الذي يربط الأغواط بعين قزام، أي حوالي 2100 كلم، عبر غرداية، المنيعه، عين صالح، تمنراست. أما في غرب الجزائر فهناك المسلك الذي يربط بشار بغاو، أي حوالي 1380 كلم، عبر بني عباس، أدرار، رقان والأحياء القصديرية؛ إضافة إلى بعض المسالك العرضية، أهمها إثنين: الأول يربط بشار بتندوف (1030 كلم)، والثاني يربط المنيعه بأدرار عبر تميمون (620 كلم)⁽¹⁾.

مما سبق ذكره يمكن أن نستنتج أن الجزائر قد توقّرت في العهد العثماني، على شبكة من المواصلات كادت تكون مكتملة من حيث الانتشار، فهي بمواصفات ذلك العصر كانت تصل جلّ المراكز العمرانية وتربط أغلب الجهات وتضمن الانتقال للأشخاص والقوافل، وتُساهم في تصريف المنتوجات الفلاحية وإيصال الحاجات المعاشية للسكان، رغم أن هذه الشبكة لم تعرف التقنيات المستخدمة في وسائل النقل بأوروبا آنذاك، كما يمكن القول بأن المواصلات بالجزائر طيلة العهد العثماني لم تجد العناية الكافية من الحكام وظلت على ما كانت عليه في أواخر الفترة الإسلامية من حيث الوسائل المستخدمة أو المسالك المستعملة⁽²⁾.

إنّ المسالك السالفة الذكر لم تبق ثابتة عبر الحقب الزمنية، فهناك أمور سياسية وأمنية، عملت على تغيير مسارها من فترة لأخرى، ولكن الإتجاهات عموماً حافظت على ثباتها، ما دامت بعض المراكز التجارية لم تفقد أهميتها⁽³⁾.

فما هي إذن أهم الأسواق والمراكز التجارية التي كانت تصل إليها هذه المسالك سواء بالجزائر أو بإفريقيا جنوب الصحراء؟ وكيف كانت تتم المبادلات التجارية في هذه الأسواق؟ هذا ما سنتطرق إليه في الفصل الموالي.

(1) verlet: op-cit, p58.

(2) ناصر الدين سعيدوني: ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م، ص446.

(3) الدالي: المرجع السابق، ص 314 وما بعدها.

خلاصة الفصل

عرفت العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء نشاطا كبيرا عبر مختلف العصور، وهذا بفضل القوافل التجارية التي كانت تجوب الصحاري والفيافي ذاهبة آية، آخذة مسالك عديدة، معرضة أصحابها إلى صعوبات ومخاطر لا تعد ولا تحصى. لقد كانت القافلة في ذلك الزمن الوسيلة الوحيدة الممكنة للتنقل في الصحراء، مستخدمة الجمال خاصة، تضم مجموعة من التجار تجمعهم المصلحة المشتركة، وللقافلة تنظيم خاص بها من حيث هيكلتها ونظام سيرها، فهي تتكون غالبا من القائد الذي يعتبر المسؤول الأول عن القافلة، والدليل الذي هو عين القافلة، إضافة إلى الترجمان، والتكشيف، والطبيب، والفقير، والحراس، وغيرهم.

كانت القوافل الجزائرية في العهد العثماني تغدو وتروح بين موانئ الشمال وأسواق واحات أعماق الصحراء الكبرى في كل من التشاد، ونيجيريا، وإفريقيا الوسطى، والنيجر ومالي، والسنغال، وغيرها. مرحب بها في كل الحواضر التي تمر بها أو تحط الرحال بها، سواء داخل الجزائر أو خارجها، نظرا لدورها الإيجابي في بعث النشاط التجاري والإقتصادي والثقافي بتلك المناطق البعيدة والمعزولة. إلا أن الكثير من هذه القوافل كانت تتعرض لصعوبات ومخاطر عديدة ومتنوعة بشرية وطبيعية، منها تعرضها لمجموعات بشرية يتوقف وجودها وعيشها على قطع الطريق والإعتداء على تجار القوافل سلبا ونهبا وقتلا، ومن أشهر القبائل التي كانت تتعرض لهذه القوافل إما بفرض الضرائب عليها أو سلب ماتحملة من بضائع وأموال، التوارق، والبرابيش، والفلان. كما كانت عرضة إلى قساوة الطبيعة خاصة في المناطق الصحراوية، مثل فقدان الماء في فصل الصيف، وهبوب الرياح والزوابع الرملية، وسقوط الثلوج، ووعورة بعض المسالك الحرشة، ومهاجمة بعض الحيوانات الضارة كالعقارب والحيات خاصة ليلا.

لقد استطاع التجار الجزائريون بعون الله واعتمادهم على أنفسهم وبتضحياتهم الجسام أن يتأقلموا مع الظروف الصعبة المحيطة بهم أثناء تنقلاتهم، ويسلكوا مسالك برية تربط بين شمال الجزائر وجنوبها، ومع إفريقيا جنوب الصحراء، من أهمها في الجهة الغربية: المسلك المنطلق من تلمسان نحو تمبكتو مرورا بإقليم توات. والمسلك الرابط بين وهران وتمبكتو والذي يمر بالخيش، ومشية، وعين الصفراء، وفقيق، ثم إيغلي. ومسلك توات نحو كوكو (أواسط النيجر). ومسلك عين صالح نحو غات. والمسلك الرابط بين تلمسان وأغاديس.

أما في الناحية الشرقية فنجد: مسلك تقرت وورقلة نحو غاو، وهذا المسلك يتصل بالموانئ الجزائرية في الشمال. والمسلك الرابط بين سكيكدة وتمبكتو بمالي والذي يمر بقسنطينة، وباتنة، وبسكرة، وورقلة،

والبيوض، والهقار. أما في الوسط فهناك: المسلك الواصل بين مدينة الجزائر وتمبكتو مارا بكل من البلدية، وبوغار، والأغواط، وغرداية، وعين صالح، حيث يتفرع بعد ذلك إلى فرعين أحدهما يصل إلى شرق بحيرة تشاد ثم كوكا جنوبا، والآخر يصل إلى أغاديس، ومنه إلى سوكوتو وكاتسينا بنيجيريا. هذه أهم المسالك التي كانت مستعملة بكثرة ومعروفة لدى التجار وأصحاب القوافل، علما أنه كانت هناك مسالك أخرى أقل أهمية من سابقتها، أو هي تفرعات لمسالك رئيسية، مع العلم أن المسالك السالفة الذكر لم تبقى ثابتة عبر الأزمنة، فقد عملت ظروف سياسية وأمنية على تغيير مسارها بين فترة وأخرى، لكن الملاحظ أن الإتجاهات عموما حافظت على ثباتها.

الفصل الثالث

الأسواق والمعاملات التجارية بالجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء.

أولاً: المراكز التجارية بالجزائر.

ثانياً: المراكز التجارية بإفريقيا جنوب الصحراء.

ثالثاً: أهم السلع والبضائع المتبادلة.

رابعاً: المعاملات التجارية بالأسواق الجزائرية والسودانية.

الفصل الثالث

الأسواق والمعاملات التجارية بالجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء

أولاً: أهم المراكز التجارية بالجزائر.

لقد أجمعت الدراسات التاريخية على أن العلاقات التجارية بين حواضر شمال إفريقيا، ونظيراتها في إفريقيا جنوب الصحراء قديمة، فرضتها المصالح المشتركة والتكامل الإقتصادي بين الجانبين. وكانت لحواضر الجزائر حتى قبل ظهور الإسلام علاقات مع إفريقيا جنوب الصحراء، حيث تعتبر نقاط هامة من نقاط عبور القوافل التجارية القرطاجية، والنوميديّة، والرومانية، المتوجهة إلى الهقار والنيجر وأعماق إفريقيا⁽¹⁾. ومن ضمن هذه الحواضر: غدامس، وغات، وورقلة، وتوات، وقورارة، وتمبكتو، وسجلماسة، ومزاب، وعين صالح، والمنيعّة⁽²⁾.

لقد برزت هذه الحواضر في بداياتها كمحطات للقوافل، تقع كل منها على عدة أميال من المحطة السابقة، وكانت تنزل بها قوافل التجار، وتعدّد فيها الأسواق في أيام معينة من الأسبوع، في ساحة كبيرة، داخل القرية أو خارجها، كما كانت نقط تبادل للسلع والمنافع، يأتيها المنتجون والمستهلكون من المناطق المجاورة، وبالإضافة إلى دورها التجاري كانت هذه الأسواق تؤدي دوراً ثقافياً هاماً، إذ يقصدها المداحون من مختلف أنحاء البلاد، يروون على الجماهير أنواعاً من الأفاصيص الدينية والأساطير الشعبية، وكان هذا التجمهر الضخم في الأسواق يساعد على تقوية الروابط بين الأهالي، وعلى زيادة إنتشار الإسلام مع التجارة صوب الجنوب⁽³⁾.

ومن أهم الحواضر الجزائرية التي كانت تنطلق منها القوافل التجارية صوب أكبر أسواق إفريقيا جنوب الصحراء نجد:

(1) ذكار: المرجع السابق، ص54.

(2) بوعزيز: تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص44.

(3) جلال يحيى: المرجع السابق، ص ص20-21، وكذلك الزبيدي: المرجع السابق، ص64، الغامش رقم(1).

أ. أهم مراكز الشمال:

1. مدينة الجزائر: هي جزائر بني مزغنة قديما، وهي مدينة قديمة تدل آثارها على أنها كانت ذات مكانة هامة في القديم، بها أسواق ومسجد جامع كما ذكر البكري في القرن الحادي عشر ميلادي⁽¹⁾. أما الإدريسي في القرن الثالث عشر ميلادي فيصفها قائلا: "...مدينة الجزائر على ضفة البحر، عامرة، أهلة، تجارتها مربحة، أسوارها قائمة، وصناعتها نافقة، ولها بادية كبيرة ومشرب أهلها من عيون عذبة ومن آبار..."⁽²⁾.

لقد أشاد الحسن الوزان الذي نزل بالمدينة سنة 1516م بأهمية أسواق الجزائر قائلا: "...الجزائر وهي كبيرة جدا [كذا]، أسوارها رائعة ومتينة جدا، مبنية بالحجر الضخم، فيها دور جميلة وأسواق منسقة كما يجب، لكل حرفة مكانها الخاص..."⁽³⁾.

بعد مجئ الأتراك العثمانيين واتخاذهم مدينة الجزائر قاعدة لحكمهم في العقد الثالث من القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي، ازدادت هذه المدينة أهمية، وأصبحت من أهم مراكز المبادلات التجارية إن لم يكن أهمها على الإطلاق، فتفوقت على تلمسان، وبجاية، وقسنطينة، وتوسعت بسرعة، وازداد عدد سكانها حتى أصبحت المدينة الكبرى في شمال إفريقيا⁽⁴⁾.

وترك لنا الرحالة والسفير المغربي التمكروتي وصفا للمدينة التي دخلها يوم 1590/09/08م، قائلا: "...وهي (أي الجزائر) عامرة كثيرة الأسواق بعيدتها... فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد إفريقيا وأعمار وأكثر تجارا وفضلا وأنفذ أسواقا وأوجد سلعة ومتاعا، حتى أنهم يسمونها إصطنبول الصغرى..."⁽⁵⁾. أما عبد الله الشويهد الذي شغل منصب متولي سوق مدينة الجزائر أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر ميلادي فيقول في شأنها: "... كانت مدينة الجزائر نقطة انتقال، وكانت القوافل القادمة من المغرب الأقصى وتونس والصحراء محملة بالسلع النادرة والحجاج الذين كانوا يتاجرون كذلك في طريقهم إلى الأماكن المقدسة، تجد مكانا آمنا لها بقرابة الأبواب الرئيسية

(1) البكري: المصدر السابق، ص79.

(2) الشريف الإدريسي: القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق وتقديم وتعليق:

إسماعيل العربي، نشر: د.م. ج، الجزائر، 1983، ص148.

(3) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص37.

(4) بن خروف: العلاقات الاقتصادية... المرجع السابق، ج2، ص79.

(5) علي بن محمد التمكروتي: النفحة المسكية في السفارة التركية (1589م)، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي،

الإمارات العربية المتحدة، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2007م، ص159.

للمدينة حيث كان النشاط التجاري مزدهرا، وهذا لتعذر دخولها المدينة لضيق الشوارع بها...⁽¹⁾. فقد وُجد بمدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية ستة عشر حيا تجاريا يجمع عدة نشاطات حرفية ويتخلل هذه الأحياء حوالي خمسة وأربعون سوقا⁽²⁾.

كان للقوافل التجارية دورا رئيسيا في ربط مدينة الجزائر تجاريا بالأقطار الإسلامية المجاورة، مثل المغرب الأقصى وتونس وطرابلس الغرب ومصر وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء، وفي نطاق هذا التبادل التجاري كانت الجزائر تصدر نحو الموانئ الأوروبية وفي مقدمتها ليفورن ومرسيليا وجنوة وجبل طارق، كميات كبيرة من القمح، والشعير، والزيت، والشمع، والصوف، والجلود، والتمر، وريش النعام، الذي يستورد من بلاد السودان، والمرجان، والتين، وغيرها، وفي المقابل كانت تستورد الأقمشة، والعتاد الحربي، والحديد، والنحاس، والرصاص، والبن، والسكر، والتبغ⁽³⁾.

لكن أسواق المدينة لم تستقطب في الفترات اللاحقة اهتمام الذين نزلوا بها أو زاروها، فبعد عملية التدمير التي قام بها الفرنسيون، ترك لنا الرحالة الألماني فاغنر (Vagner) وصفا لأسواقها جاء فيه: "...وكانت في الجزائر أسواق تحتوي على أكثر من أربعين محلا، إلا أن القسم الأكبر منها، بل أجمعها قد هُدم، وقامت في مكانها محلات ودكاكين تجار أوروبيين لا تقل جمالا عن دكاكين من الدرجة الثانية في طولون ونيس... أما دكاكين الأهالي فهي عبارة عن ثقب مربعة، تغلق في الليل بباب خشبي... فقد قضى الفرنسيون على الأسواق الجميلة وأقاموا مكانها دكاكين ومخازن أوروبية. أما محلات العرب فهي صغيرة جدا وأغلب أصحابها من الكراغلة، وتباع فيها البلغ ومحافظ النقود وما إلى ذلك وتشمل البضائع على الأكثر العطور مثل: الورد والياسمين والمصنوعات الحريرية..."⁽⁴⁾، وهذه شهادة من أوروبي عن حجم الدمار والتخريب الذي تعرضت له أسواق مدينة الجزائر غداة الاحتلال الفرنسي.

2. تلمسان:

⁽¹⁾ عبد الله بن محمد الشويهد: قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117هـ / 1695-1705م)، تح وتق وتع: ناصر

الدين سعيدوني، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2006، ص168.

⁽²⁾ هلايلي: المرجع السابق، ص194. وأنظر الملحقين رقم (4) و(5)، عن أسماء الأسواق بمدينة الجزائر، وخريطة توزيعها بها.

⁽³⁾ الشويهد: المصدر نفسه، ص34.

⁽⁴⁾ دودو: المرجع السابق، ص101.

مدينة مشهورة تقع غرب وهران في موقع وعر يحكم الطريق الآتي من قلب الصحراء إلى البحر، كما أنها تقع في تقاطع طريقتين من أكثر الطرق أهمية في شمال إفريقيا، و تزيد من مناعتها المضطربة التي تقوم عليها. يحيط بها سور، ولها خمسة أبواب، هي قاعدة الجزائر (المغرب الأوسط) في العهد الزياني، بها أسواق ومساجد ومسجد جامع، ولأهميتها التجارية كانت مقصد التجار والعلماء من كل الآفاق⁽¹⁾. وتلمسان وما حولها إقليم فسيح من أوفر أقاليم المغرب بالخيرات ووسائل الرخاء، فهي منطقة سهول وهضاب، كثيرة الوديان وافرة الأمطار في الشتاء⁽²⁾.

لقد كانت تلمسان مركزا تجاريا رئيسيا في الغرب الجزائري، ومحطة من محطات التجارة الدولية بين أوروبا وإفريقيا جنوب الصحراء، وبحكم موقعها الهام كانت قوافل التجار والحجاج، تضطر أن تمر بها، لتتزوّد فيها بما يلزمها، وتبيع هناك بضائعها. ولذلك فإن تلمسان كانت مركزا هاما للمبادلات التجارية على المحور الأفقي بين الجزائر والمغرب، بالإضافة إلى أنها مركز للمبادلات على المحور العمودي بين أوروبا وإفريقيا⁽³⁾. ولكنها أخذت في التقهقر منذ النصف الأول من القرن العاشر هجري/السادس عشر ميلادي لأسباب عديدة، من أهمها:

- إستيلاء الإسبان على منافذها البحرية، وهران والمرسى الكبير، وتخريبهم لهنين،
- إضطراب الأمور الداخلية فيها، نتيجة أطماع الإسبان والسعديين فيها، وتنافس الأمراء الزيانيين فيما بينهم، قبل دخولها تحت الحكم العثماني في أواسط القرن المذكور أعلاه.
- تحويل السعديين محور التجارة مع بلاد السودان إلى مدتهم الجنوبية كمراكش⁽⁴⁾، ومنها إلى سواحل المغرب الأطلسية فأوروبا⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ البكري: المصدر السابق، ص79.

⁽²⁾ ابن الأهرار: المرجع السابق، ص10.

⁽³⁾ بن خروف: العلاقات الاقتصادية...، المرجع السابق، ج2، ص85.

⁽⁴⁾ وذلك بعد احتلال السعديين بلاد توات وتيقورارين سنة 989هـ/1583م، والتي كانت أساس تجارة تلمسان مع بلدان

إفريقيا جنوب الصحراء، التي هي مصدر ثروتها ورخائها. أنظر: محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله الوفراني النجار المراكشي
الوجار، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي أو تاريخ الأسرة السعدية بالمغرب (1511-1670م)، صححه السيد
هوداس، نشر مدرسة اللغات الشرقية الحية، السلسلة 3، ح2، مطبعة بوردين وشركاه، أنجيه، 1888م، ص87. وكذلك بن

خروف، المرجع نفسه، ج2، ص87.

⁽⁵⁾ بن خروف: نفسه، ص86.

3. وهران:

هي مدينة تقع في غرب الجزائر، كثيرة المياه والبساتين، بها مسجد جامع، ويذكر البكري أن الذي بناها هو محمد بن أبي عون ومحمد بن عبدون وجماعة من الأندلسيين سنة 290هـ/ 903م⁽¹⁾، ربما لاتخاذها قاعدة للعلاقات التجارية لموطنهم الأصلي (أي الأندلس) مع دواخل البلدان الإفريقية، ومنها تلمسان المدينة التجارية المهمة التي ستصبح عاصمة المغرب الأوسط⁽²⁾.

عرفت وهران خلال القرن التاسع هجري/الخامس عشر ميلادي نشاطا تجاريا كبيرا وواسعا، رغم الإضطرابات السياسية الواسعة التي أصابت الدولة الزيانية، فكثير ورود قوافل الصحراء عليها ببضائع الجنوب، كما كثر ورود التجار الأوروبيين من مدن البندقية وجنوة وبرشلونة، ومرسيليا وغيرها ببضائع الشمال، فأصبحت موقعا هاما لمختلف البضائع التجارية، ومحطة لا غنى عنها لكل العاملين بالتجارة⁽³⁾. إزدهرت بوهران في هذا العهد صناعة الصوف، والسيوف والخناجر، والأدوات الطينية والخشبية، وتحدث عنها الحسن الوزان، والشريف الإدريسي، خاصة عن ازدهارها العمراني والإقتصادي⁽⁴⁾.

وقد عانت مدينة وهران من هجومات الإسبان والبرتغاليين المتكررة خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، كما عانت من الإضطراب السياسي الداخلي في العهد الزياني، لكن رغم ذلك شهدت من جهة أخرى نشاطا تجاريا وصناعيا واسعا لمواد مختلفة مثل جلود النعام، والأبقار، والأغنام، وتبر الذهب، والعبيد، والحبوب، والخضر، وغزل النسيج، ودباغة الجلود، وصناعة السيوف والسكاكين، وغيرها. وكثير عليها تردد تجار مدن: بيزة والبندقية وجنوة ومرسيليا والقطلانيون ليشتروا ما تشتهر به من بضائع، ويبيعوا سلعهم مثل الأقمشة، والأسلحة، وأدوات الخرز، والأدوات الحديدية والزجاجية والعطور وغيرها، كما كانت وهران إحدى المحطات التجارية الهامة التي تعد وتنطلق منها القوافل التجارية إلى أعماق الصحراء الكبرى ببضائع الشمال، عبر مدن سعيدة وخيثر،

(1) البكري: المصدر السابق، ص73.

(19)RenéLespes:« ORAN,villeetportavantl'occupation inRA75,3^{ém}trim,1934,pp278-279

(3) يحيى بوعزيز: مدينة وهران عبر التاريخ، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط2، وهران، الجزائر، 2002م، ص60.

(4) بوعزيز: المرجع نفسه، ص63.

وعين الصفراء، مروراً بواحات توات، إلى مدينة تمبكتو بمالي، لتعود إليها ببضائع السودان وواحات الصحراء بعد ذلك.⁽¹⁾

ويرى روني ليسبيس (René Lespes) نقلاً عن لوجيي دوتاسي (Laugier de Tassy) أن وهران في القرن الثامن عشر (قبل 1708)، كانت مخزن للإسبان بسبب تجارتها الكبيرة في العبيد⁽²⁾. وقد عمل الباي محمد بن عثمان الكبير (1779-1797م) في عهده على إحياء مدينة وهران تجارياً، وتخليصها من بنود معاهدة سنة 1791م مع الإسبان، والتي أعاقت السير الطبيعي لمشروعه التجاري⁽³⁾.

كما يصف نفس الكاتب حالة وهران عند احتلالها من الفرنسيين سنة 1831م، بأنه كان يوجد بها عدد معتبر من الحرفيين، من صانعي الأحذية، ونجارين، وحدادين، وخياطين وغيرهم، إلا أنهم هربوا من المدينة خوفاً من بطش الجيش الفرنسي ذي السمعة السيئة، كما يذكر "ليسبيس" أن دكاكين الأسواق كان معظمها في أيدي اليهود، الذين يُعرفون بنشاطهم التجاري⁽⁴⁾.

4. قسنطينة:

هي سيرتا في القديم، وهو اسم كنعاني فينيقي، وفيها اشتهر ماسينيسا الشجاع الذي أراد أن يحصل على استقلال البربر بواسطة روما فخابت آماله. ثم أصبحت سيرتا مستعمرة رومانية إلى أن خربها البربر على إثر ثورة دامية، فأعاد الإمبراطور قسطنطين (أوائل القرن الرابع الميلادي) بناءها وسميت باسمه⁽⁵⁾.

وصفها البكري في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بأنها مدينة قديمة كبيرة آهلة بالسكان ذات حصانة ومنعة ليس أحصن منها، بها أسواق جامعة وتجارة رابحة، مما يدل على نشاطها التجاري الكبير⁽⁶⁾. أما الحسن الوزان الذي زارها في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، فيصف لنا أسواق المدينة العديدة بأنها حسنة التنسيق، مما يدل على خبرة ومهارة تجارها الذين

⁽¹⁾ بوعزيز: نفسه، ص 67-68.

⁽²⁾ LESPEs : op-cit, 327

⁽³⁾ بن عتو: المرجع السابق، د.ر.ص.

⁽⁴⁾ LESPEs : op.cit, pp334-335.

⁽⁵⁾ الوزان: المصدر السابق، ج2، ص55، العاشر رقم (15).

⁽⁶⁾ البكري: المصدر السابق، ص69.

يتاجرون في الأقمشة الصوفية المصنوعة محليا، وفي الزيت والحريير والأقمشة، هذه البضائع يستبدلوها بالتمر والعبيد المجلوبين من بلاد السودان⁽¹⁾

كما وصفها الورثلايني في رحلته أوائل القرن الثامن عشر للميلاد بأن بها أسواق كثيرة ودكاكين هامة فهي واسعة الأرزاق والخيرات، من لحم، وسمن، وقمح، وتين، وذلك لخصوبة أراضيها، هذا بالإضافة إلى القوافل التجارية التي ترد إليها من كل ناحية⁽²⁾.

لقد كانت قسنطينة مركزا تجاريا هاما في الشرق الجزائري إبان الحكم العثماني للجزائر، إذ كانت قافلتها التجارية تتجه إلى تونس وإلى واحات الجنوب، ومن هناك تسلك الطريق الموصل إلى تمبكتو بمالي⁽³⁾. كما تميزت في العهد العثماني بنشاطها التجاري الكبير، فقد كانت همزة بين كل المدن الممتدة على جهاتها الأربع، وبخاصة المدن المتواجدة في الصحراء والتي تعتبر بدورها همزة وصل مع الأسواق والمراكز التجارية في إفريقيا جنوب الصحراء⁽⁴⁾.

وقد تجلّى هذا النشاط التجاري بصفة خاصة في عهد صالح باي الذي عمل على تشجيع التجارة الداخلية والخارجية، فأقام بها 28 سوقا، وعدة رحبات مثل رحبة الزرع التي تتوسط المدينة وتقام بها عدة نشاطات تجارية كبيع الحبوب، والتمور، والزيتون، ورحبة الشيليين، وسوق الحرازين، وسوق العطارين، ورحبة الجمال التي كانت مبركا للقوافل التي تأتي من مختلف الجهات محملة بالبضائع والسلع، وجعل صالح باي من قسنطينة المدينة الثانية بعد العاصمة من حيث النشاط التجاري، وأصبحت في عهده ملتقى القوافل التجارية التي تجوب أنحاء الشرق الجزائري، وترتبط مقر البايك بالجزائر العاصمة وتونس وغدامس وغيرها من الجهات الإفريقية⁽⁵⁾.

(1) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص56.

(2) إكرام بلعباس: صورة الجزائر في الرحلات الجزائرية والمغربية خلال العهد العثماني، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث المعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور إبراهيم لونيبي، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجيلالي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 1429-1430هـ/2008-2009م، ص67.

(3) بن خروف: المرجع السابق، ج2، ص88.

(4) أمحمد عمير اوي: قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1426هـ/2005م، ص139.

(5) فاطمة الزهراء سيدهم: موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن التاسع عشر ميلادي، مقال/في/مجلة كان التاريخية، السنة الرابعة، ع13، شوال1432هـ/سبتمبر2011م، صص22-23.

5- سطيف:

وصفها البكري قائلا: "...سطيف وهي مدينة كبيرة...وهي اليوم عامرة جامعة كثيرة الأسواق رخيصة الأسعار..."⁽¹⁾

6- تيهرت:

لقد لعبت هذه المدينة دورا مهما كمركز تجاري مع مثيلاتها بإفريقيا جنوب الصحراء، حيث كانت تعتبر قاعدة المغرب الأوسط، تتبادل البضائع مع بلاد السودان والمغرب الأقصى خاصة مدينة سجلماسة، بما أسواق عامرة وحمامات كثيرة⁽²⁾.

ب. أهم مراكز الجنوب:

كانت الأسواق تنتشر عبر ربوع الصحراء الجزائرية، كما كانت تأتيها الكثير من السلع والبضائع من مختلف المناطق، فالقصور الصحراوية كان لها منذ القديم دورا تجاريا مهما، إذ أن القوافل التجارية تجتاز العروق والكتل الجبلية لتتوقف في هذه القصور للبيع والشراء والتزود بما تحتاجه من زاد، إذ تقع في نقاط وصول وانطلاق هذه القوافل فتشكل فيما بينها خط سير يعرف في العديد من المصادر التاريخية باسم طريق القصور أو طريق الواحات، أو طريق الذهب⁽³⁾.

إن القصور الصحراوية هي عبارة عن تجمعات سكانية ومراكز تجارية متفاوتة الأهمية، وقد أجمع معظم المؤرخين أنها من أهم النقاط التجارية منذ العهود القديمة، إذ كانت تربط أقصى الجنوب الجزائري وبلاد السودان بالبحر الأبيض المتوسط⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ البكري: المصدر السابق، ص79.

⁽²⁾ الدالي: المرجع السابق، ص300.

⁽³⁾ يمينة حاضي: " الحركة التجارية بالجنوب الشرقي الجزائري من ق 4 إلى ق11هـ / 10-17م"، مقال نشر في مجلة

الواحات للبحوث والدراسات، ع16، جامعة غرداية، جوان2012م، ص222.

⁽⁴⁾ مسعود مزهودي: الإباضية في المغرب الأوسط، منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (

442هـ / 909-1058م)، نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1417هـ / 1996م، ص

ص30-31.

1. مزاب:

يحدد مارمول موقع منطقة مزاب بأنها تبعد بنحو مائة فرسخ من تيقورارين غربا، وبنفس المسافة عن سواحل البحر المتوسط شمالا، يقطن سكانها في ستة قصور وعدد من القرى، ويتبوأ مزاب موقع جغرافي هام جعل منه ممرا للقوافل التجارية في الإتجاهين⁽¹⁾. أما بالمواصفات الحالية، فمنطقة مزاب تبعد عن الجزائر العاصمة بمسافة ستمائة كيلومتر ناحية الجنوب، وعلى بعد مائتي كلم غربي ورقلة⁽²⁾. اشتهر أهل مزاب بالذكاء في التجارة، ومهارة في المعاملات مع أهل السودان، ذلك ما أهلهم للقيام بدور الوساطة بين تجار شمال الجزائر من جهة، وتجار السودان من جهة أخرى⁽³⁾.

إن الوافدين من الإباضية على بلاد الشبكة عبر القرون، اختاروا المنطقة لبعدها عن طرق القوافل التجارية المعروفة آنذاك، حرصا منهم على اعتزال الحركات التجارية وما تؤدي إليه من الرفاهية وجلب الطامعين، إلا أن القوافل التجارية لم تلبث أن حولت مسالكها، فأصبح مزاب محطة لها، وهمزة وصل بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب. ومما ساعد على ذلك أفول نجم سدراتة، بخربها عام 1274م، ثم خراب تمنطيط عام 1492م⁽⁴⁾.

لقد ظلت منطقة وادي مزاب لقرون عدة محطة مهمة ومركزا رئيسيا في التبادل التجاري بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، كما كانت كذلك محطة في التبادل بين قورارة وتوات غربا ومنطقة وارجلان شرقا. فقد كانت القوافل المارة على غرداية في القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي تحمل إلى الجنوب الحبوب وإلى الشمال التمور والملح والعاج والذهب والجلود والأقمشة وريش النعام⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ مارمول كرنخال: إفريقيا، ج 3، تر: محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المملكة المغربية، 1989م، ص164.

⁽²⁾ تبلغ مساحة المنطقة 2750000 هكتار، لمعلومات أكثر أنظر: صالح بن عمر سماوي، العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بمزاب، ج 2، نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية، الجزائر، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1426هـ/ 2005م، ص590.

⁽³⁾ مارمول: المصدر السابق، ص164.

⁽⁴⁾ الحاج سعيد: المرجع السابق، ص ص52-53.

⁽⁵⁾ الحاج سعيد: نفسه، ص 53.

ومما يدل على ازدهار وتطور المبادلات التجارية بمزاب، أن سوق غرداية ⁽¹⁾ بعد أن كان أول الأمر عبارة عن شارع يتم فيه تبادل المنتوجات بين أهل المدينة، وبينهم وبين قوافل البدو التي تقصد التجمعات السكانية للتجارة، زادت مساحته مع الزمن ليصبح ساحة كبيرة ⁽²⁾ واسعة يؤدي عدة وظائف اجتماعية⁽³⁾. مما يدل على كثرة وكبر تجارتها واهتمام أهلها بالتجارة، التي يظهر أنها كانت من أهم مصادر دخل الكثير من سكانها.

كانت في مزاب أسواق يومية مخصصة لسلع الصناعة المحلية، وسوق أسبوعي للمبادلات الخارجية، وهذا الأخير يكون يوم الجمعة. حيث يقطع العرب الرحل أحيانا مئات الكيلومترات قاصدين سوق غرداية الأسبوعي، فيصلون في ليلة الجمعة يسوقون الجمال التي تحمل منتوجات ومحاصيل الصحراء من تمر وبر وشعير وصوف وزبدة...، والتي ستباع في الغد⁽⁴⁾.

كانت الأسواق في وادي مزاب تخضع لنظام خاص مستمد من الشريعة الإسلامية السمحاء، فقد كانت هيئة العزابة⁽⁵⁾ في الماضي القريب تشرف على افتتاح الأسواق العامة ومراقبتها بدقة، ولها فيها مقاعد خاصة محترمة تجلس عليها للإشراف على الواردات والسلع المطلوبة، واستقبال القوافل من أطراف الصحراء، وكان رئيس العزابة هو الذي يعلن بواسطة المنادي بافتتاح السوق⁽⁶⁾. ثم يشرع البائعون في عرض سلعهم وبضائعهم على الحاضرين، كما تشرف نفس الهيئة على مراقبة المكاييل والموازين في المدينة بصفة عامة⁽⁷⁾.

⁽¹⁾ سوق غرداية: هو سوق مشهور قديما وحديثا، شكله مستطيل تحيط به 98 قوسا متفاوتة الأبعاد، طوله 75 مترا

وعرضه 44 مترا. أنظر: الحاج سعيد: نفسه، ص 144. وانظر صورة ساحة سوق غرداية قديما في الملحق رقم(6).

⁽²⁾ أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 2، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، ص254.

⁽³⁾ الحاج سعيد: المرجع السابق، ص114.

⁽⁴⁾ Lieut d'Armagnac: op.cit, p101.

⁽⁵⁾ العزابة: هيئة عرُفية تتكون من علماء ومشائخ قصور وادي مزاب، تشرف على الشؤون الدينية والاجتماعية والسياسية للبلدة، لها تأثير معنوي وروحي كبير على سكان المنطقة.

⁽⁶⁾ يقوم المنادي بعد التكبير والصلاة على رسول الله(صلى الله عليه وسلم) بتريد عبارة مألوقة بأعلى صوته: "الله يلعنك يا بليس، من باع يريح أو من اشرى يريح، أو من صلى على النبي(صلى الله عليه وسلم) يريح " إيدانا بافتتاح السوق. أنظر: اسماوي، المرجع السابق، ص730.

⁽⁷⁾ النوري: المرجع السابق، مج 1، ص169. لقد امتدت هذه المراقبة إلى أن أمسك الإستعمار الفرنسي بزمام الأمور، وقضى على هذه التنظيمات، واستبدلها بأجهزته وتنظيماته، فلم يعد العزابة يتولون مهمة مراقبة الموازين والمكاييل إلى اليوم. أنظر: اسماوي، المرجع السابق، ص736.

2. ورقلة:

هي ورقلة أو وارجلان تقع حاليا في جنوب شرق الجزائر، وتبعد عن مزاب بنحو مائتي كيلومتر، وُصفت بأنها أزلية بناها النوميديون يحيط بها سور ضخّم يرجع تاريخ بنائه إلى أول إنشائها، لها ثمانية أبواب، يحيط بالسور قديما خندق عريض وعميق، حفره الأهالي لرد غارات الأعداء وقت الفتن⁽¹⁾.

سكانها أثرياء، وذلك لاتصالهم بأغاديس⁽²⁾. وقد اكتسبت شهرتها الكبيرة لارتباطاتها التجارية الواسعة، وكونها المركز الأول لتجارة الرّستمين، ولأهلها الدور الريادي في قيادة القوافل التجارية إلى بلاد السودان، منذ زمن إمبراطورية غانة الوثنية⁽³⁾.

وينفرد ابن خلدون بين المؤرخين العرب القدماء بالحديث عن ورقلة وأهميتها في تجارة القوافل، فيقول: "... وهذا البلد (وركلا) لهذا العهد باب لولوج السفر من الزاب إلى المفازة الصحراوية المفضية إلى بلاد السودان، يسلكها التجار الداخلون إليها بالبضائع... إلى آخر ما قال في هذا الشأن⁽⁴⁾.

لقد زارها الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة سنة 1353م، وأوردها ضمن الحواضر التي لها علاقات تجارية معتبرة قائمة مع مالي في عهده، لكن الحركة التجارية بها عرفت انتكاسة خطيرة في نهاية القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بسبب العداء القائم بين التوارق والشعابنة⁽⁵⁾.

ظلت ورقلة طيلة الفترة العثمانية تشكل محورا ومركزا رئيسيا لتجارة الجزائر مع إفريقيا جنوب الصحراء ومحطة قارة لطريق الحج، ومنطلقا سهلا للتوغل في أعماق الصحراء، وطريقا طبيعيا نحو المناطق التلية بالشمال⁽⁶⁾.

فقد زارها الحسن الوزان سنة 1526م وذكر ازدهارها ونشاط تجارتها⁽⁷⁾. أما العياشي عند مروره بها سنة 1663م قاصدا الحج فقد وصفها قائلا: "... فدخلنا وارقلا... صادف دخولنا قافلة في

(1) إبراهيم بن صالح بابا هو أعزام: غصن البان في تاريخ وارجلان، در وتح: الأستاذ الدكتور إبراهيم بن بكير بحاز، والأستاذ سليمان بن محمد بومعقل، تصيف وطبع مطبعة العالمية، غرداية، الجزائر، جمادى الأولى 1434هـ/ أبريل 2013م، ص95.

(2) الدالي: المرجع السابق، ص300.

(3) نفسه، ص299.

(4) زيادة: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص42.

(5) دينيس بيلي: تاريخ ورقلة (1872-1992م)، تر: علي إدير، مطبعة إيتي- جنوب، ورقلة، الجزائر، جانفي 1993م، صص6-7.

(6) سعيدوني: دراسات وأبحاث...، المرجع السابق، ص224.

(7) دينيس بيلي: المرجع السابق، ص7.

أعراب الأربعاء قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع، اشترى الناس منهم ما احتاجوا بأرخص ثمن. وقدمت أخرى بعدها بيوم تحمل مثل ذلك أو أكثر فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن...⁽¹⁾ إن قدوم هذه القوافل بالتتابع على ورقلة يدل على نشاطها التجاري الكبير في الفترة العثمانية، كما يدل قول العياشي "بأرخص ثمن" على توفر كميات مهمة من المواد المتداولة في سوق ورقلة في ذلك العهد⁽²⁾.

لقد شكلت ورقلة المنفذ الرئيس بين شمال الجزائر وبلاد السودان، بسبب موقعها على مسار الطريق الفاصل والواصل بين بلدان المغرب الكبير وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء، وزاد من شأنها استقرار التجار المنتقلين بين الجهتين بها، فنشطت المبادلات بين الطرفين مما جعل منها سوقا تستوعب كل ما يجلب لها⁽³⁾. فكانت بضائع ورقلة تنقل إلى بلاد السودان مقابل التبر، الذي تسك به الدراهم الدراهم والدنانير. مما يدل على الارتباط الوثيق، بين ورقلة ونظيراتها في إفريقيا جنوب الصحراء⁽⁴⁾.

3. بسكرة:

يصفها البكري قائلاً: "...وهي مدينة كبيرة كثيرة النخل والزيتون وأصناف الثمار، وهي مدينة مسورة عليها خندق وبها جامع ومساجد كثيرة وحمامات وحواليها بساتين كثيرة... فيها أجناس التمور...، وداخل مدينة بسكرة آبار كثيرة عذبة... وبها جبل ملح يقطع فيه الملح كالصخر الجليل..."، وهذه الكمية المعتبرة من الملح في بسكرة قد يشجع أهلها على التجارة به مع البلدان الإفريقية جنوب الصحراء⁽⁵⁾. أما الورثاني فهي عنده: "...كثيرة المياه، ونخلها عظيم وغلتها كثيرة، وزرعها..."⁽⁶⁾

⁽¹⁾ بلحميسي: المرجع السابق، ص 83.

⁽²⁾ كان موقع السوق قديماً في وسط المدينة، مربع بهيج، محكم الوضع، به دكاكين التجار، بنت مكانه فرنسا بعد الإحتلال

كنيسة. لمعلومات أكثر أنظر: أعزام: المرجع السابق، ص 97.

⁽³⁾ غرايسة: المرجع السابق، ص 413، 418.

⁽⁴⁾ الدالي: المرجع السابق، ص 300.

⁽⁵⁾ البكري: المصدر السابق، ص 55.

⁽⁶⁾ بلعباس: المرجع السابق، ص 67.

لكن منذ بداية النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، أخذت بسكرة في التقهقر، وحدث لها ما حدث لمراكز تجارية أخرى، فقدت الكثير من أهميتها وحيويتها بعد خضوعها للأتراك، كما يستخلص ذلك مما قاله العياشي عنها ودون في رحلته⁽¹⁾.

4. توات:

إقليم توات يقع في جنوب غرب الصحراء الجزائرية التي هي جزء من الصحراء الكبرى الإفريقية، أقرب نقطة منه تبعد عن العاصمة بحوالي 1500 كلم، وهذا الإقليم يشتمل على عدد من الواحات والمدن والقصور تزيد على الثلاثمائة وخمسين واحة متناثرة هنا وهناك على رمال الصحراء أشبه بالأرخبيل في البحر⁽²⁾، جاء ذكره على لسان ابن خلدون: "فمنها على ثلاث مراحل قبلة سجلماسة، ويسمى وطن توات، وفيه قصور متعددة تناهز المئتين.." ⁽³⁾.

ويقع الإقليم حاليا ضمن امتداد أدرار وتيميمون وعين صالح، والأولى كانت تعرف باسم منطقة توات، والثانية باسم منطقة قورارة، والثالثة باسم منطقة تيديكلت. وقد أطلق بعض الكتاب القدماء على المناطق الثلاثة مجتمعة اسم إقليم توات⁽⁴⁾.

وقال العياشي (القرن 17م) عن توات: "...وهذه البلدة (أي توات) هي مجمع القوافل الآتية من بلاد تمبكت ومن بلاد اقيزز من أطراف السودان ويوجد فيها من البضائع والسلع التي تجلب من هناك شئ كثير والسلع التي تجلب من الغرب مما هو خارج السودان نافقة في هذه البلاد كالخيل وملابس الملف والحريز. فإذا قدم الركب (أي ركب الحجيج) إليها كان فيها سوق حافل..."⁽⁵⁾.

إستفاد أهل توات منذ تاريخهم المبكر من موقع إقليمهم الوسط في تجارة الصحراء، وبفضل هذا الموقع أصبحت أسواق توات بمثابة نقطة التقاء وتجمع للقوافل العابرة للصحراء الجزائرية في قسمها الغربي، ومن البديهي القول أن لكل مدينة أو قصر سوق أو أسواقا، فيه تعقد العمليات التجارية، من كيل ووزن وبيع وشراء نقدا أو مقايضة، ولا يُستبعد أن تكون المقايضة غالبية رغم وجود بعض العملات

⁽¹⁾ بن خروف: المرجع السابق، ج2، ص ص87-88.

⁽²⁾ فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، أبريل 2007م، ص13.

⁽³⁾ الدالي: المرجع السابق، ص ص300-301.

⁽⁴⁾ فرج: المرجع نفسه، ص13.

⁽⁵⁾ بلحميسي: المرجع السابق، ص70.

النقدية أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. لذا أصبحت هذه الأسواق هي المكان المفضل الذي يقصده أصحاب القوافل التجارية من خارج الإقليم بغرض استبدال سلعهم بالسلع المحلية⁽¹⁾.

وللإشارة فإن معظم طرق القوافل الصحراوية المتجهة إلى غرب إفريقيا عبر الناحية الغربية وصولاً إلى تمبكتو تلتقي بإحدى مناطق إقليم توات⁽²⁾، ومن هنا يتضح لنا أهمية الإقليم، كون كل الإتجاهات ترتبط به وينفرد في الوقت ذاته بموقع جغرافي ممتاز، أصبح بذلك نقطة التقاء لطرق تجارية عديدة⁽³⁾. ويمكن حصر اتجاهات تبادل التجارة الخارجية مع الإقليم التواتي في المحاور التالية:

- مع أسواق السودان الغربي، وأسواق تافيلالت وسجلماسة ومراكش بالمغرب الأقصى، ومع أسواق غدامس وغات وطرابلس وجنوب تونس، ومع قبائل التوارق، والبربر في جنوب الصحراء، ومع أسواق الشمال الجزائري⁽⁴⁾.

ويصف لنا العياشي في رحلته سوق مقاطعة تسايت عندما مر بها عام 1072هـ/1662م، في طريقه لتأدية فريضة الحج، فيقول: "... وأقمنا بها ستة أيام وبعنا بها خيلنا وما ضعف من إبلنا واشترينا ما يحتاج إليه من التمر،... وسبب إقامتنا في هذه البلاد هذه المدة، أن كثيرا من الحجاج لما غلا صرف

(1) صالح بوسليم: المؤسسات الثقافية بإقليم توات دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية أثناء القرنين 12 و13هـ/18 و19م،

رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور محمد مجاود، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجبالي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 1429هـ/2008م، ص 130.

(2) من أهم المناطق في الإقليم:

- منطقة قورارة التي مركزها مدينة تميمون المشهورة بسوقها النشط والعامر بمختلف السلع والبضائع المتجهة إلى إفريقيا جنوب الصحراء والآتية منها.

- منطقة تيديكلت ومركزها مدينة عين صالح التي تعتبر من الناحية التجارية مركز عبور مهم، ومخزن للبضائع الذاهبة نحو تمبكتو والآتية منها، بسبب بعدها بنفس المسافة تقريبا عن تمبكتو وموقادور(الصورة حاليا) وطنجة والجزائر وطرابلس.

- منطقة توات التي مركزها مدينة تمنطيط التي تعتبر من أكثر المدن سكانا وتجارة في هذه المنطقة، كما يُعد سوقها من أقدم الأسواق التواتية على الإطلاق، أشاد ديورنير (Deporter) بتجارها النشطة الحيوية مع الشمال والجنوب، إذ تعتبر

مستودعا مهماً لبضائع الشمال نحو الجنوب وبضائع الجنوب نحو الشمال. أنظر: Deporter:op-cit, pp24-25 et 38-58.

(3) بوسليم: المرجع السابق، ص 135.

(4) نفسه، ص 136-137.

الذهب في تافيلالت أخرجوا الصرف إلى توات، فإن الذهب فيها أرخص وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر...⁽¹⁾

ولم يقتصر دور توات في تجارة الصحراء على كونها محطة استقبال القوافل المارة بالصحراء فكانت تساهم بقوافلها في تجارة الصحراء، فقد جرت العادة أن تخرج في كل عام قافلتان كبيرتان تتجهان نحو أسواق مدينة تمبكتو، فتخرج القافلة الأولى في النصف الأول من السنة، والثانية في النصف الثاني، ولم يكن الأمر يقتصر على تجار توات بل إن الكثير من التجار القادمين من هنا وهناك كانوا يشتركون في هذا التجمع⁽²⁾.

وحتى أواخر القرن التاسع عشر ميلادي إستمر توارد قوافل سعيدة والأبيض سيدي الشيخ، وعين الصفراء على أسواق توات، وكانت السلعة الرئيسية التي يرغب فيها تجار الشمال الجزائري من جلبها من أسواق توات هي التمور بكافة أنواعها⁽³⁾.

5- الأغواط:

قال عنها الرحالة ابن الدين (بداية القرن التاسع عشر الميلادي) إن التجارة بها رائجة⁽⁴⁾، يتردد على سوقها قبائل الربيع، وأولاد عمور، وأولاد خليف، وأولاد شعيب،... وغيرهم، تأتيها السلع من مختلف المناطق بسبب موقعها الذي يتوسط شمال الصحراء الجزائرية⁽⁵⁾.

6- المنبوعة⁽⁶⁾:

هي ملتقى المسالك الصحراوية الكبرى التي كانت تستعمل منذ قرون من طرف القوافل التجارية الحاملة للبضائع، ومن طرف القبائل المهاجرة الباحثة عن الأمن والإستقرار، كما كانت ملجأ لقبائل تبحث عن الثراء من عمل الآخريين⁽⁷⁾.

(1) بلحميسي: المرجع السابق، ص 69-70. وقد ذكر "ديبوتر" بأن مقاطعة تسابيت يوجد بأسواقها قطع القماش من كل نوع، وبلغ من كل الأنواع بكميات كبيرة... وأشار كذلك بأن الرحالة الألماني "جيرهارد رولفس" زارها عام 1864م.

أنظر: Deporter: op-cit, pp28-29.

(2) حوتية: "توات والقوافل التجارية..."، المرجع السابق، ص35.

(3) فرج: المرجع السابق، ص72.

(4) رمضان: المرجع السابق، ص201.

(5) عميراي: قضايا مختصرة...، المرجع السابق، ص141.

(6) المنبوعة أو الثليعة: هي قرية حصينة من حجر صلد في سفح جبل منقطع عنه، وبها آبار كثيرة طيبة الماء ونخيل ليس بكثير وهي في طاعة سلطان ورقلة وبها عامله، تعد من عواصم أولاد سيدي الشيخ. أنظر: مياسي، المرجع السابق، ص25.

(7) Lt d'Armagnac: op-cit, p148.

ثانيا: أهم المراكز التجارية بإفريقيا جنوب الصحراء:

ظلت المراكز الحضارية بإفريقيا جنوب الصحراء حتى القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، هي المدن التي كان يأتي إليها أو يقطنها كثير من تجار الشمال، أما البوادي والقرى، فقد ظلت تعيش على الأساليب البدائية القديمة⁽¹⁾، وكانت القوافل الجزائرية بقيادة التوارق والخنافسة، كثيرا ما تحطّ رحالها في أكبر أسواق إفريقيا مثل تمبكتو، وكانو، ونوفي، وكاتشنة، وأغاديس، وغيرها⁽²⁾. وتتوفر إفريقيا جنوب الصحراء على ما لا يقل عن 800 مركز عمراني في الإتجاهات الطولية من الشمال إلى الجنوب، و على ما لا يقل عن 500 مركز عمراني في الإتجاهات العرضية من الغرب إلى الشرق، وقد ازدهرت التجارة فيها وتطورت منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي⁽³⁾. وقد برزت عدة حواضر منذ ذلك العهد ولعبت دورا مهما في المبادلات التجارية مع الجزائر وبقية بلدان بلاد المغرب منها على سبيل الذكر لا الحصر:

1. تمبكتو⁽⁴⁾:

تعتبر تمبكتو من الحواضر التي اكتسبت أهمية خاصة في تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء، رغم امتدادها في منطقة جغرافية صعبة، ذلك أن موقعها في منطقة السافانا شبه الصحراوية والمحاظة بالصحراء من جميع الجهات يصعب الحياة بها، وهو الأمر الذي جعلها تعتمد على التجارة للحصول على معظم احتياجاتها الغذائية⁽⁵⁾. ويرى المؤرخ السعودي أن التوارق هم الذين بنوها في مكان توجد فيه بئر، وقد اتخذوه منتجعا لمواشيهم، وذلك في أواخر القرن الخامس الهجري/ 1100م، وقد استعملت المدينة الجديدة في البداية مستودعا للحبوب، ولممتلكات التوارق الرحل، ثم تحولت سريعا بفضل موقعها الإستراتيجي والحيوي إلى سوق تجارية صحراوية يقصدها الناس من مختلف الجهات وخاصة من مصر وفزان وغدامس وتوات وفاس وغيرها من المدن الأخرى، ولقد طرأت على المدينة العديد من التغييرات عبر مراحلها التاريخية⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ زيادة: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص60، الهامش رقم(3).

⁽²⁾ الزبير: المرجع السابق، ص161.

⁽³⁾ بوعزيز: تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص44.

⁽⁴⁾ تذكر بعض الروايات أن اسم تمبكتو معناه هو "بئر بكتو"، وهي إمراة تارقية. لمعلومات أكثر أنظر: العربي:

المرجع السابق، ص311 وما بعدها. انظر صورة لتمبكتو في الملحق رقم(24)

⁽⁵⁾ حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص423.

⁽⁶⁾ السعودي: المصدر السابق، ص37. وأيضا: عميراي وآخرون: السياسة الفرنسية...، المرجع السابق،

ص65، الهامش رقم(1). وأيضا: العربي: المرجع السابق، ص316،311.

بينما يرى الحسن الوزان أن الذي بناها هو ملك يدعى منسا سليمان عام 610هـ/1213م، على بعد حوالي 20 كلم من أحد فروع نهر النيجر. وقد كان الوزان كثير الإعجاب بها، ومن ضمن ما جاء في وصفه للمدينة قوله: "...إنها عامرة الحوانيت وبها مسجد من الحجر والكلس بناه مهندس بارع من سكان غرناطة، وقصر رائع يقيم فيه الملك مزين بصور كثيرة وقضبان من الذهب يزن بعضها 1300 رطلا..."⁽¹⁾.

كما يصف منازلها قائلا: "...ودور تمبكتو عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة بالطين ومسقوفة بالتبن...". ويشير في مكان آخر إلى نشاطها التجاري والصناعي قائلا: "...ودكاكين كثيرة للصناع والتجار، لا سيما دكاكين نساجي أقمشة القطن..."⁽²⁾. ويقال أنه زارها سنة 875هـ/1470م سائح إيطالي يدعى فلورنتين بنيتو (Florantine Binito)، في محاولة لربط علاقات تجارية بينها وبين فلورنسا الإيطالية، ووصف بعض جوانب الحياة فيها⁽³⁾.

وتعتبر حاضرة تمبكتو من أهم أسواق إفريقيا جنوب الصحراء، وكانت ذات أهمية تجارية وثقافية خلال العصر الوسيط وامتدت حتى العصر الحديث، حيث يوجد بينها وبين أسواق توات وتيديكلت بالجزائر على طول المسالك الصحراوية عدة أسواق منها: أروان، ومبروك، وايفروان، وتيميساو، وأونان، وتاوديني، ووالن، وتيرشومين، وأقبلي⁽⁴⁾. وقد بلغت تمبكتو قمة ازدهارها في القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي⁽⁵⁾، حيث أصبحت من بين أهم المراكز الإسلامية الثقافية والتجارية في بلاد السودان، وصل عدد سكانها خمس وثلاثين ألف نسمة كما ذكر القاضي محمود كعت⁽⁶⁾، لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها من عواصم العالم الإسلامي⁽⁷⁾، مما ساهم في نسج حولها الأساطير في

⁽¹⁾ العربي: المرجع السابق، ص 315.

⁽²⁾ الوزان: المصدر السابق، ج 2، ص 165-166.

⁽³⁾ العربي: المرجع السابق، ص 315.

⁽⁴⁾ بوعزيز: تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص 43.

⁽⁵⁾ الدالي: المرجع السابق، ص 308. وأيضا: جلال يحيى: المرجع السابق، ص 36.

⁽⁶⁾ محمود كعت (ت: 1003هـ/1553م): مؤرخ سوداني عمل بالقضاء، ومن كثرة علمه سمي بالفع ومعناها الفقيه. له

كتاب: "الفتاش في أخبار البلدان والجيش، وأكابر الناس". أنظر: السعدي، المصدر السابق، ص 213، الهامش رقم (2).

⁽⁷⁾ Djilali Sari: "La dimension civilisationnel de la route des caravanes", in La Route des caravanes, C.N.R.P.A.H, Alger, 2001, p86.

أوروبا بقصص تبرز من جهة مناعتها، ومن جهة أخرى جمالها وثروتها الطائلة، بوصفها من أعظم مراكز التجارة في الذهب والعاج وريش النعام والرييق⁽¹⁾.

وقد أفادنا السعدي، بأن تمبكتو هي ملتقى للتجار، أصحاب رؤوس الأموال الضخمة من كل بلاد⁽²⁾، خاصة من بلدان المغرب، مما يدل على كثافة العلاقات بين بلاد السودان وبلدان المغرب ومنها الجزائر. وقد استطاعت تمبكتو أن تحتفظ بهذه المكانة المهمة إلى أن غزا الجيش المغربي سنة 1591م مملكة سنغاي، فأخذت تمبكتو تفقد أهميتها بالتدريج؛ خاصة بعد ما غزاها التوارق واستولوا عليها عام 1792م، وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، احتلها الفرنسيون وقضوا على نشاط القوافل التجارية بالصحراء الكبرى⁽³⁾.

2. غاو⁽⁴⁾:

تقع مدينة غاو⁽⁵⁾ اليوم إلى الشمال الشرقي من العاصمة المالية باماكو، وقد أسست أواخر القرن القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، على الضفة الشرقية لمنحنى نهر النيجر، وتطورت مع الزمن وكبرت وتوسعت، وقد حافظت غاو على مركزها التجاري، حتى قامت مملكة مالي الإسلامية، فدخلت تحت طاعتها في الفترة الواقعة بين 626-636هـ/1225-1235م، ثم استقلت عنها فيما بعد، وبدأ عهد التوسع لغاو حين تولى الملك سني⁽⁶⁾ علي السلطنة، حيث بدأ في بناء إمبراطوريته التي امتدت حدودها إلى كل المنطقة الواقعة بين دولة كانم شرقا وحتى ساحل المحيط الأطلسي غربا⁽⁷⁾.

نمت غاو سريعا لوقوعها في نهاية الطريق الصحراوي، عبر المنطقتين الشرقية والوسطى من الصحراء الكبرى المتجه نحو حوض نهر النيجر، وقد مكّنها موقعها على منحنى نهر النيجر، نحو الجنوب بإشرافها على حركة الملاحة، والتجارة على امتداد نهر النيجر، نحو الجنوب والغرب، وتيسّرت

⁽¹⁾ العربي: المرجع السابق، ص315.

⁽²⁾ السعدي: المصدر السابق، ص37.

⁽³⁾ بوعزيز: موضوعات وقضايا...، المرجع السابق، ص529.

⁽⁴⁾ يطلق عليها أسماء عدة، مثل: كاغو، كاغ، كوكيا، جاجو، جاجو، وهي تقع شرق نهر النيجر أنظر:

السعدي، المصدر السابق، ص20، الهامش رقم2.

⁽⁵⁾ كانت تعتبر غاو أهم مركز لتجارة عبر الصحراء مع تاهرت الرسمية في القرنين الثاني والثالث الهجريين/الثامن والتاسع

الميلاديين عبر تادمكة، وقد عرفت في المصادر العربية المعاصرة باسم كوكو . أنظر: عز الدين عمر موسى، دراسات إسلامية غرب

إفريقية، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م، ص76.

⁽⁶⁾ سن: معناها نائب السلطان، حيث إنه تربي في قصر سلطان مالي. أنظر: السعدي، المصدر نفسه،

ص21، الهامش رقم(1).

⁽⁷⁾ الدالي: المرجع السابق، ص309. وأيضا: بوعزيز، تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص154.

اتصالاتها بهذه المناطق، فتجمّعت في المدينة بضائع المنطقة كلها، وارتادتها القوافل التجارية منذ القدم. وذكر البكري أنها تتألف من مدينتين، وهي تعتبر من أشهر أسواق تجارة الملح في السودان الغربي⁽¹⁾.

أما في عهد حكم السنغاي⁽²⁾ (777-1000هـ/1375-1591م)، فقد مثلت غاو الدور السياسي، كعاصمة للمملكة، والدور الإقتصادي كمركز من المراكز التجارية لإفريقيا جنوب الصحراء. فقد نتج عن النشاط التجاري لمدينة غاو - عبر طريقي وارجلان وزويلة - توسّعها وامتداد حدودها إلى المناطق المجاورة، فأخضعت ثمانية من ملوك السودان، وصارت كما يتضح من نصوص الجغرافيين العرب المدينة التجارية الأولى في وسط نهر النيجر⁽³⁾.

سيطرت غاو على التجارة النهرية والبرية في المنطقة وأصبحت من أهم المراكز التجارية في إفريقيا جنوب الصحراء، بها سوق كبيرة تتوفر على العديد من الدكاكين التي يملكها تجار من مختلف الأجناس⁽⁴⁾. تصلها القوافل التجارية القادمة من الشرق بعد أن تمر بتادمكة، وقوافل الجزائر والمغرب الأقصى وبقية حواضر شمال إفريقيا بعد أن تمر على تمبكتو، محمّلة ببضائع الشمال التي تبيعها هناك وتشتري بدلها الذهب والعبيد، ولقد قلّ نشاطها في فترة حكم العثمانيين للجزائر عما كان من قبل، وأصبحت القوافل تتوجه أكثر إلى تمبكتو منها إلى غاو⁽⁵⁾.

يقول عنها الحسن الوزان الذي زارها في القرن الخامس عشر الميلادي: "... كاغو(أي غاو) مدينة عظيمة... بعيدة بنحو 400 ميل(حوالي 650 كلم) عن تمبكتو إلى جهة الجنوب الشرقي... وسكانها أغنياء... ويأتي إليها... السود حاملين معهم كمية وافرة من الذهب ليشتروا بها أشياء مُستوردة من بلاد البربر وأوروبا..."⁽⁶⁾. وقد وفد إليها العالم المصلح المغيلي⁽⁷⁾، على أيام الأسقيا محمد الكبير

⁽¹⁾ بوعزيز: المرجع نفسه، ص154.

⁽²⁾ سنغاي: تنطق بعدة أسماء سغي، سنغاي، سنغى. وكانت تشمل أراضي جمهورية النيجر حاليا وشمال

نيجيريا. أنظر: السعدي، المصدر نفسه، ص19.

⁽³⁾ الدالي: المرجع السابق، ص ص309-310.

⁽⁴⁾ حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ج1، ص169.

⁽⁵⁾ الزيري: المرجع السابق، ص163.

⁽⁶⁾ الوزان: المصدر السابق، ج2، ص ص169.

⁽⁷⁾ المغيلي(محمد بن عبد الكريم التلمساني)(ت: 909هـ/1503م): فقيه، مفسر، متكلم، نشأ بتلمسان، نازع السيوطي في

علم المنطق، ناوأ اليهود في توات وقتالهم وهدم بيعهم، زار بلاد السودان واجتمع بسلطان "كانو" وكتب له رسالة في أمور

الحكم، ومنها ارتحل إلى بلاد التكرور، وكان في سفره، ينشر أحكام الشرع، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. توفي في

توات. له مؤلفات كثيرة منها: "البدر المنير في علوم التفسير". أنظر: عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام

حتى العصر الحديث، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ/1980م، ص308.

الكبير في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، وعلم بها ودرّس. وقد أصابها الضعف إثر غزوها من السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي أواخر القرن السادس عشر الميلادي، وتواصل تدهورها بعد ذلك لغزو التوارق لها أواخر القرن الثامن عشر، وزالت أهميتها بعد الغزو الأوروبي في القرن التاسع عشر⁽¹⁾.

3 جني:

تقع هذه المدينة إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكتو على ضفاف نهر النيجر، وتبعد عنها بحوالي ستمائة كلم تقريبا، وقد ورد اختلاف في تاريخ تأسيسها، إلا أن السعدي⁽²⁾ يُورد أنها تأسست في أواسط القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، وقد حظيت بأهمية إقتصادية كبيرة، حتى أنها نافست تمبكتو في التجارة، نظرا لموقعها المتميز كملتقى للقوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء وجنوبها، حيث اشتهرت بتجارة الملح والذهب، وقد وصفها قائلاً: "...وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغاز⁽³⁾، وأرباب الذهب من معدن بيط..."⁽⁴⁾. ويُستشف من خلال النص السابق قيمتها الإقتصادية كمحطة تجارية، ربطت بين سكان الجنوب، وتجار الشمال بأهم معدنين في المنطقة: هما الذهب والملح. وقد ازدادت ازدهارا وقيمة تجارية، بعد أن دخلها الملك سني علي (869-898هـ/1464-1492م)⁽⁵⁾، حيث عمل على تطويرها ودعم الأمن بها، بعد أن تزوج أم أميرها⁽⁶⁾.

أما الحسن الوزان فيذكر أنها تتاخم مملكة ولاتة، وتبعد عنها بنحو خمسمائة ميل (حوالي 800 كلم) عبر الصحراء، مشيرا إلى الأرياح الهائلة التي يحققها أهل البلاد في تجارة قماش

⁽¹⁾ بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية...، المرجع السابق، ص 154-155.

⁽²⁾ عبد الرحمن السعدي(ت: 1066هـ/1653م) من أشهر مؤرخي منطقة غرب إفريقيا، رفقة محمود كعت، وأحمد بابا التمبكتي، ولد بتمبكتو ذو أصول إفريقية، عمل في بداية حياته بالكتابة، ثم تولى إمامة مسجد سنكري، ثم إمامة مدينة تمبكتو، أنظر: السعدي: المصدر السابق، ص 12.

⁽³⁾ هي تغازي: وصفها ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، كما وصفها ابن سعيد في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، بأنها حصن وقرية بيوتها ومسجدها مبنية بحجارة من الملح، ومسقوفة بجلود الجمال، وهي بلد لا شجر فيه، وكل ما يوجد فيه هو معدن الملح الذي يحفره عبيد مسوفة، وهؤلاء يعيشون مما يجلب إليهم من تمر درعة وسجلماسة، ومن لحوم الجمال. أنظر: العربي: المرجع السابق، ص 328.

⁽⁴⁾ السعدي: المصدر السابق، ص 29.

⁽⁵⁾ سني علي: إستولى على تمبكتو وأسس سنغاي، قام بعدة حروب لتوطيد أركان الدولة وتأديب القبائل الوثنية. أنظر:

السعدي: المصدر السابق، ص 11.

⁽⁶⁾ الدالي: المرجع السابق، ص 307.

القطن مع تجار بلاد المغرب، الذين يحملون إليهم الكثير من الثياب الأوروبية والنحاس والسلاح مثل الخناجر وغيرها⁽¹⁾.

وفي زمن الأسقيا محمد الكبير⁽²⁾ أصبحت جني أكثر ازدهارا، وملتقى للتجار داخل السودان الغربي وخارجه، وقد مكنتها موقعها من الإستفادة من النقل النهري، في نقل الملح والذهب وباقي السلع الأخرى بالقوارب من تمبكتو وغاو وسيقو إلى جني وبالعكس⁽³⁾. وصفها السعدي في كتابه "تاريخ السودان"، وذكر أنها سوق عظيم لتجار الملح المجلوب من مناجم تغازي، والذهب المجلوب من بيط. زارها الرحالة الفرنسي "كاييه" عام 1828م، والألماني "بارث" ما بين 1855-1858م ووصف كل منهما المدينة ونشاطها التجاري⁽⁴⁾.

4. تاكدا:

تقع تكدا إلى الجنوب الغربي من مدينة تمبكتو، بجوالي أربعمئة وخمسين كلم، وقد زادت أهميتها بعد اكتشاف عدة مناجم للنحاس بها فعُرفت بمدينة النحاس، حيث تحوّلت القوافل التجارية إليها، وقد ترك لنا ابن بطوطة الذي دخلها عام 754هـ/1253م، وصفا لكيفية استخراج معدن النحاس، بحيث يحفر عليه في الأرض، ويأتون به إلى البلد فيسبكونه في دورهم، ويوزع بعد ذلك داخل بلاد السودان، وذكر القلقشندي وجود الملح بها كذلك⁽⁵⁾.

إلى جانب النحاس والملح، فإن تكدا صارت سوقا تجارية مهمة في إفريقيا جنوب الصحراء، وشهدت حركة تجارية كبيرة في القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، حيث كان يقصدها تجار شمال إفريقيا من غدامس وورقلة وتوات، يبيعون فيها بضاعتهم، ويشترون منها النحاس والحديد، فبلغ أهلها درجة كبيرة من الثراء، بسبب الإشتغال بالتعدين، أو في الملح أو خدمة القوافل، وكان معدن النحاس، ينتقل إلى بلاد المغرب ومصر، عن طريق قوافل التجارة المتردة عليها. حيث تدخلها سنويا أكثر من اثني عشر ألف جملة محملة بالبضائع من مختلف أقطار شمال إفريقيا ومصر⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ الوزان: المصدر السابق، ج2، ص163.

⁽²⁾ الأسقيا الحاج محمد الكبير: أشهر ملوك سنغاي، شهد عصره ازدهار الإسلام في دولته، وصلت المملكة عهده أقصى اتساع لها، أنظر: السعدي: المصدر نفسه، ص11.

⁽³⁾ الدالي: المرجع السابق، ص307.

⁽⁴⁾ بوعزيز: تاريخ إفريقيا الغربية...، المرجع السابق، ص ص 156-157.

⁽⁵⁾ ذكار: المرجع السابق، ص ص 90-91. وأيضا الدالي: المرجع نفسه ص310.

⁽⁶⁾ الدالي: نفسه، ص311. وأيضا: ذكار، المرجع نفسه، ص ص 90-91.

5. أودغست:

وتعرف كذلك باسم أودغشت، تقع حاليا في جنوب موريطانيا، تأسست مملكة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وتزامنت مع الدولة الرستمية، عرفت النظام الملكي الوراثي، وقد ضمتها مملكة غانة إليها عندما بسطت نفوذها على معظم ممالك السودان. قال عنها البكري: "... أودغست وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء...". وهي مدينة كبيرة أهلة رملية فيها أسواق عامرة طول العام، يطل عليها جبل كبير، متقنة المباني حسنة المنازل، المسافة بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين، وبينها وبين مدينة غانة خمسة عشر يوما، كان يسكن هذه المدينة قبيلة زناتة، وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير، كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر⁽¹⁾. كما يقول بأن بها جامع ومساجد كثيرة أهلة في جميعها المعلمون للقرآن وحوها بساتين النخل، ولها آبار عذبة، وأكثر شيء عندهم الغنم والبقر، يشتري بالثقال الواحد عشرة كباش وأكثر، وبها أيضا غسل كثير ياتيها من بلاد السودان، وتبايعهم بالتبر وليست عندهم فضة⁽²⁾. ويضيف قائلا: "... ويجلب إلى أودغست القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد، وسعر القمح عندهم في أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل وكذلك التمر والزبيب... يُتجهز إلى أودغست بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة بالحمراء والزرقة مجنحة، ويجلب منها العنبر المخلوف الجيد لُقرب البحر المحيط منهم..."⁽³⁾

ظلت أسواق أودغست نشيطة يلتقي فيها سنويا تجار سجلماسة وورقلة، وبها سوق كبير يعج بالباعة والمشتريين ويتعاملون فيها بالذهب كعملة في التبادل التجاري، كما يباع فيها العنبر والذهب، والماشية وخاصة أغنام (سيداون)، والحبوب، والأقمشة الحريرية والصوفية، ويُعدّ ذهبها من أجود أنواع الذهب في بلاد السودان⁽⁴⁾.

6- تادمكة:

تقع هذه المدينة شمال شرق غاو، قال عنها الرحالة البكري: "... تادمكة أشبه بلاد الدنيا بمكة،... وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهي أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكوا،

(1) البكري: المصدر السابق، ص 170.

(2) البكري: نفسه، ص 161.

(3) نفسه، ص 161-162.

(4) الدالي: المرجع السابق، ص 30. وأيضا: ذكار، المرجع السابق، ص 92.

ودنانيرهم تسمى الصلح لأنها ذهب محض غير مختومة⁽¹⁾...". المسافة بينها وبين ورقلة خمسون يوما، بها سوق كبيرة تقام كلما حلت قوافل شمال إفريقيا بأرضها، لكونها تقع في مفترق الطرق المؤدية إلى أسواق تقع جنوبها وغربها وشرقها، كانت تتردد عليها كثيرا القوافل التجارية الوافدة من ورقلة. ويضربون مواعيد في تادمكة، وهذه الأسواق السالفة الذكر بعضها ثابت على مدار السنة، وبعضها موسمي والبعض الآخر ليس له موعدا محددًا، فكلما دخلت قوافل شمال الصحراء تقام السوق وعادة عندما تقترب القوافل من هذه الأسواق وتصبح على بعد يومين أو ثلاثة يرسلون من يعلن اقتراب وصولها حتى يحضر السوق ويتهيأ التجار للبيع والشراء، وهناك بعض السماسرة من يقصدون القافلة قبل دخولها إلى السوق ويشترون البضاعة وما حوت لغرض المضاربة والإحتكار⁽²⁾.

7. أغاديس⁽³⁾:

هي مدينة تقع اليوم في الشمال الشرقي من نيامي عاصمة جمهورية النيجر، وتبعد عنها بحوالي ألف كلم، كانت لها مكانة تجارية هامة⁽⁴⁾، زارها الرحالة الألماني "هنري بارث" سنة 1850م، ووجدها أطلالا، ويُرجع تأسيسها إلى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، على يد القبائل الخمس التي اقتسمت فيما بينها إقليم آير. وبفضل موقعها الجغرافي الممتاز، لم تلبث أغاديس أن أصبحت قلعة لمملكة سنغاي المزدهرة، ومركز للتبادل التجاري بين قبائل الشمال وقبائل إفريقيا جنوب الصحراء، بلغت أوج عظمتها بعد أن استولى عليها الأسقيا الحاج محمد سنة 1519م⁽⁵⁾. حيث كان دخلها يعتمد أساسا على الضرائب التي تُؤخذ من التجار الوافدين عليها من شمال إفريقيا بما فيها الجزائر⁽⁶⁾.

وقد زارها الوزان، وأشار إلى أن منازلها جيدة البناء على نمط مساكن المغاربة، كما أفاد أن أغلب سكانها من بلدان المغرب الذين يشتغلون في التجارة⁽⁷⁾. وقد احتفظت أغاديس بمركزها بوصفها ملتقى

(1) البكري: نفسه، ص184. وأيضا: بوعزيز، تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص156.

(2) عبد القادر زبادية: "ورقلة عروس مدائن الجنوب الجزائري"، مقال نشر في مجلة الأصالة، ع41، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1977م، ص145.

(3) تعني كلمة أغدس (Agdes) باللغة المحلية الزيارة. أنظر: ذكار، المرجع السابق، ص86.

(4) الدالي: المرجع السابق، ص311.

(5) العربي: المرجع السابق، ص193.

(6) الدالي: المرجع نفسه، ص311.

(7) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص171.

ملتقى ثقافيا وتجاريا حتى أواخر القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، ولكنها بعد ذلك بدأت في التدهور⁽¹⁾.

وأغاديس في الوقت الحاضر أقرب إلى القرية منها إلى المدينة، ولم يعد هناك ما يدل على عظمتها التاريخية من آثار، سوى مسجدتها الكبير الذي تعلوه منارة هرمية الشكل⁽²⁾.

وبصورة عامة فإن هذه المراكز التجارية بإفريقيا جنوب الصحراء نشطت كثيرا إلى غاية القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، ولكنها ضعفت نوعا ما في القرنين المواليين بعد ظهور تجارة المحيط الأطلسي، وخاصة في الأسواق العميقة والقرية من الساحل، ولم تبق نشطة سوى الأسواق والمراكز الداخلية المتاخمة للصحراء الكبرى مثل تمبكتو وتادمكة، والأسواق الموجودة شمال بحيرة تشاد لكونها قريبة من شمال الصحراء. كما تمثل هذه الفترة كذلك فترة الوجود العثماني في الجزائر الذي لم يترك لنا شيئا مُدوّنا عن المبادلات التجارية مع إفريقيا جنوب الصحراء، بالإضافة إلى أن تجار القوافل ومرافقيهم لم يدونوا رحلاتهم إلى تلك الأصقاع.

ثالثا: أهم البضائع والسلع المتبادلة بين الجانبين

ليس من السهل الحديث عن مثل هذه البضائع والسلع المتبادلة بين الجانبين نظرا لورودها عرضا في المصادر، دون تفصيل في الحديث عن سلعة معينة، وإنما تتناول الموضوع بشكل عام، لكن حسب إشارات أغلب المصادر فإنها كانت كثيرة، ويستفاد من أغلب روايات المؤرخين أن معظم البضائع التي تحملها القوافل إلى إفريقيا جنوب الصحراء ليست ذات قيمة كبيرة بالمقارنة مع ما تجلبه من سلع ثمينة كالذهب والرياق، ولكن أهميتها وقيمتها تزداد باستمرار نظرا للأخطار والأتعاب التي تواجهها القوافل في رحلاتها عبر شبكات الإتصال بين الشمال والجنوب، حيث طول السفر ومشاقه⁽³⁾.

وإلى هذا يشير ابن خلدون في مقدمته قائلا: "... وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة، أو شدة الخطر في الطرقات،... لأن السلع المنقولة حينئذ تكون قليلة معوزة، لبعدها مكانها أو شدة الغرر في طريقها، فيقل حاملوها ويعز وجودها، وإذا قلت وعزت غلت أثمانها... إلى أن يقول: فتجد سلع

(1) من بين العوامل التي عجلت بسقوطها، اضمحلال مركز جاجوا الواقعة على نهر النيجر والتي كانت قاعدة تنطلق منها

القوافل عبر أغاديس في اتجاه الصحراء. أنظر العربي: المرجع السابق، ص 194.

(2) العربي: نفسه، ص 194.

(3) بشار: المرجع السابق، ص 14.

السودان قليلة لدينا، فتختص بالغلاء، وكذلك سلعنا لديهم. فتعظم بضائع التجار من تناقلها ويسرع إليهم الغنى والثروة من أجل ذلك...⁽¹⁾.

كانت القوافل الجزائرية في العهد العثماني تحمل إلى أسواق إفريقيا جنوب الصحراء منتوجات الجزائر ومصنوعاتها وبعض ما تستورده من الخارج، وتجلب منها كل ما تجده من مواد مفقودة في الشمال، وكان نشاط التجار الجزائريين يشمل جميع الميادين التجارية⁽²⁾.

وفي ما يلي نسرد أهم صادرات الجزائر وواردها من أسواق إفريقيا جنوب الصحراء وإليها:

أ. أهم صادرات الجزائر إلى إفريقيا جنوب الصحراء: 1. الحبوب:

إن وفرة إنتاج الحبوب خاصة القمح والشعير بمختلف أنواعها وفي معظم سهول وتلال بلدان المغرب، قد جعل هذه المادة العنصر الأهم والأكثر طلبا في المبادلات التجارية الدولية عموما والصحراوية على وجه الخصوص، وذلك نتيجة لاحتياج سكان بلاد السودان إلى هذه المادة ذات الإستهلاك الواسع⁽³⁾.

وقد كانت القوافل في الشرق الجزائري تشحنها من نواحي المسيلة وسهول الفيض الواقعة عند مصب وادي العرب⁽⁴⁾، ويعتبر الشرق الجزائري بصفة عامة من أكبر المناطق المنتجة للقمح والشعير والبقول والحمص⁽⁵⁾. وإلى ذلك يشير البكري: "...ويجلب إلى أودغست القمح.. من بلاد الإسلام.."⁽⁶⁾

2. الزيوت:

وأجودها ما يعصر في نواحي بسكرة وجبال أوراس (بني أحمد، أولاد عمران، وبني بربر) غير أنها لا تنتج إلا بكميات قليلة، ولذلك كان تجار سوف يستوردون كميات أخرى من بلاد الجريد يحملونها

⁽¹⁾ ابن خلدون: مقدمة... المصدر السابق، ص 401.

⁽²⁾ الزبيري: المرجع السابق، ص 161.

⁽³⁾ بشار: المرجع السابق، ص 14.

⁽⁴⁾ هو وادي ينبع في جبال أوراس من قمم شلية، يسقي بساتين خنقة سيدي ناجي، ويمر بمدن ليانة وبابوس، والقصورزية الوادي ثم يضم إلى وادي جدي في سهول الفيض. أنظر: الزبيري، المرجع السابق، ص 165، الفامش رقم (1).

⁽⁵⁾ الزبيري، المرجع السابق، ص 165.

⁽⁶⁾ البكري: المصدر السابق، ص 161-162.

معهم إلى مختلف الأسواق، أما زيوت منطقة القبائل الكثيرة، فإنها تأخذ طريق الجزائر العاصمة وترسل مباشرة إلى سوق القليعة ومنها يقوم التوارق بنقلها إلى تمبكتو⁽¹⁾.

3. التمور:

وهي من المواد الغذائية المطلوبة من سكان إفريقيا ما وراء الصحراء، والتي تنتجها الجزائر، وهي تُؤخذ من أسواق الوادي وتوقرت وورقلة وتوات⁽²⁾، ثم تُحمل بكميات كبيرة إلى بلاد السودان خاصة مدينة جني⁽³⁾. ويتحدث البكري عن جلب التجار المغاربة التمر إلى أودغست من بلادهم⁽⁴⁾ أما الإدريسي فيقول: "...وليس في بلاد السودان شئ من الفواكه الرطبة، إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة، أو من بلاد الزاب، يجلبه إليهم أهل ورقلان (أي ورقلة) الصحراء..."⁽⁵⁾

4. الملح:

تعد مادة الملح من المواد المطلوبة بكثرة في بلاد السودان، حيث يعتبرها بعض الباحثين أنها أهم البضاعات على الإطلاق التي يتاجر بها المغاربة مع سكان ما وراء الصحراء إلى عهد قريب، وذلك أن هذه المنطقة وحسب شهادة الإدريسي: "... في النيل (أي نهر النيجر) أنواع من السمك، وضروب من الحيتان الكبار والصغار ومنه طعام أكثر السودان، يتصيدونه ويملّحونه ويدخرونه..."⁽⁶⁾ اشتهرت عدة مناطق في الصحراء سواء داخل الجزائر أو خارجها بإنتاج هذه المادة، أهمها: ملاحات تاوديني، وأوليل وإيجل، وتغازي وامدرار (في الهقار)، وبيلم⁽⁷⁾، عند قبائل التبو (في التشاد)⁽⁸⁾، فقد كانت بعض البلدان الإفريقية جنوب الصحراء في حاجة ماسة إلى مادة الملح، لا يستهلكه الإنسان فقط ولكن الحيوانات أيضا لعدم وجود نباتات مالحة في تلك المناطق⁽⁹⁾، وهو لا يوجد في

⁽¹⁾ الزبيري: نفسه، ص165.

⁽²⁾ يذكر ديورتيير أن أحسن أنواع التمور التي ينتجها إقليم توات في القرن التاسع عشر، هي: تين هود وتين أكور،

وهي مطلوبة بقوة في بلاد السودان. أنظر: Deporter : op-cit, p19.

⁽³⁾ بشار: المرجع نفسه، ص14. وأيضا الزبيري: نفسه، ص165.

⁽⁴⁾ البكري: نفسه، ص ص161-162.

⁽⁵⁾ الإدريسي: المصدر السابق، ص34.

⁽⁶⁾ الإدريسي: المصدر السابق، ص34.

⁽⁷⁾ أنظر صورة لبقايا مساكن عمال الملح في ملاحه كلاله قرب بيلما في الملحق رقم(26).

⁽⁸⁾ العربي: المرجع السابق، ص36. وكذلك حاضري: المرجع السابق، ص228.

⁽⁹⁾ المليبي: صحراؤنا، المرجع السابق، ص25.

معظم أجزاء إفريقيا السمراء، ويستخرج من المناجم بحفر سراديب كما يفعل بالرخام والجبس. ومنه أنواع الرمادي والأبيض والأحمر، وحسب الوزن فإن الملح يكثر في بلاد البربر ويقل في نوميديا⁽¹⁾.

كما لاحظ الرحالة الأوروبي "أفيسكا داموستا" (Aviceca da mosta) (1432-1480م) الذي

زار غرب إفريقيا أن سكان هذه المناطق يستهلكون كميات كبيرة من الملح، وذلك لكي يتجنبوا جفاف أجسامهم، ويؤيده رحالة آخر هو فلنتين فرناندز (Valentine Fernandes) في كثرة استعمال هذه البلدان للملح فيقول إنهم يستعملونه كعلاج للعديد من الأمراض⁽²⁾.

وكانت مدينة ورقلة كلها تقريبا عبارة عن سبخة من الملح ويدخل في نطاق ورقلة مكان يسمى الشط، ولا شك أن هذا الملح كان يستخدم محليا في الطعام وغيرها من المصنوعات، بالإضافة إلى استخدامه كبضاعة يتم مقايضتها بسلع أخرى خاصة مع مناطق السودان الغربي⁽³⁾.

وغير بعيد عن مدينة الأغواط يذكر الرحالة بن الدين الأغواطي أنه كان يوجد بالناحية الشمالية من قرية تجمعات جبل كبير من الملح⁽⁴⁾، وليس لدينا معلومات عن كيفية استغلال هذا الملح، لكن من الممكن أن أهل المنطقة كانوا يبادلونه بسلع أخرى مع أهل السودان⁽⁵⁾.

6. الأقمشة الصوفية والحريية:

كانت الجزائر في العهد الزياني تصدر المنسوجات التلمسانية والأوروبية إلى بلاد السودان⁽⁶⁾. فقد كانت الأقمشة الصوفية من أهم مصادر الثروة في صحراء الجزائر، بسبب توسع الجزائريين في تربية الأنعام في العهد العثماني، تصنع منها البرانس والقنادر والحنابل وغيرها من الأغذية والألبسة ذات الجودة الرفيعة، والتي تباع بكثرة في سائر الأسواق الإفريقية جنوب الصحراء، كما أنها تحمل إليها كذلك غير مصنوعة⁽⁷⁾. أما الأقمشة الحريية فكانت تُستورد في العهد العثماني إلى الشرق الجزائري

⁽¹⁾ الوزن: المصدر السابق، ج2، ص280.

⁽²⁾ إدريس صالح الحري: "العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى وأثرها في

نشر الإسلام هناك"، مقال نشر في مجلة البحوث التاريخية، ع1، د.م.ن، يناير 1983م،

ص78.

⁽³⁾ رمضان: المرجع السابق، ص203.

⁽⁴⁾ سعد الله: أبحاث وآراء...، المرجع السابق، ص252.

⁽⁵⁾ رمضان: المرجع نفسه، ص203.

⁽⁶⁾ شقدان: المرجع السابق، ص199.

⁽⁷⁾ الزبيري: المرجع السابق، ص165. وكذلك بشار: المرجع السابق، ص14.

عن طريق تونس، ثم تحملها القوافل التجارية الجزائرية إلى مختلف أسواق إفريقيا جنوب الصحراء حيث تباع محققة لأصحابها أرباحا تقدر بأضعاف ثمن الشراء.

7. المرجان:

وهو يُشترى من الغواصين الأجانب أو من الأعيان الذين يتلقون سنويا كمية معينة منه من طرف الشركات المستغلة للصيد في سواحل الشرق الجزائري⁽¹⁾.

8. الأسلحة والبارود:

وتشتمل الأسلحة النارية بأنواعها، والمستوردة من فرنسا وانكلترا عن طريق السوق الحرة، أو الأسلحة المصنوعة في تقرت ووادي مزاب، وكذلك صفائح السيوف التي تصنع في قسنطينة والواحات⁽²⁾. أما البارود فهو يوجد في كثير من الأماكن، وخاصة غربي خنقة سيدي ناجي، وفي الزيبان حيث تقوم قبيلة أولاد نايل⁽³⁾ باستغلال مناخه في وادي جدي⁽⁴⁾، ثم يحمل إلى ورقلة ومنها إلى تمبكتو حيث يُباع بأسعار مرتفعة لجودته وقوة مفعوله⁽⁵⁾.

9. ريش النعام:

يوجد النعام في جنوب الجزائر، وفي نواحي ورقلة على وجه الخصوص، يصطاده الأهالي للحصول على جثته وشحومه وريشه، والريش الذي يُباع منه يكون أبيض وطويل يقع في أقصى الجناحين، وكان مطلوبا في أسواق إفريقيا جنوب الصحراء، تستعمله القبائل الإفريقية في خيامها للتدليل على شرفها وسمو مكائنها⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ الزبيري: المرجع السابق، ص 166.

⁽²⁾ Le baron Henri Aucapitaine: Etude sur la Caravane de la Mecque et le Commerce de l'interieur de l'Afrique (1857-1867), extrait des publications de l'academie nationale agricole, manufacturiere et commerciale, France, Juillet et Aout 1861, p6.

⁽³⁾ أولاد نايل: هي مجموعة قبائل تابعة لبيت بو عكاز في جنوب الشرق الجزائري. أنظر: الزبيري، المرجع السابق، ص 166، اللامش رقم (3).

⁽⁴⁾ إجدى: معناه الرمل بالأمازيغية، ووادي جدي هو الحد الفاصل بين التربة والرمل، وهو يعتبر من أهم روافد بحيرة ملغيغ، وينبع من سفوح جبال عمور. أنظر: الزبيري، المرجع نفسه، ص 166، اللامش رقم (4).

⁽⁵⁾ الزبيري: نفسه، ص ص 166-167. ولقد اشتهر بنو مزاب في الصحراء الجزائرية بصناعة البارود، وكان لكل قرية عدد معتبر من المهاريس الصخرية الكبيرة، لصنعه وبيعه للقوافل. لمعلومات أكثر، أنظر: الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 52.

⁽⁶⁾ الزبيري: نفسه، ص 167.

10. الثروة الحيوانية:

وأهمها الأغنام وكانت تصدر كمادة خام عبر المسالك التجارية المعروفة لأهالي الصحراء باتجاه بلاد السودان وذلك منذ قرون، وتعززت أكثر بعد الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، وقد تركزت في الجهة الشرقية حيث أصبحت لهذه التجارة أسواق في منطقة غدامس وطرابلس⁽¹⁾.

11. الكتب والمخطوطات:

مثلت الكتب نوعا من أنواع التجارة، وكانت الجزائر من بين البلدان الأساسية المصدرة لها، إضافة إلى المغرب الأقصى ومصر والحجاز، وكانت مدينة تمبكتو سوقا رائجا لها، كما كانت المخطوطات أيضا من السلع المهمة، الشيء الذي يدل على قيمة الكتب والرفعة العلمية، التي كان عليها أغلب حكام وعلماء بلدان إفريقيا جنوب الصحراء⁽²⁾.

إن الأعداد الكبيرة للعلماء، والمدرسين في البلاد الإفريقية جنوب الصحراء، كلها عوامل تدعوا للإهتمام بالكتاب واستجلابه من خارج البلاد خاصة من بلدان المغرب، ويذكر الحسن الوزان أنه لا تكاد تخلو قافلة متجهة من بلاد المغرب إلى تمبكتو من الكتب، لأن أسعارها تفوق ما يدفع نظير أية سلعة أخرى، و"تدر أرباحا تفوق أرباح سائر البضائع..."⁽³⁾.

ولهذا تطورت صناعة نسخ الكتب بالسودان الغربي والأوسط، وظهرت حرفة الوراقين، ونتيجة لإقبال الحكام والعلماء بتلك المناطق على اقتناء الكتب، تمكن التجار المغاربة من الحصول على أموال ضخمة من بيع هذه السلعة التي كان لها رواج كبير في المنطقة، نظرا لانتشار العلم والعلماء⁽⁴⁾.

12. المصنوعات الجلدية والحديدية:

كانت القوافل التجارية تنقل بعض الأدوات الحديدية والجلدية من حواضر الصحراء جنوب الجزائر، إلى البلدان الإفريقية الجنوبية، ومن أهم المصنوعات الجلدية نجد الدروق التي تنسب إلى لمطة، وتصنع في بلدة نول، وكانت هذه الدروق على درجة كبيرة من حيث الجودة والخفة، وطريقة صناعتها،

⁽¹⁾ أحمد مريوش: "السياسة الفرنسية في الجنوب الجزائري وردود الفعل الوطنية ما بين (1900-1930م)", مقال نشر في مجلة المصادر، ع 20، نشر: م.و.د.ب.ح.و.ث.أ.ن، الأبيار، الجزائر، 2009م، ص 199-200

⁽²⁾ الدالي: المرجع السابق، ص 329-330.

⁽³⁾ الوزان: المصدر السابق، ج 1، ص 167.

⁽⁴⁾ الدالي: المرجع نفسه، ص 330.

فهي من جلد حيوان يسمى اللمط⁽¹⁾، وقد أفاد القزويني أن جلد هذا الحيوان بعد دبغه إذا أصابه خدش أو بلل بالماء، إذا مسح يزول عنه⁽²⁾.

أما الأدوات الحديدية، فتتمثل في السيوف والمناجل، وحلق الأبواب، وكانت هذه المصنوعات تصدر إلى البلاد السودانية عن طريق التجار المغاربة عامة والجزائريين خاصة⁽³⁾.

13. مواد أخرى:

إضافة إلى ما ذكر أعلاه هناك أيضا مواد أخرى تصدرها الجزائر إلى الأسواق السودانية، حيث يكثر عليها الطلب من جملتها ماء الزهر، المصنوعات الزجاجية، الأواني الفخارية، القرنفل، البنحور، والعمود، التوابل، المزروعات التجارية، كالحناء والتبغ التي اشتهر بها إقليم توات، وكذا الفواكه المجففة كالتين والزبيب، والمصنوعات المستوردة من أوروبا مثل: القهوة، والشاي، والسكر، والتبغ، وما إلى ذلك من سلع يقتنيها التجار من أسواق الجزائر⁽⁴⁾.

ب. أهم واردات الجزائر من إفريقيا جنوب الصحراء:

لم يكن التجار الجزائريون والمغاربة عامة، ليغامروا في الصحراء الكبرى فقط من أجل جلب بعض السلع المعروفة، لولا وجود مادتين نفيستين يزيد الطلب عليهما كل يوم سواء في الشمال أو في أوروبا، ونقصد بهما الذهب والرقيق(العبيد)⁽⁵⁾.

1- الذهب:

كان الذهب ولا يزال بنوعيه الخالص والتبر من المواد ذات الأهمية البالغة في حجم المبادلات التجارية العالمية، وذلك نظرا للطلب المتزايد عليه في السوق الدولية، وتنافس الأفراد والدول على اقتنائه واستغلاله في مختلف المجالات. ولعل هذا الطلب المتزايد، والربح الوافر الذي تحصل عليه القوافل المتاجرة بهذه السلعة الثمينة، هو الذي يفسر لنا ظاهرة اهتمام كثير من الدول والأفراد في المساهمة في

⁽¹⁾ اللمط: حيوان يصفه البكري: "... دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة... وأجود الدرق وأغلاها ثمنا ما

صنع من جلود العواتق منها...". أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص 127، الغامش رقم (3).

⁽²⁾ الدالي: المرجع السابق، ص 331-332.

⁽³⁾ نفسه، ص 332.

⁽⁴⁾ الزبير: المرجع السابق، ص 167. وكذلك بوسليم: المرجع السابق، ص 137.

⁽⁵⁾ بوسليم: المرجع السابق، ص 132.

تجارة القوافل، كما يفسر مغامرة رجال القوافل المغاربية وتضحياتهم الجسام لعبور الصحراء الكبرى في معظم أيام السنة، وفي إقامة المسالك واكتشاف مجاهلها⁽¹⁾.

فقد شاهد الرحالة الفرنسي الشهير رونيه كاييه (René Caillé) كثير من تجار المغرب العربي عندما كانوا راجعين إلى بلدانهم قادمين من بلاد السودان وهم يحملون معهم كمية من الذهب تصل قيمتها إلى حوالي مائة مثقال⁽²⁾.

فقد كانت بلاد السودان إحدى المصادر العالمية لهذه المادة النفيسة، وكان السكان المحليون هم الذين يقومون باستخراجه وتحضيره⁽³⁾ ريثما تحل بينهم القوافل المغاربية والجزائرية فيقايضون به البضائع والسلع التي يحتاجونها⁽⁴⁾.

لقد وفر الذهب الإفريقي المادة الأولية لضرب السكة المتداولة في أغلب بلدان العالم الإسلامي بين القرنين الثالث والخامس الهجريين/التاسع والثاني عشر الميلاديين، كما كان يُعد المصدر الأول للحرف التي تقوم على صناعة الحلبي والمجوهرات، فقد كان يتدفق دوما نحو شمال القارة الإفريقية، مع بعض التقلبات وذلك حتى أواخر القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، وكان لا يزال يوفر للملوك الذين يسيطرون على حركة سيره بدرجات متفاوتة، المادة التي يسكون منها النقود، إلا أن أحداثا جديدة قد غيرت الوضع شيئا فشيئا لصالح الأوروبيين⁽⁵⁾.

كما كان للمعدن الأصفر دورا حاسما في انطلاقة أوروبا الغربية، قبل وقت قصير من ظهور التجارة عبر المحيط الأطلسي، ذلك أن مناطق⁽⁶⁾ استخراج الذهب في إفريقيا جنوب الصحراء كانت

(1) بشار: المرجع السابق، ص15

(2) Caillé :op.cit, p257

(3) وأشهر طريقة للبحث عنه هي طريقة الفناجين، التي تتمثل في كون الأهالي يخرجون ليلا وفي أيديهم فناجين سوداء، وكلما شاهدوا بريقا سارعوا إليه وغطوه بها، وعندما ينتهون من هذه العملية يذهبون للنوم، وفي الصباح يقصدون أمكنة الفناجين ويأخذون ما تحتها، مستعملين أدوات مغناطيسية لتصفية محصولهم. أنظر الزبيدي: المرجع السابق، ص167.

(4) بشار: المرجع نفسه، ص15

(5) ج.ت.نياني: تاريخ إفريقيا العام، المجلد 4، إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر، عن اليونسكو، باريس، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988م، ص646. وكذلك بشار: المرجع السابق، ص15.

(6) بداية من القرن الخامس عشر الميلادي بدأ استغلال مناجم الذهب الموجودة في: مناطق غالم (Ghalam)، ومكوك (Bambouk)، وبوري (Bouré) بغيينا حاليا، وبيتو (Bito) بفولتا العليا وغانا حاليا. أنظر: cornevin :op.cit, p166.

قادرة على تلبية المبادلات التجارية في حين أن الإحتياجات كانت كبيرة وغير محدودة، إضافة إلى أن الأفارقة كانوا يجهلون المكانة الحقيقية التي يحتلها الذهب في الإقتصاد المغربي والأوروبي⁽¹⁾.

وليس من الممكن تقدير كميات الذهب التي كانت تأتي من بلاد السودان إلى الجزائر وبلدان المغرب عامة، لكن هذه بعض المعطيات تعطي صورة عامة عن الموضوع:

- تحدث ابن حوقل في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي عن أرباح تجار سجلماسة التي كانت من أهم محطات قوافل تجارة الذهب السوداني، فيذكر رسم اعتراف بدين بين تاجرين مبلغه إثنان وأربعون ألف دينار.

- وعن كثرة الذهب في مملكة غانة يقول البكري في سنة 1066م بهذا الخصوص أنه لولا احتكار ملكها لمعظمه لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون، حيث يقول: "... ويجلب منها الذهب الإبريز الخالص خيوطا مفتولة، وذهب أودغست أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه.."⁽²⁾

- أما في القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، فيشير بروديل(Broudel) في مقال له إلى أن المصادر الأوروبية المعاصرة تتفق في وصف ثروة الأقطار المغربية بالمعادن النفيسة ودنانير الذهب الجميلة المصدرة إلى العالم أجمع. ويبدو أن هذه الثروة نمت خصوصا في الحواضر الواقعة على المسلك الرئيسي للقوافل الذي يؤدي إلى تلمسان وبجاية وقسنطينة وتونس مرورا بورقلة⁽³⁾.

- في حين يذكر الإدريسي في القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي أن بلاد ونقارة مشهورة بتبر الذهب، وكان تجار ورقلة والمغرب الأقصى يشترون من أهلها ما بأيديهم من التبر، ويخرجوه إلى دور السكك في بلادهم، فيضربونه دنانير يتصرفون بها في تجارتهم⁽⁴⁾.

- إن التفاصيل التي أوردها ابن بطوطة عن رحلته إلى بلاد السودان في سنة 1352م تُبين أن تجارة الذهب بين الأقطار المغربية وإفريقيا جنوب الصحراء بقيت ذات أهمية رغم الكوارث الديموغرافية والإضطرابات السياسية التي عرفت هذه الأقطار في منتصف القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي. فقد سلك هذا الرحالة الشهير الطريق الغربي المعروف وقضى عشرة أيام في تغازي أين يُستخرج الملح الصحراوي الذي كان ينقل إلى بلاد السودان ليُباع مقابل الذهب. وهو يقول عن هذه

(1) Sari :op-cit, p83 .

(2) البكري: المصدر السابق، ص ص161-162 .

(3) مروش: المرجع السابق، ص ص24-25.

(4) الإدريسي: المصدر السابق، ص39. وأيضا: مروش: المرجع نفسه، ص ص24-25.

المحطة التي أغناها استخراج الملح: "...وقرية تغازى على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر... (1)".

كما يذكر ابن الدين الأغواطي في رحلته التي قام بها أوائل القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي أن الجزائر كانت قبيل الإحتلال الفرنسي تستورد من بلدان السودان تبر الذهب بكميات كبيرة عن طريق أسواق توات وقورارة وسوف في الجنوب الجزائري(2).

2. العبيد:

لقد عرفت الجزائر خلال العهد العثماني رواج تجارة العبيد الذين كانوا يُستوردون من إفريقيا (3) بواسطة أسواق توات وقورارة، وهذا ما يؤكد الرحالة الجزائري ابن حمادوش في رحلته سنة 1740م، عندما يذكر المهر المقدم لأخته، إذ قُدمت لها أمة واحدة من رقيق السودان(4).

لقد كان العبيد السود موضوع تجارة مُربحة في الجزائر العثمانية، خاصة بعد تحول طرق الذهب الإفريقي نحو المشرق، فقد كان الأتراك والكراغلة وحضر مدينة الجزائر يُقبلون على اقتناء هؤلاء العبيد، حيث تُستخدم الإماء للفراش ولإرضاع البنين (5)، وكانت تقرت وورقلة تقدمانهم ضريبة للأتراك العثمانيين، الذين كونوا من عناصر منهم جماعات عسكرية عند تحريرهم، باسم المخزن أو الزمالة، سواء في بايلك التيطري، أو في بلاد القبائل، أو في بايلكي الشرق والغرب(6).

إن رواج تجارة العبيد (7)، قد بعث بدون شك، نشاطا كبيرا في اقتصاد الجزائر خاصة والمغرب العربي عامة، إذ بالإضافة إلى فوائدهم التجارية كبضاعة فإنهم كانوا يُستعملون في بعض الصناعات

(1) ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص773. وأيضا: مروش: المرجع نفسه، ص24.

(2) سعد الله: أبحاث وآراء...، المرجع السابق، ص257.

(3) يذكر الإدريسي أن سكان بعض البلاد الإفريقية يتحايلون على أهالي بعض المدن بشق الوسائل حتى يخرجوهم من بلادهم بأعداد كبيرة، ويبيعوهم لتجار المغرب. أنظر: الإدريسي، المصدر السابق، ص37.

(4) بلعباس: المرجع السابق، ص72 وص81.

(5) نجاة الباشا: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجري، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، 1976م، ص68.

(6) صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م، د.ر.ط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014م، ص360.

(7) يذكر عبد القادر زبانية أن أسواق السودان كانت عامرة بالعدد الكبير من العبيد، في مختلف الأعمار، وكانت أثمانهم منخفضة في السودان عنها في العالم الخارجي، ولذا كان التجار يودون بأعداد كبيرة منهم، ويبيعوهم في أسواق المغرب ومصر وعلى السواحل إلى التجار الأوروبيين الذين يحملون أعدادا هامة منهم إلى الجانب الآخر من المتوسط. أنظر: زبانية، الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص39.

ويُتخذون خدماتهم عند العائلات الغنية، كما كانوا يقومون بالأعمال الفلاحية كالحرث والإستسقاء من الآبار وفي المزارع وهي أعمال العبيد في تلك الفترة، وقد اشتد الطلب على شراء العبيد ابتداء من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، مما زاد من إقبال تجار الشمال على الأسواق الجنوبية⁽¹⁾. لقد استقر عدد معتبر من هؤلاء العبيد في بعض الواحات الصحراوية، فقد ذكر مثلاً النقيب روجي ليسيل (Roger Leselle) أنه في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، كان عدد السود كبير جداً في وادي سوف، وحسب كبار السن هناك كان عددهم يساوي عدد البيض تقريباً⁽²⁾. مما يدل على أن التجار السوافة كانوا يملكون الكثير من العبيد السود، الذين اشتروهم عن طريق القوافل التجارية العابرة للصحراء.

3. الودع:

هو نوع من الصدف كان يُجلب إلى بلاد السودان من طرف التجار المغاربة والجزائريين، وعندما احتل الأوروبيون سواحل إفريقيا الغربية، جلبوه من الهند، مما ترتب عليه منافسة للتجار المغاربة على هذه السلعة⁽³⁾.

4. العاج:

كان من المواد المرغوبة التي تستوردها الجزائر من السودان في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي⁽⁴⁾.

5. مواد أخرى:

منها: القطن، الجلود، الصمغ⁽⁵⁾، العسل، الفول السوداني⁽⁶⁾، البخور الأسود⁽⁷⁾، المسك، الشمع، الشمع، العنبر، والكولا⁽⁸⁾، وأشياء أخرى من بضائع بلاد السودان⁽¹⁾.

(1) بوسليم: المرجع السابق، ص132

(2) Leselle: op-cit, p15

(3) الدالي: المرجع السابق، ص329.

(4) Aucapitaine: op-cit, p6

(5) ibid, p6

(6) الفول السوداني: هو يُزرع في السودان الكبير كله، واستعمل في المبادلة بشراء الملح، واشتهر السودان

بانتاج الفول وتخصصه فيه حتى سُمي باسمه. أنظر: عباس، المرجع السابق، ص54.

(7) بوسليم: المرجع السابق، ص ص132-133.

(8) الكولا: هي من المنتجات التي عرف بها السودان الغربي، وكانت حبوب الكولا تخرق الصحراء لتصل إلى

البحر المتوسط. أنظر: عباس، المرجع السابق، ص54.

رابعاً: المعاملات التجارية بالأسواق الجزائرية والإفريقية:

أ. طرق التبادل التجاري:

عرفت الحواضر الجزائرية والسودانية، النشاط التجاري القائم على البيع والشراء أحياناً، وأوعن طريق المقايضة أحياناً أخرى.

1. عن طريق المقايضة:

كانت المقايضة إحدى الوسائل المستعملة بين تجار شمال إفريقيا وتجار بلدان إفريقيا جنوب الصحراء منذ أقدم العصور، وهي أفضل طريقة يستعملها تجار القوافل في مبادلاتهم التجارية سواء داخل الجزائر أو خارجها، لأن النقود لم تكن منتشرة بكثرة، ولأن المستهلك يفضل الحصول على ما يحتاج إليه مباشرة دون المرور بعملية التحويل المعقدة، التي لا توفر الضمانات الكافية للأطراف المتبادلة⁽²⁾.

وتُنظم تحديدات وقواعد للتجارة عبر الصحراء التي تُسير من طرف الجزائريين مع أسواق مدن جنوب الصحراء بواسطة القوافل التي تنطلق بصورة أساسية من غدامس على الحدود الليبية، وبمجرد وصول القافلة إلى إحدى المدن مثل كانو وزاريا تضع حمولتها في بعض الأماكن الخاصة للبضائع القادمة من مدينة الجزائر. وهنا يأتي المشتري الإفريقي المحتمل فيضع إلى جانب كومة البضائع كمية من غبار الذهب، أو ريش النعام التي يعتبرها مُساوية في قيمتها للحمولة الجزائرية، وينسحب حينذاك كل من الطرفين، فيأخذ التاجر المدفوع على حدة، إذا هو رضي، أو أنه يطلب إرجاع البضاعة، إذا كان غير راض، وفي الحالة الأخيرة يُضيف المشتري الإفريقي من غبار الذهب إلى جانب الكمية المعروضة حتى يرضى الطرفان⁽³⁾.

فقد ذكر ابن بطوطة في تحفته أنه كان أثناء تجواله في بلاد السودان، يحمل قطع الملح، وحلي الزجاج، وبعض السلع العطرية ليستبدل بها الطعام والسمن⁽⁴⁾.

أما مارمول فعند حديثه عن العلاقات التجارية بين الجزائر والسودان الغربي في العهد الزياني، خاصة مع غينيا قال: "...ويُتاجرون بالتبادل (أي المقايضة) مُحققين كثيراً من الربح."⁽¹⁾

⁽¹⁾ مصطفى علوي: "الأحوال الاقتصادية للمغرب الأوسط من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين المغاربة ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين"، مقال نشر في مجلة كان التاريخية، ع14، ديسمبر 2011م، ص89.

⁽²⁾ الزبير: المرجع السابق، ص65.

⁽³⁾ سنسر: المرجع السابق، ص149.

⁽⁴⁾ ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص795.

ويؤكد هذا الوزن حيث يذكر أن ملك بورنو في عهده كان يُبادل العبيد بالخيل التي يأتي بها تجار بلاد المغرب، فيأخذون مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين عبداً⁽²⁾.

ويبدو من خلال كتابات الوزن وغيره، أن طريقة المقايضة كانت مازالت رائجة في النصف الأول من القرن العاشر هجري/السادس عشر الميلادي، وذلك لنقص العملة، وندرتها في كثير من المناطق. لذا قلّما تتدخل كوسيلة دفع، فمثلا في حوالي سنة 1790م حصل تاجر مغربي على عبد بيمبارا مقابل لوح ملح⁽³⁾.

2. عن طريق البيع والشراء:

يظهر أن أسلوب المقايضة تراجع أمام الدفع نقدا بعد ذلك، خاصة لما نشطت حركة التجارة، وتضاعفت أحجامها، فلم تعد طريقة المقايضة في التبادل التجاري تلقى رواجاً، حيث شهدت هذه الفترة تدفق الذهب والفضة على أوروبا من أمريكا وتدفق الذهب على بلدان المغرب من بلاد السودان. فبدأ ظهور العملات الذهبية والفضية والنحاسية إلى جانب بعض السلع الأخرى، التي صارت لها قوة النقد⁽⁴⁾.

3. عن طريق الصكوك:

لما نشطت التجارة على نطاق واسع بين بلدان المغرب وبلاد السودان، استحدث نظام الصكوك لتيسير العمليات التجارية. وفي هذا الصدد يقول ابن حوقل: "... ولقد رأيتُ بأودغست صكاً في ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أودغست وهو من سجلماسة باثنين وأربعين ألف دينار، وما رأيتُ وما سمعتُ بالمشرق لهذه الحكاية شبيها ولا نظيراً، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستطرفت".

ب. العملات المُستعملة:

1. في الجزائر:

⁽¹⁾ علوي: المرجع السابق، ص89.

⁽²⁾ الوزن: المصدر السابق، ج2، ص176.

⁽³⁾ لوسيت فالنسي: المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830م، تر: إلياس مرقص، دار

الحقيقة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، آب (أغسطس)، 1980م، ص ص 70-71.

⁽⁴⁾ بن خروف: المرجع السابق، ج2، ص61. وأيضاً: الدالي، المرجع السابق، ص ص 339-403

عَرَفَ بلاد المغرب عامة والجزائر خاصة تداولُ العملة المعدنية منذ الفترة القرطاجية، وهذا التداول لم ينقطع أبدا بل بالعكس عرف انتشارا واسعا منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي بسبب تدفق الذهب السوداني الذي يعتبره بعض المؤرخين المعاصرين ⁽¹⁾ أكبر عامل في ازدهار الدول المغاربية في القرون الأولى بعد الفتح الإسلامي ⁽²⁾.

وقد كانت للجزائر عملة خاصة ذهبية وفضية ونحاسية، تُضرب بدار السكّة ⁽³⁾ في القصبة باسم السلطان العثماني، وبأمر من الداى تحت إشراف الخرنجي ⁽⁴⁾، وتختلف تسمية العملة حسب قيمتها في السوق أي حسب الأسعار، وقد عرفت العملة الجزائرية خلال ثلاثة قرون من الوجود العثماني تغييرات كبيرة في عيارها ووزنها وشكلها وقيمتها وحتى تسميتها ⁽⁵⁾.

إن أول شهادة وصلت إلينا عن بدايات العملة العثمانية في الجزائر أوردتها الحسن الوزان، حيث يذكر أنه أثناء مروره سنة 1516م بالجزائر وبعد مقتل سالم التومي، إستولى عروج على الحكم وبدأ في سك العملة ⁽⁶⁾.

ومن أقدم العملات التي ضُربت بمدينة الجزائر في العهد العثماني، دنانير تحمل اسم السلطان سليمان القانوني وذلك بتاريخ 926هـ/1520م ⁽¹⁾، وقد حافظت الدنانير السلطانية على قيمتها حتى

⁽¹⁾ من بينهم: E-F.Gautier في كتابه: "L'or du soudan dans l'histoire". لمعلومات أكثر أنظر:

مورش، المرجع السابق، ص 23-24

⁽²⁾ مروش: نفسه، ص 23-24.

⁽³⁾ دار السكّة (أي دار ضرب النقود): في سنة 1235هـ/1820م أمر الداى حسين بنائها داخل القصبة، وعندما تم بناؤها أمر أمينالسكّة أن ينتقل إليها من الدار القديمة. أنظر: الزهار: المصدر السابق، ص 147.

⁽⁴⁾ كان اليهود هم الوحيدين المكلفين في الغالب بصناعة وسك النقود سواء المصنوعة من الذهب أو الفضة أو النحاس.

أنظر: Diego de Haedo: Topographie et Histoire générale d'Alger, trad de l'espagnol par MM. Le Dr. D. Monneraet

A. Berbruggeren 1870, imprimée Valladolid, Espagne, 1612, p91.

⁽⁵⁾ محمد الزين: الأوضاع الاجتماعية والصحية في الجزائر العثمانية 1518-1830م، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه

في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف أ.د. محمد مجاود بمساعدة أ.د. حنفي هيلالي، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم

الإنسانية، جامعة جيلاليليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية: 1431-1432هـ/2010-2011م، ص 200.

أنظر: جدول للنقود المضروبة بالجزائر في العهد العثماني في الملحق رقم (10)

⁽⁶⁾ مروش: المرجع السابق، ص 35.

حتى القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، وكان لها أنصاف وأرباع، وقيمة الدينار السلطاني 140 درهما⁽²⁾.

بالإضافة إلى الدينار هناك الدرهم⁽³⁾، وهو قطعة فضية مربعة، عشرة منها تساوي ريالاً إسبانياً، وهي تزن 0.40 غرام، وأقدم قطعة منه في العهد العثماني هي قطعة مضروبة في الجزائر باسم السلطان سليم الأول وتحمل تاريخ 918هـ/1512م وهو تاريخ توليه السلطة. وكان للدرهم نصف وثلث، وسُدس الدرهم هو الخروبة وهي قطعة نحاسية استعملت طويلاً كعملة حسابية⁽⁴⁾.

أما الدينار الذهبي الزياني فقد كان يزن بين 4.58 غ و4.66 غ، وكان له أنصاف وأرباع وأثمان، بالإضافة إلى الدرهم الفضي. وقيمة الزياني 100 درهماً، ونصف الزياني وهو قطعة ذهبية مشوبة بالنحاس ويساوي 50 درهماً، وربع الزياني قطعة ذهبية مخلوطة بالنحاس قيمتها 25 درهماً⁽⁵⁾.

خلاصة القول، إن كل هذه العملات كانت قيمتها غير ثابتة، لأن باشوات الجزائر يقومون برفع قيمتها أو خفضها حسب الظروف⁽⁶⁾.

وإلى جانب هذه العملات الوطنية كانت تتداول في أسواق الجزائر بعض العملات الأجنبية سواء من البلدان الإسلامية كتونس والمغرب⁽⁷⁾، أو من أوروبا كفرنسا وإسبانيا⁽⁸⁾، حيث لم تتمكن النقود التي ضربها الأتراك من فرض نفسها في السوق⁽¹⁾.

⁽¹⁾ أحمد توفيق المدني: "وجود الأتراك العثمانيين بالبلاد الجزائرية"، مقال نشر في كتاب الأصالة، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر المنعقد بباتنة من 04 إلى 11 شوال 1398هـ/7-14 سبتمبر 1978م، نشر وزارة الشؤون الدينية، ج2، الجزائر، ص227.

⁽²⁾ توجد قطعتان منها بمتحف إسطنبول تاريخ صنعها يعود إلى سنة 1520م وهو تاريخ تولية سليمان القانوني السلطنة. أنظر: صور لقطع نقدية من تلك الفترة في الملحق رقم(14)

⁽³⁾ الدرهم الشرعي: وزن سبعة أعشاره خمسون حبة وخمسا حبة من الشعير، وتزن العشرة منه سبعة مثاقيل من الذهب، هو على هذا سبعة أعشار الدينار، وهذه المقادير كلها ثابتة بالإجماع. أنظر: ابن خلدون، مقدمة...، المصدر السابق، ص268.

⁽⁴⁾ بلحاج ناصر: "جوانب من المعاملات المالية بوادي مزاب في القرنين 18-19 الميلاديين من خلال دفاتر بعض التجار"، مقال نشر في مجلة الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12-13هـ/18-19م من خلال المصادر المحلية، المنعقد بالمركز الجامعي بوادي سوف أيام 29 صفر - 01 ربيع الأول 1433هـ/24-25 جانفي 2012م، مطبعة منصور، الوادي، الجزائر، 2012م، ص 252.

⁽⁵⁾ ناصر: المرجع نفسه، ص 252. أنظر الصورة في الملحق رقم(13)

⁽⁶⁾ Haedo: Topographie..., op.cit, p114 (193)

⁽⁷⁾ أنظر جدول النقود الإسلامية المستعملة في الجزائر العثمانية في الملحق رقم(12)

⁽⁸⁾ أنظر جدول النقود الأوروبية المستعملة في الجزائر العثمانية في الملحق رقم(11)

فقد انتشر استعمال الريال الإسباني بالجزائر وسيطر على المبادلات النقدية عموماً، خاصة بعد فترة الإضطراب النقدي التي شهدتها الجزائر بداية من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، ومع حدود سنة 1620م أصبح الريال الإسباني العملة الرئيسية بفضل الإستقرار الكبير في عياره ووزنه وشكله⁽²⁾.

وفي أواخر الحكم العثماني بالجزائر، وبالضبط سنة 1236هـ/1821م أمر الداوي حسين بصنع قطع السلطاني الذهبية، عوض الدينار، وصنع نصف السلطاني ورُبع السلطاني. أما قطع الدورو الفضة⁽³⁾ فقد أمر بصنع أنصاف لها، واسم النصف: الريال بجمّة (بوتشو)، كما صنع أرباع لها، وصنع سكة النحاس وقيمتها 18 قطعة لثمن الريال. وذلك عوضاً عن الدراهم الصغار القديمة. وأمر أن يدفع من السكة الجديدة الرواتب لكافة العسكر ولأصحاب العملات⁽⁴⁾. وقد بقيت هذه العملة الجديدة متداولة إلى غاية الإحتلال الفرنسي⁽⁵⁾. ورغم استبدالها بالعملات الفرنسية إلا أن التجار الجزائريين حتى بعد الإحتلال الفرنسي واصلوا استعمال العملات الوطنية خاصة في المناطق الصحراوية مثل توات، فبالإضافة إلى النقود المضروبة من طرف الدايات حتى 1830م أُضيف إليها النقود المنجزة من قبل الحاج أحمد باي قسنطينة سنة 1832م، والأمير عبد القادر سنة 1847م⁽⁶⁾.

لقد قامت فرنسا سنة 1849م تطبيقاً لسياستها المالية في الجزائر بسحب العملات الجزائرية من التداول خاصة التي تحمل بصمة دايات الجزائر، أما باقي العملات فقد مُنعت من الإستعمال⁽⁷⁾؛ إلا أن الجزائريين استمروا في تداول بعضها مثل السلطاني والبوجو، في بعض مدن التل، والمناطق المتاخمة لتونس، وفي الجنوب خاصة في قورارة وتوات وتديكلت، فمثلاً في سنة 1886م كانت القطعة النقدية التركية القديمة المسماة ثمانية أوق (Tamenia aouk) والتي تعادل نصف سلطاني، تُستعمل في

(1) عمار عمورة: الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى 1962م، ج2، دار المعرفة، الجزائر، 2008م، ص243. وكذلك عباد: الجزائر خلال... المرجع السابق، ص343.

(2) ناصر: المرجع نفسه، ص252.

(3) الدورو الفضة: هي قطع فضية من أصل إسباني، كانت عمدة المعاملات في الجزائر، وقيمتها قبل الحرب العالمية الأولى خمسة فرنكات ذهبية. أنظر الزهار: المصدر السابق، ص184، الهامش رقم(21).

(4) الزهار: المصدر السابق، ص147.

(5) نفسه، ص184، الهامش رقم(22).

(6) Tayeb Chentouf: Etude d'histoire de l'Algerie (18^{ém} et 19^{ém} siècles), O.P.U, Alger, 2004, p111.

(7) معلومات أكثر طالع المرسوم الفرنسي في الملحق رقم(16).

قورارة، كما كان التجار الجزائريون يستعملون في صفقاتهم كذلك بعض العملات المغربية كالأوقية والروبية، والتي كانت متبادلة في إقليم توات بالجنوب الجزائري سنة 1856م⁽¹⁾.

ويبدو أن انتشار العملة المغربية في بعض المناطق الجنوبية للجزائر كالأغواط وتوات وغيرها يرجع لانحسار المد العثماني في تلك المناطق البعيدة عن العاصمة مركز السلطة، وهذا لا يعني وجود تبعية سياسية بين تلك المناطق والمغرب، وربما يعود السبب إلى جودة العملة المغربية، ورداءة مثيلاتها العثمانية في تلك الفترة⁽²⁾.

كما كان الريال التونسي متداول بشكل كبير في قرى مزاب، وكانت هذه العملة تُحمل في القوافل الصحراوية القادمة من تونس، أما عن قيمته في نهاية القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي فإنه كان يساوي تقريبا القرش العثماني⁽³⁾.

لقد كانت القيم النقدية للعملات المستعملة في الجزائر بعد الإحتلال الفرنسي يُعبر عنها بالعملية الفرنسية، مما أدى إلى فرض العملة الفرنسية لنفسها شيئا فشيئا، لتصبح بداية من سنة 1901م العملة الوحيدة المستعملة بالجزائر⁽⁴⁾.

2. في إفريقيا جنوب الصحراء:

يذكر البكري أن الناس كانوا يتعاملون في أسواق تادمكة بالدرهم الصلغ أي غير المكتوب عليها، بينما يذكر زبانية أنه عُثِر في مدينة غاو على كثير من الدراهم والدنانير الفاطمية والمغربية والمملوكية مما يدل على أنها كانت طريق تجاري، ووردت على سنغاي عملات أخرى واستُعملت في أسواقها، وبالإضافة إلى الذهب استخدم النحاس في المعاملات المالية.

ويروي لنا ابن بطوطة كيف أن سكان مدينة تكدا يستعملون قضبان النحاس⁽⁵⁾ كعملة في معاملاتهم، فيشترون برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح⁽¹⁾.

(1) chenetouf : Ibid, p112.

(2) رمضان: المرجع السابق، ص ص201-202.

(3) ناصر: المرجع السابق، ص 254. وكذلك: chenetouf : op.cit, p117. أنظر: صور لأهم النقود

المستعملة بالجزائر في الملحق رقم(15).

(4) الوزان: المصدر السابق، ج2، ص163.

(5) يقول ابن بطوطة: "...ومعدن النحاس بخارج تكدا، يحفرون عليه في الأرض، ويأتون به إلى البلد فيسكبونه في دورهم،

يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم. فإذا سكبوه نحاسا أجمر صنعوا منه قضبانا في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها

كما يذكر الوزان في كتابه "وصف إفريقيا" أنه وجد أن العملة الرائجة عند السودانيين هي قطع الذهب الخالص غير المسكوك، وكذلك قطع الحديد لشراء اللبن والخبز والعسل، وتزن هذه القطع رطلاً أو نصف رطل أوريعة⁽²⁾، كما يشير كذلك إلى استعمال أهل مالي وكوكو⁽³⁾ في بيعهم وشراهم للودع كعملة⁽⁴⁾. ونفس المادة نجدها تُستعمل كعملة عند السودانيين في القرن السادس عشر لشراء الأشياء التافهة حسب الوزان الذي يصفه: "...وهو صدف مستورد من بلاد فارس، تساوي أربعمئة منه مثقالاً واحداً..."⁽⁵⁾.

ومن السلع التي كانت تستعمل في بلدان إفريقيا جنوب الصحراء كعملة نظراً لقيمتها هناك، نجد الملح الذي يقول عنه ابن بطوطة: "...وبالملاح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة، يقطعونه قطعاً ويتبايعون به..."⁽⁶⁾ فقد كان المسافر إلى هذه البلاد لا يحمل معه زادا ولا ماء ولا دينار وإنما يحمل قطع الملح والزجاج فيشتري من تلك البلاد ما يطلبه مقابل ذلك⁽⁷⁾. فهناك قطع تساوي 160 فرنكا، وقطع تساوي 240 فرنكا، وقطع تساوي 320 فرنكا⁽⁸⁾.

ويمثل المرجان في المغرب الإسلامي كما في شرقه وسيلة دفع يصعب الحكم على أهميته، فقد استورد المرجان إلى مصر لتموين القوافل الذهبية إلى أسبوط ودارفور، ففي سنة 1852م مثلاً استعمل ما قيمته تسع مائة وخمسون ألف فرنك ذهب من المرجان في الصفقات مع إفريقيا السمراء ولقد بقي استعمال المرجان كعملة إلى زمن متأخر نسبياً كضمان في عديد المرات، فقد كتب مثلاً شارل دي فوكو في سنة 1880م أنه حمل معه في سفره كنفود ثلاثة آلاف فرنك نصفها من الذهب ونصفها الآخر من المرجان⁽⁹⁾.

غلاظ. فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمئة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمئة بمثقال ذهب وهي

صرفهم...". أنظر: ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص799.

⁽¹⁾ ابن بطوطة: المصدر نفسه، ص799.

⁽²⁾ الفيتوري: المرجع السابق، ص322.

⁽³⁾ هي مدينة كبيرة على نهر النيجر. أنظر ابن بطوطة: نفسه، ص796.

⁽⁴⁾ نفسه، ص ص 796-797.

⁽⁵⁾ الوزان: المصدر السابق، ج2، ص167.

⁽⁶⁾ ابن بطوطة: المصدر السابق، ج1، ص773.

⁽⁷⁾ الفيتوري: المرجع السابق، ص322.

⁽⁸⁾ بوغيز: تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص ص 48-49.

(9) Miege: op.cit, p397

ج. أسعار البضائع:

في غالب الأحيان كان يقع الإتفاق بين أمين الأمناء والمحتسب حول أسعار السلع في السوق. فقد جاء في قانون أسواق مدينة الجزائر ما يلي: "...إتفاق مع عبد الله محمد بن الحاج يوسف وسليمان المحتسب بأمر صاحب السعادة (الداي بابا حسن) على أن يكون رطل السمن بثمانين درهما عام 1110هـ/1698م..."⁽¹⁾. ومن بين أهم ما كان يباع في تلك الفترة نذكر:

1. العبيد:

تختلف أسعار العبيد حسب ظروف السوق سواء في إفريقيا جنوب الصحراء أو في الجزائر. فهذا المؤرخ المعروف الأصبخري (القرن 10م) يقول أن سعر العبد الممتاز قد كان مرتفعا بشمال إفريقيا، حيث تُباع الأمة السودانية بالمغرب بألف دينار وأكثر⁽²⁾. أما عن أسعارهم ببلاد السودان يقول البكري: "... وبها (أي مدينة أودغست) سودانيات طباحات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال..."⁽³⁾، ويذكر الرحالة ابن بطوطة (القرن 14م) أنه اشترى خادمة مُدْرِيَّة من مدينة تكدا بخمسة وعشرين مثقالا⁽⁴⁾.

أما الحسن الوزان (القرن 15م) فيذكر أنه شاهد في مدينة غاو (مالي حاليا) ساحة يُباع فيها أيام السوق عدد لا يحصى من العبيد ذكورا وإناثا، ثمن الفتاة بنت خمسة عشر سنة نحو ستة مثاقيل⁽⁵⁾، بينما لا يساوي الأطفال الصغار إلا حوالي نصف هذا الثمن، وكذلك العبيد المسنون. وقد كان للملك قصر خاص معد لعدد عظيم من النساء والجواري والعبيد، والخصيان المكلفين بحراسة هؤلاء النسوة⁽⁶⁾.

أما مع نهاية القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، فكان سعر العبد الذكر ببلاد السودان يتراوح بين مائة وعشرين ومائة وثلاثين فرنك، والأنثى من مائة وخمسين إلى مائتي فرنك⁽⁷⁾.

⁽¹⁾ هلايلي: المرجع السابق، ص 187.

⁽²⁾ الباشا: المرجع السابق، ص 68-69.

⁽³⁾ البكري: المصدر السابق، ص 158.

⁽⁴⁾ ابن بطوطة: المصدر السابق، ج 1، ص 799.

⁽⁵⁾ مثقال الذهب: وزنه إثنتان وسبعون حبة من الشعير. أنظر ابن خلدون: مقدمة...، المصدر السابق، ص 268.

⁽⁶⁾ الوزان: المصدر السابق، ج 2، ص 169.

⁽⁷⁾ بوسليم: المرجع السابق، ص 140.

في حين أنه في بلاد المغرب والجزائر فالثمن المعهود الذي كان يباع به العبد العادي يتراوح بين ثلاثون وستون دينارا،⁽¹⁾.

وفي الجزائر ورغم إصدار فرنسا سنة 1848م لقانون يُجرّم المتاجرة في العبيد إلا أن هذه التجارة قد تواصلت ولو بشكل مُتّشم، فمثلا بيع في ورقلة سنة 1877م طفل مملوك عمره ما بين سبعة وثمانية سنين على يد نحاس شعاني بثمانين دورو، كما اشترى شعاني في جانت سنة 1891م بـ200 فرنك عبدا مملوكا، أصله من بورنو(تشاد حاليا) اختطف في سن التاسعة تقريبا⁽²⁾.

لقد ظل العبيد حتى أواخر القرن التاسع عشر يُباعون في ساحة السوق القديم بورقلة، وكان العبد الذكر الذي استُقدم من بلاد السودان يُشترى من أسواق توات بـ 400 إلى 500 فرنك، ويُعاد بيعه في ورقلة بـ 600 إلى 800 فرنك⁽³⁾.

في حين يذكر شارل فيرو في مقال له أن ثمن العبد الذكر في الشرق الجزائري يبلغ حوالي 80 كوري(couris)، في حين أن الأثني تصل إلى 100 كوري(حوالي 750 فرنك)، أما الطفل فثمنه أكثر لأنه يسهل تربيته حسب إرادة سيده⁽⁴⁾.

2. الذهب:

يذكر الأغواطي في رحلته التي قام بها قبيل الإحتلال الفرنسي للجزائر، أن تبر الذهب يباع في سوق تميمون بوزن المئقال بالأوقية⁽⁵⁾. أما بوعزيز فيقول أن تبر الذهب يُشترى في السودان بسعر يتراوح من سبعة إلى ثمانية آلاف كوري⁽⁶⁾ للمئقال⁽⁷⁾.

⁽¹⁾ الباشا: المرجع نفسه، ص 68-69.

⁽²⁾ Denys Pillet: Repères pour l'histoire de Ouargla 1872-1992, traduction AliIdder, imp ETI- SUD, Ouargla, Algerie, 1993, P5 et P9.

⁽³⁾ Pillet: Ibid, P5 et P9.

⁽⁴⁾ L.charles Feraud : « Délivrance D'esclaves Nègres dans le sud de la province de costantine », in RA, v16, 1872, p176.

⁽⁵⁾ سعد الله: أبحاث وآراء...، المرجع السابق، ص 257.

⁽⁶⁾ الكوري (couris): عملة فارسية، وهندية، مستوردة قيمتها منخفضة جدا، بحيث أن ألف كوري تساوي 0.75 فرنكا. وتشبه عملة الزجاج والجلد اللتين كانتا مستعملتين لدى القرطاجيين. لمزيد من المعلومات أنظر: بوعزيز، تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص 49.

⁽⁷⁾ بوعزيز: المرجع نفسه، ص 50.

3. التمور والزبيب:

يقول البكري: "... وسعر التمر والزبيب عندهم (أي في أودغست) في أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل..."⁽¹⁾، أما في الجزائر وخاصة في إقليم توات فكان سعر التمور باختلاف أصنافها يتراوح ما بين ستون وثمانون فرنكا للحمل في القرن التاسع عشر⁽²⁾.

4. الملح:

عندما كانت مملكة سنغاي في أوج قوتها ونفوذها سيطرت على مناجم الملح وحددت أسعاره وجنت منها أرباحا طائلة، ويذكر ابن حوقل أن الممالك الإسلامية في السودان الغربي كانت حاجتها إلى الملح ملححة جدا، وربما بلغ حمل الملح في دواخل السودان أو أقاليمه ما بين مائتين إلى ثلاثمائة دينار⁽³⁾.

وتعتبر ملاحه تغازي⁽⁴⁾ من أشهر وأهم الملاحات المنتجة لهذه المادة المطلوبة بكثرة ببلدان إفريقيا جنوب الصحراء، حيث تقوم القوافل التجارية القادمة من تونس والجزائر والمغرب الأقصى بشحن ألواح الملح فوق الجمال إلى مختلف مناطق بلاد السودان، وفي القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي كان حمل الحمل من الملح يُباع في ولايته بسعر يتراوح بين ثمانية إلى عشرة مثاقيل ويبلغ في مالي من عشرين إلى ثلاثين وأحيانا يصل إلى أربعين مثقالا⁽⁵⁾.

يقول الحسن الوزان: "... كنتُ في مدينة تمبكتو عندما كان الملح يُساوي هناك ثمانين مثقالا..."⁽⁶⁾، لكنه لم يوضح كم كمية هذا الملح أو وزنه؟ إلا أنه يذكر أن الملح قليل جدا في تمبكتو، لأنه يُستورد من تغازي البعيدة عن تمبكتو بنحو ثمانين مائة كلم أي مسيرة عشرين يوما في

⁽¹⁾ البكري: المصدر السابق، ص ص 161-162 .

⁽²⁾ فرج: المرجع السابق، ص ص 84-85، نقلا عن جريدة المبشر، العدد 4226، 1900م، الجزائر، ص ص 3-6 .

⁽³⁾ الفيتوري: المرجع السابق، ص 321.

⁽⁴⁾ يصفها ابن بطوطة قائلا: "... وهي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بيوتها ومسجدها من حجارة الملح، وسقفها من جلود الجمال ولا شجر فيها، إنما هي رمل فيه معدن الملح، يُحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام، متراكبة كأحجار قد نُحِتت ووضعت تحت الأرض." أنظر: ابن بطوطة، المصدر السابق، ج 1، ص 773.

⁽⁵⁾ ابن بطوطة، المصدر نفسه، ص 773.

⁽⁶⁾ المثقال يحتوي 4.40 غرام من الذهب الصافي. أنظر: مروش، المرجع السابق، ص 29.

الصحراء⁽¹⁾. بينما يذكر في موضع آخر أن ثمن الرطل من الملح في بلاد السودان يساوي نصف مثقال⁽²⁾.

كما أورد في موضع آخر أنه عند مروره بتمبكتو كان حمل الجمل من الملح يساوي ثمانون دوقة أو دوخة (ducat) أي حوالي ستون مثقال ذهب علما أن حمل الجمل هو لوحين، ولا يزيد وزنه على المسافات الطويلة عن مائة وخمسون كلغ⁽³⁾. وهنا يظهر لنا جليا عدم دقة معلومات الحسن الوزان في هذا المجال.

ويستشهد مبروك الدالي برسالة بعث بها محمد عب إلى بكار بن حيد بخصوص تجارة بينهم في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي قال فيها: "...وإذا سألت عن خبر الملح في تنبكت بثلاثة مثاقيل ونصف... والسلام." أما محمود كعت فقد أورد أن أسعار الملح قد انخفضت في تمبكتو بعد سقوط مملكة سنغاي فبيعت الكمية بخمس مثاقيل وثلاثين...⁽⁴⁾.

5. الأسلحة:

يقول الوزان: "...وأقبح سيف أوروبي لا يزيد ثمنه على ثلث مثقال، يساوي هناك (أي في غاو) أربعة مثاقيل أو ثلاثة على الأقل...⁽⁵⁾". أما البندقية فُتباع في بلاد السودان بواحد وعشرين فرنكا، في حين أن صفائح السيوف يتراوح سعرها ما بين ثلاثة وأربعة فرنكات⁽⁶⁾.

6. الكتب والمخطوطات:

لقد روى شاهد عيان أنه رأى في تمبكتو في القرن العاشر هجري/السادس عشر الميلادي نسخة القاموس بيعت بثمانين مثقالا ذهبيا، ولا يبدو أن غلاء السعر من ندرة السلع، وإنما لأن سوق الكتب والمخطوطات كانت رائجة، وتقتنى حتى في القرى النائية⁽⁷⁾. وقد كانت أثمان الكتب مرتفعة جدا بالبلاد السودانية، تزيد عن أثمانها في الجزائر والمغرب العربي بضعف ونصف الضعف تقريبا⁽⁸⁾.

⁽¹⁾ الوزان: المصدر السابق، ج2، ص166.

⁽²⁾ الوزان: المصدر نفسه، ص280.

⁽³⁾ مروش: المرجع نفسه، ص30.

⁽⁴⁾ الدالي: المرجع السابق، ص332.

⁽⁵⁾ الوزان: المصدر نفسه، ج2، ص170.

⁽⁶⁾ الزبيدي: المرجع السابق، ص166.

⁽⁷⁾ عمر موسى: المرجع السابق، ص128.

⁽⁸⁾ زيادية: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص36.

7. القمح والذرة:

يقول البكري: "...وسعر القمح عندهم في أكثر الأوقات القنطار بستة مثاقيل..."⁽¹⁾، أما في مدينة تكدا فإن عشرين مدا من أمدادهم يباع بمثقال ذهب، بسبب قلة إنتاجه حسب ابن بطوطة، كما يباع في نفس المدينة تسعين مدا من الذرة بمثقال ذهب كذلك⁽²⁾. أما في الجزائر فكان سعره في أواخر القرن التاسع عشر ثلاثون فرنكا للقنطار بإقليم توات⁽³⁾.

8. ريش النعام:

كان يباع في أسواق السودان في القرن التاسع عشر بسعر يتراوح من خمسين إلى ستين فرنك للكلغ⁽⁴⁾.

9. العاج:

كان يباع في أسواق السودان بسعر يتراوح من مائتين إلى مائتين وعشرين فرنك لـ 50 كلغ في أواخر القرن التاسع عشر⁽⁵⁾.

10. المنسوجات:

إن أبسط قماش صنع في أوروبا يباع في مدينة غاو بمالي في القرن 16م بمثقالين للمتر الواحد، والقماش الرفيع مثل "المنتشينو" و"المينمو" يباع بسبعة مثاقيل ونصف، أما القماش البندقي الرفيع كالقرمزي والبنفسجي والأزرق فيصل سعره إلى خمسة عشر مثقالا⁽⁶⁾. أما قطعة مالطة القطنية ذات مقاس 22 مترا فكانت تباع في الجزائر بمبلغ 13.5 فرنكا، وفي كانو بمبلغ 16 فرنكا، وفي تمبكتو بمثقال ونصف ذهبي⁽⁷⁾. في حين أن الأقمشة الصوفية بلغ سعرها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي الميلادي بأسواق السودان ما بين فرنكين وأربعة فرنكات⁽⁸⁾.

⁽¹⁾ البكري: المصدر السابق، ص ص161-162.

⁽²⁾ ابن بطوطة: المصدر السابق، ج2، ص798.

⁽³⁾ بوسليم: المرجع السابق، ص139.

⁽⁴⁾ بوعزيز: تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص50.

⁽⁵⁾ بوعزيز: نفسه، ص50.

⁽⁶⁾ الوزان: المصدر السابق، ج2، ص170.

⁽⁷⁾ بوعزيز: المرجع نفسه، ص50.

⁽⁸⁾ الزبير: المرجع السابق، ص165.

11. مواد أخرى:

إضافة إلى ما سبق ذكره وُجدت هناك مواد وبضائع و سلع أخرى متبادلة بين الجانبين، منها مثلا مادة المرجان الذي كان سعره بالجزائر في أواخر القرن السابع عشر الميلادي يتراوح ما بين 40 و70 فرنكا حسب السنوات والأسواق، بينما يباع في أعماق إفريقيا بأكثر من 288 فرنكا للكيلوغرام الواحد. أما عن سعر زيت الزيتون فكان يساوي 1.20 فرنك للتر بالأسواق الجنوبية للجزائر⁽¹⁾، بينما تباع في البلدان الإفريقية بأثمان باهضة نظرا لبعدها المسافة، وما يترتب عن ذلك من مصاريف، الأمر الذي جعل السودانيات يستعملنه للمداواة والزينة فقط⁽²⁾.

د. الموازين والمكاييل والمقاييس:

كان للعلاقات بين ضفتي الصحراء الكبرى أثرا كبيرا على المجتمعات السودانية، التي استعملت نفس الأنظمة الاقتصادية الإسلامية، فقد كانت المعايير المستعملة للوزن والكيل والقياس مصنوعة، إما من النحاس، أو الحجر، أو الرصاص، أو الزجاج، وقد وُجدت عينات منها في غاو، وأشكالها ليست في حالة صنعة دقيقة، مما يحمل على الاعتقاد بأن المراقبة الحكومية لها، ليست على مستوى مرموق أو أنها لم تكن موجودة أصلا⁽³⁾.

ففي الموازين: استعمل المثلث (70 حبة قمح متوسط)، والأوقية (25.5 غ)، والوزنة (ستة مثاقيل وثلاثين)، والسرة (15 وزنة أي 100 مثقال)⁽⁴⁾.

وفي المكاييل: استعمل المد (0.75 لتر)، والصاع (3 لتر)، والقنطار (100 رطل)، والمودي (ما يحمله العبد في كيس من الجلد وهو المزود)⁽⁵⁾.

أما في المقاييس: استعمل الشبر (21.5 سم)، والذراع (50 سم)، والميل (1920 م)، والفرسخ (ثلاثة أميال)، والبريد (مسافة سير ساعة على الحصان).

⁽¹⁾ فوج: المرجع السابق، ص 84.

⁽²⁾ الزيري: المرجع السابق، ص 165-166.

⁽³⁾ زبادة: مملكة سنغاي...، المرجع السابق، ص 201.

⁽⁴⁾ الزيري: المرجع نفسه، ص 167.

⁽⁵⁾ بوعزيز: تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص 152.

ويقدم لنا الباحث المنور مروش جدولاً يحتوي على المقاييس والموازين والمكاييل كما حددتها الإدارة الفرنسية بعد سنة 1830م تبعاً لما جرى به العمل في الجزائر منذ قرون، نقلاً من كتاب نُشر سنة 1834م بالجزائر ألفه جنتي دي بوسي (Genty de Bussy) المدير المدني لإيالة الجزائر⁽¹⁾.

1. الموازين:

التسمية	الوزن بالغمات	الإستعمال
قيراط	(4 حبات قياسية) 0.207 غ	الأحجار الكريمة
مثقال	(24 حبة خروب) 4.669 غ	ذهب مصنوع، جواهر صافية، عطور.
رطل فضي	497.435 غ	قطع الذهب والفضة، نقود.
رطل عطاري (الأكثر تداولاً)	546.000 غ	بقالة، توابل، عقاقير، ... إلخ
رطل خضاري	614.340 غ	خضر، فواكه غير يابسة، حشائش.
رطل كبير	921.510 غ	عسل، زبدة، فواكه يابسة.

وينقسم الرطل إلى أوقيات لها أوزان مختلفة حسب نوعية المنتوجات، والقنطار على نوعين قنطار من 100 رطل، وقنطار من 150 رطل.

2. المكاييل:

التسمية	الحجم بالليترات	الإستعمال
صاع الجزائر	60	حبوب، ملح، خضر جافة.
قلة الجزائر	16	زيت، خل.

(¹) مروش: المرجع السابق، ص ص 408-409.

صاع عنابة	100	حبوب.
فنيقة وهران	102	حبوب.

3. المقاييس:

التسمية	الطول بالأمتار	الإستعمال
الذراع العربي	0.476 م	أنسجة قطنية، كتانية،... إلخ.
الذراع التركي	0.636 م	ملف، منسوجات حريرية، إلخ

هـ. الرسوم والضرائب:

لقد كانت تجارة القوافل العابرة للصحراء المحور المركزي لتمكين بلدان المغرب من تمثيل دور الوسيط في العلاقات الاقتصادية العالمية، ومن بناء تجارة عبور لا تنضب فوائدها. وإن المعلومات حول الرسوم والضرائب التي كانت تجنيها دول المغرب ومنها الجزائر من هذه التجارة قليلة، ولكن هذا ليس معناه أنها غير موجودة⁽¹⁾.

لقد كانت هذه التجارة مرحة إلى حد بعيد رغم الأتعاب واعتداءات اللصوص وقطاع الطرق والمشاق التي يتكبدتها التجار، الذين كانوا يدفعون ضرائب النقل في الذهاب والإياب حسب كفاءات مختلفة⁽²⁾. فمثلا كان التجار الجزائريون المسافرون من توات إلى تمبكتو يدفعون ما بين 12 و 24 مثقال ذهب لحمولة ثلاثة قناطر، أو 45 محبوب لحمولة 70 قطعة قماش مالطية تزن ثلاثة قناطر طرابلسية⁽³⁾، وهو ما يعادل 190 فرنك.

⁽¹⁾ بشار: المرجع السابق، ص16.

⁽²⁾ سيدهم: المرجع السابق، ص26.

⁽³⁾ القنطار الطرابلسي يزن 50 كلغ. أنظر: بوعزيز، تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص50.

ويتم الدفع على الشكل التالي:

خمسة محبوبات لتوارق الهقار، وعشرة محبوبات أونصف مثقال لعرب البرابيش. وبذلك فإن حمولة 150 كلغ من الجزائر إلى تمبكتو، تُكلف 380 فرنك، أي 250 فرنك لمائة كلغ⁽¹⁾.

وإلى جانب أسعار النقل يدفع التجار ضرائب الجمارك، حيث يذكر البكري أن ملك غانة كان يفرض على التجار القادمين من شمال إفريقيا إلى بلاده، دينار ذهب ضريبة على حمولة حمار من الملح، وديناران في إخراجهم، كما يأخذ على حمل النحاس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل⁽²⁾. أما المرحوم يحيى بوعزيز فيعطينا نماذج لما يدفعه التجار من ضرائب في الذهب والإياب على الشكل التالي:

- في غات: خلال الذهب 4.5 فرنك للحمولة، وخلال العودة 9 فرنك.

- في أغاديس: عشرون فرنك للحمولة.

- في كانو: خلال الذهب خمسة وعشرون فرنك للحمولة. وعشرون فرنكا في العودة.

- في زندر: خلال العودة: العاج وريش النعام عشرون فرنك للحمولة. والباقي عشرة فرنك للحمولة⁽³⁾.

إن تدهور الأوضاع الإقتصادية في أواخر العهد العثماني بالجزائر قد أدى إلى قلة الموارد المالية الداخلية والخارجية، فأصبحت خزانة البلاد تعاني عجزا ماليا، مما صعّب من مهمة الحكام في تسديد رواتب الجند، فكان الحكام يرون أن الحل الوحيد لتعويض هذا العجز هو الرفع من قيمة الضرائب المقررة على الأهالي، ولتحقيق هذا الهدف أطلق الدايات عنان الجبّاة في جمع الضرائب حتى أصبحت تُجمع دون مراعاة أية سياسة أوقانون⁽⁴⁾.

فقد كان يُفرض على التجار الذين يؤمّون الأسواق المحلية والجهوية دفع الرسم قبل الدخول إليها⁽⁵⁾. فمثلا كان يقف بمزاب أصحاب البضائع ويؤدون المكوس الجمركية عما تحمله جمالهم⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ بوعزيز: المرجع نفسه، ص 52.

⁽²⁾ البكري: المصدر السابق، ص 179.

⁽³⁾ بوعزيز، تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص ص 52-53.

⁽⁴⁾ شويتام: نهاية الحكم... المرجع السابق، ص 35.

⁽⁵⁾ الزيري: المرجع السابق، ص ص 64-65.

⁽⁶⁾ مارمول: المصدر السابق، ص 164.

ومن جهة أخرى، فإن التجار المزابيين وغيرهم كانوا يدفعون ضريبة جمركية لبابلك التيطري عند خروج قوافلهم من المدينة، حددت بمحسوب واحد⁽¹⁾ على حمولة كل بعير، ونصف سلطاني⁽²⁾ على حمولة كل بغل، وبوجو واحد⁽³⁾ على حمولة كل حمار⁽⁴⁾.

لقد كانت الإدارة التركية تُعيّن على كل سوق قائد لاستخلاص رسوم المكوس وتنظيم جبايتها، وتقدر هذه الرسوم بـ 10% من ثمن البضاعة الداخلة للسوق، فقنطار الكتان كان رسمه 25 درهم، وحمل التمر 50 درهم، وكذلك يدفع عن حمل الزيتون. أما قنطار الأرز فيدفع عنه 20 درهم. وتعتبر إجراءات رسوم الأسواق وسيلة هامة لاستخلاص الضرائب من المناطق المستعصية على نفوذ البابلك. وقد التجأ الحكام إلى هذه الوسيلة لتشديد المراقبة على الأقاليم النائية، وهي عامل أساسي في إشعار الأهالي بوجود سلطة مركزية ذات تأثير قوي في الحياة الاقتصادية. وبزيادة الضرائب في القرن الثامن عشر الميلادي بعدما انكمشت موارد القرصنة اضطرت القبيلة للبحث لها عن قوة جديدة تلتف حولها لتحميها، فوجدت هذه القوة في الطرق الصوفية التي يتألف أتباعها من عشرات القبائل. وكان هذا التعسف في جمع الضرائب من العوامل التي زادت من فقر الفلاح وسوء أحواله المعيشية. ولا أدل على هذه الوضعية من رسالة ابن الشريف الدرقاوي⁽⁵⁾ إلى مبعوث سلطان المغرب يشكو فيها ما نال الفقراء والمنتسبين إلى طريقتة وسائر الرعية من تعسف الحكام الأتراك وجورهم⁽⁶⁾.

لقد واصل التجار المغاربية والجزائريون نشاطهم التجاري التقليدي رغم الصعوبات التي كانت تواجههم من عدة أطراف، بسبب الأرباح التي كانوا يحصلون عليها من تجارة القوافل عبر الصحراء. إلا

⁽¹⁾ تُدّر في عام 1867م المحبوب بـ 4.05 فرنك فرنسي. أنظر الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 56

⁽²⁾ تُدّر نصف سلطاني سنة 1867م بـ 2.75 فرنك. أنظر: الحاج سعيد، نفسه، ص 56.

⁽³⁾ تُدّر البوجو عام 1867م بـ 1.80 فرنك. أنظر: نفسه، ص 56.

⁽⁴⁾ نفسه، ص 56.

⁽⁵⁾ الشيخ عبد القادر بن شريف: هو مقدم الطريقة الدرقاوية في مدينة وهران ونواحيها، أيد الثورة الدينية التي أعلنها شيخه محمد العربي المقيم بالمغرب الأقصى سنة 1219هـ/1805م ضد الحكم العثماني في الغرب الجزائري، والتي شملت مناطق عديدة وهددت الوجود العثماني بالجزائر، إنتهت بانحزام الدرقاويين بعد عدة مواجهات عنيفة. أنظر: أبو راس الناصري الجزائري(ت: 1823م): عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج 1، دراسة وتحقيق: محمد بوركبة، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، طبع: م.و.ف.م (ENAG)، الرغاية، الجزائر، 2011م، ص ص 27-28.

⁽⁶⁾ سيدهم: المرجع السابق، ص 26.

أن اختراق الدول الأوروبية للعلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء الشمالية والجنوبية قد أدى إلى تغيير في هذه العلاقات خاصة بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر.

تُرى هل تلاشت تجارة القوافل العابرة للصحراء بفعل التحولات التي طرأت على التجارة التقليدية ؟ أم تفاعل هؤلاء التجار مع المستجدات التي طرأت على المنطقتين؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الفصل الأخير.

خلاصة الفصل:

نستخلص من هذا الفصل أن العلاقات التجارية بين المراكز التجارية بالجزائر من جهة ومثيلاتها في إفريقيا جنوب الصحراء، كانت قديمة. لكنها عرفت الإزدهار والتطور بداية من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، فاشتهرت عدة مراكز على جانبي الصحراء الكبرى مثل: الجزائر، وتلمسان، ووهران، وقسنطينة، ومزاب، وورقلة، وبسكرة، وتوات. أما من الجانب الآخر فنجد مدن: أغاديس، جني، تمبكتو، غاو، تاكدا، تغازي، أودغست، تادمكة وغيرها. والتي زيادة على دورها التجاري كانت تؤدي دورا ثقافيا مهما، يساعد على تقوية الروابط بين الأهالي فيما بينهم من جهة، وبين التجار الجزائريين والأفارقة من جهة أخرى.

أما عن السلع والبضائع المتبادلة بين الجانبين فتشير أغلب المصادر إلى كثرتها وتنوعها. فعلى سبيل الذكر لا الحصر، كانت الجزائر تصدر إلى تلك المناطق: الحبوب، والزيوت، والتمور، والملح، والأقمشة الصوفية والحريية، والمرجان، والأسلحة، والبارود، إضافة إلى الكتب والمخطوطات التي كانت بمدينة تمبكتو سوقا رائجا لها. كما لا ننسى السلع التي كان مصدرها أوروبا كالكهوه والشاي والسكر. أما عن أهم واردات الجزائر من إفريقيا جنوب الصحراء فهي بلا منازع الذهب والعييد، حيث كان الذهب بنوعيه الخالص والتبر من المواد ذات الأهمية في حجم المبادلات التجارية الإقليمية والعالمية. علما أن أصحاب القوافل التجارية ما كانوا ليغامروا في الصحراء الكبرى لولا وجود هذه المادة النفيسة، التي كانت تجلب للتجار أرباحا طائلة، تنسيهم بسرعة ما يلاقونه من مشاق ومخاطر أثناء تنقلاتهم وأسفارهم في أعماق الصحراء.

أما عن العبيد فقد عرفت الجزائر خلال العهد العثماني رواج تجارة العبيد الذين كانوا يستوردون من إفريقيا السمراء بواسطة أسواق توات وقورارة، وكانت هذه التجارة سببا في تنشيط الإقتصاد بالجزائر خاصة والمغرب العربي عامة، فبالإضافة إلى فوائدهم التجارية كبضاعة فإن العبيد كانوا يستعملون في بعض الصناعات، كما يتخذون خدما لدى العائلات الجزائرية الموسرة في الشمال، أما بالجنوب فقد كانوا يشتغلون بالفلاحة والسقي، وقد استقر عدد معتبر منهم في بعض الواحات الصحراوية كوادي سوف. وقد تطرقت بعد ذلك إلى المعاملات التجارية بالأسواق الجزائرية والسودانية، متحدثا عن طرق التبادل التجاري التي كانت سائدة في ذلك العهد. مثل المقايضة، والبيع والشراء بالعملة. أما عن العملات التي كانت سائدة بالجزائر في العهد العثماني نجد الدينار السلطاني الذهبي، والدرهم الفضي، كما تواصل التعامل بالدينار الذهبي الزباني. والملاحظ أن كل هذه العملات لم تكن قيمتها ثابتة بسبب تدخل حكام الجزائر من حين إلى آخر برفع قيمتها أو خفضها حسب الظروف

والأحوال. علما أنه إلى جانب هذه العملات الوطنية كانت تتداول في أسواق الجزائر بعض العملات الأجنبية، سواء منها الإسلامية كالريال التونسي والروبية المغربية، أو الأوروبية كالفرنك الفرنسي والريال الإسباني.

وفيما يخص أسعار البضائع المتبادلة بين الطرفين، فقد كان يتم الإتفاق على ذلك حسب أحوال السوق والظروف الإقتصادية السائدة حينئذ، سواء في الجزائر أو بلاد السودان. لقد كانت هذه السلع والبضائع المتبادلة بين جانبي الصحراء تتم حسب موازين ومكاييل ومقاييس معروفة ومتعارف عليها في ذلك العصر، فمن الموازين نجد: المثلقال، والقيراط، والرطل، والكيل كان يتم باستعمال المد، والصاع، والقنطار، أما في قياس الأطوال فيستعمل الشبر، والذراع، والميل، والفرسخ.

كما أشرنا إلى بعض الرسوم والضرائب التي كانت القوافل التجارية مجبرة على دفعها لتأمين بضائعها وضمان أمنها، وإلا تعرضت للنهب من عدة أطراف تتحكم في هذه المسالك خاصة الصحراوية منها. من أشهرها التوارق والبرابيش، كما كانت بعض الحكومات المحلية ببلاد السودان تفرض بعض الضرائب على القوافل أثناء دخول أراضيها وحتى أثناء مغادرة هذه القوافل لتراجها. أما في الجزائر فقد فرضت الدولة في المناطق التي تسيطر عليها على البضائع الداخلة إلى الأسواق رسوم تصل إلى 10% من ثمنها، وكانت هذه الإجراءات وسيلة هامة لاستخلاص الضرائب من المناطق المستعصية على نفوذ البايك، وعامل أساسي في إشعار السكان بوجود سلطة مركزية ذات تأثير قوي على الحياة الإقتصادية. ومع تدهور الأوضاع الإقتصادية في أواخر العهد العثماني بالجزائر، ارتفعت قيمة هذه الرسوم والضرائب وتنوعت، سواء المفروضة على تجار القوافل أو الأهالي لتعويض عجز خزانة الدولة جراء قلة الموارد المالية دون مراعاة أية سياسة أو قانون، مما نتج عنه قيام انتفاضات وثورات في مناطق عديدة من الجزائر كثورة ابن الأحرش وثورة الدرقاوي.

الفصل الرابع

الإختراق الأوروبي للعلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء وتطور الإهتمام
الفرنسي (1845-1900م)

أولاً: لمحة عن حركة الكشوف الأوروبية في الصحراء الإفريقية الكبرى.

ثانياً: واقع التجارة الداخلية والخارجية.

ثالثاً: نتائج وانعكاسات السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية وإفريقيا جنوب الصحراء

الفصل الرابع

الإختراق الأوروبي للعلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء وتطور الإهتمام

الفرنسي (1845-1900م)

أولاً: حركة الكشوف الأوروبية في إفريقيا.

تمهيد:

لم تكن للأوروبيين قديماً علاقة بإفريقيا إلا عن طريق سواحل البحر الأبيض المتوسط، وكانوا يطمحون إلى الإقتراب من مصادر السلع التي تُجلب إلى شمال إفريقيا من إفريقيا جنوب الصحراء خاصة الذهب⁽¹⁾، كما كانوا يتطلعون إلى اكتشاف طريق أقصر للوصول إلى الهند⁽²⁾. يدفعهم إلى ذلك استيلاء العثمانيين على المراكز التجارية لجنوة والبندقية في البحر الأسود والمتوسط، وفرضهم لضرائب باهضة، مما صعب من تجارة التوابل وزاد من تكاليف أثمانها⁽³⁾.

وبدافع الحاجة هذا انطلق البحارة المستكشفون يمخرون المحيط الأطلسي، فشهدت شواطئ إفريقيا موجات متعاقبة من البرتغاليين والإسبان والهولنديين والفرنسيين والإنجليز وغيرهم، الذين كانوا يتنافسون في سباق محموم على استغلال خيرات إفريقيا. ولعل أول محاولة أوروبية للوصول إلى المناطق الواقعة جنوب المغرب الأقصى، كانت هي رحلة الأخوين فيفالدي (VIVALDI) من جنوة، اللذان حاولا الوصول إلى ري ودي أرو (وادي الذهب) سنة 1291م، ولكن غابت أخبارهما منذ ذلك الحين⁽⁴⁾

إلا أنه ومع نهاية القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي وقع حدثين كبيرين، أحدهما يُكمل الآخر، وهما اكتشاف الرحالة المغامر كريستوف كولومبس للعالم الجديد سنة 1492م، واكتشاف فاسكو دا جاما لطريق الهند حول القارة الإفريقية عبر رأس الرجاء الصالح سنة 1499م،

⁽¹⁾ لاشك أنه كان لشهرة مملكة مالي، وانتشار أخبار موكب السلطان موسى (الذي سافر عام 1324م لأداء فريضة الحج

في موكب ضخيم) في أوروبا آثار ضخمة، وبخاصة في وقت كان الأوروبيون يحاولون معرفة القارة الإفريقية وإمكاناتها الإقتصادية. أنظر: جلال يحيى: أوروبا في العصور الحديثة، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، المطبعة العصرية، الإسكندرية، مصر، 1981م، ص 44.

⁽²⁾ الخليل النحوي: إفريقيا المسلمة الهوية الضائعة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1993م، ص 86.

⁽³⁾ يحيى: المرجع نفسه، ص 190-191.

⁽⁴⁾ زيادية: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص 63، الهامش رقم (15).

وفي نفس الفترة تقريبا تحوّل ليون الإفريقي (الحسن الوزان) في أعماق إفريقيا وعرّف لأوروبا المناطق التي زارها⁽¹⁾.

وهكذا تواصلت المحاولات الأوروبية بعد ذلك، حيث اكتشفوا الأرض الإفريقية التي كانوا يجهلونها، وأقاموا لهم مراكز تجارية موسمية، ثم قارّة على سواحل موريطانيا وإفريقيا الغربية، وتوغّلوا في بعض البلدان، فأقاموا لهم مراكز في أعماق البر الإفريقي⁽²⁾.

فالقرنان التاسع والعاشر الهجريين/ الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين، يُمثّلان منعطفًا ليس في تاريخ القارة الإفريقية فقط، وإنما أيضًا في التاريخ العام للمعمورة، فقد بدأ معها عهد جديد (أي بداية تفوق الأوروبيين وتوسعهم)، بأتم معنى الكلمة، بالنسبة إلى البشرية فـ "الكرافيل" المرنة، وأشرعتها التي يسهل التحكم فيها، والبوصلة قد جعلت من أوروبا سيدة البحار، ومتحكمة في النظام الإقتصادي العالمي برمته⁽³⁾.

أ. بدايات التوغل الأوروبي في إفريقيا:

1. التوغل البرتغالي:

ظهرت البرتغال كدولة منذ أوائل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وكونت لنفسها أسطولًا بحريًا، وشرعت في تكوين إمبراطورية واسعة لها خارج أوروبا، وافتتح هنري الملاح⁽⁴⁾ نشاطها الإستعماري بمحاولة السيطرة على موانئ المغرب الأقصى الأطلسية، واستكشاف شواطئ غرب إفريقيا إلى مصب نهر السنيغال، وجزر الرأس الأخضر. وبعده برز ديوغو كام، وواصل نفس خطه، واجتاز خط الإستواء إلى مصب نهر الكونغو، ثم برز بارنليميو دياز، الذي اقتفى أثر سابقه، وتمكن من الوصول إلى رأس الرجاء الصالح بأقصى جنوب القارة الإفريقية. وقام بعده فاسكو دا جاما، بالدوران حول القارة الإفريقية، بمساعدة الملاح المسلم ابن ماجد، الذي أوصله إلى سواحل الهند الغربية بلاد التوابل والبهارات⁽⁵⁾.

(1).Rozet et carette: Algerie, 2éd, Bouslama, Tunis, 1980 , pp293-294

⁽²⁾ النحوي: المرجع السابق، ص86.

⁽³⁾ نياني: المرجع السابق، ص671.

⁽⁴⁾ هنري الملاح (1394-1460م): هو ابن الملك جون الأول ملك البرتغال، كان منذ صغره مولعا بركوب البحر

والمغامرة.

⁽⁵⁾ بوعزيز: تاريخ إفريقيا ...، المرجع السابق، ص66-67.

لذا يعتبر البرتغاليون أول الأوروبيين الذين تعرفوا على الشعوب الإفريقية، تدفعهم المطامع الإستعمارية، مستترين وراء نشر الدين المسيحي⁽¹⁾. فقد اتصلوا ببعض الأفارقة الوثنيين الساكنين على حافة المحيط، ساعين لربط علاقات تجارية معهم⁽²⁾، ونجحوا منذ القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي في إقامة مراكز تجارية ساحلية لهم في المنطقة المسماة حاليا فيلا سيسنيروس (villa cisneros)، والتي كانت تجذب إليها الجزء الأكبر من تجارة ذهب إفريقيا السمراء، والذي يُنقل من هناك بالقوافل عبر الصحراء الكبرى نحو بلدان إفريقيا الشمالية⁽³⁾. كما اكتشفوا سنة 1471م منجم للذهب في غانا الحالية والتي أصبحت تسمى ساحل الذهب⁽⁴⁾.

2. التوغل الإيطالي:

أما الجمهوريات الإيطالية فإنها ما انفكت تطمح إلى الإتصال بمالي الغنية عن طريق بلدان المغرب، ففي سنة 1447م حاول الرحالة الجنوبي مالفانت (Malvant) الوصول إلى تمبكتو عن طريق توات بجنوب الجزائر، ولكنه لم يتمكن من ذلك، فبقي أياما في تلك الواحة ثم عاد إلى بلاده. لذا لم تنجح إيطاليا في ربط تعاون تجاري مع إفريقيا والإستفادة من ثروة الذهب بها. وقد سجل هذا الرحالة في مذكراته تلهف الجمهوريات الإيطالية للإتصال بمالي والتعاون معها، وذلك لما اشتهرت به من غنى وذهب كثير⁽⁵⁾.

3. التوغل الإسباني:

إن سقوط غرناطة سنة 1492م، قد عجل بانطلاق الطاقات الإسبانية نحو مغامرات ما وراء البحار، ونظرا لقرب إفريقيا الشديد منها فقد كانت الإختيار المنطقي الأول في هذه الإستراتيجية⁽⁶⁾.

4. التوغل الفرنسي:

(1) كانت سفن هنري الملاح عند وصلها إلى سواحل غرب إفريقيا سنة 1420م تحمل العلامات الكبيرة المميزة للصليب.

أنظر: عثمان برايمباري: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي، دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1421هـ/2000م، ص ص 49-50.

(2) الوزان: المصدر السابق، ص 77.

(3) Bruno verlet: op.cit, pp 53-54.

(4) R et M.Cornevin:op.cit, p186.

(5) زيادة: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص 19، هامش رقم (3). يُقال أن مالفانت طالت إقامته بإقليم توات (حوالي

سنتين) جامعا معلومات كثيرة حول الإقليم والمناطق القريبة منه، وعن التجارة الصحراوية عامة، وتجارة الذهب خاصة. لأكثر

معلومات أنظر: مبارك بن الصافي جعفري: العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ/18م، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 1430هـ/2009م، ص 102.

(6) هلايلي: المرجع السابق، ص 124.

يرجع أول اتصال لفرنسا بغرب إفريقيا إلى ما قبل القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي، وبدأت نشاطها الإستعماري هناك بإقامة مراكز ومحطات تجارية للإتجار بالعبيد، واستخدامهم في الحروب. وكانت مراكزها الرئيسية الأولى بالسنغال، وأهمها مركز سان لوي قرب مصب نهر السنغال الذي اتخذته التجار الفرنسيون قاعدة لنشاطهم التجاري، وبالتالي التسلسل إلى دواخل القارة، بحثا عن المعادن، والعاج، والعبيد وتصديرهم إلى أسواق أمريكا الشمالية⁽¹⁾.

لذا فقد اهتمت الجمهورية الفرنسية الثانية بالتفاوض مع القبائل الإفريقية وزعمائها لتنظيم التبادل التجاري بين الطرفين، وإنشاء المراكز التجارية بين السنغال والنيجر، وعقد عدة معاهدات مع زعماء القبائل من أجل ضمان حماية المراكز الفرنسية هناك⁽²⁾.

5. التوغل البريطاني:

لم تظهر بريطانيا على مسرح الأحداث إلا في القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، حيث وصل المغامرون الإنجليز إلى سواحل غرب إفريقيا، وأنشأوا عدة مراكز تجارية هناك، واكتفوا بالتمركز في المناطق الساحلية بينما كان الفرنسيون يتغلغلون إلى الداخل، وبعد ذلك تمكنوا من الإستقرار في بعض الجيوب، كنيجيريا⁽³⁾، وساحل الذهب (غانا حاليا)، وغامبيا، وسيراليون⁽⁴⁾.

ب. أوروبا وتجارة العبيد:

إن البرتغاليين هم أول من دشّنوا عصر النحاسية الجديدة سنة 1442م، حيث كانوا يختطفون الأفارقة من الأماكن البعيدة لبيعهم في أوروبا، فحوّلوا من أجل ذلك سواحل نيجيريا وجزر نادوناو، وساوتومي في خليج بياfra إلى مستودعات للإتجار بأبناء إفريقيا⁽⁵⁾. وفي سنة 1454م شرّع البابا نيكولاس الخامس (Nicolas 5) سيطرة البرتغاليين على الشواطئ الإفريقية، مباركا بذلك تجارة الرقيق التي لم تلبث إسبانيا أن بدأت تنافس البرتغال عليها⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ بوعزيز: تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص41.

⁽²⁾ بوعزيز: نفسه، ص ص41-42.

⁽³⁾ بدأت صلة الإنجليز بنيجيريا منذ عام 1780م عندما قدم إليها المغامر الإنجليزي مونغو بارك، بدعوى الإستكشاف والتعرف على حوض النيجر، وبعده أخذ المغامرون الإنجليز يقيمون مراكز تجارية لهم في المدن والموانئ الساحلية، ثم تراجعت الشركات الإنجليزية على استغلال إمكانات نيجيريا الاقتصادية الضخمة. أنظر: بوعزيز، تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص60.

⁽⁴⁾ بوعزيز: نفسه، ص ص59-60.

⁽⁵⁾ نفسه، ص ص67.

⁽⁶⁾ النحوي: المرجع السابق، ص87.

أما بريطانيا فاهتمامها بتجارة الرقيق بدأ في منتصف القرن السادس عشر ميلادي⁽¹⁾، عندما تولى قائدها البحري سيرجون هوكنز (1532-1592م) تجارة الرقيق لصالحها مما جعله يجوز وسام التقدير ومكافأة مالية من ملكة بريطانيا إليزابيث الأولى⁽²⁾.

ج. أوروبا واستكشاف الصحراء الكبرى

تعتبر الصحراء الإفريقية الكبرى بما فيها الصحراء الجزائرية، قلب العالم نظرا لما تحتله من موقع استراتيجي - جغرافي - وسطي هام، فهي بمثابة جسر عالمي يربط الأجزاء المختلفة شمالا وجنوبا، شرقا وغربا، لهذا اهتم بها الأوروبيون منذ أن خرجوا من قارتهم في العصر الحديث في إطار ما يسمى بحركة الكشوفات الجغرافية، تمهيدا لحركة التوسع الإستعماري الأوروبي فيما وراء البحار، وأرادوا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين/الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين كشف أسرارها ومعرفة أغوارها، إعتمادا في البداية على ما كتبه الرحالة المسلمين⁽³⁾. فبدأ يتوافد عليها المغامرون ضمن حركة الإستكشاف، فقد ظلت الصحراء الإفريقية طيلة قرون عديدة مجهولة لديهم، ولم يقدم الرحالة القدماء الإغريق والرومان إلا معلومات ضئيلة ومحدودة⁽⁴⁾.

ومن بين الأوروبيين الذين حاولوا التعرف على الصحراء وطرق القوافل القديمة، نذكر:

كودراي(Coudray)، والراهب بارجيس (l'abbé Bargés)، وإدوارد بلان (Edouard Blanc)، وغيرهم⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ لقد تضمن السجل الأمريكي الخاص بتجارة الرقيق في إفريقيا ما يشير إلى قيام الإمبراطورية البريطانية في الفترة ما بين 1680 و1700م بنقل حوالي 300 ألف شخص من إفريقيا. أنظر: برايم، المرجع السابق، ص 50-51.

⁽²⁾ برايم: المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

⁽³⁾ أول من تعرف على الصحراء الكبرى هم الرحالة والمؤرخين المسلمين، الذين جابوها طولا وعرضا، وذكروا معالمها وظروفها السياسية والحضارية في كتبهم أمثال: ابن حوقل (ق 10م)، والبكري (ق 11م)، والإديسي (ق 12م)، وكذلك ابن خلدون، وابن بطوطة (ق 14م)، هذا الأخير الذي توغل داخل بلاد السودان في رحلته الثالثة، وسجل لنا ما لاحظته، كما قام الرحالة الحسن الوزان برحلة إلى الصحراء (ق 16م)، قدم من خلالها معلومات هامة عن هذه البقاع. كما سلك العياشي (ق 17م) في ذهابه إلى الحج وإيابه الطرق الصحراوية بالجزائر، إنطلاقا من سجلماسة، وسجل لنا ملاحظاته حول هذه المناطق في كتابه "ماء الموارد". أنظر: مياسي، المرجع السابق، ص 23-24. وكذلك بوعزيز: تاريخ إفريقيا...، المرجع السابق، ص 40.

وبلحميسي: المرجع السابق، ص 12 وما يليها.

⁽⁴⁾ مياسي: المرجع نفسه، ص 23.

⁽⁵⁾ بوعزيز: المرجع نفسه، ص 40.

البعثات الاستكشافية قبل احتلال الجزائر:

أدت التجارة العابرة للصحراء دورا كبيرا في ربط علاقات قوية بين سكان ضفتي الصحراء الإفريقية الكبرى، وقد استهوى هذا النشاط التجاري الواسع والمزدهر الدول الأوروبية، فعزمت على استكشاف الصحراء لاستغلالها، فاهتم الأوروبيون عامة والإنجليز خاصة بمعرفة الطرق الصحراوية وتتبع منابع الأنهار الإفريقية، كالنيل والنيجر وغامبيا وغيرها، وأسسوا لهذا الغرض الجمعية الإفريقية (The African Association)، عام 1788م، وقد قامت هذه الأخيرة في البداية بإرسال ثلاثة من الرحالين وهم: الألماني "فردريك هورنمان (Frédéric HorneMann)"، و"لوكاس (Luckas)"، و"ليدبارد (Lund Bard)"، في رحلات متتابعة تحت رعايتها⁽¹⁾، ولكنهم ماتوا جميعا، إما بسبب الأمراض أو قتلوا⁽²⁾.

واتجهت أنظار الجمعية الإفريقية بعد هذه المحاولة الفاشلة إلى نهر غامبيا للشروع في إرسال البعثات من هذه الناحية، لأن البريطانيين كانوا قد أسسوا بها بعض المراكز التجارية منذ 1730م، أين أقاموا لهم سلطة بريطانية بمساعدة جماعة من الجنود الوطنيين.

1.1 - بعثة الميجر "هيوتون" (Hiouton):

أرسل الميجر "هيوتون" (Hiouton) الذي كان قنصلا في مراكش فبدأ رحلته سنة 1790م من مصب نهر غامبيا وتوغل نحو الداخل إلا أن أخباره انقطعت إلى الأبد.

(1) كانت هذه الجمعيات تتمتع بإعانات مالية من الحكومات الأوروبية خاصة الفرنسية، كما تُقدّم هي بدورها مكافآت مغرية للمغامرين لاكتشاف مجاهيل إفريقيا ومنها الصحراء الجزائرية، وكان التنافس على أشده بين هؤلاء، فيروي جيهارد رولفس الألماني قائلا: "...أسرع السير لأسبق المنافسين لي، أنا متأكد من وجود فرنسي يريد الذهاب إلى السنغال عبر الجزائر، يدور كلام في العاصمة بوجود مهندس (Géometre) ينوي بمهذ المهمة القيام... كما تقدم مني مهندس معماري في مدينة الجزائر، واقتَرَح عليّ مرافقته لي في السفر على شرط الحصول على نصف المنحة...". أنظر: op.cit.,p82-83 .G.Rohlf's :

(2) إبراهيم مياسي: "الصحراء الجزائرية من خلال الاستكشافات قبل وبعد الإحتلال"، مقال نشر في مجلة المصادر، ع 12، إصدار: م. د. ح. ث. أ. 1954م، الأبيار، الجزائر، السادس الثاني، 2005م، ص ص 42-43. وأيضا عميراي وآخرون: السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص 20.

1.2 - بعثة "مونغو بارك" (Mongo Parco)⁽¹⁾:

بعد "هيوتون" وقع اختيار الجمعية على الرحالة الأسكتلندي "مونغو بارك" الذي كانت مهمته تنحصر في التعرف على مجرى نهر النيجر⁽²⁾ وتتبعه إلى مصبه. وصل "بارك" إلى ساحل غامبيا سنة (1210هـ / 1795م)، حيث مكث خمسة أشهر تعلم خلال هذه المدة لغة "الماندينغ"⁽³⁾، وفي شهر ديسمبر بدأ رحلته، حيث وصل في بداية سنة 1796م إلى "دنيا"، أين تعرض "بارك" ومرافقيه إلى هجوم قطاع الطرق الذين سلبوا منهم جميع أمتعتهم⁽⁴⁾. لم يستسلم للأمر الواقع فعزم في مارس من نفس السنة على الوصول إلى نهر النيجر مع خادمه ولكنه وقع في أسر تجار العبيد الذين حجزوه مدة تقارب الأربعة أشهر، استطاع بعدها أن يفر، وبعد عدة أيام قضاها في الفيافي دخل إلى سلطنة "البامبارا (Bambara)"، ومنها وصل في جوان 1796م إلى مدينة "سيغو" على نهر النيجر حيث شاهد وتأكد من أن النهر ينساب نحو الشرق، واضعا حدا لنقطة كانت مصدر خلاف بين الجغرافيين، وقد مكث بها حتى فرييل 1797م⁽⁵⁾.

بعد سبعة أشهر غادر "بارك" بلاد "الماندينغ" مع قافلة متجهة إلى "غامبيا"، وفي الثاني من شهر ديسمبر من السنة نفسها أبحر إلى إنكلترا، حيث ألف كتابا حول رحلته ضمّنه حقائق جغرافية وحضارية عن إفريقيا وسكانها خاصة قبائل "الماندينغ" التي سجل ثقافتهم وطقوسهم وعاداتهم، كما سجل أيضا كيفية بيع العبيد وتداول الذهب والعاج والجواهر الثمينة، حاثا الحكومة البريطانية على

⁽¹⁾ مونغو بارك: جراح أسكتلندي كان يهوى الأسفار، قام بعدة رحلات في جزر الهند الشرقية، وانضم إلى الرابطة الإفريقية التي تأسست سنة (1203هـ/1799م) لاكتشاف إفريقيا الداخلية. أنظر: حوتية، توات والأزواد ، المرجع السابق، ج 2، ص438، الهامش رقم(2). وكذلك صورته في الملحق رقم(20).

⁽²⁾ نهر النيجر: هو ثالث أنهار إفريقيا، وهو يمتد في غربها على شكل قوس يتجه إلى الجنوب الغربي حتى الشمال الشرقي، ثم يتجه من جديد تجاه الجنوب الشرقي حتى ينتهي عند المصب بدلتا كثيرة الفروع، وقد ظلت مشكلة نهر النيجر قائمة حتى القرن الثامن عشر (18م)، فقد اهتمت الجمعية الجغرافية بإظهار حقيقة هذا الأمر، لذا اتخذت لها بعض المراكز قرب غامبيا على الساحل الغربي الإفريقي، لهذا فقد اتجهت الأنظار لا تحاذ هذه المنطقة كنقطة انطلاق للداخل. أنظر حوتية: توات والأزواد...، المرجع السابق، ص439، الهامش رقم(1). وانظر أيضا صورة النهر في الملحق رقم(25).

⁽³⁾ قبيلة الماندينغ: هي إحدى القبائل القوية التي تعيش في الداخل وتدين بالدين الإسلامي الحنيف. أنظر: مياسي، الصحراء الجزائرية...، المرجع السابق، ص43.

⁽⁴⁾ حوتية: المرجع نفسه، ص438.

⁽⁵⁾ مياسي: المرجع نفسه، ص44-45. أنظر صورته في الملحق رقم(20).

التدخل بقوة في الصحراء الإفريقية لسيط نفوذها واحتلال هذه المناطق حتى تستحوذ على خيراتها، كما صحح عدة مفاهيم خاطئة رسخت في الذهنية الأوروبية عن إفريقيا بكونها بلاد الوحوش⁽¹⁾.

لقد ترك كتاب "بارك" إنطباعا حسنا وصدى واسعا ونال شهرة كبيرة لدى الحكومات الأوروبية وخاصة الفرنسية التي كانت تتابع تحركاته باهتمام لتنافس بريطانيا، لذا اتصلت به من أجل تدعيم مشروعه وتقديم يد المساعدة له لرحلته الثانية.

1.3 - بعثة غوردن لانغ (Gordon Lang)⁽²⁾:

لقد اتصلت الجمعية الإفريقية أيضا في هذه الفترة بـ "غوردن لانغ" وطلبت منه أن يلتحق بمدينة تمبكتو لكي ينضم إلى بعثة "كلابرتون"⁽³⁾ الموجودة في سوكونو، لذلك غادر "لانغ" لندن سنة (1241هـ/1825م) متجها إلى طرابلس، وبعد دراسة المشروع دراسة مستفيضة، إنطلق في جويلية من نفس السنة مع الشيخ "باباني" الذي يتمتع بمركز ديني هام في طرابلس ليحميه من تحرشات المعتدين، لكن وفي منتصف الطريق تقريبا بين طرابلس وتمبكتو هاجمه التوارق وجرحوه جروحا بليغة، ونهبوا متاعه، لكن الشيخ باباني أنقذه من الهلاك وأسعفه بعد أن نقله إلى قبيلة من أصول عربية، حيث مكث "لانغ" هناك ثلاثة أشهر يداوي جراحه، ورغم أنه لم يتمثل تماما إلى الشفاء إلا أنه قرر مواصلة رحلته صوب تمبكتو خوفا من الأمراض المتفشية بين أفراد هذه القبيلة التي استضافته⁽⁴⁾.

وصل المغامر البريطاني إلى تمبكتو ودخلها يوم 18 أوت 1826م، لكنه غادرها بسرعة لكونه مسيحيا غير مرغوب فيه من جهة، واعتقد التمبكتيون أنه من الجواسيس الذين يكشفون أسرارهم ويقدمونها لقوات أجنبية معادية من جهة أخرى. لكن ما إن انضم للقافلة المغادرة للمدينة وقبل انطلاقها قتله قائد القافلة، وأحرق جميع أوراقه ومذكراته ولم يصل منها شيء إلى أوروبا. ويبدو أن قتله

⁽¹⁾ أنظر الصورة التي رسمها "بارك" لحظة وصول القافلة إلى السنغال، الملحق رقم(3).

⁽²⁾ غوردون لانغ: نقيب في الجيش البريطاني اشتهر برحلاته الإستكشافية ومغامراته داخل إفريقيا، أين كان مكلفا بمهمة في سيراليون ضمن صفوف الجيش البريطاني لعقد معاهدة سلام مع قادة القبائل الإفريقية سنة 1820م. أنظر: إبراهيم مياسي: "الإهتمام الفرنسي بالصحراء"، مقال نشر في كتاب طريق القوافل، طبع: مطابع عمارقري، باتنة، نشر: م. و.ب.ع.ق.ت.ع.إ.ت، الجزائر، 2001م، ص83. وأيضا حوتية: توات والأزواد...، المرجع السابق، ص 434. وانظر أيضا خط سيره في رحلته في الملحق رقم(20).

⁽³⁾ مياسي، المرجع نفسه، ص83..

⁽⁴⁾ مياسي: "الإهتمام الفرنسي بالصحراء"، المرجع السابق، ص83.

وحرق متاعه كان بسبب اكتشاف مرضه الخطير الذي يمكنه أن يتفشى بين مسافري القافلة، وهكذا بقيت مدينة تمبكتو مجهولة لدى الأوروبيين حتى جاء المغامر الفرنسي رونييه كاييه⁽¹⁾.

1.4 - بعثة رونييه كاييه (René Caillé)⁽²⁾:

إنضم إلى البعثة التي نظمها النقيب "غراي" (Gray) في غرب إفريقيا لكنه فشل، لذلك اتجه إلى غوادلوب في جزر الأنتيل، بعد عامين رجع إلى السنغال ليلتحق بالرحلة المتوجهة إلى بعثة "غراي"، ولكنها توقفت في "باكل" وبقوا في الحصن الفرنسي. لم يثنه هذا الفشل عن عزمه فقام المغامر الفرنسي فيما بين سنتي 1824 و1825م برحلة عبر الضفة اليمنى لنهر السنغال، وعاش مدة طويلة مع البدو في هذه المناطق، وتعلم لغتهم، وحفظ بعض آيات القرآن الكريم، وادّعى أنه مسلم، ولكنه وقع في الأسر إثر حملة نابوليون بوناپارت على مصر سنة 1798م، أخذ بعدها إلى فرنسا حيث أطلق سراحه هناك⁽³⁾.

وبعد عدة محاولات غير ناجحة قام بها "كاييه" بين أعوام (1825-1827م) للوصول إلى تمبكتو، إنطلق يوم 09 جانفي 1828 مغيرا اتجاهه نحو "جني" التي وصلها يوم 16 مارس، ومنها انتقل عبر نهر النيجر إلى "كابرا" التي وصلها يوم 19 أبريل، ومنها إلى تمبكتو التي دخلها يوم 20 أبريل 1828م، ومكث بها أربعة عشر يوما⁽⁴⁾.

غادر "كاييه" تمبكتو يوم 04 ماي 1828م رفقة قافلة مكونة من ست مائة جمل متوجهة إلى المغرب الأقصى عبر الجنوب الغربي الجزائري، حيث استقبله نائب القنصل الفرنسي بطنجة، التي أبحر منها نحو مدينة طولون (Toulon) بفرنسا، أين ألّف كتابه المعنون "يوميات مسافر في تمبكتو وفي

(1) مياسي: "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص7.

(2) رونييه كاييه: مغامر فرنسي، ولد في موزي (Mauzé) بفرنسا سنة 1799م، كان منذ صغره شغوفا بالسفر والترحال، ولكن نشأته الفقيرة لم تمكنه من تحقيق رغباته، كما لم يتمكن من إتمام تعليمه فاضطر إلى الإشتغال من أجل كسب قوته، فامتحن الإسكافية ولكنه سرعان ما كره هذا العمل وتركه ليسافر إلى الخارج، لذا غادر بلاده سنة 1816م، على متن باخرة "لالوار" (Laloire) متجهة إلى السنغال. أنظر مياسي: "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص47. وأيضا: René Pottier: Histoire du Sahara, Alger livres éditions, Alger, 2013, p249 وانظر: خط سير رحلته، وصورته في الملحقين (21) و(20).

(3) مياسي: "الإهتمام الفرنسي..."، المرجع السابق، ص84. وكذلك: عبد القادر بوياية، "دور الرحالة والمستكشفين في عملية التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية"، مقال نشر في مدونة ملتقى التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، منشورات مديرية الثقافة، ورقلة، 1999م، ص79.

(4) مياسي: "الإهتمام الفرنسي..."، المرجع نفسه، ص85. وأيضا حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص440 وكذلك: Pottier: Ibid, pp249-252.

داخل إفريقيا" مُبديا إعجابه بالمدينة ومنازلها وسكانها وعاداتهم، حيث يقول: "... وجدت المدينة أقل ضخامة وعمارة مما كنتُ أتوقع، وكذلك وجدتُ أن تجارتها أقل مما اشتهرت به في أذهان الرأي العام..."⁽¹⁾.

وبذلك يُعتبر "كايبه" أول أوروبي يصل إلى تمبكتو، ويصفها وصفا دقيقا، حيث قدم للمصالح الفرنسية المهمة بالصحراء وأدغالها المعلومات الجغرافية والعرقية والثقافية، وعادات وتقاليد وطرق معيشة السكان وظروف مدّهم وغناها وحصونها، وكل ما يساعد الفرنسيين لتحقيق أهدافهم التوسعية في القارة الإفريقية، وقد ساعدت هذه المعلومات فرنسا الإستعمارية في رسم خططها التوسعية في الجنوب الجزائري وفي الصحراء الإفريقية⁽²⁾.

2. البعثات الإستكشافية بعد احتلال الجزائر:

إن الرحلات التي قام بها المستكشفون الأوروبيون عامة والفرنسيون خاصة في الصحراء الإفريقية ومنها صحراء الجزائر في القرن الثالث عشر الهجري/التاسع عشر الميلادي، كان الهدف منها التعرف على طرق القوافل التجارية، ومراكز تجارة العبور، ودراسة إمكانية تحويل التجارة الصحراوية لفائدة الدول الأوروبية⁽³⁾.

فلقد واصل الأوروبيون بعد احتلال فرنسا للجزائر رحلاتهم الإستكشافية لفك أسرار الصحراء الجزائرية والإفريقية، بما يخدم مصالحهم الوطنية، فنظموا عدة بعثات لهذا الغرض نذكر منها:

2.1 - بعثة جون دافيدسون (Jon Davidson)⁽⁴⁾:

لقد شجعت رحلة "رونييه كايبه" الناجحة بريطانيا على معاودة اكتشاف الصحراء التي تفصل شمال إفريقيا عن النيجر، فأرسلت سنة 1836م الرحالة "جون دافيدسون" انطلاقا من الساحل الأطلسي بالمغرب الأقصى، قاصدا مدينة تمبكتو، فنزل بطنجة ثم اتجه إلى مراكش ونزل باتجاه صحراء المغرب، وقد نصحه القنصل البريطاني بعدم المخاطرة نظرا لكثرة الإضطرابات إلا أنه أصّر على مواصلة

⁽¹⁾ مياسي: "الإهتمام الفرنسي..."، المرجع السابق، ص 85. وأيضا توات والأزواد، المرجع السابق، ص 440.

⁽²⁾ مياسي: "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص 49. وأيضا: بوباية، المرجع السابق، ص 79. وعمراوي

وآخرون: السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص 65.

⁽³⁾ العربي: المرجع السابق، ص 53.

⁽⁴⁾ جون دافيدسون: طبيب إنجليزي كان هدفه الوصول إلى تمبكتو من المغرب الأقصى. أنظر حوتية: توات الأزواد، المرجع

السابق، ص 440.

رحلته مهما كلفه الثمن، وقد انطلق في رحلته من وادي نون مع قافلة من التجار، ولما وصل قرب تندوف قتل بتاريخ 18 ديسمبر من نفس السنة⁽¹⁾.

2.2- بعثة الرحالة الشهير "هنري بارث" (Henry Barth)⁽²⁾:

بعد مقتل "دافيدسون" اتصلت الجمعية الإنجليزية بـ "هنري بارث" من أجل تنظيم تجارة لها في إفريقيا جنوب الصحراء خاصة تجارة العبيد، فسافر "بارث" إلى ليبيا مرفوقا بـ "جيمس رشاردسون" (James Richardson)⁽³⁾، و "أوفر واغ" (Over Weg)⁽⁴⁾.

غادر الثلاثة طرابلس يوم 24 مارس 1850م من أجل الوصول إلى نهر النيجر، فوصلوا إلى بورنو في جانفي 1851م وهناك افترقوا حيث قصد "بارث" بحيرة تشاد التي وصلها بعد مدة، ثم انحدر إلى جنوبها عند "يولا" (Youla)، ومنها قام بالدوران حول البحيرة⁽⁵⁾.

قبل دخول الشتاء اتجه "بارث" نحو الغرب فوصل إلى "كاسينا" في بداية السنة الموالية، ثم دخل بعد ذلك إلى مدينة "كوكوتو" ومنها واصل طريقه غربا حتى وصل نهر النيجر فعبه، ثم اتجه شمالا إلى أن دخل مدينة تمبكتو في شهر سبتمبر 1853م، فدارت حوله الشكوك لكونه نصرانيا إلا أن الشيخ سيدي أحمد البكاي حماه ودافع عنه⁽⁶⁾.

غادر "بارث" تمبكتو بعد أن قضى بها ستة أشهر كاملة، راجعا إلى طرابلس عن طريق مغانير باتجاه الشمال، فاجتاز كوار ليصل إلى مرزق، ثم إلى طرابلس يوم 28 أوت 1855م التي كان قد

(1) مياسي: "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص 49. وأيضا حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص 440-441. وأيضا العربي: المرجع السابق، ص 70-71.

(2) هنري بارث: رحلة ألماني تعلم في جامعة برلين وتحوّل في ضفتي حوض البحر الأبيض المتوسط راجلا، مما جعله يكتسب خبرة في المشي، كما تعلم اللغة العربية. أنظر: مياسي: "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص 49.

(3) جيمس رشاردسون: رحلة إنجليزي ولد بـلنكولن سنة 1806م، زار المدن الساحلية للمغرب الأقصى سنة 1845م، كما وصل إلى طرابلس وغدامس وغات سنة 1849م، أوكلت إليه مهمة إستطلاع الصحراء والسودان، ووصل إلى بحيرة تشاد ورافق "بارث" و "أوفر واغ"، مات متأثرا بوباء أصاب المنطقة سنة 1851م. أنظر: حوتية: المرجع نفسه، ص 441، الهامش رقم(2).

(4) أوفر واغ: رحلة ألماني ولد بمهامبورغ في جويلية 1822م، توجه إلى غوير عن طريق زندر والتقى بـ "بارث" في شهر مارس 1831م، فاستطلع مناطق بتشاد سنة 1852م. أنظر حوتية: نفسه، ص 441، الهامش رقم(3).

(5) مياسي: المرجع نفسه، ص 49-50. وأيضا حوتية: نفسه، ص 442

(6) عميروبي: السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص 65. وأيضا مياسي: نفسه، ص 49-50.

غادرها قبل خمس سنوات ونصف، ليعود إلى لندن يوم 06 سبتمبر 1855م حيث أُستقبل من طرف الملكة فيكتوريا، وقام بطبع أعماله⁽¹⁾.

وهكذا استطاع "بارث" أن يُقدّم الكثير من المعلومات الجغرافية والجيولوجية وحتى التاريخية للسكان والصحراء الكبرى وتشاد، كما ساهم في ربط علاقات تجارية بين أوروبا وهذا الجزء من العالم. لذلك أُعتبر "بارث" من أكبر المستكشفين العلميين في القارة السمراء⁽²⁾. وفي جانفي من سنة 1865م، كتب مقالا في نشرة الجمعية الجغرافية بباريس حثّ فيها فرنسا على أن تستحوذ على الصحراء الإفريقية، وتربطها بالجزائر، وأن تحمل السيف في يد والقلم في يد أخرى، لكي تتحصل على نتائج جيدة في هذا الميدان⁽³⁾.

3- البعثات الفرنسية في الصحراء الجزائرية:

يمكن تسجيل البداية القوية للبعثات الإستكشافية الفرنسية في الصحراء الجزائرية بتأسيس لجنة الإكتشاف العلمي من قبل السلطة الفرنسية عام 1837م، حيث شكل القرار الوزاري رسميا عام 1839م هيئة هذه اللجنة بواحد وعشرين عضوا أغلبهم من أكاديمية العلوم وأكاديمية الآداب والفنون والكليات العسكرية⁽⁴⁾. أي أنهم من مختلف التخصصات العلمية (آثار، تاريخ، جغرافيا، طب، طب، إقتصاد...)⁽⁵⁾.

من أجل استغلال مسالك القوافل التجارية، وتمهيدا للسيطرة على الصحراء الجزائرية وعلى تجارتها التقليدية وربط المستعمرات الفرنسية بالسودان الغربي والأوسط مع مثيلاتها بشمال إفريقيا، بدأت التحركات الفرنسية إنطلاقا من ورقلة بصفتها منطقة عبور، ونقطة محورية هامة في الصحراء، وتتوفر على أشخاص لهم خبرة ودراية بالمسالك الصحراوية، للتوغل منها إلى إفريقيا⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ يحيى بوعزيز: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، 2009م، ص 80. وأيضا مياسي: "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص 49-50.

⁽²⁾ أنظر الخريطة في الملحق رقم (18).

⁽³⁾ مياسي: المرجع نفسه، ص 51، 61.

⁽⁴⁾ ومنهم كاريت (Carette) الذي قدم دراسة مهمة بعنوان: le et géographie la sur Recherche méridionale . l'Afrique de commerce. وأنظر عميراوي وآخرون: السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص 21.

⁽⁵⁾ عميراوي: قضايا مختصرة...، المرجع السابق، ص 49.

⁽⁶⁾ ذكار: المرجع السابق، ص 143.

ففي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ، وخاصة بعد إتفاقية لالة مغنية ⁽¹⁾ التي أبرمتها فرنسا مع المغرب الأقصى سنة 1845م، والتي تنص على أن الصحراء لا ترتبط بأي بلد، إنطلقت من الجزائر عدة بعثات فرنسية متوجهة إلى أعماق إفريقيا قادها مغامرون وعسكريون، بعضهم لاكتشاف الطريق إلى إفريقيا جنوب الصحراء، والبعض الآخر لغرض مسح طوبوغرافي من أجل إنجاز دراسة لشق خط للسكة الحديدية يربط المستعمرات الفرنسية بعضها ببعض انطلاقا من الجزائر إلى بحيرة تشاد في الجهة الشرقية من الصحراء الكبرى، ومن تشاد إلى السنيغال غربا، وقد اعتمد المستكشفون في تنفيذ مشاريعهم على دعم وحماية الدولة الفرنسية بواسطة الجمعيات العلمية والجغرافية ⁽²⁾، وعلى تجربة قاهري الصحراء (الشعانية، والتوارق، والسوافة) على الجمال، ومن بين هذه البعثات الإستكشافية التي استهدفت الصحراء الجزائرية أومرت بها نذكر ⁽³⁾:

أ. البعثات العلمية:

عرفت الصحراء الجزائرية بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر بعثات إستكشافية ظاهرها علمي وباطنها التمكين لفرنسا في الجزائر، فقد كثف الفرنسيون نشاطهم في الصحراء الجزائرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث نظموا عدة بعثات علمية منها:

1- بعثة هنري دوفيرييه (Henri Duveryrier) ⁽⁴⁾:

1.1- الرحلة الأولى:

بعد رحلة "دوكولومب"، وقع الإختيار على الشاب المغامر والموهوب "هنري دوفيرييه"، ذلك أنه رغم نجاح بعثة إسماعيل بوضرية إلى غات، فإن الوالي العام للجزائر لم يطمئن لنتائج هذه البعثة لكون

⁽¹⁾ أنظر النص الكامل للمعاهدة في الملحق رقم(19).

⁽²⁾ في عام 1855م قدمت الجمعية الجغرافية بباريس مبلغا بقيمة ستة آلاف فرنك للذي يقوم برحلة من الجزائر إلى السنيغال أو بالإتجاه المعاكس بشرط أن يمر بمدينة تمبكتو ويأتي بمعلومات دقيقة وجديدة حول القوافل التي تعبر تلك الصحراء، من حيث اتجاهاتها وأهميتها ومواعيد سفرها. أنظر: مياسي: " الصحراء الجزائرية... "، المرجع السابق، ص 61. وكذلك: بوباية، المرجع السابق، ص84.

⁽³⁾ ذكار: المرجع السابق، ص135.

⁽⁴⁾ هنري دوفيرييه، رحالة فرنسي ولد بمدينة باريس سنة 1840م، درس التجارة في ألمانيا وهو ابن أربعة عشر سنة نظرا لذكائه الخارق. إنقطع عن الدراسة بسبب حبه للمغامرة، زار الجزائر سنة 1859م وتعرف على المضاب العليا والأغواط، ثم عاد إلى بلده. وفي سنة 1859م عاد إلى الجزائر العاصمة ومنها توجه إلى الثلثة (المنبجة) في أولى استطلاعاته للصحراء الجزائرية. لمعلومات أكثر راجع: عمراوي وآخرون، السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص 66، الهامش رقم (1). وأيضا: العربي، المرجع السابق، ص84.

بوضعية مسلما، لذلك رشّح لهذه المهمة "دوفيرييه" ليُمهّد لمد النفوذ الفرنسي للجنوب الكبير كمنطقة طاسيلي وإقليم توات⁽¹⁾.

بدأ "دوفيرييه" رحلته من مدينة سكيكدة بالجزائر يوم 08 ماي 1859م واتجه إلى غرداية مارا ببسكرة وقسنطينة وباتنة، والقرارة، ليتجه بعد ذلك إلى متليلي علّه يلتقي ببعض التوارق ليساعده في زيارة بلادهم⁽²⁾. غادر "دوفيرييه" مدينة متليلي يوم 28 أوت ليصل يوم 01 سبتمبر إلى المنيعية التي لم ترحب به، رغم أنه كان يحمل رسالة توصية من سي حمزة⁽³⁾، ولذلك غادرها عن طريق آخر نحو الغرب إلى متليلي. وبذلك تعرّف على الطريق الشرقي والغربي من المنيعية إلى متليلي⁽⁴⁾؛ ومنها إلى تقرت وبسكرة ثم قسنطينة عبر غرداية والأغواط والقرارة⁽⁵⁾.

مع بداية فيفري 1860م عاد "دوفيرييه" إلى بسكرة، ثم إلى وادي سوف، ومنه إلى الجريد في الجنوب التونسي بعدما طلب من ممثل فرنسا بتونس السيد "فرديناند دوليسبس" (Ferdinand de Lesseps) توصية لتأمين طريقه بالتراب التونسي، فاتجه إذن إلى قابس عن طريق شط الجريد، وبعد أن اكتشف المنطقة رجع عبر الطريق الشمالي إلى قفصة ثم توزر. بعد ذلك قرر الرجوع إلى بسكرة، فسلك ممر شببكية وتامغزا، ثم اتجه بعدها غربا نحو نقرين، وواحة عين الناقة وسيدي عقبة ودخل بسكرة يوم 10 أفريل سنة 1860م⁽⁶⁾.

والملاحظ هنا حول هذه التحركات أنها كانت تتسم بنوع من السرعة المفرطة التي تقتضي من "دوفيرييه" السير ليلا ونهارا، وهذا إما لخوفه من المخاطر التي كانت مُحْدقة به - قطاع الطرق مثلا - أو لتوفره على وسائل سفر متميّزة.

(1) مياسي: "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص 54. وأيضا: بوباية: المرجع السابق، ص 80.

(2) مياسي: المرجع نفسه، ص 54. وأيضا: بوباية: المرجع نفسه، ص 80. وعميراوي وآخرون، السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، المرجع السابق، ص 66.

(3) حمزة ولد بوبكر: هو قائد قبيلة أولاد سيدي الشيخ وزعيمها الروحي، كان متعاوناً مع فرنسا، وبفضل مساعدته تمكنت من التوسع في الصحراء الجزائرية، واحتلال ورقلة بالقوة سنة 1853م. عينته فرنسا خليفة علمناطق واسعة من الصحراء امتدت من البيض إلى ورقلة. راجع عميراوي: المرجع نفسه، ص 33.

(4) بوباية: المرجع نفسه، ص 80. وأيضا: عميراوي، نفسه، ص 66. والعربي: المرجع السابق، ص 84.

(5) مياسي: المرجع نفسه، ص 54-55. وأيضا: بوباية، المرجع نفسه، ص 80-81. وعميراوي: المرجع نفسه، ص 67.

(6) مياسي: "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص 54-55. وأيضا: بوباية، المرجع السابق، ص 80-81. وعميراوي: نفسه، ص 67.

1.2- الرحلة الثانية:

بعد هذه الرحلة الأولى إلى الصحراء الشرقية كلّفه الوالي العام للجزائر آنذاك بأن يقوم برحلة إلى بلاد التوارق من أجل ربط علاقات تجارية بين فرنسا والتوارق، وقدم له الدّعم الكافي للقيام بهذه المهمة، فغادر بسكرة خلال جوان 1860م متوجّها إلى مدينة الوادي ومنها إلى غدامس بمساعدة الشيخ عثمان- أحد أعيان التوارق - وبعض التوارق الآخرين⁽¹⁾.

دخل "دوفيرييه" مدينة غدامس يوم 11 أوت 1860م ومكث بها مدة طويلة في انتظار وصول توصية قنصل فرنسا بطرابلس، وأثناء ذلك شغل نفسه بالبحث والتنقيب عن التراث الحضاري و الفكري للمنطقة، فاكتشف عدة آثار رومانية ومُخَلَّفَات لأبراجهم منقوشة على صخورها كتابات لاتينية، وفي 07 سبتمبر ذهب "دوفيرييه" إلى زيارة الشيخ سي بكاي أب أحمد⁽²⁾.

وفي الأيام الأولى من شهر ديسمبر 1860م غادر "دوفيرييه" غدامس نحو غات مع توصية الشيخ عثمان وزعيم التوارق إيجنوخن اللذين عملا على حمايته طيلة الرحلة، ومن غات تجول في منطقة فزان ثم صعد إلى طرابلس ومنها إلى الجزائر ليستعدّ إلى رحلة أكبر وأهمّ، ولكن مرضه الشديد وفقدان ذاكرته أعاقاه عن تحقيق ذلك، ورغم ذلك فهو يُعتبر من أبرز الرحالة الفرنسيين نظرا لتعدد رحلاته، وما قدّمه من معلومات قيّمة حول الصحراء الجزائرية وبلاد المقار ورجال التوارق في كتابه "توارق الشمال" (Les Touaregs du Nord) كما هيأ الأرضية المناسبة لإنجاز معاهدة غدامس بين فرنسا والتوارق⁽³⁾.

⁽¹⁾ بويابة: المرجع السابق، ص80.

⁽²⁾ لاندرى من هي هذه الشخصية التي قدم لها هدية من الحكومة الفرنسية متمثلة في رداء من نسيج صناعي وحافظة تبغ من فضة، وأظهر له توصية صديقه "بارث".

⁽³⁾ مياسي: "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص56. وكذلك: بويابة: المرجع نفسه، ص81.

2- بعثة بول فلاترس (Paul Flatters)⁽¹⁾:

2.1- الرحلة الأولى:

إنطلقت هذه البعثة⁽²⁾ من ورقلة يوم 05 مارس 1880م تحت حراسة أفراد من قبيلة الشعانية البيوض التي وصلتها القافلة بعد 12 يوما من السير، عبر مجرى وادي مائة. أين توقفت فيها للراحة و التزود بالماء وتنظيف الأسلحة والأدوات الطبوغرافية⁽³⁾.

غادرت البعثة البيوض يوم السبت 27 من نفس الشهر إلى وادي إغرغر مارة على الزاوية الكحلة (برج عمر إدريس حاليا)، ومنها إلى بحيرة منغوغ أين مكثت مدة لغرض الحصول على رخصة العبور إلى غات من زعيم التوارق أهيتاقل أمينوكل⁽⁴⁾ لكن هذا الأخير أبطأ في الرد، وبعد أن رأى "فلاترس" التذمر في عيون مرافقيه وحراسه، قرر العودة من جديد إلى الأغواط التي وصلها يوم 3 جوان 1880م فاستقبله القائد الفرنسي "بولا" ومن هناك عاد إلى باريس. وقد قامت البعثة بمسح حوالي 1200 كلم، وقدمت معلومات جغرافية وجيولوجية هامة، منها: التعرف على خط ورقلة البيوض الذي تسلكه القوافل التجارية. التعرف على مجرى وادي إغرغر الكبير في الصحراء. المياه متوفرة في الصحراء على بعد عدة أمتار⁽⁵⁾.

في باريس قدم "فلاترس" تقريره إلى السلطات الفرنسية التي شجعتة ماديا ومعنويا على مجهوداته الجبارة في اختراق الصحراء، وخاصة من أصحاب المصالح الإقتصادية كمصلحة الطريق الصحراوي (Transsaharien)، ونظرا للنجاح النسبي الذي حققه في هذه الرحلة، طُلب منه أن

⁽¹⁾ بول فلاترس: هو عقيد سابق في الجيش الفرنسي، والقائد الأعلى الأسبق لمنطقة الأغواط، إختارته السلطات العليا الفرنسية على أساس أنه يعرف الصحراء وتقلد بها عدة مسؤوليات، ولكونه مطلعاً على العادات والتقاليد المحلية ويحسن اللغة العربية. أنظر: ذكار، المرجع السابق، ص 143. وأيضاً عميراي: "السياسة الفرنسية..."، المرجع السابق، ص 72، الهامش رقم(2). وانظر كذلك: صورته في الملحق رقم(20).

⁽²⁾ ضمت هذه البعثة عشرة أعضاء هم: فلاترس قائد البعثة، وموسون (Mousson) نقيب أركان الحرب، وبرانحة (Beringer) النقيب في سلاح المدفعية، وغيارد (Guiard) الطبيب، ولوشاتوليه (Lechatellier) وبروسار (Brosselard) ملازمي المشاة، وكابايو (Cabailot) وغيرهم. أنظر: مياسي، "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص 91. وأيضاً: عميراي وآخرون، السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص 72، الهامش رقم(2).

⁽³⁾ ذكار: المرجع السابق، ص 144.

⁽⁴⁾ أهيتاقل أمينوكل: من أهم زعماء التوارق المتواجدين في الجنوب الغربي لجلال الحفار، على غرار إينخونخ الذي يشرف على التوارق المتواجدين في القسم الشرقي من الحفار وفي منطقة الغابات. أنظر عميراي: المرجع نفسه، ص 72، الهامش رقم(4).

⁽⁵⁾ ذكار: المرجع السابق، ص 145.

ينجز دراسة عن إمكانية مد خط حديدي عبر الصحراء الجزائرية، وهكذا رجع "فلاترس" إلى الجزائر وكله حيوية ليوصل نشاطه الإستكشافي في الصحراء، وشرع في التحضير لمهمته الجديدة⁽¹⁾.

2.2- الرحلة الثانية:

قبل انطلاق هذه البعثة⁽²⁾ راسل "فلاترس" بعض قادة التوارق منهم أمينكول لتسهيل المهمة له، وكان ردّهم إيجابيا فيما يتعلّق بضمان أمن الطريق، وبعد أن تمت التحضيرات المادية والبشرية انطلقت البعثة من ورقلة يوم 04 ديسمبر 1880م، عبر هضبة تادمايت، ثم توجّهت جنوبا لتدخل مجرى وادي إغرغر، وفي 18 جانفي 1881م وصلت القافلة إلى أمقيد التي تبعد عن ورقلة بـ917كلم.

وابتداء من منطقة أمقيد بدأت المشاكل حيث ادعى أدلاء القافلة عدم معرفتهم الجيدة للطريق مع هذا المسلك، كما ظهر لـ"فلاترس" أنه مراقب من بعيد من طرف مجموعة من التوارق، فتوقع هجوما عليه فعزّز الحراسة الليلية وزاد ارتبائه أكثر عندما مضى على القافلة عشرة أيام دون أن تعثر على الماء، وفي يوم 16 فيفري أشار أحد الأدلاء إلى أن هناك بئر تسمى بئر الغرمة⁽³⁾ تقع شمال غرب الجبل على بعد حوالي 15كلم⁽⁴⁾.

قرر "فلاترس" أن يذهب مع الدليل ومجموعة من حرسه وأعوانه لمعاينة البئر، وفعلا تحرك مع جزء من قافلته إلى المكان المحدد، وبعد أن قطعوا مسافة 15 كلم وصلوا إلى البئر، ولكن التوارق نصبوا لهم كميناً هناك، ووقعت معركة عنيفة بين الطرفين إنتهت بمقتل "فلاترس" ومعاونيه، وفرّ الباقون الذين مات أغلبهم في الطريق عطشا، ولم ينج منهم إلا أربعة وصلوا إلى ورقلة - التي تبعد بمسافة أربعين يوما من السير - يوم 28 مارس 1881م، ورووا تفاصيل الواقعة⁽⁵⁾.

(1) عميراوي: المرجع السابق، ص 72-73.

(2) ضمت هذه البعثة: أحد عشر فرنسيا، وسبعة وأربعين جنديا من الأهالي، واثنين وثلاثين سائق بعير، وثمانية رجال من

الشعابنة للإستدلال عن المسالك، وأربعة توارق، ومجموعة من الجمال تحمل أمتعتهم. أنظر: مياسي،

"الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص92. وأيضا عميراوي: نفسه، ص73، الهامش رقم(1).

(3) بئر الغرمة: هي بئر تبعد عن ورقلة بـ 1400كلم، وبمسيرة 50 يوما دون توقف. أنظر: ذكار، المرجع السابق، ص146.

(4) ذكار: نفسه، ص146. وأيضا: عميراوي وآخرون، السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص73

(5) مياسي: "الإهتمام الفرنسي..."، المرجع السابق، ص 92. وأيضا عميراوي: نفسه، ص 74. والعربي: المرجع السابق،

ص157.

بعد هذه الحادثة توقفت حركة الإستكشافات لعدة سنوات، عملت فرنسا خلالها على إعادة إحكام السيطرة في الصحراء، وذلك بوضع حاميات عسكرية في الأماكن التي تحل بها⁽¹⁾.

تُرى لماذا انتهت هذه البعثة بهذا الشكل المأسوي؟ ربما من أسباب ذلك أن البعثة اعتمدت على قوات ضعيفة لا تحمل سلاحا بل أبقتة داخل الصناديق⁽²⁾. كما أن فرنسا لم تضع في الحسبان أن القبائل التارقية كبقية القبائل العربية مُغرمة بالحربة، وأن رجال التوارق كانوا على مدى مئات السنين أحرار بالصحراء دون الخضوع لأي حاكم كان؛ إضافة إلى تحريض الغدامسيون للتوارق على الفرنسيين خوفا من فقداهم تجارة السودان؛ وأخيرا تأثير موقف شيوخ الطريقة السنوسية تجاه النفوذ المسيحي في الصحراء، وموقف سكان توات وغات والسلطات العثمانية في طرابلس الغرب. وكان من نتائج مصير بعثة "فلاترس" إرجاء مشروع السكة الحديدية العابرة للصحراء⁽³⁾.

3. بعثة جرهارد رولفس (Gerhard Rohlfs)⁽⁴⁾:

وفيما بين عامي 1862-1878م قام الرحالة الألماني "رولفس" برحلات عديدة لكشف الصحراء، وكان حلمه هو الوصول إلى تمبكتو عبر تافيلالت أو توات.

3.1- الرحلة الأولى:

بدأها سنة (1279هـ / 1862م) من المغرب الأقصى أين أسره السكان هناك، الذين شكوا في إسلامه، ولم ينجح من انتقامهم سوى عملية الختان التي كان قد قام بها من قبل، ورغم اعتداء دليله عليه نجح في مواصلة رحلته⁽⁵⁾. حيث تجوّل في الجزء الجنوبي من المغرب، فاتجه نحو السوس، وبعده إلى

⁽¹⁾ ذكار: المرجع السابق، ص146.

⁽²⁾ لا شك أن العامل الأساسي في خطأ الفرنسيين حول التوارق سببه وصف الرحالة دوفيرييه لهم، بأنهم نبلاء ويملكون صفات الفرسان. أنظر: عبد الرحمن تشايحي: الصراع التركي- الفرنسي في الصحراء الكبرى، تر: علي اعزازي، مر: محمد الاسطي، تق: محمد الطاهر الجراي، نشر مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، 1993م، طبع مطابع المختار للطباعة والنشر، ط2، الإسكندرية، مصر، ص94، الهامش رقم127.

⁽³⁾ تشايحي: المرجع السابق، ص96. أنظر خريطة امتداد السكة الحديدية في الصحراء الجزائرية، الملحق رقم(22).

⁽⁴⁾ جرهارد رولفس : رحلة ألماني ولد في ضواحي مدينة بريم الألمانية سنة 1832م، حاول أن يدرس الطب وفشل في ذلك،

فاختار الأسفار في أوروبا أولا ثم في إفريقيا حيث انخرط في اللغيف الأجنبي، وشارك في العمليات العسكرية التي تمت في بلاد

القبائل أين تعلم اللغة العربية، واكتسب معرفة بعادات الأهالي وتقاليدهم، غادر سلك اللغيف الأجنبي سنة 1861م، وأعلن

إسلامه. أنظر خط سير رحلته في الملحق رقم (21)، ولمزيد من المعلومات أنظر: بويابة، المرجع السابق، ص81. وأيضا

حوتية: توات والأزواد...، المرجع السابق، ص437، الهامش رقم (2). وعميراوي: السياسة الفرنسية...، المرجع السابق،

ص69، الهامش رقم(2). والعربي: المرجع السابق، ص89.

⁽⁵⁾ بويابة: المرجع نفسه، ص81. وأيضا: عميراوي، نفسه، ص69.

إلى وادي درعة ومنه إلى تافيلالت، وكان يريد أن يتجه منها إلى تمبكتو عن طريق توات، لكن ثورة أولاد سيدي الشيخ حالت دون ذلك، فاتجه نحو فتيق، فوهران⁽¹⁾.

3.2- الرحلة الثانية:

أما في الرحلة الثانية فقد انطلق "رولفس" من طنجة إلى واد زير عبر الأطلس ومن هناك إلى وادي الساورة، فأبلغني ثم بني عباس ثم واحات توات وتيديكلت، وعين صالح⁽²⁾ التي وصلها يوم 17 سبتمبر 1864م، وكان يطمح أن يصل إلى تمبكتو غير أن مشروعه لم يتحقق رغم طول انتظاره الذي دام شهرا نصف، مما جعله يرجع إلى طرابلس عن طريق غدامس التي وصلها سنة (1281هـ/1864م)⁽³⁾.

3.3- الرحلة الثالثة:

لم يكن لهذه الرحلة أن تتم لولا تزويده بمبلغ مالي معتبر من طرف الجمعية الجغرافية في لندن، وعلى إثر ذلك توجه نحو ليبيا عبر الصحراء الجزائرية، وبمجرد وصوله إلى طرابلس عقد العزم على التوجه نحو تمبكتو عبر الهقار، إلا أن انعدام الأمن في الطريق والصراع بين التوارق دفعه إلى تعديل خطته، فاتجه إلى فزان ومن هناك توجه نحو تشاد التي وصلها في جويلية 1868م، ثم إلى برنو ومنها إلى لاغوس. عاد بعدها إلى أوروبا بعد أن قدم معلومات مهمة عن صحراء الجزائر وأقاليمها في مذكراته الشخصية⁽⁴⁾.

لقد قدم "رولفس" معلومات قيّمة وجديدة للسلطة الفرنسية خاصة ملاحظاته الدقيقة حول المناطق التي زارها في جنوب الجزائر في الواحات والقصور وعدد السكان وأصولهم وعاداتهم وتقاليدهم والإمكانيات الاقتصادية لكل منطقة، كما قدّم نصائحه للمستعمر الفرنسي على وجوب احتلال هذه المناطق. منها قوله: "... على فرنسا احتلال وادي الساورة ونواحيه مما يسهل خضوع توات..."⁽⁵⁾.

(1) Rohlfs : op.cit, p99.

(2) كان وصف رولفس لعين صالح الوصف الوحيد الذي وصل إلى العالم قبل احتلال الفرنسيين لها في نهاية القرن التاسع عشر. أنظر: بوباية: المرجع نفسه، ص82.

(3) Rohlfs : op.cit, pp89-90.

(4) مياشي: " الصحراء الجزائرية... "، المرجع السابق، ص 61. وأيضا: عميراي، الس طيمة الفرنسية...، المرجع السابق، ص 69-70، والعربي: المرجع السابق، ص91.

(5) Rohlfs : op.cit, p193

وبذلك يُعتبر "رولفس" أول رحالة أوروبي يعبر إفريقيا الغربية من ساحل المتوسط شمالا إلى ساحل غانا جنوبا⁽¹⁾، وينجح في اختراق الصحراء من المغرب الأقصى حتى ليبيا عبر الصحراء الجزائرية⁽²⁾.

4. بعثة بول صولايبه (Paul Soleilet):

هذا وقد قام في نفس الفترة الرحالة "بول صولايبه" برحلة إلى الجزائر لغرض اكتشاف صحرائها وطرقها التجارية المؤدية إلى بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، ومحاولة جذب تجار إقليم توات المتاجرين في بضائع الصحراء وبلاد السودان، لجعلهم في علاقة مع التجار الفرنسيين⁽³⁾.

غادر الرحالة الفرنسي مرسيليا يوم 06 ديسمبر (1289هـ / 1872م) ليقوم برحلته من الجزائر العاصمة إلى عين صالح، وبعد استعداداته⁽⁴⁾ إتجه إلى الجنوب عن طريق الأغواط وغرداية، ثم دخل متليلي التي لقي بها حُسن الضيافة، وفي يوم 14 فيفري 1873م خرجت القافلة⁽⁵⁾ من متليلي متجهة صوب عين صالح، وفي يوم 23 فيفري وصلت إلى المنيعه، والتي غادرتها بعد أربعة أيام، لتصل إلى مشارف عين صالح يوم 06 مارس، لكنها لم تتمكن من دخولها لأن جماعة المدينة وعلى رأسها الحاج عبد القادر باجودا لم تسمح له وأغلقت الأبواب في وجهه رغم محاولاته العديدة. لذلك إضطر للرجوع من حيث أتى؛ ورغم ذلك فقد قدّم "صولايبه" في كتابه "إفريقيا الغربية- الجزائر، مزاب، تيديكلت" معلومات هامة، خاصة حول هضبة تادمايت وما جاورها، والتي استفادت منها السلطات الإستعمارية في توسعها في الجنوب⁽⁶⁾.

(1) مياسي: " الصحراء الجزائرية... "، المرجع السابق ، ص61. وأيضا: عميراوي، المرجع نفسه ، صص 69-70. والعربي: المرجع نفسه، ص91.

(2) بويابة: المرجع السابق، ص82.

(3) Pottier op.cit, op.cit, p263.

(4) بدأ صولايبه تحضيره لهذه الرحلة منذ 1866م بالتعرف على لغة وعادات وتقاليده سكان الجزائر، ودراسة كتب التاريخ والجغرافيا والكتابات الإقتصادية حول إفريقيا. أنظر: مياسي: " الإهتمام الفرنسي... "، المرجع السابق، ص 89. وأيضا: عميراوي، المرجع نفسه، صص 70-71.

(5) تضم القافلة كلا من الشيخ أحمد بن أحمد الشعاني رفقة ابنه الصغير-عشر سنوات - وأخويه موسى وعبد القادر،

وخادمي صولايبه وكتبه الخاص، وقدرور خادم الشيخ أحمد، وأربعة عشر من الحراس المزودين بالبنادق والعصي، وراعيين لرعي

الجمال، وأخيرا الشريف مولاي محمد الطيب، وهي في معظمها تتكون من حوالي 26 فردا، وعشر جمال وثلاثة خيول. أنظر:

مياسي: " الإهتمام الفرنسي... "، المرجع السابق، ص 90. وكذلك: بويابة: المرجع السابق ، ص82. وعميراوي، الساسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص71، الهامش رقم(2).

(6) بويابة: نفسه، ص 82. وأيضا: مياسي، نفسه ، ص90. وحتوية: توات والأزواد...، المرجع السابق، ص 435.

وعميراوي: نفسه، ص71.

ب. الحملات العسكرية:

يعتبر الإحتلال الفرنسي للجزائر بداية لتأسيس الإمبراطورية الفرنسية الإفريقية، وكان الفرنسيون يُدركون أنه لتوطيد الأمن فيها يجب التوسع شرقا وغربا وجنوبا؛ وهناك سبب آخر لاهتمام فرنسا بالصحراء هو الحدود الجنوبية للجزائر التي كانت ملجأ للقبائل التي لم تعترف بالسلطة الفرنسية. ولذلك كان لابد من الإستيلاء على الواحات والطرق الرئيسية لتوطيد أمن الجزائر التي لم يتم الإستيلاء على شمالها إلا بعد بذل القوات الهائلة والأموال الكثيرة⁽¹⁾.

ويمكن تسجيل أول حملة عسكرية للجنوب الجزائري والتي كانت على بسكرة⁽²⁾ عام 1844م. والأغواط عام 1844م، ثم على الزعاطشة عام 1849م. ثم تتالت الحملات إلى مختلف أنحاء الصحراء، وكان يرافق تلك الحملات مغامرون ومستكشفون وعلماء⁽³⁾ منها:

1. حملة الجنرال "غاليفيه" (Galliffet):

في أواخر سنة 1872م اقتحم الجنرال "غاليفيه" (Galliffet) مع قوة عسكرية، مسافة الـ 600 كلم التي تفصل مدينة بسكرة عن القليعة (المنيعة) من 20 ديسمبر 1872م إلى 24 جانفي 1873م للتعرف على هذه المنطقة ثم احتلالها⁽⁴⁾.

2. حملة فور - لامي (Four-Lamy)⁽⁵⁾:

تجمعت هذه البعثة⁽¹⁾ في سدراتة قرب ورقلة حيث انطلقت منها يوم 23 أكتوبر 1898م، نحو نحو عين صالح ونزلت بجاسي أوليجن حيث مكثت بها مدة من الزمن، وواصلت بعد ذلك سيرها إلى

⁽¹⁾ تشايحي: المرجع السابق، ص 53.

⁽²⁾ تعد بسكرة مركزا هاما للتجار الجزائريين الوافدين من بوسعادة، وأولاد نايل، وتقرت، ووادي سوف، ونفطة، لذا احتلتها فرنسا من أجل تطوير تجارتها إلى دواخل إفريقيا. أنظر:

Dumas: le sahara Algerien, études géographiques, statistiques et historiques du sud, paris, 1845, pp7-9

⁽³⁾ عميراوي: قضايا مختصرة...، المرجع السابق، ص 50.

⁽⁴⁾ مياسي: "الإهتمام الفرنسي..."، المرجع السابق، ص 89.

⁽⁵⁾ فرناند فورو: معمر فرنسي بناحية تقرت، كانت تراوده فكرة ربط الجزائر بالسودان، وسعى لدى الحكومة الفرنسية لدعمه

في فكرته، وساعده في فرنسا هنري دوفيرييه (Duverrier) للحصول على دعم من الحكومة، وفعلا حصل سنة 1897م

على مبلغ 250 ألف فرنك من الجمعية الجغرافية، كما حصل بعد ذلك على مبالغ أخرى من مختلف الوزارات وكذا على 300

بندقية من وزارة الحربية. أنظر: Durou: op.cit, pp239-240

زندر(Zinder) في تشاد التي دخلتها بعد عام، بعد أن قطعت حوالي ألفي كلم عبر صحراء قاحلة وموحشة، وكانت مهمتها عسكرية إضافة إلى مهام علمية (جيولوجية، طوبوغرافية...).

لقد واجهت بعثة "فور- لامي" عدة مشاكل وصعوبات بسبب كبر حجمها منها: أخذ وقت طويل في شحن وتفريغ ألف جمل، موت عدد كبير من الحيوانات لنقص الماء والغذاء الطبيعي مما عطل البعثة، تعرضها لهجوم قوي من التوارق في المكان المسمى إرهازار (Irehazar) ولولا توفرها على الأسلحة النارية لما نجت من الإبادة⁽²⁾.

بقيت القافلة ثلاثة أشهر في إفروان (Ifrouane) للتفاوض حول شراء جمال وحيوانات عوض التي ماتت في الطريق، وفعلا نجح الكومندان لامي (Lamy) في اقتناء 200 جمل جديد، و100 حمار، و50 ثور لمواصلة الطريق نحو أغاديس (Agades)، والتي دخلتها القافلة يوم 28 جويلية 1899م وقدمت نفسها للسلطان محمد البكري، وبعد ثلاثة أشهر في أغاديس⁽³⁾. إنطلقت البعثة يوم 17 أكتوبر 1899م نحو الجنوب. وتعتبر هذه الرحلة أول عبور من الجنوب الجزائري إلى تشاد، وقام فيها "فورو" وبطلب من الحاكم العام للجزائر بوضع خرائط للمسلك الرابط بين المنبوعة وإقليم تيديكلت، لفائدة السلطات الفرنسية التي ستستثمرها لاحتلال عين صالح مع بداية القرن العشرين⁽⁴⁾.

3. حملة الرائد كولونيو (Colonien) والملازم بوران (Borin):

وفي نفس الفترة أي في أواخر سنة 1860م، قام الرائد "كولونيو" والملازم "بوران" التابعان لدائرة البيض بمحاولة فاشلة لاكتشاف تنقورارين وتوات- بمساعدة سي حمزة من أولاد سيدي الشيخ الشراقة الذي كان مواليا لفرنسا⁽⁵⁾ - رفقة القافلة التجارية السنوية⁽¹⁾ التي تنشط بين سعيدة والبيض، وتبادل السلع مع قوافل أخرى في منطقة الأبيض سيدي الشيخ، وهي وتضم قبائل مختلفة⁽²⁾.

⁽¹⁾ كانت البعثة تتكون من 213 من الرماة الجزائريين، وخمسون مسلح صحراوي، وثلاثة عشر صباحي (Spahis) جزائري، وأربعة عشر ضابط فرنسي، وأربع مدنيين فرنسيين، وعدد من الحيوانات منها ألف جمل. أنظر: Durou: pp240-241 ibid,

⁽²⁾ Durou: Ibid, pp 242-243.

⁽³⁾ أغاديس : كانت هذه المدينة منطقة عبور للسلع الأوروبية المتجهة إلى السودان وكانت التجارة بما بيد تجار طرابلس وتوات. أنظر: Durou:ibid,p244، وكذلك ذكار: المرجع السابق، ص 146. وأيضا: مياسي: المرجع نفسه ، ص93.

⁽⁴⁾ حوتية: توات والأزواد...، المرجع السابق، ص ص436-437.

⁽⁵⁾ حوتية: نفسه، ص433.

تحركت القافلة نحو الجنوب في أواخر شهر نوفمبر 1860م، برفقة الفرقة الفرنسية تحت قيادة "كولونيو" لذلك كانت أبواب القصور تغلق في وجهها حتى يتعد "كولونيو" ورفيقه عن أسوار القصر مسافة مشي يومين على الأقل، في كل من تيميمون، وتوات، وغيرها، حيث كان لهما نفس الإستقبال أينما حلا، لذلك قررا أن لا يذهبا أبعد من ذلك، وصعدا إلى الشمال راجعين إلى البيض، وقد تم خلال هذه الرحلة رسم خرائط لعدة أماكن مختلفة⁽³⁾.

4. حملة فلامون (Flamand)⁽⁴⁾:

وختم القرن التاسع عشر ببعثة "فلامون" التي انطلقت يوم 28 نوفمبر 1899م باتجاه عين صالح، وفي أثناء سيرها تعرضت إلى هجوم من طرف الحاج المهدي باجودا ومعه 1200 رجل، وبعد عدة مواجهات بين الطرفين - ونظرا لتدعيم الوالي العام للحملة بقوات إضافية من المنيعه- رجحت كفة المعركة لصالح الفرنسيين الذين تمكنوا من احتلال عين صالح ودخول هذه المنطقة تحت النفوذ الفرنسي - خاصة أن عين صالح تتمتع بأهمية إستراتيجية فائقة، فهي تعد ملتقى الطرق الصحراوية ومركز ممتاز لتمويل التوارق- وبعد ما انتهى "فلامون" من مهمته إستقبل بمدينة الجزائر يوم 24 فيفري 1900م إستقبالا رسميا من طرف الوالي العام، وقدم له عرضا حول رحلته، التي استخلص منها نتائج هامة من بينها: ملاحظات حول الجيولوجيا والري الصحراوي، والجغرافيا الفيزيائية والفلكية، وكذلك الإمكانيات الإقتصادية للمنطقة وعلاقة فرنسا بالصحراء والشعوب الإفريقية⁽⁵⁾.

ج. الإرساليات التنصيرية:

قامت فرنسا بالموازاة مع إرسالها للبعثات الإستكشافية إلى الصحراء بإيفاد إرساليات تنصيرية كذلك لأغراض متعددة، وكانت الدولة الفرنسية تحمي المبشرين وتمدهم بالمساعدات، وهم يقدمون لها

⁽¹⁾ تضم هذه القافلة حوالي عشرة آلاف رجل، وثلاثة آلاف رجلا وامرأة، وستة عشر ألفا من الأغنام فضلا عن رجال

الحراسة. أنظر: عميراي وآخرون، السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص68، الهامش رقم(2).

⁽²⁾ مياسي: "الصحراء الجزائرية..."، المرجع السابق، ص 57-58. وأيضا: حوتية، المرجع نفسه، ص 433.

وكذلك: Tidikelt-Touat-Gourara, Librairie Le Colonel Crouzet : Militaire de Boudin, Paris, 1893, p7

⁽³⁾ مياسي: المرجع نفسه، ص 57-58. وأيضا حوتية: المرجع نفسه، ص434. وعميراي: المرجع نفسه، ص69.

⁽⁴⁾ ضمت تسعون مهريا، وثمانية عشر فرسا، وأحد مقدمي الزاوية القادرية الذي دعمها بأربعين مهريا آخر. أنظر: عميراي

وآخرون، المرجع نفسه، ص74، الهامش رقم(2).

⁽⁵⁾ مياسي: "الإهتمام الفرنسي..."، المرجع السابق، ص93. يُراجع أيضا: عميراي وآخرون، المرجع السابق، ص75.

المعلومات الضرورية عن حركة القوافل والثورات والزوار وغير ذلك من التحركات التي تقع في الصحراء⁽¹⁾.

وكان الكاردينال لافيغري (Lavigerie) هو صاحب فكرة التغلغل في الصحراء من الشمال إلى الجنوب عن طريق المبشرين. فأسس في الجزائر جمعية مبشّري الجزائر (La société Missionnaires d'Alger) أو الآباء البيض (Pères Blancs) عام 1874م لهذا القصد. وكانت غايتها النفوذ إلى الصحراء و بلاد السودان عن طريق عين صالح لنشر المسيحية في وسط إفريقيا وخدمة مصالح فرنسا⁽²⁾.

استقرت جمعية الآباء البيض أولا في بسكرة والأغواط ومتليلي، وقد قتل التوارق ثلاثة مبشرين⁽³⁾ عندما غادروا متليلي قاصدين عين صالح. فقام "لافيغري" بتجربة طريق غدامس - غات للنفوذ إلى السودان عوضا عن طريق عين صالح، ووصل إلى طرابلس مبشران فرنسيان⁽⁴⁾ عام 1878م، ومنها توجهوا إلى غدامس حيث استقروا فيها، وقاما بالكشف على المرضى وإعطاء العلاج لهم لكسب محبة السكان. ونجحا في ذلك في البداية أما مهمتهما التنصيرية فاحتفظا بها إلى حين. لكن رحلات بعثة "فلاترس" واحتلال فرنسا تونس عام 1881م أساءت إلى وضعهما في غدامس، فبدأ السكان والسلطات العثمانية ينظرون إليهما على أنهما جاسوسان فرنسيان. وبعد إقامة دامت أربع سنوات في غدامس قررا الرحيل إلى غات، لكن التوارق قتلوهما بعد خروجهما من غدامس في مكان يسمى ماركس على طريق غات، وبذلك فشلت محاولات الفرنسيين في النفوذ إلى الصحراء والسودان بواسطة رجال الدين⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ تشايحي: المرجع السابق، ص96.

⁽²⁾ تشايحي: المرجع السابق، ص96.

⁽³⁾ هؤلاء الثلاثة هم الآباء: بولميي (Paulmier)، وبوشار (Bouchard)، ومينوري (Ménorét)، قتلوا بعد خروجهم

من متليلي من طرف أدلتهم قرب حاسي إنيفل سنة 1876م. أنظر: Pottier: op.cit, p264

⁽⁴⁾ هما: الأب ريشارد (Richard)، والأب كيرمبون (Kermabon). أنظر: Pottier, ibid, p264.

⁽⁵⁾ تشايحي: المرجع السابق، ص ص97-98. وأيضا: Pottier, op.cit, p264.

ثانيا: واقع التجارة الداخلية والخارجية في الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء

أ. واقع التجارة الداخلية:

1. المبادلات:

1.1- في الجزائر:

كانت المبادلات تتم داخل المدن أو بواسطة الأسواق الأسبوعية والسنوية في الأرياف، وقد عزز التبادل التجاري الداخلي عاملان هما: تشجيع الحكومة للأسواق التجارية سعيا لفرض نفوذها على سكان الأرياف عندما يقصدون هذه الأسواق. وثانيا مرور القوافل عبر الأراضي الجزائرية نحو المشرق أو إفريقيا جنوب الصحراء⁽¹⁾.

ومن الأمثلة على هذا التبادل الداخلي في الجهة الشرقية، نذكر المبادلات التي كانت بين وادي سوف والمناطق التلية حيث كانت هذه المبادلات التجارية تتم بالأساس مع تجار خنشلة وتبسة من خلال القوافل التي تأتي إلى وادي سوف أو العكس، ففي الخريف تنقل قوافل سوف التمور إلى الشمال وترجع محملة بالحبوب، والسكر، والقهوة، والشاي، والزيت، والقماش، من خلال المقايضة⁽²⁾. ومما تصدره سوف للمناطق التلية التبغ، وريش النعام المجلوب من غدامس الذي يستعمله النمامشة في احتفالاتهم كزينة وحلية للفرسان، بالإضافة لمختلف المنسوجات الصوفية كالبرنوس، والزربية، والحايك⁽³⁾.

أما مع المناطق الجنوبية فقد كانت المبادلات التجارية بين الطرفين متواضعة جدا خاصة مع وادي ريغ بسبب تشابه المنتجات، ومع ذلك تستورد سوف من وادي ريغ، الحشان، والشحوم، والملح، والصوف، والأقمشة، وتصدر له التبغ، والجلود، والأقمشة المنسوجة، والملابس الصوفية، وريش النعام.

(1) سعيدوني: النظام المالي...، المرجع السابق، ص38.

(2) المقايضة: هي تبادل سلعة بأخرى تختلف عنها صاغا وقيمة، وتعرف أيضا بالمبادلة العينية، وهذه العملية ليست بالأمر الهين كما أنها لا تخلو من تعقيدات، نظرا لما هنالك من اختلافات في قيمة السلع ومن ثم صعوبة تحديد المقابل من سلعة الطرف الآخر حتى تكون العملية عادلة. فقد وجد عبر التاريخ تجار استبدلوا الملح مقابل نفس الوزن من الذهب. أنظر: إدريس بن مصطفى: العلاقات السياسية والإقتصادية للمغرب الأوسط مع إيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية في عهد الدولة الزيانية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف الدكتور مبخوت بودواية، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية، 2006/2007م، ص97.

(3) عثمان زقب: الأوضاع الإقتصادية والإجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947م وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور يوسف مناصرة، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية 2005-2006م، ص110.

أما التجارة مع بسكرة وبلاد الزاب فهي أكثر حيوية من مناطق الجنوب الأخرى، حيث كان تجار سوف يستوردون منها القمح، والشعير، وبعض الخضار والفواكه، ويُصدرون إليها التمور، والتبغ، والبرنوس، والأقمشة المختلفة⁽¹⁾. وكذلك توجد مبادلات تجارية مستقرة بين مدينة الجزائر وبسكرة ووادي مزاب⁽²⁾.

1.2- في إفريقيا جنوب الصحراء:

بدأ قيام المراكز التجارية، على أطراف الصحراء، في أماكن الإستقرار، حول الواحات والوديان، وتم التبادل التجاري بصورة بسيطة، في أول الأمر بين السكان المستقرين على أطراف الصحراء، والبدو المتجولين لسد متطلباتهم؛ نظرا للتباين الواضح بين إنتاج المنطقة الصحراوية، والأقاليم المحيطة بها، فاتسع نطاق هذا التبادل، عندما تم عبور الصحراء بصورة منتظمة منذ العصر الفينيقي، ودخلت سلع منطقتي حوض البحر المتوسط، والسافانا، جنوبي الصحراء في الميدان التجاري، فازدادت الحركة التجارية، في المحطات الواقعة على مرافئ الصحراء الشمالية والجنوبية، وتغيرت الحياة فيها.⁽³⁾

لقد اشتغلت أعداد كبيرة من سكان هذه المراكز بالتجارة الداخلية والخارجية؛ فكان التجار يقومون بمهمة جمع السلع من مختلف مناطق بلاد السودان، في المراكز الجنوبية لحين وصول القوافل، وقد استقر بهذه المراكز، التجار الوافدون من مصر وبلاد المغرب، للقيام بمهمة مراقبة الأسواق المحلية، والإتصال بشركائهم أو موكلهم⁽⁴⁾.

فقد أدت مدينة غاو الواقعة اليوم إلى الشمال الشرقي من بماكو بمالي الحالية، دورا إقتصاديا مهمًا باعتبارها من المراكز التجارية للسودان الغربي، فقد مكنها موقعها على منحى نهر النيجر، نحو الجنوب بإشرافها على حركة الملاحة، والتجارة على امتداد نهر النيجر، نحو الجنوب والغرب. وتيسرت اتصالاتها

⁽¹⁾ زقب: المرجع السابق، ص ص 109-110. في سنة 1848م قام أحد الفرنسيين برحلة من تونس، مرورا بوادي سوف، ثم تفرقت وصولا إلى بسكرة، حيث دَوّن ملاحظاته في كتاب قيم صدر بعنوان: Commerce de l'Afrique avec la Mecque et Le Soudan. أنظر عميراوي وآخرون: السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص 22.

⁽²⁾ شارل: المصدر السابق، ص 103.

⁽³⁾ الدالي: المرجع السابق، ص 294.

⁽⁴⁾ الدالي: المرجع السابق، ص 294.

ب هذه المناطق، فتجمعت في المدينة بضائع المنطقة كلها، وارتادتها القوافل التجارية من كل الإتجاهات⁽¹⁾.

2- الوسطاء التجاريون:

2.1- الأهالي:

لقد كانت العلاقات التجارية للجزائر مع الدول الإفريقية الجنوبية، تتم عن طريق القوافل التي يُسيّرُها سكان المدن البربرية والسودانية وحدهم ولحسابهم الخاص، مستعملين وسائلهم الخاصة، مدفوعين بعوامل الحاجة والمصلحة، يتحملون وراءها المشاق الكثيرة، يساعدهم في بعض الأحيان بعض اليهود⁽²⁾.

ويذكر ابن خلدون إلى أن كلّ القرى والمدن الواقعة على مشارف الصحراء الشمالية كانت تشترك في تجهيز القوافل التجارية نحو السودان⁽³⁾، وكانت القبائل الصحراوية من بدو رحل هي التي تتولى التجارة مع هذه الأقطار لدرائتها بالمنطقة، علما أن إفريقيا جنوب الصحراء لم تكن معروفة معرفة جيدة لدى الساسة ورجال الحكم في بلاد المغرب⁽⁴⁾.

أما كارات (Carette) فيرى أن التجارة عبر الصحراء عرفت نوعا من المنافسة بين القبائل العربية والتوارق، لهذا لا يقومون بها من أولها إلى آخرها بل عن طريق التناوب فيما بينهم، فكل منها تحمل البضائع إلى حدود أراضيها، فكان عرب الصحراء ينقلون البضائع باتجاه الشمال في حين يقوم التوارق بالتغلغل نحو إفريقيا جنوب الصحراء⁽⁵⁾.

لقد تكفّلت بهذه التجارة قبائل مختصة في هذا الميدان، تسيّرُها وتحميها، فكانت البضائع والسلع تنقل من شمال البلاد إلى متليلي في الجنوب، ومن هناك تنقلها قبيلة الشعانبة لتوصلها إلى أسواق المنيعه، ومنها يحملها التوارق والخنافس إلى تمبكتو في مالي⁽⁶⁾.

ومع ازدهار التجارة وازدياد أرباحها، ظهرت بعض الشركات التجارية الجزائرية التي وفّرت للقوافل التجارية الصحراوية، وكلاء وأدلاء ومرافقون وموزعون، في كافة المناطق، وخاصة في المراكز والمدن

⁽¹⁾ الدالي: نفسه، ص 310.

⁽²⁾ الزبيري: المرجع السابق، ص 65.

⁽³⁾ زيادية: الحضارة العربية...، المرجع السابق، ص 62، الفامش رقم (11).

⁽⁴⁾ زيادية: مملكة سنغاي...، المرجع السابق، ص 87.

⁽⁵⁾ حاضري: المرجع السابق، ص 223-224.

⁽⁶⁾ شويتام: نهاية الحكم...، المرجع السابق، ص 65-66.

التجارية الهامة، يُعدّون لها البضائع والمشتريين، ويخبرونها بالأسعار والسلع المطلوبة، وأوضاع الحركة التجارية وتقلباتها⁽¹⁾ و التي حققت نجاحا كبيرا في تجارتها مع إفريقيا جنوب الصحراء، من أشهرها أسرة شركة عائلة المقري التلمسانية، التي اتخذت من تلمسان مركزا لها، وكان لها فروع في مختلف المدن داخل إفريقيا⁽²⁾.

تكونت الشركة من خمسة إخوة، حيث كان أبو بكر ومحمد في تلمسان، وعبد الرحمن الشقيق الأكبر يقيم بسجلماسة، أحد المراكز التجارية الهامة في جنوب المغرب، ومحطة من محطاته الرئيسية على الطريق بين شمال إفريقيا وبلاد السودان، بينما يقيم عبد الواحد وعلي وهما الأصغران بولادة ببلاد السودان الغربي، فيقوم الذي بالسودان بإرسال الجلد والعاج والجوز والتبر إلى تلمسان، أما الموجود بسجلماسة فيهتم بمراقبة أحوال السوق هناك، ويبحث بتقارير عن أموال التجارة والبلدان والأسعار، ومن المحتمل أن يكون للشركة متعاونين أو وكلاء في الموانئ الجزائرية حيث يقومون بتصريف البضائع السودانية، وتوفير البضائع المحلية والأوروبية المطلوبة من قبل السودانيين، فجمع الإخوة أموالا طائلة من تجارتهم، وتذكر المراجع أن آل المقري مهّدوا طريق الصحراء بحفر الآبار، وتأمين التجار، واتخذوا طبلا للرحيل، وراية تقدم عند المسير⁽³⁾.

2.2- اليهود:

إشتهر اليهود بالعمل في التجارة، وارتبط اسمهم بها، حيث استقر معظمهم منذ وقت مبكر بالمراكز التجارية الكبرى لبلاد المغرب الإسلامي، مثل طرابلس والقيروان وتلمسان وفاس وسجلماسة، وقد مكّنهم هذا من المشاركة في التجارة القادمة من إفريقيا جنوب الصحراء⁽⁴⁾ وقد اعتبر كل حكام بلاد المغرب وملوك أوروبا النشاطات التجارية لهؤلاء الوسطاء اليهود أساسية بالنسبة للتنمية الاقتصادية، لذا وقروا لهم الحماية أثناء الإضطرابات الاجتماعية أو السياسية⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ بوعزيز: موضوعات وقضايا... المرجع السابق، ص529.

⁽²⁾ بن خروف: العلاقات الاقتصادية... المرجع السابق، ص54.

⁽³⁾ بن خروف: المرجع السابق، ص54. وكذلك: شقدان، المرجع السابق، ص199.

⁽⁴⁾ عبد الرحمن بشير: اليهود في المغرب العربي (462-22هـ/642-1070م)، 2001م، ص86. وأيضا: عبد الله أيت

ايشو، "معالم من حياة اليهود المغاربة"، مقال نشر في مجلة كان التاريخية الإلكترونية، السنة 2، ع3، ربيع الأول1430هـ/مارس2009م، ص15.

⁽⁵⁾ فمثلا خلال القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي وضع ملوك أراغونة الحرسين على تموينهم بذهب السودان

الذي اتخذ طريقه عبر سجلماسة وتلمسان ثم جزيرة مايورقة تحت حمايتهم اليهود المنظمين لهذه المبادلات. أنظر عيسى

شنونف: يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود، نشر دار المعرفة، الجزائر، 2000، ص72.

خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ميلادي، تنوع تجار تلمسان من مسلمين ومسيحيين ويهود، وكان اليهود هم الأقوى ماليا، يسيطرون على التجارة البحرية بين تلمسان وأوروبا، ويعملون أيضا بالتجارة البرية مع إفريقيا جنوب الصحراء، وقد اقتصوا بصناعة الذهب والفضة والصيرفة والقروض والأسلحة والتوابل والحديد والعيبد، لذلك سكنوا مدن الساحل بالإضافة إلى قصور في الصحراء للوصول إلى بلاد السودان⁽¹⁾

فمثلا كان يسكن في قصر تمنطيط بالجنوب الجزائري جالية يهودية مهمّة سيطرت في هذه الفترة على مرافق التجارة في توات، مما دفع بالشيخ محمد عبد الكريم المغيلي إلى طردهم⁽²⁾. لقد كانوا يمارسون الوساطة مع إفريقيا السمراء، كما كانوا على علاقة أعمال وطيدة بيهود وهران وتلمسان، حيث يبيعونهم مسحوق الذهب وريش النعام مقابل القمح والنحاس، هذا في الغرب الجزائري، أما بشرقه فقد كان يهود قسنطينة الجوّالون ينتقلون بسلعهم رفقة القوافل الكبيرة، إلى مناطق الجنوب باتجاه تقرت وقفصة وتوزر وغيرها⁽³⁾.

ومما يدل على مرافقتهم للقوافل التجارية، صدور رخصة من الحاخامات تسمح لهم بمواصلة السفر يوم الشباط⁽⁴⁾، شريطة أن يكون السفر قد شرع فيه منذ ثلاثة أيام على الأقل، حيث أن مخالفتهم راحة الشباط كان يشكل لهم عائقا دينيا⁽⁵⁾.

ومع مرور الوقت تمكّن يهود الجزائر، من السيطرة على معظم المبادلات التجارية، حتى قيل إنه لن تتم مبادلة أو صفقة تجارية بين تاجر وآخر، إلا إذا توسّط يهودي فيها. فكانت التجارة الداخلية خاضعة لهم، إذ كانوا يُرسلون القوافل من مدينة الجزائر إلى قسنطينة وتلمسان وهران وعنابة، محمّلة بالأقمشة والحريز والخردوات الأوروبية. وقد امتدّ نشاطهم في أواخر القرن السابع عشر إلى المدن التونسية والمغربية وطرابلس، مما ساعدهم على كسب أرباح طائلة، وصلت أحيانا إلى 400%، ويرجع

(1) شقدان: المرجع السابق، ص 194.

(2) زيادة: مملكة سنغاي...، المرجع السابق، ص 213.

(3) شنوف: المرجع السابق، ص 71.

(4) شباط: فترة راحة عند اليهود تبدأ من غروب شمس يوم الجمعة وتنتهي يوم السبت بحلول الليل. أنظر: شنوف، المرجع

نفسه، ص 222.

(5) نفسه، ص 71.

سّر نجاح اليهود في تجارتهم إلى ذكائهم وأساليبهم المتعددة، وإلى تلك الرعاية والحماية التي وجدوها لدى بعض حكام الجزائر⁽¹⁾.

ورغم ما أصاب العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء من ضعف في القرن الثامن عشر ميلادي، إلا أن اليهود تمكّنوا من السيطرة على التجارة بين الإقليمين والتحكّم فيها⁽²⁾، ولذلك توغّلوا من الشمال حتى أواسط إفريقيا، فشاركوا بعض التجار الأفارقة في تجارة التّبر، وتعاملوا في ذلك مع بني دينهم المستقرين في تيميمون وتوات ومثليي⁽³⁾.

ويلاحظ الباحث تواجدهم بقوة في أسواق مدينة الجزائر، حيث يزاولون النشاط التجاري، أو الحرفي الذين يرغبون فيه، ويمتلكون محلات في كثير من أسواقها، كسوق الحوت، وسوق السمّن، وسوق الملح، وسوق الصياغة وغيرها⁽⁴⁾.

لكن دور اليهود في التجارة بالجزائر ما لبث أن تطوّر واستفحل أمره في أواخر العهد العثماني، بسبب وضع الأتراك ثقّتهم المطلقة فيهم، حيث ساهموا إلى حد كبير في تدهور الأوضاع السياسية والإقتصادية، ابتداء من أواخر القرن الثامن عشر، إذ كانوا وراء كل التوتّرات والإضطرابات التي نشبت داخليا بين الحكام والجيش، وخارجيا بين الجزائر والدول الأوروبية⁽⁵⁾.

لقد واصل اليهود نشاطهم التجاري بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر، حيث يتحدث "رولفس" عن الإخوة "كوهن (Cohen)" من الجزائر العاصمة في السنوات الأولى للإحتلال، والذين يُتاجرون في ريش النعام منذ سنوات طويلة، كانوا يشترون في كل عام ما قيمته من 60 إلى 80 ألف فرنك من ريش النعام (depouilles d'autruche)، إما بأنفسهم أو بواسطة وكلائهم في تلمسان، وفقيق أوتافيلالت، والمنيعّة، وورقلة، والأغواط⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ شويتام: نهاية الحكم ...، المرجع السابق، ص 119.

⁽²⁾ شنوف: المرجع نفسه، ص 74.

⁽³⁾ كمال بن صحراوي: الدور الدبلوماسية ليهود الجزائر في أواخر عهد الدايات، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر،

2009م، ص ص 62-63.

⁽⁴⁾ بن صحراوي: المرجع نفسه، ص 64.

⁽⁵⁾ شويتام: نهاية الحكم ...، المرجع السابق، ص 117.

⁽⁶⁾ Rohlf: op-cit, p98 .

ب. واقع التجارة الخارجية:

1. المبادلات:

1.1- مع المغرب الأقصى:

رغم شح المصادر التي تُؤرِّخ للمبادلات التجارية بين البلدين، وتعدُّ صفو العلاقات السياسية بينهما في كثير من الأحيان، إلا أنه كان هناك تبادلا لبعض السلع بشكل فردي وليس رسمي، وبالتالي هناك بعض المواد التي تستوردها الجزائر من المغرب⁽¹⁾ مثل: العسل، والصابون، والذهب، والأحجار الكريمة، وقصب السكر⁽²⁾، والجلود المدبوغة في تافيلالت، والبلغات الجلدية، والحياك الصوفية، والحديد، والنحاس⁽³⁾، والقطن، والخرداوات، والأمشاط، والشواشي، والأقمشة الحريرية، والخيول، والنقود، والسرغين، والبخور وغيرها⁽⁴⁾.

وبالمقابل كانت الجزائر تُصدّر إلى المغرب عن طريق البر، وبواسطة القوافل التجارية، الحبوب⁽⁵⁾، والسيوف، والخناجر، والأقمشة الهندية والقسطنطينية، الحرير المجلوب من تونس، والأقمشة الصوفية المصنوعة في واحات الجزائر، كالبرانس، والحياك، ودواب الركوب، والماشية، ولوازم السفر كالبرادع، والحبال، والملابس والتمر، والدروع وغيرها⁽⁶⁾.

أما عن حجم المبادلات التجارية بين البلدين، فإن المصادر والوثائق المتعلقة بهذه الفترة لا تعطينا صورة واضحة، إلا أننا نظن بأن حجم المبادلات لم يكن كبيرا، قياسا مع حجم مبادلات البلدين مع الدول الأوروبية⁽⁷⁾.

(1) بن مصطفى: المرجع السابق، ص 50-51. وأيضا: جودت عبد الكريم يوسف، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية،

سلسلة الدراسات الكبرى، م.و.ك، الجائر، 1984م، ص 208.

(2) اشتهرت به بلاد السوس، التي تتواجد بما العديد من معاصره، فكان يُصدّر إلى جميع بلاد المغرب والأندلس وإفريقيا.

أنظر: بن مصطفى: المرجع نفسه، ص 50-51.

(3) فاقت جودته كل أنواع النحاس الأخرى من منطقة داي- قرب جبل درن- أنظر: بن مصطفى: المرجع السابق، ص 51.

وأیضا: عبد الكيم يوسف، المرجع السابق، ص 209.

(4) بن خروف: الأوضاع الاقتصادية...، ج 2، المرجع السابق، ص 59-60.

(5) وهذا لانخفاض أسعارها، ووجود فائض منها خاصة بمنطقة تنس، التي كانت تخرج منها الأطعمة ليس نحو المغرب

الأقصى فقط بل إلى الأندلس وإفريقيا جنوب الصحراء. أنظر: بن مصطفى: المرجع نفسه، ص 51

(6) بن خروف: المرجع نفسه، ج 2، ص 59-60.

(7) نفسه، ص 61.

1.2- مع تونس:

رغم قلة المصادر التي تعطينا صورة متكاملة عن التبادل التجاري بين البلدين، إلا أننا يمكن أن نستنتج بعض الأمور الأساسية كالعامل السياسي الذي كان له دور أساسي في ازدهار أو انكماش التبادل التجاري سواء مع الناحية الشرقية أو الغربية أو كلاهما معا، وكذا المحاصيل والمنتجات المستوردة والمصدّرة⁽¹⁾.

وقد كانت تجارة الشرق الجزائري مع تونس وإفريقيا جنوب الصحراء تساهم بقسط وفير في تنشيط التجارة الداخلية، على الرغم من أن جُل المواد المتداولة في عمليات البيع والشراء تُعتبر من الكماليات بالنسبة لأهالي قسنطينة⁽²⁾.

فقد كانت القوافل التجارية الذاهبة إلى تونس، تنطلق من مراكز أساسية بالشرق الجزائري وتعود إليها وأهمها: قسنطينة، والوادي، وتقرت، وورقلة. وكانت المواصلات بين هذه الأسواق الرئيسية والأسواق المقابلة لها في تونس منظمة تنظيما دقيقا بحيث أن التاجر يجد يوميا، قافلة يسافر معها ذهابا وإيابا عبر مسالك عديدة⁽³⁾.

فمن بين ما تُصدّر الجزائر نحو تونس من قسنطينة شهريا قافلة تتكون من حوالي ثلاثمائة بغل، تحمل الصوف، والجلود، والتمور المجلوبة من الواحات، والشواشي⁽⁴⁾، و السفرجل، والعسل، والتين، وبعض الفواكه، والقمح، والشعير في سنوات الخصب التي كانت تصيب المنطقة من فترة لأخرى كما هي الحال بالنسبة لباقي الجزائر، وبعض المصنوعات⁽⁵⁾.

أما واردات الجزائر من تونس فيمكن حصرها في: المصنوعات الأوروبية، والعمود، وبعض المنتوجات المحلية والأجنبية مثل: والقهوة، والأقمشة الحريرية، والفسق، والأحجار الكريمة، والشمع، والمرجان، والملح، والأسماك المملحة، والصابون، والحديد، كما نستبعد استيرادها للتوابل، والمنسوجات الحريرية، والقطن، والعمود القادمة من بلاد المشرق باعتبار أن تونس كانت تؤدي دور الوسيط

⁽¹⁾ بن مصطفى: المرجع السابق، ص ص 49-50 .

⁽²⁾ الزين: المرجع السابق، ص 191.

⁽³⁾ الزيري: المرجع السابق، ص 152.

⁽⁴⁾ الزيري: نفسه، ص 153.

⁽⁵⁾ بن مصطفى: المرجع نفسه، ص ص 49-50 .

التجاري بين الشرق الإسلامي وغربه⁽¹⁾. وتشير المصادر أن قافلة قسنطينة هذه تحقق دائما أرباحا تزيد عن نصف رأس مالها. وإلى جانب ذلك كانت تعود بالمواد اللازمة لتلبية حاجيات السكان⁽²⁾.

كما كان للجزائر مبادلات تجارية مع تونس بواسطة قافلة وادي سوف⁽³⁾، والتي تتم في معظمها مع منطقة الجريد التونسي، حيث تُصدّر لها الجزائر: التمور الجديدة، والتبغ بنوعيه الرطب والقوي، والمظلات من سعف النخيل، والأقمشة الصوفية العادية⁽⁴⁾.

وتجلب منها مجموعة كبيرة من المصنوعات المحلية والأوروبية أهمها: البزازه، والمواد العطرية، والأقمشة الحريرية، والأسلحة، والكبريت⁽⁵⁾. والشاي، والسكر، والتوابل، والقهوة من قابس، بالإضافة بالإضافة إلى الحياك، والزراي، والأواني الطينية كالقلال، وأصبحت هذه الوجهة التجارية بعد تقييدها من طرف فرنسا أقل أهمية، ولقد كانت سوف بالنسبة للتجارة مع تونس منطقة عبور تجارية من قابس نحو الواحات الصحراوية والمغرب، واستمرت المبادلات التجارية بين تونس وسكان الصحراء رغم الصراع بين فرنسا والدولة العثمانية للتحكم في طرق تجارة القوافل الصحراوية ما بين طرابلس من جهة مع تونس والجزائر من جهة أخرى⁽⁶⁾.

إضافة لما ذكرنا حول المبادلات التجارية بين الجزائر وتونس عبر أسواق قسنطينة ووادي سوف، فقد كانت هناك أيضا مبادلات بين الطرفين عبر أسواق تقرت وورقلة. فتقرت التي تعرف بمدينة الرخاء والثروة، يعتبر سوقها ثالث أسواق الواحات بعد الوادي وورقلة، حيث يحمل تجارها إلى الجنوب التونسي التمور، والأقمشة الصوفية التي ينتجها وادي ريغ بكثرة. ويجلبون منها الأقمشة القطنية، والعطريات المستوردة من أوروبا. أما ورقلة فكان تجارها يسافرون باستمرار إلى غدامس، التي تلتقي في سوقها قوافل تونس وطرابلس والسودان والجزائر، تتبادل ما عندها من السلع ثم تعود إلى منطلقاتها. لقد كانت القافلة التجارية تخرج من ورقلة محملة بالأقمشة الحريرية والقطنية، وبالتمور والحبوب،

⁽¹⁾ نفسه، ص ص 49-50 .

⁽²⁾ الزيري: المرجع السابق، ص 153.

⁽³⁾ الوادي: هي عاصمة منطقة سوف، وأكبر مدنها. عرفت في ذلك الحين، كأكبر سوق يؤمها التجار من مختلف

الواحات، وتشمل على أكثر من ثلاثمائة حانوت. أنظر: الزيري، نفسه، ص 154.

⁽⁴⁾ نفسه، ص 154.

⁽⁵⁾ الزيري: المرجع السابق، ص 155.

⁽⁶⁾ زقب: المرجع السابق، ص ص 110-111.

والزيت، والأسحة. ثم تعود وقد استبدلتها بالتبر والعبيد، وجثث النعام، والعاج، والبخور وغيرها من المنتوجات الإفريقية⁽¹⁾.

1.3- مع ليبيا:

كانت للجزائر علاقات تجارية مع ليبيا كذلك، حيث تصدر إليها بواسطة قوافل وادي سوف التبغ، والبرنوس، والغزال، والغرس، وعسل النخيل، والملح، والحايك، وقندورة الصوف، وزيت الزيتون المجلوب من تونس والشمع القادم من بسكرة، أما الواردات فكانت العبيد⁽²⁾، والمجوهرات والتبر، وأنياب الفيل، والنعام، وجلد الفهود الملونة والمصنوعة، والأنسجة السودانية، وكذا البخور، والعسل، والحريز⁽³⁾. متخذة عدة مسالك رئيسية أو فرعية، منها: مسلك الوادي- غدامس، مسلك ورقلة غدامس إلى طرابلس عبر جنوب وادي سوف، مسلك وادي سوف- غات⁽⁴⁾.

إن فرض فرنسا بالقوة بعد نهاية الحرب العالمية الأولى لمرسوم 15 جويلية 1906م الذي يمنع ويحرم تجارة العبيد، أدى إلى تراجع التجارة وضعفها بين الجزائر وخدامس الليبية، لكن رغم ذلك بقيت نسبة من بدو وادي سوف يبيعون للخدامسية الغزال، والخشب، وجزء من محصول التمر الذي يجلبونه من عميش، والعقلة، أو سلع أخرى بقيمة قليلة، علب كبريت، سجائر... الخ، والتي تمكنهم من تحصيل فائدة صغيرة، ومن غدامس يتم تهريب رصاص الحرب وأحيانا "بندقية ستاتي" ويُمارس التهريب في سوف قبائل الشعابنة والقطاطة من أجل تأمين معيشتهم⁽⁵⁾.

1.4- مع المشرق الإسلامي:

أكد صاحب الإستبصار وجود علاقات تجارية بين الجزائر وبلاد المشرق حين ذكر بأن سفن المسلمين كانت ترسو في ميناء بجاية قادمة من الإسكندرية⁽⁶⁾، ونجد عبد الكريم جودت يوفينا ببعض السلع التي يمكن لتجار الجزائر أن يكونوا قد استوردوها من المنطقة، كالسيوف، والصمغ، واللؤلؤ من

⁽¹⁾ الزبير، المرجع السابق، ص 156-157.

⁽²⁾ شالر: المصدر السابق، ص 104.

⁽³⁾ زقب: المرجع السابق، ص 111-112.

⁽⁴⁾ بوعزيز: مع تاريخ الجزائر...، المرجع السابق، ص 138. وأيضا: الزبير، المرجع السابق، ص 164.

⁽⁵⁾ زقب: المرجع نفسه، ص 112.

⁽⁶⁾ بن مصطفى: المرجع السابق، ص 51.

اليمن، وخشب الساج، والرخام من بغداد، والوشى من الكوفة، إضافة إلى التحف والطرائف لتزيين القصور والتي تعدتها إلى بلاد الأندلس، وماء الورد والكافور وغيرها⁽¹⁾.

كما يورد وليام شالر في تقرير له سنة 1822م مبلغ مائة ألف دولار إسباني حجم واردات الجزائر من بلدان المشرق الإسلامي ممثلة في مادة الحرير الخام⁽²⁾.

1.5- عبر البحر:

إن الطبيعة الجغرافية للجزائر جعلت من البحر المتوسط الرابط التجاري الأساسي والوحيد بينها وبين دول جنوب أوروبا (إسبانيا، فرنسا، إيطاليا)، خاصة إذا علمنا أن الملاحة المتوسطية كانت أيسر من الأطلسية⁽³⁾. فقد تقابلت أراضي الجزائر وموانئها مع أهم موانئ دول جنوب أوروبا، فمنذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أخذت السفن الشراعية الكبيرة تنطلق من نابولي، والبندقية، وجنوة، وبيزا، ومرسيليا، إلى موانئ بلاد المغرب، وبخاصة عنابة، وتونس، وصفاقس، وطرابلس، حيث تجرى مقيضة السلع المصنوعة بالعبيد، وزيت الزيتون، والمرجان، والمنتجات الأخرى. وكان الإيطاليون في هذا المجال هم الأكثر نشاطا. وهذا الرخاء التجاري الكبير الذي حققه سكان المغرب الإسلامي في ذلك الوقت كان يُعزى إلى حد كبير إلى التجارة مع إيطاليا من جهة، ومع إفريقيا جنوب الصحراء من جهة أخرى⁽⁴⁾.

لقد عرفت المراكز التجارية على جانبي الصحراء الكبرى ارتباطا وثيقا بالحوضر الكبرى، شمال الصحراء وجنوبها، واتصلت بطرق التجارة العالمية البرية والبحرية، فكانت لها صلات بموانئ سواحل البحر الأبيض المتوسط، والبحر الأحمر، والمحيط الهندي⁽⁵⁾.

كانت واردات الجزائر من أوروبا متنوعة وغير قارة، ولا تخضع لحاجيات الجزائريين فقط، بل تراعي ما تحتاجه دواخل الصحراء وبلاد السودان باعتبارها الواسطة التجارية بينها وبين أوروبا، إذ كان التاجر

(1) بن مصطفى: المرجع السابق، ص ص51-52.

(2) شالر: المصدر السابق، ص102.

(3) بن مصطفى: المرجع نفسه، ص ص82-83.

(4) بوفيل: تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير، ترجمة الدكتوران الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، ط 2، منشورات جامعة

قاريونس، بنغازي، ليبيا، 1988م، ص182.

(5) الدالي: المرجع السابق، ص295.

الجزائري يبعث إلى الصحراوي بما يرسم له من السلع، وذاك يرسل له بالجلود، والعاج، والتبر، وغيره⁽¹⁾.
وقد أظهر التقرير القنصلي لوليام شالر (W.Shaler) في سنة 1822م⁽²⁾ الميزان التجاري للجزائر كما هو مبين في الجدولين التاليين:

واردات الجزائر من الدول الأوروبية

المصدر الأصلي	البضائع	القيمة بالدولار الإسباني
بريطانيا	بضائع مصنوعة	500.000
إسبانيا	حرير - سكر - فلفل - قهوة	300.000
فرنسا	سكر - قهوة - فلفل - الأقمشة	200.000
فرنسا - إيطاليا	أحجار كريمة - حرير - ماس - مجوهرات	100.000
الم - ج - م - و ع :		1100.000

صادرات الجزائر إلى مرسيليا وليفورنة وجنوة

الكمية المصدرة	البضائع	القيمة بالدولار الإسباني
20.000 قنطار	الصفوف بسعر 8 دولارات للقنطار	160.000
10.000 قنطار	الجلود الخام بسعر 8 دولار للقنطار	80.000
600 قنطار	الشمع بسعر 30 دولار للقنطار	18000
	ريش النعام ومواد مختلفة قليلة القيمة	1500
الم - ج - م - و ع		273.000

⁽¹⁾ بن مصطفى: المرجع السابق، ص ص 92-93.

⁽²⁾ شالر: المصدر السابق، ص ص 102-103.

والملاحظ من خلال الجدولين أن تجارة الجزائر مع أوروبا كانت متواضعة، وكانت الدول الأوروبية وبالخصوص فرنسا، تستورد من الجزائر المواد الأولية المتوفرة بكميات تجارية كالأصواف، والجلود، والشمع، والزيت، والحبوب، مقابل تصدير المواد الكمالية والترفيهية كالعطور، والمصبرات من فرنسا، والزليج من إيطاليا، والعتاد الحربي من إسكندنافيا، والرصاص، والأقمشة القطنية من إسبانيا، والسكر، والقهوة، والأقمشة من إنكلترا عن طريق جبل طارق⁽¹⁾.

لقد اضطر الأوروبيون أن يتعاملوا مع الجزائر كوسيط تجاري بينهم وبين إفريقيا جنوب الصحراء لأسباب عدة أهمها انعدام الأمن في المسالك التي تؤدي إلى دواخل إفريقيا، بسبب الأعراب الذين كانوا يتربصون بكل من يمر عبرها⁽²⁾، ولعدم معرفة أولئك التجار بالمسالك التي قد تفضي بهم إلى التيه والهلاك⁽³⁾.

لكن هذه الوضعية لم تدم طويلا في العصر الحديث جراء تغيّر طرق التجارة الدولية إثر دخول أوروبا مرحلة النهضة الصناعية، وما صاحبه من تدخل أوروبي وفرنسي في إفريقيا شمال وجنوب الصحراء الكبرى، قصد السيطرة على تجارة القوافل العابرة للصحراء، وتوجيهها بما يخدم مصالحها الخاصة، خاصة بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر.

ثالثا: نتائج وانعكاسات السياسة الفرنسية:

أ. النتائج السياسية:

1- في الجزائر:

إجتهد منظرو الإستعمار الفرنسي بعد احتلال الجزائر في إيجاد أحسن الطرق، والإهتمام إلى أنجح السياسات لإدارة هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف والإبقاء على وحدتها، فكانت سياسة

(1) هلايلي: المرجع السابق، ص 161.

(2) يعطينا الحسن الوزان مثلا عن منطقة أجاد- الواقعة إلى الجنوب من مدينة وجدة الحالية، وهي تخضع لسلطة المغرب

الأقصى - والتي كانت مأوى لعصابة لصوص من الأعراب. أنظر الوزان: المصدر السابق، ص 11.

(3) بن مصطفى: المرجع السابق، ص 87.

الإشراك وسياسة الإدماج هما أشهر النظريات السياسية التي شغلت بال الإستعمار الفرنسي نظريا وتطبيقيا⁽¹⁾.

وكانت المستعمرات الفرنسية بالنظر إلى تعدد أنواعها واختلاف طبائعها تتبع إما وزارة الخارجية كتونس والمغرب، وإما وزارة الحربية والداخلية كالجائر، وإما وزارة المستعمرات بالنسبة لبقية البلدان؛ لكنها حُكمت جميعا حُكما غير مباشر باستثناء الجزائر التي حُكمت حُكما مباشرا بواسطة الولاية العاملين أوالمقيمين الذين حُوّلوا سلطات واسعة⁽²⁾.

مباشرة بعد تمكن فرنسا من احتلال العاصمة أخذت تنتهج سياسة أقل ما يقال عنها أنها إستيطانية وعنصرية، ضاربة عرض الحائط عهودها ووعودها باحترام ديانة الجزائريين وممتلكاتهم، حيث أخذت تحتلق الأعذار، وتضع القوانين لترحيل الفلاحين عن أراضيهم، وفرض ضرائب مجحفة في حقهم، تطبيقا لقانون 16 جوان 1851م حول الملكية العربية⁽³⁾.

لقد طبقت فرنسا في الجزائر سياسة الإدماج التي تهدف إما إلى إذابة السكان بحملهم على تبني لغة المستعمر وعاداته وطريقة تفكيره، أو بواسطة تطبيق تشريع واحد على الجميع. وتنفيذا لهذه السياسة أُلحقت الجزائر بفرنسا واعتبرتها " جزء لا يتجزأ من أراضيها " وذلك بمقتضى مرسوم الرابع من أبريل 1848م، الذي يرمي إلى تطبيق جميع التنظيمات الإدارية الفرنسية على الجزائر⁽⁴⁾. كما قامت بالتضييق على الحبوس (أملاك الوقف)، ومراقبة مداخيل المساجد، كما تدخلت في الأملاك الخاصة للأشخاص، بإلزامهم تقديم وثائق رسمية عليها بها إمضاء وختم الدايات السابقين. وحتى الأملاك الجماعية (العرش) لم تنج من هذه الإجراءات التعسفية، قصد نزعها من ممتلكيها، ومنحها للأوروبيين المهاجرين إلى الجزائر تشجيعا لهم على الإستيطان، أوضمها إلى أملاك الدولة الفرنسية⁽⁵⁾.

وهذا معناه وضع الجزائر بين أيدي المعمرين الذين عملوا خلال ربع قرن من الإستعمار على فرنسة الجزائر أرضا وتشريعا وثقافة لحو جميع المعالم المميزة للمجتمع الجزائري، حتى تغدو جمهورية

⁽¹⁾ عبد الحميد نوزو: تاريخ الإستعمار والتحرر في إفريقيا وآسيا، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م، ص75.

⁽²⁾ نوزو: المرجع نفسه، ص ص75-76.

⁽³⁾ Crouzet : op.cit, p11

⁽⁴⁾ نوزو: المرجع السابق، ص77.

⁽⁵⁾ Crouzet : ibid, pp11-12.

فرنسية مصغرة لا مكان فيها سوى للأوروبيين، ولا اهتمام فيها إلا بمصالحهم، ولا رأي لأحد فيها سوى لرأيهم⁽¹⁾.

هذه السياسة نتج عنها الحرمان والبطش، فقد فرضت فرنسا القوانين التشريعية لكي تستولي على كل مظاهر الحياة الاقتصادية في الجزائر، مما أدى إلى تقويض أركان الإقتصاد المحلي تدريجيا، كما أثقلت كاهل الأهالي بفرض الضرائب المرتفعة والمتنوعة مما دفع بهم إلى رهن وبيع ممتلكاتهم وأراضيهم فأصبحوا يعملون فيها بأجور زهيدة، محرومين من كل الحقوق كأنهم أجنب في وطنهم⁽²⁾.

2 - في إفريقيا جنوب الصحراء:

أما في إفريقيا جنوب الصحراء، فقد انتهجت فرنسا أسلوب مراقبة المنطقة عن طريق إقامة جماعة من التجار الفرنسيين بالمراكز التجارية التي أنشأها التجار الفرنسيون كغيرهم من البريطانيين والهولنديين، وقد عملوا في بداية الأمر في تجارة العبيد بين غرب إفريقيا والعالم الجديد، ثم اشتغلوا بعدها بمواد أخرى؛ لقد كانت فرنسا أكثر اتصالا بتجارها وشركاتها في إفريقيا، فكانت تشرف على أعمالهم وتعيّن لهم القناصل الذين كانوا يستعملون نفوذهم من أجل الحصول على المعاهدات المربحة مع الملوك ورؤساء القبائل⁽³⁾.

فمنذ عام 1817م، أخذت فرنسا تتوسع في حوض السنيغال إلى الداخل للإستيلاء على المزيد من المناطق والسيطرة عليها، وكان المغامر الفرنسي "رينيه كاييه" قد بدأ منذ عام 1815م تسلله إلى غينيا وتمبكتو، إنطلاقا من المغرب الأقصى، ممهدا لتوسع الفرنسيين إلى غابات غينيا وأدغالها⁽⁴⁾.

واصلت فرنسا هذه السياسة في إفريقيا جنوب الصحراء حتى منتصف القرن التاسع عشر، ففي سنة (1271هـ/1854م) عُيّن الجنرال "فريدريش (Faidherbe)" حاكما على إقليم السنيغال، فكان أول عمل قام به هو تدعيم هذه المراكز وجعلها امتدادا لسياسة فرنسا، لذا أصبح نفوذ فرنسا قويا بالسنيغال الذي تحوّل إلى مستعمرة حقيقية؛ ومنه زحفت إلى الداھومي (البنين حاليا) وأعالى

(1) زوزو: نفسه، ص78.

(2) إبراهيم مياسي: توسع الإستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912م)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور مولاي بلحميسي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1986-1987م، ص187.

(3) حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص449.

(4) بوعزيز: موضوعات وقضايا...، المرجع السابق، ص41.

النيجر، حيث استطاعت فرنسا في الفترة بين عامي 1881 و 1883م السيطرة على المنطقة الممتدة من منابع النيجر إلى تمبكتو بمالي⁽¹⁾.

بعد انهزام فرنسا أمام ألمانيا سنة (1287هـ/1870م) في الحرب، وفقدانها الألزاس واللورين، أرادت تعويض مركزها المنهار في أوروبا، باتباع سياسة إستعمارية جديدة واحتلال مناطق جديدة في إفريقيا وتأسيس إمبراطورية فرنسية جديدة، نظرا لانشغال ألمانيا بوحدها الداخلية، وبريطانيا بتجارها في كندا وأستراليا.

ولقد ظهر التحول واضحا في السياسة الفرنسية في عهد "فرسينيه (Freycinet)" الذي تولى رئاسة الحكومة في ديسمبر من سنة 1871م، بالرغبة في التوسع خارج الحدود، والبحث عن امتداد جديد لفرنسا في إفريقيا جنوب الصحراء. فانتهجت سياسة الغزو العسكري واستعمال القوة خاصة عندما تولى "برني ديسبورد(Borgnis des Bordes)" القيادة العسكرية سنة 1880م⁽²⁾.

لقد تميز التدخل الفرنسي في غرب إفريقيا بالطابع العسكري أكثر مما عملت به بريطانيا في أعالي النيجر، نظرا لما تميز به العسكريون الفرنسيون من حرية العمل والتحرك، وقد اهتموا بمساحة الأرض أكثر من نوعيتها، وكان هدف السياسة الفرنسية يقضي بربط موانئ إفريقيا الساحلية على المحيط بالأراضي التي حصلت عليها في السودان، وأن تعمل على احتلال نهر النيجر بالقدر الذي يوصلها إلى ميناء يتصل بالمنطقة الصالحة للملاحة من نهر النيجر حتى المحيط الأطلسي⁽³⁾.

فقد قررت فرنسا في عام 1898م⁽⁴⁾ أن تحتل كل المنطقة من السودان الأوسط والشمال، لهذا الغرض قامت بثلاث حملات عسكرية لتنفيذ ذلك، بدأت الأولى من الجزائر بقيادة الكابتن "لامي(Lamy)"، وبدأت الثانية من الكونغو الفرنسي وتحركت الثالثة من السنغال بقيادة الكابتن "فوليت وشانون(Foulet et Chanoine)"⁽⁵⁾.

(1) بوعزيز: نفسه، ص ص 41-42.

(2) حوتية: نوات والأزواد، المرجع السابق، ص 450.

(3) حوتية: المرجع نفسه، ص 453.

(4) وقعت فرنسا مع بريطانيا في 14 جويلية 1898م قبلت بمقتضاها ادعاءات بريطانيا في دولة سوكتو. أنظر:

عبد الله عبد الرازق إبراهيم، "المسلمون والإستعمار الأوروبي لإفريقيا"، مقال نشر في سلسلة كتب عالم المعرفة، ع 139، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو 1989م، ص 25.

(5) عبد الله عبد الرازق إبراهيم: "مؤتمر برلين وآثاره على الخريطة السياسية لغرب إفريقيا"، مقال نشر في مجلة الدراسات

الإفريقية، د.ع، د.م.ن، د.ت.ن، ص ص 42-43. وأيضا: عبد الرازق إبراهيم، "المسلمون والإستعمار..."، المرجع نفسه، ص 26.

ب- الإنعكاسات السياسية لمؤتمر برلين (1884-1885م)⁽¹⁾:

كان موضوع إتفاقية برلين هو اقتسام القارة الإفريقية بين الدول الموقّعة على الإتفاقية، كلاً حسب نفوذها الإقتصادي والسياسي في تلك المرحلة⁽²⁾. فلقد أسفر مؤتمر برلين على الصعيد السياسي على عدة نتائج⁽³⁾ كان لها انعكاسات مباشرة على القارة الإفريقية منها:

تم اقتسام إفريقيا وفق أهواء ونفوذ الدول الأوروبية؛ بشكل ينسجم مع مواقفها، دون الأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات الإثنية والعرقية للمناطق المحتلة.

أقيمت على الأرض الإفريقية مؤسسات سياسية غريبة في تكوينها وأطرها عن المجتمعات الإفريقية المحلية⁽⁴⁾.

- أعطى المؤتمر إقراراً دولياً لوضع كان موجوداً بالفعل⁽⁵⁾.

أما فيما يخص فرنسا وسياستها المنتهجة في إفريقيا جنوب الصحراء بعد مؤتمر برلين، فقد عملت بعد بسط نفوذها على شمال الجزائر وتوغلها في الصحراء، على الإستيلاء على المناطق الداخلية فيما وراء الجزائر حتى الحدود الشمالية لمجال نفوذ شركة النيجر الملكية، والإمتداد إلى الجانب الغربي من بحيرة تشاد. كما حرصت في نفس الوقت على عدم تدخّل أية قوة أوروبية ما بين ممتلكاتها في الجزائر،

⁽¹⁾ إنعقد هذا المؤتمر العالمي الأوروبي في الفترة من 15 نوفمبر 1884م إلى 26 فبراير 1885م، ليقرر مستقبل الكونغو،

وتنسيق النشاط الأوروبي في إفريقيا، وحضره ممثلو أربعة عشر دولة أوروبية ما عدا سويسرا، وحضرته الولايات المتحدة بصفة مراقب، وعقد عشر جلسات كاملة، لمعلومات أكثر أنظر: محمد موسى: المرجع السابق، ص 133. وأيضا: عبد الرازق إبراهيم، "المسلمون والإستعمار..."، المرجع السابق، ص 20.

⁽²⁾ أمين إسبر: إفريقيا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، دار دمشق للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1985 ص 125-126.

⁽³⁾ من أهمها الإتفاق على ما يلي: ضرورة قيام أية دولة أوروبية، تريد استعمار أرض إفريقية بإخطار الدول بالأراضي التي تضع يدها عليها. حياد إقليم حوض الكونغو وحرية التجارة فيه. حرية الملاحة في حوض نهر الكونغو والنيجر. مواصلة محاربة تجارة العبيد في إفريقيا. أي دولة سبق وأن ارتبطت بمعاهدات أو اتفاقات مع السكان الوطنيين يكون لها الحق في احتكار التجارة معهم دون تدخل دولة أخرى. ولأكثر تفاصيل أنظر: محمد موسى: المرجع السابق، ص 133-134. وأيضا حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص 454.

⁽⁴⁾ بدأت بريطانيا في يونيو 1885م تكوين محمية لها على ساحل نهر النيجر، وفي المنطقة الواقعة بين لاغوس والكاميرون، ثم توسعت شمالا لتصل إلى الدول الإسلامية في إمبراطورية الفولاني ودخولها في صراع معها. كما وقعت ألمانيا في نفس الفترة إتفاقية مع طوغو، وضعت بمقتضاها مناطق ملك طوغو الواقعة على الساحل الغربي لإفريقيا حتى لومي (Lome) تحت الحماية الألمانية، ثم قامت بثبيت أقدامها وتوطيد نفوذها هناك. لمعلومات أكثر أنظر: عبد الرازق إبراهيم، "المسلمون والإستعمار..."، المرجع السابق، ص 21.

⁽⁵⁾ إسبر: المرجع السابق، ص 126. وأيضا: عبد الرازق إبراهيم، المرجع نفسه، ص 21.

وإمبراطوريتها في النيجر⁽¹⁾. فقامت بمد نفوذها على حوض نهر النيجر وأعلنت حمايتها له مستغلة بذلك نتائج المؤتمر⁽²⁾، كما قامت في نفس الوقت بإبرام عدة إتفاقيات مع بريطانيا المنافسة الرئيسية لها في إفريقيا من أهمها:

- معاهدة 05 أوت 1890م: والتي منحت لفرنسا منطقة نفوذ تربط ممتلكاتها في الجزائر مع النيجر، كما منحتها كل المناطق التي تفصلها عن السنغال من جهة وعن الكونغو الفرنسي من جهة أخرى⁽³⁾

- إتفاقية أول فبراير 1903م: لرسم خط الحدود بين الحد الغربي لساحل الذهب (غانا حاليا)، والخط الشرقي لساحل العاج (كوت ديفوار حاليا).

- في 08 أبريل 1904م إتفاقين الأول بشأن نيوفو ندلاند وغرب ووسط إفريقيا، والثاني هو الإتفاق الودي بين الطرفين. وهو الإتفاق الذي أعلنت فيه فرنسا أنها لن تعرقل عمل إنجلترا في مصر، ونظير هذا أعلنت إنجلترا أنها لن تعرقل أعمال فرنسا في هذه الجهات⁽⁴⁾.

وتنفيذا لمخططاتها الإستعمارية في إفريقيا جنوب الصحراء بادرت فرنسا بعد مؤتمر برلين إلى ما

يلي:

- إستولت على مساحات كبيرة من إفريقيا بفضل إمكانياتها البحرية والبرية.
- ركزت جهودها ودعمت نفوذها على ساحل إفريقيا الغربي⁽⁵⁾، وفي عام 1893م تأسست رسميا مستعمرات فرنسية في ساحل العاج، وفي غينيا الإستوائية، وفي نفس العام دخلت القوات الفرنسية داهومي، وعزلت ملكها بيهانزن (Behanzin)، وهو آخر ملوكها المستقلين، وصارت داهومي منذ أوائل عام 1900م مستعمرة فرنسية⁽⁶⁾.

(1) عبد الرازق إبراهيم: "مؤتمر برلين..."، المرجع السابق، ص 42. وأيضا: عبد الرازق، "المسلمون والإستعمار..."، المرجع السابق، ص 26.

(2) حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص 450.

(3) مياسي: توسع الإستعمار الفرنسي...، المرجع السابق، ص 83-84. وأيضا:

Déporter :op.cit,p63

(4) عبد الرازق: "مؤتمر برلين..."، المرجع نفسه، ص 43.

(5) محمد موسى: المرجع السابق، ص 134-135.

(6) عبد الرازق: "مؤتمر برلين وآثاره..."، المرجع نفسه، ص 41. وأيضا: عبد الرازق: "المسلمون والإستعمار..."، المرجع نفسه، ص 24.

-توسّعت في حوض نهر السنغال، ودخلت وادي النيجر الأعلى واستولت على باماكو عام 1883م، بعد القضاء على مقاومة الشيخ أحمدو شيخو بن الحاج عمر⁽¹⁾.

-إحتلت مدينة تمبكتو عام (1312هـ/1894م)⁽²⁾.

-إصطدم الفرنسيون بقوات المجاهد المسلم ساموري توري، الذي نجح في توحيد قبائل الماندينجو في المنطقة الشاسعة ما بين حوض نهر الفولتا العليا(بوركينا فاسو حاليا) والنيجر سنة 1870م، لكن انتصروا عليه نهائيا عام(1316هـ/1898م) بعد سلسلة مواجهات عسكرية⁽³⁾.

وخلالها القول فإن مؤتمر برلين (1884-1885م) جاء لتتويجا لجهود ومحاولات القوى الأوروبية لتنظيم عملية التكالب والسيطرة على القارة الإفريقية⁽⁴⁾، فما إن بدأت بعض الدول الأوروبية الأوروبية في غزو مناطق من إفريقيا حتى سرّت هذه العدوى بين الدول الأخرى وخاصة تلك التي كانت متفوقة عسكريا، في سباق محموم للسيطرة على الأراضي الداخلية بإفريقيا متخذة من المراكز الساحلية الأصلية نقاط ارتكاز للتغلغل نحو الداخل⁽⁵⁾، بحيث استطاعت بعد المؤتمر وفي مدة قصيرة (أقل من عشرين عاما) أن تستولي على 90% من القارة باستثناء المغرب الأقصى وليبيا، مما أسفر عن تغيير ملامح الخريطة السياسية لقارة إفريقيا، حيث أن فرنسا التي كانت تحتل تونس منذ سنة 1881م، توسعت في السنيغال، واحتلت منطقة الكونغو الفرنسية، والصومال الفرنسي، وساحل العاج، وغيرها من المناطق شمال وجنوب الصحراء الكبرى، واستمر الوضع إلى قيام الحرب العالمية الأولى(1914-1918م)، التي انتهت بانهزام ألمانيا واقتسمت الدول الأوروبية مستعمراتها في إفريقيا،

(1) الشيخ أحمدو شيخو: هو نجل الحاج عمر الفوني التكروري زعيم الطريقة التيجانية في القارة الإفريقية وخليفة والده في

الحكم . أنظر: عبد الرازق إبراهيم، " المسلمون والإستعمار..."، المرجع السابق، ص24.

(2) كان لسقوط تمبكتو بيد الفرنسيين تأثير عميق في نفوس المسلمين لكونها كانت بلدا ذات الصيت في العالم الإسلامي،

أنظر حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص 462. وأيضا: عبد الرازق، " المسلمون والإستعمار... "، المرجع نفسه، ص24.

(3) لقد شهدت القارة الإفريقية في الفترة من عام 1891م حتى قيام الحرب العالمية الأولى، عدة مواجهات عسكرية بين

المجاهدين المسلمين والقوى الأوروبية منها: الحرب بين فرنسا وإمبراطورية التوكولور، وكذلك حروب الشيخ محمد الأمين ضد

الفرنسيين، وحروب حكام دولة سوكوتو ضد الترسع البريطاني، وحروب الشيخ رايح فضل الله ضد الفرنسيين في منطقة بحيرة

تشاد. لتفاصيل أكثر أنظر: عبد الرازق: " مؤتمر برلين... "، المرجع السابق، ص41. وأيضا حوتية: المرجع نفسه، ص 458.

وعبد الرازق: " المسلمون والإستعمار..."، المرجع نفسه، ص ص23-24.

(4) عبد الرازق: " مؤتمر برلين..."، المرجع نفسه، ص ص44-45.

(5) حوتية: المرجع نفسه، ص ص453-454.

حيث حصلت فرنسا على الجزء الباقي من توجولاند وضمته إلى داهومي، وعلى الجزء الأكبر من الكاميرون وضمته إلى إفريقيا الإستوائية الفرنسية، وستظل بصمات هذا المؤتمر وآثاره السياسية تنعكس على القارة الإفريقية حتى بعد استقلالها⁽¹⁾.

ج. النتائج الاقتصادية:

بعد مؤتمر برلين أصبح الجزء الأكبر من إفريقيا مقسما بين عدة دول أوروبية وهي بريطانيا وفرنسا والبرتغال وإسبانيا وألمانيا وبلجيكا، وقد كان صراع هذه الدول لبسط نفوذها على موارد إفريقيا المدارية وشبه المدارية المتمثلة في زيت النخيل، والمطاط، والأخشاب، ومنتجات غرب إفريقيا، والقيام بإنتاج زراعي لبعض المحاصيل مثل البن، والقطن، والكافور، وقصب السكر، وقد ارتبط ذلك بتطور الثورة الصناعية في أوروبا والتي كثر الطلب عليها، بالإضافة إلى الموارد الطبيعية التي تزخر بها الصحراء الإفريقية⁽²⁾.

لقد حاول مؤتمر برلين تنظيم العلاقات بين القوى الإستعمارية على أسس قانونية محددة، ولكن الذي حدث هو دفع عجلة التكاليف الإستعمارية على القارة الإفريقية، وأسفر في النهاية عن احتكار الدول الكبرى للتجارة في المناطق التي خضعت لنفوذها في تلك الجهات⁽³⁾.

أما في الجزائر فقد أسفرت سياسة فرنسا عما يلي:

1. تحويل التجارة التقليدية:

قام المارشال راندون (Randon) بإرساء قواعد السياسة الصحراوية الفرنسية في الجزائر بما يخدم مصالحها الاقتصادية، وهي تعتمد أساسا على معرفة الصحراء والنفوذ إليها اقتصاديا بمساعدة سكانها. وقد استمرت هذه السياسة بعده حتى سنة 1864م⁽⁴⁾.

لقد أضر الإحتلال الفرنسي للجزائر خاصة بعد توغله في الجنوب كثيرا بالمحاور الوسطى للمسالك التجارية، حيث تحولت نحو الشرق باتجاه الصحراء الليبية، فتحوّل الممر الرئيسي للقوافل التجارية الصحراوية إلى طرابلس الغرب - غدامس - غات - أغاديس - زندر - كانو. وأهم مركزين على هذا الطريق كانا غدامس وغات، فمن غات كان يمكن الذهاب إلى مرزق مركز فزان وإلى عين صالح مركز

(1) عبد الرازق: "مؤتمر برلين..."، المرجع السابق، ص 44-45.

(2) حوتية: نوات والأزواد، المرجع السابق، ص 472.

(3) عبد الرازق: "المسلمون والإستعمار الأوروبي..."، المرجع السابق، ص 21.

(4) تشايحي: المرجع السابق، ص 63.

الصحراء الجزائرية، ومن هناك أيضا يمكن الذهاب إلى تمبكتو والمغرب، أما غدامس فكانت المركز الرئيسي لهذا الممر. أين نلاحظ زيادة وتطور في التبادل التجاري مع هذه الجهات بين سنتي 1860 و1880م، والذي استمر حتى العشرية الأولى للقرن العشرين مما دفع بالفرنسيين في الجزائر إلى التحرك نحو المراكز المهمة على المسالك التجارية لجلب التجارة الصحراوية إلى الجزائر، وكان التحرك يتجه أولا إلى غدامس وغات بسبب تجارة إفريقيا جنوب الصحراء، وثانيا إلى عين صالح بسبب تجارة الصحراء الجزائرية⁽¹⁾.

فقد كان الحاكم العام للجزائر في ذلك الوقت شانزي (Chenzy) يرى أنه يجب اجتذاب الصحراويين إلى الجزائر بدلا من ذهاب الفرنسيين إلى الصحراء، ويتحقق ذلك بالتسهيلات الممنوحة للقوافل، وتأسيس معارض تجارية في جنوب الجزائر؛ ولتحقيق أفكاره تلك بعث بـ"فكتور لارجو (Victor Largeau)" في ربيع عام 1874م إلى غدامس قاصدا غات لينجز مهمة دورنو-دوبير، وهي تنظيم التجارة بين غدامس والجزائر؛ ولكن "لارجو" لم يصل إلى غات بسبب المواجهات المسلحة بين التوارق، فعقد اتفاقية مع الغدامسيين تنص على ما يلي: تأسيس العلاقات التجارية بين الغدامسيين والفرنسيين. معاملة التجار الفرنسيين معاملة حسنة في غدامس. الإقامة في المدينة على نفقتهم. عدم أخذ مكوس الدخول من التجار الفرنسيين. يذهب الغدامسيون إلى أسواق وادي سوف وتقرت إذا أعجبهم تلك العلاقات. لكن الباب العالي بعد أن علم بمحاولات "لارجو" أمر والي طرابلس بأن يحول دون إبرام أية عقود بين فرنسا والغدامسيين سواء بواسطة "لارجو" أو غيره⁽²⁾.

وقد جاء "لارجو" ثانية عام 1876م وشرح للغدامسيين أنهم حين يجيئون ببضائع السودان إلى وادي سوف وتقرت فإنها ستشترى منهم حسب أسعار طرابلس وضمن لهم أمن الطريق، ولكنهم لم يستجيبوا لطلبه خوفا من التهديد العثماني؛ فوجه محاولاته حينئذ نحو تيديكلت وأصرّ على الرجوع عام 1877م أمام تهديد سكان عين صالح، وأسفرت المحاولات الفرنسية عن تيقظ الباب العالي والإستيلاء على غات سنة 1875م⁽³⁾.

(1) Olivier Pliez: "Vieux réseaux et nouvelles circulations entre les deux rives du sahara", in Méditerranée, Tome 99, 3-4-2002, p 33.

(2) تشايحي: المرجع السابق، ص ص 82-83.

(3) تشايحي: نفسه، ص 84.

مما سبق ذكره، ندرك أن جميع المحاولات الفرنسية منذ عام 1854م للنفوذ إقتصاديًا إلى الصحراء وبلاد السودان عبر غدامس وغات بواسطة تجارة القوافل لم تنجح، ولا شك في أن هذا يُعدّ نجاحًا للسياسة العثمانية في الصحراء والتي كانت تهدف إلى التوسع نحو الجنوب والجنوب الغربي، حيث بقي ممر تجارة السودان داخل حدود ولاية طرابلس، وأنتج هذا التفوق في كسب مناطق نفوذ بعد عام 1875م، منها دخول توارق الأزرق ومدينة غات تحت الحكم العثماني⁽¹⁾.

وتطبيقًا لهذه السياسة أخذ الفرنسيون في تحسين العلاقات مع التوارق وإحياء معاهدة غدامس 1862م- بعدما رأوا تمسك العثمانيين بغات وخدامس- وذلك ليحققوا النفاذ إلى الصحراء، لكن آمالهم تلاشت بعد مصرع الماركيز "دي موريس (Marquis de Morés)" في شهر جويلية 1896م على يد التوارق، والذي كان يهدف إلى ربط علاقات تجارية بين فرنسا والتوارق لمنافسة إنجلترا. وأدركت فرنسا أخيرًا أنه لا يمكن لها النفاذ إلى الصحراء إقتصاديًا من الشمال عن طريق تونس والجزائر بأساليب الصّالح بل يجب أن تتخذ أساليب أخرى؛ منها استعمال الحصان الحديدي عوض المهري للتوغل في الصحراء، وذلك ببعث مشروع الخط الحديدي العابر للصحراء⁽²⁾.

واصلت فرنسا بعد ذلك محاولاتها، فبعد شانزي (Chenzy) تولّى حكم الجزائر "جول كامبون (Jules Cambon)" (1309-1315هـ/1891-1897م) الذي كان يرى وجوب نسيان مقتل "فلاترس"، وتحسين العلاقات مع التوارق لجلبهم إلى الجزائر، والضغط على الشعابنة لكي لا تحدث مشاكل عند تقارب التوارق، واحتلال المناطق الحساسة في الجنوب الجزائري خصوصًا عين صالح كونها نقطة عبور إلى تمبكتو ونهر النيجر، خشية أن يقوم العثمانيون أو المغاربة باحتلال تلك المناطق، ولذلك استولى الفرنسيون على المنبوعة (El Golea) عام 1891م الواقعة على طريق عين صالح⁽³⁾.

2. تراجع تجارة القوافل الصحراوية:

لقد عملت فرنسا لتنفيذ سياستها الإقتصادية في الصحراء الجزائرية، على وضع حاميات عسكرية دائمة في المناطق الصحراوية التي احتلتها، لتكون جاهزة لردع أي انتفاضة شعبية، وذلك في كل من

(1) نفسه، ص 98-99.

(2) تشايحي: المرجع السابق، ص 152. وكذلك: إبراهيم مياسي: قبسات من تاريخ الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م، ص 94.

(3) تشايحي: نفسه، ص 147. وأيضًا حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص 462.

بسكرة وتقرت والأغواط وورقلة والمنيعية، هذه الحاميات أصبحت تراقب بشدة حركة القوافل التجارية، والطرق والمسالك التي تأخذها، إذ تقوم بتوقيفها وتفتيشها وحجز البضاعة التي تمنعها فرنسا، وفرض مكوس خاصة لفائدتها، ومراقبة تجارة العبيد ومنعها، كما زودت بعض المسالك بالأبراج والقلاع ويفرق من الجيش⁽¹⁾ مكونة من أدلاء سابقين للقوافل، جندتهم فرنسا وزودتهم بالمهاري والأسلحة، لم تسلم من ملاحقتهم القوافل التجارية⁽²⁾.

مما أدى إلى انكماش التجارة وتراجع كبير للعلاقات التجارية الغنية والمهمة لبعض الحواضر في شمال الصحراء مع أخرى في جنوبها⁽³⁾. وكذلك هجر الكثير من الفلاحين أراضيهم وحقولهم، مما تسبب في وقوع مجاعات، ووفيات أدت إلى تقلص عدد سكان بعض الحواضر الصحراوية مثل ورقلة في العقد السابع من القرن التاسع عشر الميلادي⁽⁴⁾.

إن الإندفاع الإستعماري نحو الصحراء بداية من النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، قد عجل بتراجع التجارة عبر الصحراء والتي كانت قد تضررت من قبل من منافسة شبكات السكك الحديدية، التي تنقل البضائع نحو أهم موانئ إفريقيا الغربية والشرقية، المرتبطة بطرق بحرية بموانئ البحر المتوسط⁽⁵⁾. لقد أضعف التدخل الفرنسي في الصحراء الجزائرية العلاقات التجارية التاريخية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، إلا أن هذا لم يمنع من استمرارها بين سكان جانبي الصحراء الكبرى⁽⁶⁾.

3 . المنافسة التجارية عبر الصحراء الكبرى:

خلال السيتينيات من القرن التاسع عشر كانت سياسة فرنسا- خاصة في عهد فيديرب (Faidherbe) حاكم السنيغال - تهدف إلى إبعاد بريطانيا عن أسواق السودان الغربي، وذلك

⁽¹⁾ أصبحت القوافل التجارية الجزائرية تتعرض في النصف الثاني من القرن التاسع عشر- بعد الإحتلال الفرنسي لشمال الصحراء-لمطاردة جيش الجمال السريعة الفرنسي(مهاريست) (LesMeharistes)، وهذا ما أثر سلبا على التجارة الصحراوية . أنظر: ذكار، المرجع السابق، ص65.

⁽²⁾ بوباية: المرجع السابق، ص78.

⁽³⁾ Déporter : op.cit,p453.

⁽⁴⁾ إبراهيم لونيبي: " أهمية الصحراء في إستراتيجية الإستعمار الفرنسي "، مقال نشر في مدونة ملتقى التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، منشورات مديرية الثقافة، ورقلة، 1999م، ص65.

⁽⁵⁾Pliez:op.cit, pp32-33.

⁽⁶⁾Miege: op.cit,p94.

بإبعاد التכולور من أعالي السنيغال، واحتلال وادي السنيغال ونهر النيجر، والإستيلاء على بماكو⁽¹⁾. ففي سنة 1884م استغلت فرنسا انعقاد مؤتمر برلين فبادرت بإعلان حمايتها على مناطق نفوذها في غرب إفريقيا استنادا إلى المعاهدات والاتفاقات السابقة التي عقدها التجار والمبشرون الفرنسيون مع زعماء القبائل وظهر إلى الوجود ما عُرف بالسودان الفرنسي عام 1887م⁽²⁾.

وبعد المؤتمر بدأ الصراع بين إنجلترا وفرنسا في غرب إفريقيا بهدف بسط الهيمنة على حوض نهر النيجر، لقد عملت فرنسا تحت إشراف الحاكم العام جول كامبون (Jules Cambon) (1891-1897م) الذي عمل على مد الإحتلال الفرنسي في الصحراء الجزائرية بانتهاج وسائل سياسية والإبتعاد عن المواجهة المسلحة، وفي هذا الصدد أرسل إلى شيوخ منطقة تنقورارين سنة 1893م يستفتيهم حول شرعية وجود فرنسا في الديار الإسلامية، وكان يهدف من وراء ذلك كسر مقاومة ساموري توري في غرب إفريقيا⁽³⁾.

4. الإتفاقيات الثنائية:

وتبعا لهذه السياسة قامت فرنسا بإبرام عدة اتفاقيات مع الجهات الفاعلة في الصحراء الجزائرية، فمن المعلوم أن الحدود في الصحراء قديما ترسمها القبائل، والقبائل يحكمها الرؤساء والشيوخ والأعيان، فعندما يُقبض الرئيس في اليد يمكن ربط تلك القبيلة بالدولة. وهذا الأسلوب هو الذي اتبعته فرنسا في الصحراء الجزائرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر عندما وطأها أقدامها، فقامت بداية بتنصيب القياد الموالين لها على المدن التي حلت بها، واستمالة بعض زعماء الطرق الصوفية، والرؤساء والنبلاء إلى جانبها بشتى الطرق والوسائل، كما قيّدت بعض الجهات من الصحراء باتفاقيات ثنائية حتى تتجنب مقاومتها لبسط نفوذها على أكبر رقعة جغرافية ممكنة. وبعدها تتسلط على المنطقة⁽⁴⁾ من أشهرها:

4.1- معاهدة فرنسا مع بني مزاب:

أثناء مقاومة الشريف محمد بن عبدالله في الصحراء في الفترة ما بين 1852-1854م، ضغطت فرنسا بقوة على المزابيين، وعلى حركتهم التجارية خاصة بعد إحتلالها لمدينة الأغواط سنة 1852م،

(1) حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص451.

(2) بوعزيز: تاريخ إفريقيا ...، المرجع السابق، ص41-42.

(3) حوتية: توات والأزواد، المرجع السابق، ص474.

(4) تشايجي: المرجع السابق، ص103، اللامش رقم157، وكذلك: ذكار، المرجع السابق، ص130

والذي يُعتبر أول تمركز فعلي وقوي لفرنسا في شمال الصحراء الجزائرية⁽¹⁾، وبعد اتصالات ومفاوضات توصلت إلى توقيع معاهدة حماية معهم في 19 أبريل 1853م⁽²⁾ من أهم بنودها⁽³⁾:

- تتعهد فرنسا لبني مزاب أن تحفظ بلادهم وتحترم معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

- أن لا تتدخل نهائيا في الشؤون الداخلية لأهل مزاب.

- يدفع أهل مزاب مقابل هذه الحماية ضريبة سنوية قيمتها 45 ألف فرنك فرنسي. تتقاسم هذه الضريبة مدن مزاب السبع ولا تتدخل فرنسا في تحديد نصيب كل مدينة.

- غلق أسواق مزاب في وجوه الثائرين على فرنسا. تتولى فرنسا حفظ النظام العام ورعاية حقوق الفرنسيين داخل مزاب.

ولكن في الواقع لم تحترم فرنسا هذه الإتفاقية، بل اخترقتها عدة مرات، وحاولت توظيفها لخدمة مصالحها في الصحراء⁽⁴⁾. هذا من جهة ومن جهة أخرى عمل المزابيون سراً على مساندة الثورات التي قامت أو توسعت في الصحراء، وذلك بتقديم يد العون للثوار من إيواء ومؤونة وذخيرة حربية، خاصة ثورة أولاد سيدي الشيخ⁽⁵⁾، وظهر هذا جليا في حياة الشيخ أطفيش (القطب) الذي عارض علنا المعاهدة الممضاة مع الفرنسيين⁽⁶⁾.

4.2- معاهدة فرنسا مع التوارق:

بدأت المحاولات الفرنسية لإقامة علاقات مع توارق الأزقر وكسب نبلائهم وقادتهم الذين يسكنون طريق غدامس - غات الذي يعتبر الممر الحساس لتجارة الصحراء والسودان ويسيطرون عليه، من أجل النفاذ إلى الصحراء الكبرى⁽⁷⁾.

(1) Potier: op.cit, p 291.

(2) أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900م، ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992م ص359.

(3) أنظر نص المعاهدة كاملا في الملحق رقم (29).

(4) سعد الله: الحركة الوطنية... المرجع نفسه، ص360.

(5) محمد صالح ناصر: الشيخ القراي، حياته وآثاره، ج1، نشر جمعية النهضة، العطف، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1990م، ص133.

(6) هو محمد عيسى النوري: نبذة من حياة المزابيين الدينية والسياسية والعلمية من سنة 1505 إلى 1962م، ج1، دار الكروان، باريس، فرنسا، جانفي 1984م، ص271.

(7) تشايحي: المرجع السابق، ص63.

ولهذا القصد، وفد حمزة بن أبي بكر سنة 1854م وبصحبه عدد من النبلاء الأزقريين والشيخ عثمان مرابط قبيلة إفوغاس (Ifogas) المنسوبة إلى الطريقة التيجانية إلى الجزائر العاصمة، وهناك استقبلوا من قبل الحاكم العام المارشال "راندون" استقبالا حارا ووُزعت عليهم الهدايا الثمينة. ووجد الشيخ عثمان الفرنسيين بالتحالف معهم نيابة عن الرئيس الأزقري إخنوخن (Ikhnoukhan)، وأنه سيكون دليلا للفرنسيين عند دخولهم إلى بلاد التوارق، وأن ابن أخيه عبد النبي سيقوم بهذه المهمة بعد وفاته⁽¹⁾. ثم قامت فرنسا بعد ذلك بدعوة الشيخ عثمان مرة ثانية في عهد المارشال "بيليسي" لزيارة الجزائر العاصمة، ومدينة باريس بصحبة اثنين من أفراد عائلته⁽²⁾. وأثروا فيه فقبل هو والشيخ إخنوخن إبرام معاهدة مع فرنسا بغدامس مع الوفد الفرنسي⁽³⁾ الذي توجه إلى هناك ليمضي المعاهدة مع الوفد التارقي⁽⁴⁾

وقد اجتمع الوفدان المتفاوضان بغدامس وبعد محادثات طويلة، وقعت المعاهدة بين الطرفين يوم 26 نوفمبر 1862م، ومن أهم بنودها:

- إقرار الصداقة والتبادل بين السلطات الفرنسية، ورؤساء مختلف فروع وقبائل التوارق.
- تعهد توارق الأزقز بتسهيل وحماية عبور المفاوضين الفرنسيين لبلادهم ذهابا وإيابا، إلى بلاد السودان، وحماية بضائعهم التجارية على أن يدفعوا المكوس العادية.
- يمكن للتوارق أن يمارسوا العمل التجاري في كل أسواق الجزائر دون قيد أو شرط ماعدا أداء المكوس العادية.
- تلتزم السلطات الفرنسية، وزعماء التوارق بفتح طرق التجارة للفرنسيين إلى السودان، وإصلاحها وتحديدتها، وتحديد المكوس وضبطها، وإصلاح الآبار، وإزالة كل العراقيل في وجه نشاط التجار الفرنسيين.

(1) تشايحي: المرجع السابق، ص 63-64.

(2) مياسي: توسع الإستعمار الفرنسي...، المرجع السابق، ص 90.

(3) كان الوفد الفرنسي يتألف من: الرائد ميرشير (mircher): قائد سرية الأركان، والقيب بولنيك (Polignac): نقيب الأركان، مندب بالمكتب السياسي للشؤون العربية، ومهندس المناجم دي فاتون (DeVatone)، والطبيب هوفمان (Hoffman)، وإسماعيل بوضرية مترجم. أنظر: بوعزيز، تاريخ إفريقيا...، المرجع اسابق، ص 54. وأيضا:

عميراي، السياسة الفرنسية...، المرجع السابق، ص 70. ومياسي: المرجع نفسه، ص 90.

(4) كان الوفد التارقي يتألف من: الحاج جابور رئيس قبيلة أمانغازتن، والشيخ عثمان الزعيم الديني للتوارق، وعمار الحاج أئخنوخن ونائبا عنه. أنظر: Pottier: op.cit, pp259-260. وأيضا مياسي: نفسه، ص 90

- بموجب التقاليد القديمة المنظمة للعلاقات التجارية بين بلدان شمال إفريقيا، وسكان التوارق، تبقى عائلة الشيخ الحاج إخنوخن، مكلفة بضمان المرور لقوافل الفرنسيين التجارية عبر بلاد الأزقر⁽¹⁾.

إن بنود معاهدة غدامس وُضعت بأسلوب دقيق لصالح فرنسا، بحيث تعمل على توسيع عمليات التبادل التجاري بين فرنسا والجنوب الجزائري والصحراء الإفريقية، وتفتح مجالات واسعة لاستثمار واستغلال هذه المناطق البكرة والحصول على المنتوجات التي تنقص فرنسا⁽²⁾.

لقد وقعت فرنسا منذ البداية في خطأين أفرغا المعاهدة من محتواها، نظرا لأن فرنسا تريد الحصول على تسهيلات تجارية بين الجزائر والسودان، لذا كان من الخطأ الذهاب إلى غدامس عبر طرابلس، والإعتراف بالتالي بتفوق مسلك خارج عن نفوذها، كما أن نفوذ إخنوخن كان محدودا، فقد وقعت فرنسا هذه الإتفاقية مع شخصيات نافذة لكن من الدرجة الثانية⁽³⁾.

إضافة إلى ما ذكر، فمن المعروف أن الجهة الشرقية للصحراء الكبرى كانت محل نفوذ الدولة العثمانية ومنطقة صراع وتنافس سياسي وإقتصادي بين فرنسا الإستعمارية والأترك العثمانيين، لذا فقد استطاعت السلطات التركية الحصول على الرسائل التي بعثها باشاغا ورقلة إلى تجار غدامس والسودان من أجل جلب تجارة السودان إلى الجزائر عن طريق ورقلة وتقرت وبسكرة، وقد بعثت هذه الرسائل إلى إسطنبول لاتخاذ القرار المناسب⁽⁴⁾.

د. النتائج الإجتماعية والثقافية:

دخلت إلى المجتمعات الإفريقية عامة والموجودة على على ضفتي الصحراء الكبرى خاصة، عادات وسلوكيات جديدة بعيدة عنها كل البعد، خاصة في المدن مثل: البحث عن الذات، والملكية الشخصية، والمصالح الفردية البحتة. في حين اختفت أو فترت سلوكيات إيجابية تميز بها الإنسان الإفريقي عبر التاريخ، كالغيرة والأثرة، والعمل لصالح المجموعة، والتضامن القبلي والجماعي. كما عملت فرنسا بعد احتلالها لكثير من بلدان غرب إفريقيا إلى زرع ونشر سياسة التفرقة بين سكان الشمال الإفريقي البيض و السكان الأفارقة السود، هذا من الناحية الإجتماعية.

(1) بوعزيز، تاريخ إفريقيا...، المرجع 1 سابق، ص ص 54-55. وأيضا: عمراوي، السياسة الفرنسية...، المرجع السابق،

ص ص 70. ومياسي: توسع الإستعمار الفرنسي...، المرجع السابق، ص ص 91-92.

(2) مياسي: المرجع نفسه، ص 92.

(3) R.Pottier: op.cit, p260.

(4) تشايحي: المرجع السابق، ص 72.

أما ثقافيا فقد حلت لغة المستعمر محل اللغات الوطنية، وانتشرت المسيحية في بعض المناطق
الوثنية، كما رُوّجت فرنسا لوجودها بتجميل صورتها بين المجتمعات الإفريقية ، وزرع أسطورة الرجل
الأبيض.⁽¹⁾

(1) إستر: المرجع السابق، ص ص126-127.

خلاصة الفصل:

بدأت علاقة أوروبا بإفريقيا جنوب الصحراء طمعا من الإقتراب من مصادر السلع التي تجلب منها إلى شمال إفريقيا خاصة الذهب، وكذلك بدافع اكتشاف طريق أقصر إلى الهند بعد سيطرة العثمانيين على حركة التجارة في البحر المتوسط. فمنذ القرن التاسع هجري/الخامس عشر ميلادي انطلقت أولى الإستكشافات الجغرافية في غرب إفريقيا، بحيث أقامت بعض الدول الأوروبية مراكز تجارية مؤقتة ثم قارة على السواحل الغربية للقارة، ثم أخذ الأوروبيون في التوغل داخلها تدريجيا. ولقد كان البرتغال سباقا في هذا المجال مما نتج عنه استحواذ البرتغاليين على ذهب وعبيد إفريقيا وتحويل مسار تجارة القوافل بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها عن مسلكها البري إلى سواحل المحيط الأطلسي ومنها صوب أوروبا الغربية. ثم تبعتها إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وبريطانيا.

بعد الثورة الصناعية في أوروبا وتداعياتها تجدد التدخل الأوروبي في إفريقيا جنوب الصحراء في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، فتطلع الأوروبيون لكشف أسرار وأغوار الصحراء الكبرى معتمدين في البداية على الكتابات السابقة للرحالة والمؤرخين المسلمين أمثال: ابن حوقل، والبكري، والإدريسي، وابن خلدون، وغيرهم. ثم بعد ذلك على جمعيات علمية وجغرافية، أخذت على عاتقها تنظيم البعثات الإستكشافية مدعومة ماديا ومعنويا من قبل الدول الأوروبية منها: بعثة "هورنمان" الألماني، و"لوكاس"، و"ليد بارد" التي فشلت ثم بعثة الميجر "هيوتون" سنة 1790م، وبعده بعثة "مونغو بارك" الإسكتلندي بين سنتي 1795م و1805م والتي مهمتها التعرف على مجرى نهر النيجر حتى مصبه والتي انتهت بمقتله بعد أن قدم ملاحظاته ومعلوماته عن المناطق التي زارها في كتاب، حاثا بريطانيا على احتلال تلك المناطق لاستغلال ثرواتها وخيراتها. كما صحح كثير من المفاهيم الخاطئة الراسخة في عقول الأوروبيين حول إفريقيا وسكانها، بعد هذا المصير توقفت الرحلات والبعثات الإستكشافية لمدة طويلة ثم استأنفت من طرف بريطانيا ببعثة "أودني" و"دينهام" و"كلابرتون" سنة 1822م، ثم تلتها بعثة "غوردون لانغ" سنة 1825م من طرابلس والذي نجح في دخول تمبكتو يوم 18 أوت 1826م، لكن مصيره كان مثل "بارك" دون أن يترك أثرا لرحلته. ثم أتى "رونييه كاييه" الفرنسي الذي نجح في دخول مدينة تمبكتو والمكوث بها أربعة عشر يوما، والرجوع منها سالما غانما إلى بلده حيث ألف كتابه الشهير حول تمبكتو الغامضة، والذي يعتبر أول أوروبي توغل في أعماق الصحراء ودخل تمبكتو، وقدم معلومات جغرافية واجتماعية عن المناطق التي زارها، استفادت منها فرنسا في وضع مخططاتها الإستعمارية المستقبلية. بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر تكثفت أكثر البعثات الإستكشافية نحو

الصحراء الكبرى انطلاقا من الجزائر، خاصة بعد تأسيس لجنة الإكتشاف العلمي عام 1837م من أجل استغلال مسالك القوافل التجارية ولغرض السيطرة على الصحراء وتجارتها، فبعد أن تمكنت فرنسا من إخماد المقاومة في الصحراء، شرعت في تطبيق سياستها التوسعية في الجنوب. خاصة بعد احتلال بسكرة والأغواط وورقلة هذه الأخيرة التي اتخذتها قاعدة لانطلاق البعثات الإستكشافية نحو الصحراء وبلدان إفريقيا جنوب الصحراء، نذكر منها على سبيل الذكر لا الحصر: بعثة "هنري بارث" الألماني سنة 1850م نحو نهر النيجر، والذي دخل تمبكتو في سبتمبر 1853م، ووضع ملاحظاته الدقيقة ومعلوماته الجغرافية والجيولوجية والتاريخية في كتاب حاثا فرنسا على احتلال هذه المناطق وربطها بالجزائر. فهو يعتبر من أكبر المستكشفين العلميين في القارة السمراء. لقد توالى واستمرت البعثات سواء العلمية أو العسكرية في الصحراء الجزائرية بعد ذلك فظهر "دوكولمب" سنة 1856م، واستطاع الرحالة "دوفيرييه" أن يصل إلى الهقار ثم السودان الغربي في الفترة ما بين 1859م إلى 1861م. وكذلك الشأن للألماني "رولفس" الذي يعتبر أول أوروبي يعبر إفريقيا الغربية من ساحل المتوسط شمالا إلى ساحل غانا جنوبا، وقدم معلومات جديدة للسلطة الفرنسية عن المناطق التي زارها.

ونجح الرحالة "صولاييه" أن يصل إلى عين صالح سنة 1874م بعد أن مر على ورقلة. أما بالنسبة إلى "فلاترس" فقد استغل المسالك الصحراوية المعروفة لتحقيق مشروع فرنسا الكبير والمتمثل في خط السكة الحديدية الذي يربط المستعمرات الفرنسية في إفريقيا الغربية بتشاد والسنغال بمثيالاتها في إفريقيا الشمالية. لكنه لم يحقق ذلك لاغتياله من طرف التوارق في 16 فيفري 1881م. واصلت فرنسا جهودها بعد ذلك حيث تبين أن السياسة الفرنسية كانت على دراية كبيرة بأهمية الصحراء، وقناعتها كبيرة في أن بقاءها في الجزائر مرهون باحتلال الصحراء. ولتحقيق هذا الهدف اتصلت السلطة الفرنسية بكبراء القوم وأعيانهم لكسبهم إلى صفها، وأسندت إدارة بعض الأقاليم في الصحراء إلى بعض الموالين لها. مما أعانها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في زحفها ناحية الجنوب الجزائري، وشرعت في بسط نفوذها على مدن شمال الصحراء الواحدة تلو الأخرى عن طريق الحملات العسكرية التي كانت بمثابة رحلات إستكشافية. منها: بعثة الجنرال "كاليفيه" سنة 1872م، وبعثة "فور-لامي" سنة 1898م نحو تشاد عبر أغاديس والتي تعتبر أول عبور من الجنوب الجزائري إلى تشاد، ثم تلتها بعثة "كولونيو" و"بوران" في أواخر 1860م لاكتشاف تنقورارين وتوات، وأخيرا بعثة "فلامون" التي احتلت بموجبها فرنسا مدينة عين صالح ذات الموقع الجغرافي والإستراتيجي المهم في الصحراء الجزائرية. إذن استطاعت فرنسا أخيرا رغم كل الصعوبات أن تبسط نفوذها في الجزائر عامة والصحراء خاصة،

كما نجحت في تشديد الرقابة على القوافل التجارية وعلى الأسواق بفرض المكوس، وفي الأخير قضت على تجارة العبيد بمنعها وتحريمها داخل الجزائر مما أثر سلبا على العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء وأدى إلى تراجعها وانكماشها، مما دفع بالتجار الجزائريين إلى تغيير وجهتهم من أسواق السودان إلى أسواق غدامس بليبيا وقفصة وقابس بتونس.

الخاتمة

- توصلتُ في ختام هذه الدراسة إلى جملة من الملاحظات والإستنتاجات أوجزها في الآتي:
- منذ نهاية القرن الخامس عشر ميلادي، بدأ بلاد المغرب يفقد دوره كوسيط ممتاز بين إفريقيا وأوروبا، فقد أدّى فتح الطرق البحرية الأطلسية للبرتغاليين منذ 1490م بأن يصلوا مباشرة إلى شواطئ إفريقيا الغربية ويجذبوا إليهم جزءاً من تجارة الذهب.
 - لم تُشكّل الصحراء الكبرى في يوم من الأيام حائلاً ولا حاجزاً في التواصل بين سكان ضفتيها الشمالية والجنوبية، بل كانت عاملاً من عوامل الاتصال.
 - تميّز تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء خلال القرن السادس عشر بدخول المنطقة مرحلة جديدة من العلاقات الدولية، حيث أصبحت دولتي بورنو والسنغاي في مواجهة قوى دولية توسّعية هي الإمبراطورية العثمانية من جهة، وغريماتها السعدية من جهة أخرى.
 - إرتبطت الجزائر بعلاقات تجارية مع إفريقيا جنوب الصحراء منذ عهد الدولة الرستمية، أوائل القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وبلغت الذروة ما بين القرنين العاشر والسادس عشر الميلاديين قُبيل سقوط مملكة سنغاي على يد أحمد المنصور الذهبي سنة 1000هـ/1591م. ورغم تراجعها في بعض الفترات إلا أنها ظلّت قائمة بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر الميلاديين بفضل القوافل التجارية التي تضبطها أعراف وتقاليد متوارثة إلى غاية الإحتلال الفرنسي للصحراء حيث اختل التوازن، وفقدت هذه العلاقات الكثير من حيويّتها وتنوّعها.
 - لم تشجع السلطة الحاكمة في الجزائر في الفترة المدروسة بصفة كافية، العلاقات التجارية مع إفريقيا جنوب الصحراء، بسبب اعتمادها على الأموال الطائلة التي كانت تدخل خزينة الدولة من غنائم الجهاد البحري.
 - إمتازت صادرات الدول الأوروبية نحو الجزائر بكونها مواد مُصنّعة، عكس المواد التي كانت تُستورد من الجزائر، والتي طغت عليها صفة المادة الخام، وهذا يدل على ظهور نهضة صناعية أوروبية في تلك الفترة.
 - لقد كان للإستقرار الأوروبي على السواحل الإفريقية نتائج وخيمة على تجارة القوافل الصحراوية، لأنه كان يُحوّل التيارات التجارية التي كانت تسلك سبيل الصحراء، نحو المراكز التجارية المقامة على سواحل المحيط الأطلسي، ممّا أدّى إلى انخفاض حجم هذه المبادلات تدريجياً. وإذا كانت تجارة الجزائر

مع إفريقيا جنوب الصحراء قد تأثرت بتحويل قسم منها إلى المحيط الأطلسي، فإنها قد تأثرت أيضا بغلق المنافذ البحرية على المتوسط في وجهها، نتيجة الإحتلال الإسباني والبرتغالي لها.

- سبق التدخل الفرنسي والأوروبي في إفريقيا والجزائر جحافل المبشرين، والمغامرين، والجواسيس، والمستكشفين منذ القرن السابع عشر، أمثال كاييه وبارث ودوكولومب ودوفيرييه وغيرهم، والذين تَمَمَّصوا شخصيات متعددة، لكي يُخفوا نواياهم المبيّنة. وقد عرف القرن التاسع عشر احتلال في توازن القوى بين ضفتي البحر الأبيض المتوسط الشمالية والجنوبية، فكان من نتائجه احتلال الجزائر سنة 1830م، وما ترتّب عنه من مدّ إستعماري في إفريقيا.

- بمجرد أن احتلت فرنسا شمال الصحراء الجزائرية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عملت على شلّ الحركة التجارية مع بلاد السودان، بتشديد الرقابة على القوافل التجارية بتحريم ومنع تجارة العبيد، وعلى الأسواق بفرض الضرائب، مما دفع بالكثير منها إلى تحويل وجهتها نحو أسواق غات وغدامس حيث تشتري منها بضاعة السودان تفادياً للمضايقات الكبيرة التي تتعرض لها في الذهاب والإياب. مما أثار سلباً على العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء وأدى إلى تراجعها وانكماشها مع نهاية القرن التاسع عشر.

- كانت المعاملات التجارية في أسواق بلدان إفريقيا جنوب الصحراء، لا تختلف كثيرا عن المعاملات السائدة في أسواق البلدان الإسلامية في الفترة من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي، حيث كان في ميدان قياس الأطوال يُستعمل الشبر والذراع والقدم... ، وفي الأوزان يُستعمل المثلقال والرطل والأوقية...، وفي الكيل يُستعمل المد والصاع والقنطار... ، أما في ميدان العُمَلات فما كان يُستعمل في الأسواق الإفريقية هجين من العُمَلات بعضها محلي والبعض الآخر دخيل، ومن بين العُمَلات المحلية الصلح والنحاس والمثلقال... أما العُمَلات الدخيلة فمنها: الكوري والدورو والمحبوب... - كان ازدهار تجارة الجزائر مع دول الضفة الشمالية الغربية للمتوسط مرتبطا بدرجة كبيرة على مدى نجاح تجارتها الإقليمية، خاصة مع إفريقيا جنوب الصحراء، والتي مثّلت مصدراً أساسياً لإشباع نهم أوروبا من الذهب والعبيد وغيرها من السلع التي تندر في الجزائر وأوروبا.

- تعرّضت العلاقات بين ضفتي الصحراء الكبرى إلى الإختراق الأوروبي في القرن التاسع عشر خاصة بعد الإحتلال الفرنسي للجزائر، حيث تكثفت البعثات الإستكشافية انطلاقا من الجزائر، من أجل استغلال مسالك القوافل التجارية والسيطرة على الصحراء وتجارها.

- من الأسباب التي أضعفت العلاقات بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، تضيق فرنسا لحرية التنقل بين شمال الصحراء الكبرى وجنوبها.

- بعد أن تمكنت فرنسا من إخماد المقاومة في الصحراء الجزائرية، شرعت في تطبيق سياستها التوسعية في الجنوب عن طريق الحملات العسكرية، وقد استطاعت أخيرا رغم كل الصعوبات أن تبسط نفوذها في الجزائر عامة والصحراء خاصة.

ويمكن القول بأن الجزائر لم تتوقف عن كونها ساحة مرور تلتقي فيها المواد الأوروبية بمواد بلاد

المغرب وإفريقيا، وذلك حتى في أصعب الظروف، إذ كان تجار الجزائر يُصدرون إلى بلدان إفريقيا جنوب الصحراء مُنتجات الجزائر الصناعية والزراعية، والبضائع التي كانوا يستوردونها من وراء البحار، مقابل تزويد تجار الشمال وأوروبا، بالتبر والجلود والعاج القادم من البلدان الإفريقية.

أخيرا أدعو الله أن أكون قد وُفقتُ في كلِّ ما كتبتُه، فإن أصبْتُ فمن الله وإن أخطأتُ فمن نفسي، فحسبي أني اجتهدتُ وحاولتُ، آملا أن أستفيد من توجيهات أساتذتي الفضلاء الذين وُكِّل إليهم عملي للتقييم والمناقشة والتصحيح، وإنني لا أدعي كمالا فيما توصلتُ إليه من نتائج، بل يُمكن اعتبار هذه الدراسة بداية لبحوث جديدة في العلاقات الجزائرية الإفريقية المتعلقة بجنوب الصحراء.

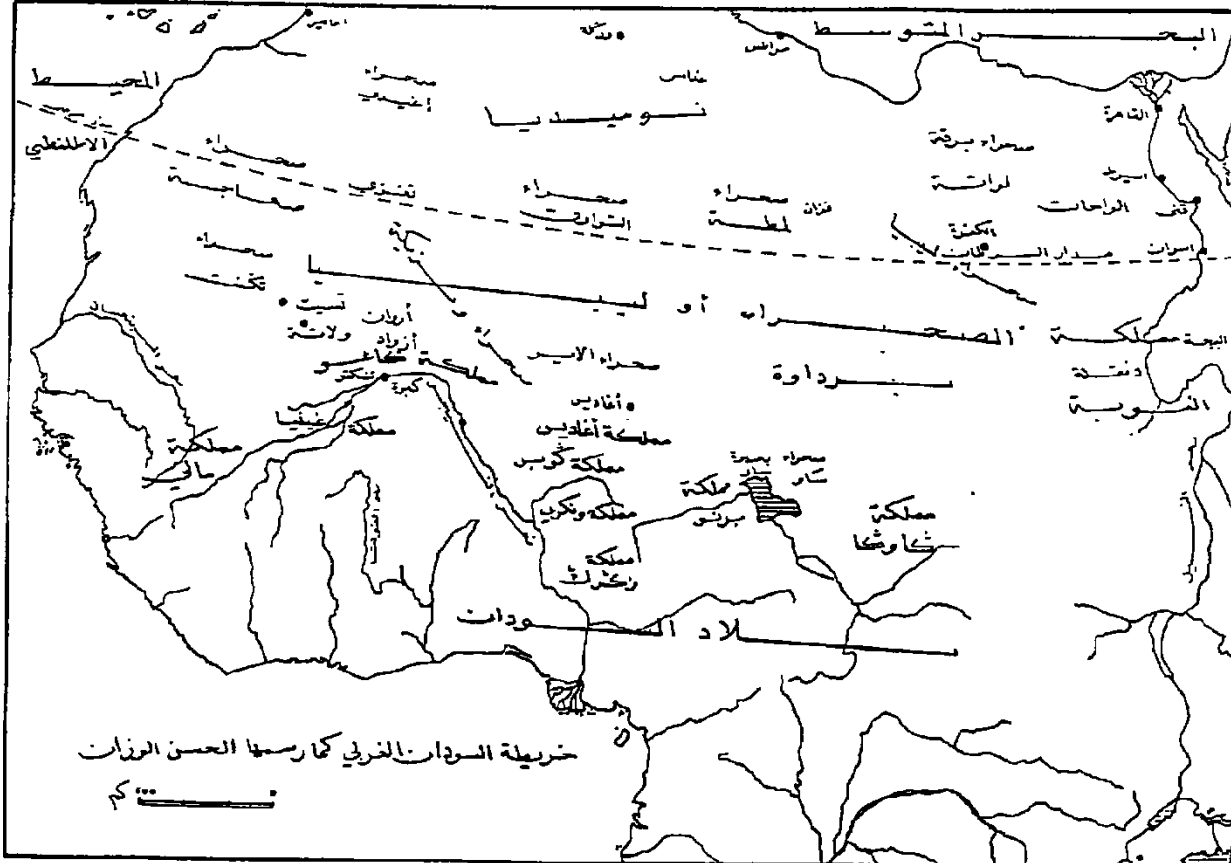
وأقول كما قال الشاعر:

وما كنتُ أهلا للذي قد كتبتُه وإنني لفي خوف من الله نادم

ولكنني أرجو من الله عفوه وإنني لأهل العلم لا شك خادم

الملاحق

الملحق رقم (1): خريطة السودان الغربي حسب الحسن الوزان، بداية القرن السادس عشر للميلاد⁽¹⁾.



خريطة السودان الغربي كما رسمها الحسن الوزان، القرن السادس عشر للميلاد.

(1) نقلا عن: مبروك الدالي، التاريخ السياسي والإقتصادي...، المرجع السابق.

(1)

الملحق رقم (3): وصول القافلة التجارية إلى إفريقيا جنوب الصحراء

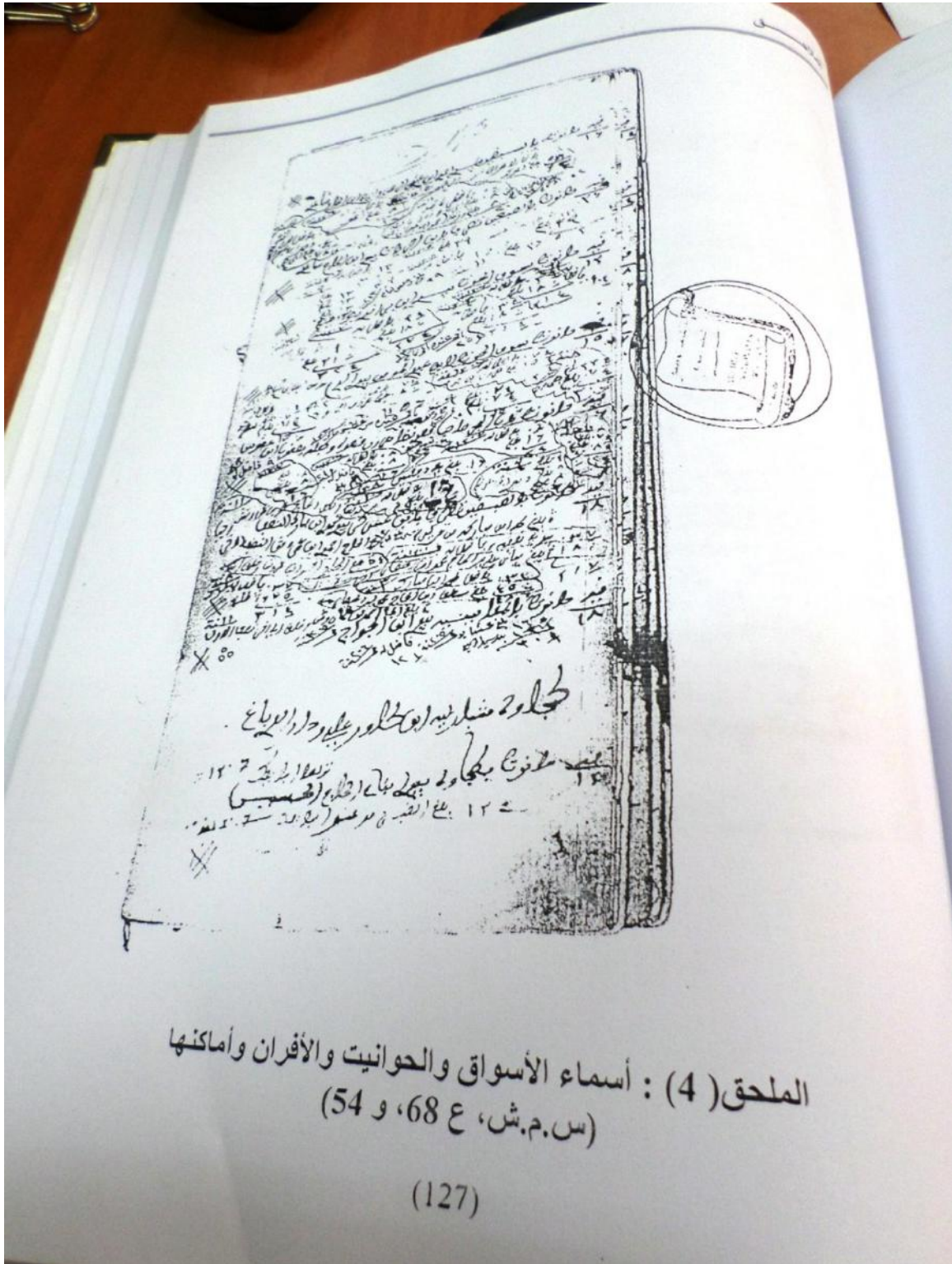


وصول القوافل التجارية الى اعالي نهر السنغال 1853 -
كما كان قد رسمها الرحالة بارك

(1) نقلا عن: زيادية، دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، الجزائر، 2010.

(1)

الملحق رقم (4) : أسماء الأسواق والحوانيت والأفران بمدينة الجزائر

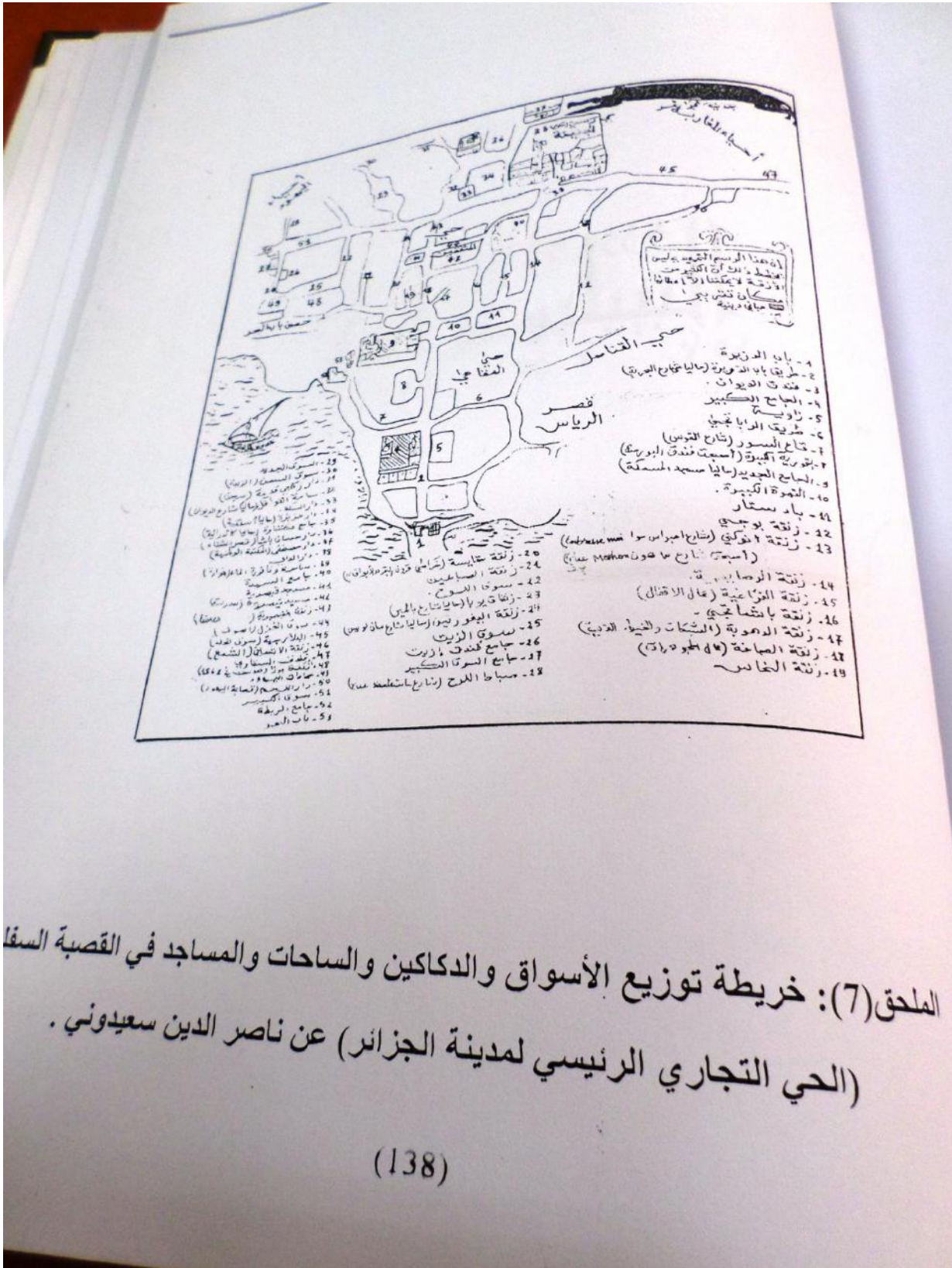


الملحق (4) : أسماء الأسواق والحوانيت والأفران وأماكنها
(س.م.ش، ع 68، و 54)

(127)

(1) نقلا عن: أحمد سلطاني، التجارة والتجار بمدينة الجزائر العثمانية على ضوء المصادر المحلية والأجنبية) رسالة ماجستير، إشراف الأستاذ الدكتور حنفي هلايلي، جامعة جيلالي ليلبس، بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 2012م، ص 127.

الهلق رقم (5): خريطة توزيع الأسواق والدكاكين في مدينة الجزائر (1)

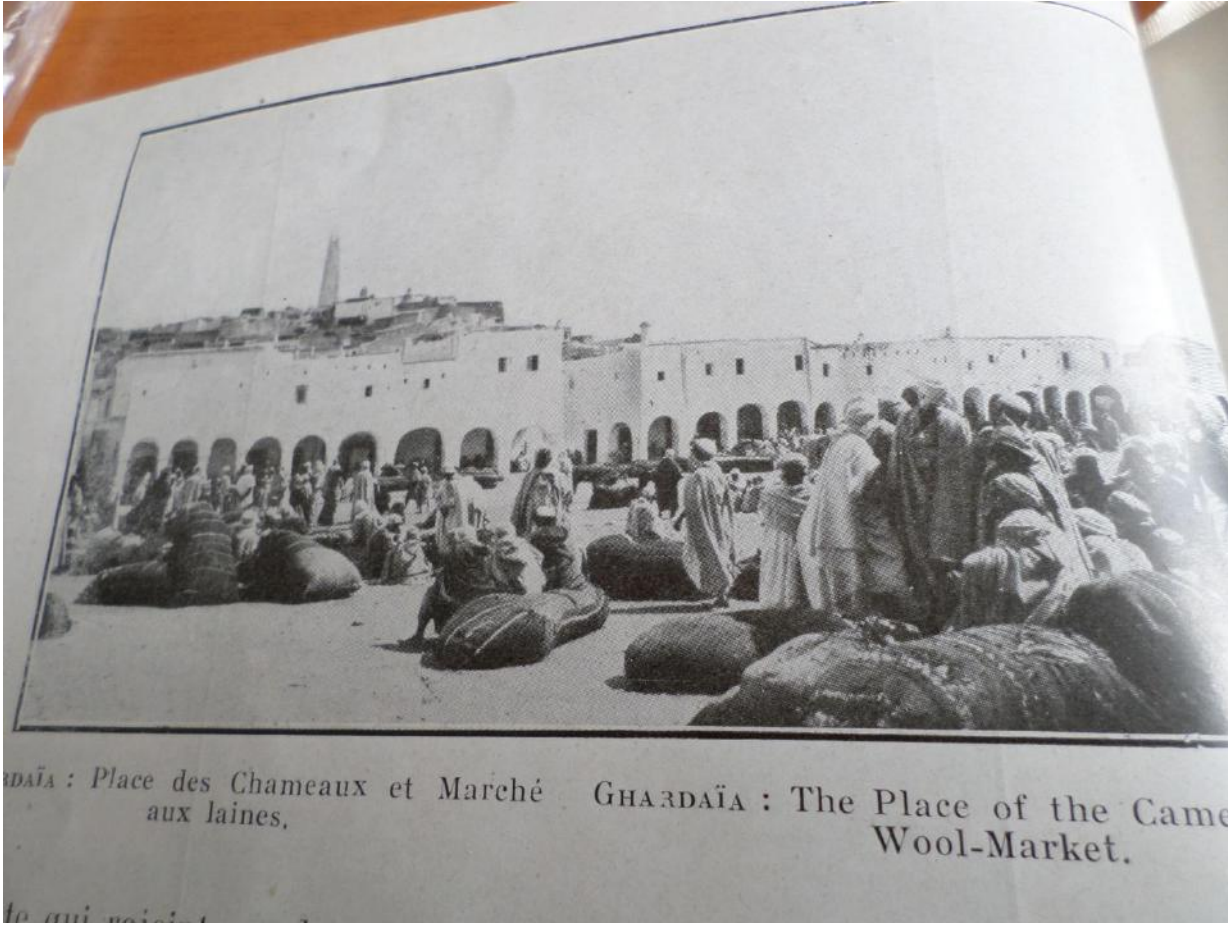


الملحق (7): خريطة توزيع الأسواق والدكاكين والمساحات والمساجد في القصبة السفلى (الحي التجاري الرئيسي لمدينة الجزائر) عن ناصر الدين سعيدوني .

(138)

الهلق رقم (6): ساحة سوق مدينة غرداية قديما (1)

(1) نقلا عن: أحمد سلطاني، التجارة والتجار بمدينة الجزائر ...، المرجع السابق، ص 138.



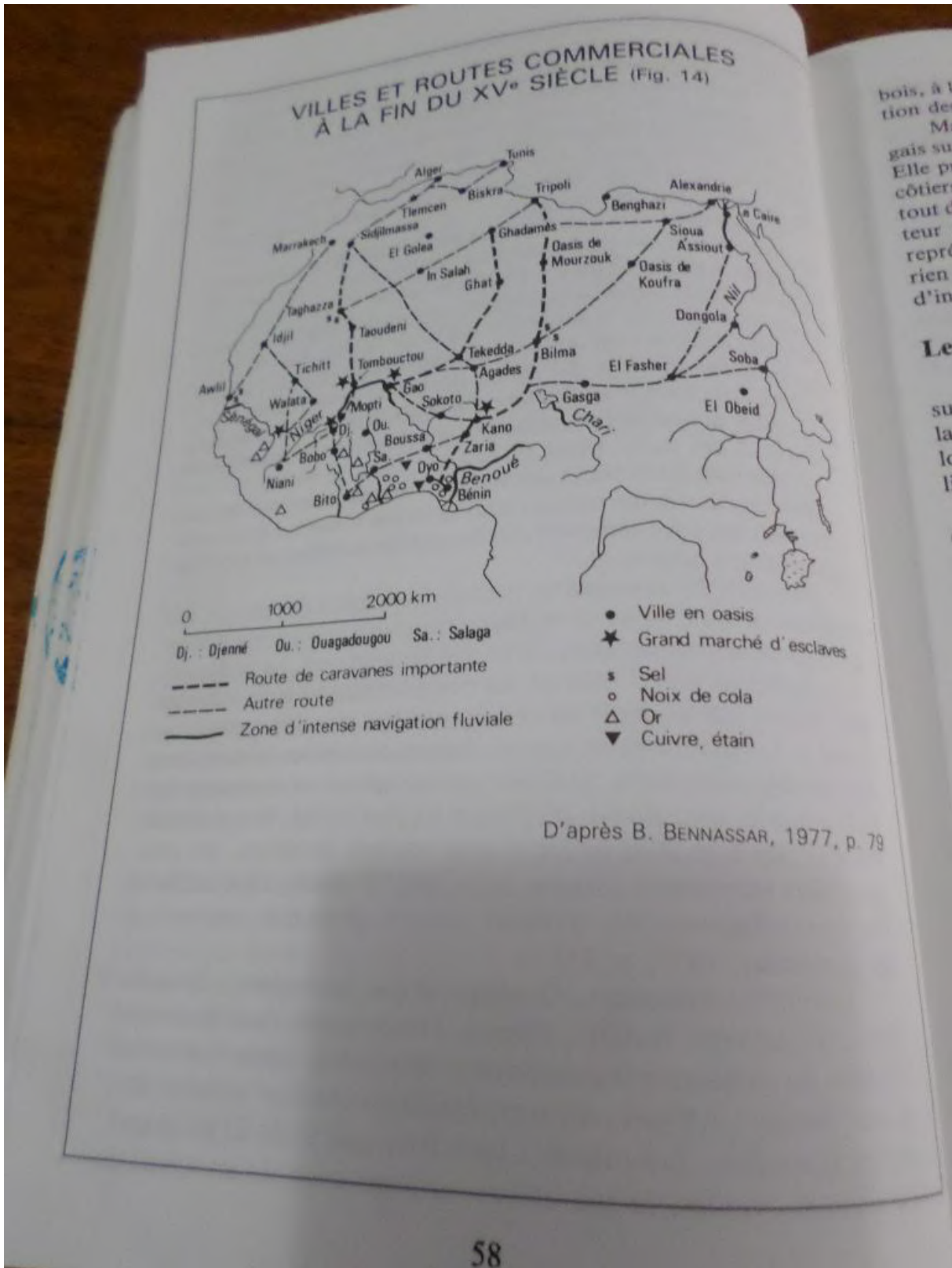
Ghardaïa : Place des Chameaux et Marché aux laines, Ghardaïa : The Place of the Camel Wool-Market.

الملحق رقم (7): خريطة المواصلات والتقسيم الإداري للجزائر بداية القرن التاسع عشر⁽²⁾

⁽¹⁾ نقلا عن: Général Bonneval : circuits sahariens, Laghuoat, Le m'zab, Metlili, circularsaharian Tour, SD.

⁽²⁾ نقلا عن: ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر...، المرجع السابق، ص 262.

الملاحق رقم (9): مدن ومسالك تجارية بين دول شمال إفريقيا ودول جنوب الصحراء⁽¹⁾



⁽¹⁾ نقلا عن: Charles Toupet, Le Sahel, p58.

الملحق رقم (10): جدول النقود المضروبة في الجزائر العثمانية. نقلا عن: سعيدوني، النظام المالي...، المرجع السابق، ص 207 وما بعدها.

١ - جدول النقود الذهبية الجزائرية

المصادر والملاحظات	قيمة النقود الذهبية	انواع النقود الذهبية
Emerit, « Le voyage », 377 - A.N.P. Tarif comparatif (58) - Boutin, p. 82. - D. Thainville, p. 142. - D'Estry, p. 138. - نفس المصدر	8ر5 ب.ش 13ر5 ب.ش 10 ب.ش أو 11 ف 9 الى 10 ب.ش 8ر5 ف 28ر56 ف	السكة الجزائرية أو السلطاني
- A.N.P. Tarif comparatif - D'Estry, p. 138. - نفس المصدر ص 140	6ر75 ب.ش أو 14ر28 ف 4ر449 ف	نصف سكة أو نصف سلطاني
- A.N.P. Tarif comparatif. - Shaler, p. 307. - D'Estry, p. 138.	3ر60 ب.ش 3ر80 ف 7ر14 ف	ربع سكة أو ربع سلطاني
ضرب في عهد محمود الثاني (1829-1807م)	8ر89 ف	السلطاني الجديد

ج - جدول النقود النحاسية الجزائرية

المصادر والملاحظات	قيمة النقود النحاسية	انواع النقود النحاسية
— A.N.P. Tarif	0ر16 ب . ش	خروبة
— D. Thainville	0ر03875 ف	
— D'Estry, p. 140.	0ر0134 ف	غرامس دراهم صفار
— Aperçu, 3 ^e éd. p. 97	0ر0053 ف	زوج غرامس صفار
— Rozet, T. 3, p. 105	0ر0026 ف	اسبر شيك (64) او دراهم صفار

ويبدو من خلال الجداول السابقة أن النقود المعدنية هي أساس كل تعامل مالي ، لأن العملات الورقية حسب المعلومات المتوفرة لدينا تعتبر

جدول النقود الفضية الجزائرية

المصادر والملاحظات	قيمة النقود الفضية	انواع النقود الفضية
المصادر المعتمدة هي:		
- ANP. Tarif comparatif	3 ب ش او 1ر86 ف	ريال بوجو (59) او بدقة قوردة او قرش الجزائر او قرش صغير
- D. Thainville, p. 143	1ر80 ف (60)	
- G. de Bussy, p. 136.	1ر60 ف	
- Beaulicour, p. 34.	0ر75 ف	ربع بوجو
- Tachiffat, p. 81.	0ر471 ف	
- d'Esty, p. 140.	0ر45 ف	
- Aperçu, 3 ^e éd. p. 97.	0ر375 ب . ش	لعم بوجو
- Benacheneb, p. 24.	0ر225	
	0ر229	
	6 ب . ش	زوج بوجو او دورو الجزائر
	3ر723 ف	
	0ر125 ب . ش	الموزونة
	0ر75 ف	
	0ر25 ب . ش	زوج موزونة
	3ر155 ف	

الملحق رقم (11): جدول النقود الأوروبية المستعملة في الجزائر العثمانية. نقلا عن

ص 201-202.

ص

السابق،

سعيدوني، المرجع

الجزائر
1 - النقود الاسبانية

نوع النقود المستعملة	قيمة النقود المستعملة أو وزنها	المصادر والملاحظات
الدبلون الفضي	5،40 ف	— Shaler, p. 209. — La Primaudie, p. 192.
الدوكة (39)	24 أس أو 9 ص	
الكرونة (40)	5،25 ف	— Prax, p. 4. — Shaler, p. 307. — D'Estry, p. 138.
الدورو الاسباني	5،43 ف	
أو القرش الاسباني	3،40 ف	— Morgan, p. 374. — La,primaudie p. 192.
أو الدولار الاسباني	3،7 ب . ش	
قرش اشبيلية	15 أس	— Dapper, p. 178. — Morgan, p. 374.
القرش المكسيكي (41)	15 ر . أسباني	
الريال الاسباني	4،4 ب . ش	— Nouschi, Enquête, 120. — Deunée, Précis, 52.
الاسبر الفضي المربع	86 ف	
البيستول الاسباني (42)	1،68 ف	
الكاتربيل الاسباني (43)		
الكاتربيل المكسيكي		
المضعف (44)		

جدول النقود الأوربية المستعملة في الجزائر
ب - بقية النقود الأوربية

نوع النقود المستعملة	قيمة النقود المستعملة أوزنها	المصادر والملاحظات
دويلات المدن الإيطالية :		
قرش ليفورن سكة البندقية نقود تسكانية « لاروز (45) »	3,6 ب ش 2,6 ب ش 4,96 ف	- Morgan, p. 374. - نفس المصدر - Morgan, p. 374.
النمسا :		
النالارى (46)	5,58 أو 5,25 ف	- نفس المصدر
البرتغال :		
الفروزاد البرتغال (47)	7 ب ش	- Nouschi, <i>Enquête</i> , 1
فرنسا :		
الجنيه الفرنسي (48)	5 ف	
الريال الفرنسي	5 ف	
لويز فرنسا (49)	20 ف	
الفرنك الفرنسي (50)	1 ف	

الملحق رقم (12): جدول النقود الإسلامية المستعملة في الجزائر العثمانية. نقلا عن

سعيدوني، المرجع السابق، ص ص 203-204.

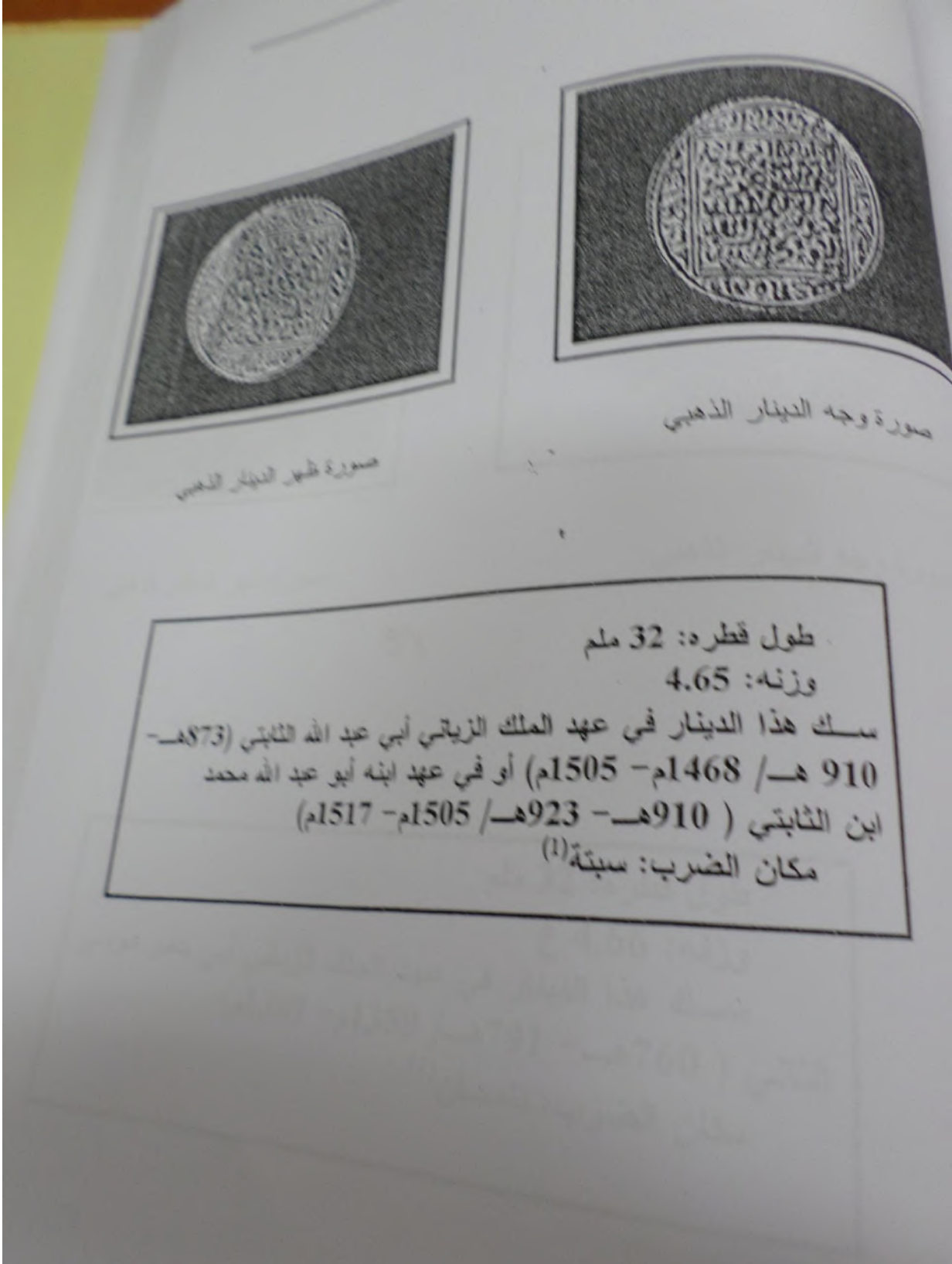
جدول النقود الإسلامية المستعملة في الجزائر العثمانية
2 - بقية البلاد الإسلامية

نوع النقود	قيمة النقود أو وزنها	المصادر والملاحظات
المغرب الأقصى: السلطاني المغربي البندقي أو العنراوي نصف البندقي أو نصف العنراوي مثقال درهم الموزونة (53) الفلوس: زوج فلوس الثمينة اربعة ربال فلوس	4ر2ب.ش أو 5ر10ف 65 أوقية 5ر32 أوقية 4 أوقيات ؟ ؟ ؟ ؟	ذهب ذهب — Morgan, 473. ذهب — D'Estry, 138. فضة — Leclevc نحاس p. 128-129
الدولة العثمانية واقطار المشرق العربي: — سلطاني أو محبوب (54) أو زر محبوب — نصف محبوب	9ب.ش ، وفي بعض الاحيان 10ب.ش أو 6ب.ش أو 24ر35ف 5ر4ب .ش	ذهب — D'Estry, 138. ذهب — Aperçu, 165.

لكن العملات الأجنبية مع شوعها وقتها كانت مستعملة في الجزائر العثمانية.

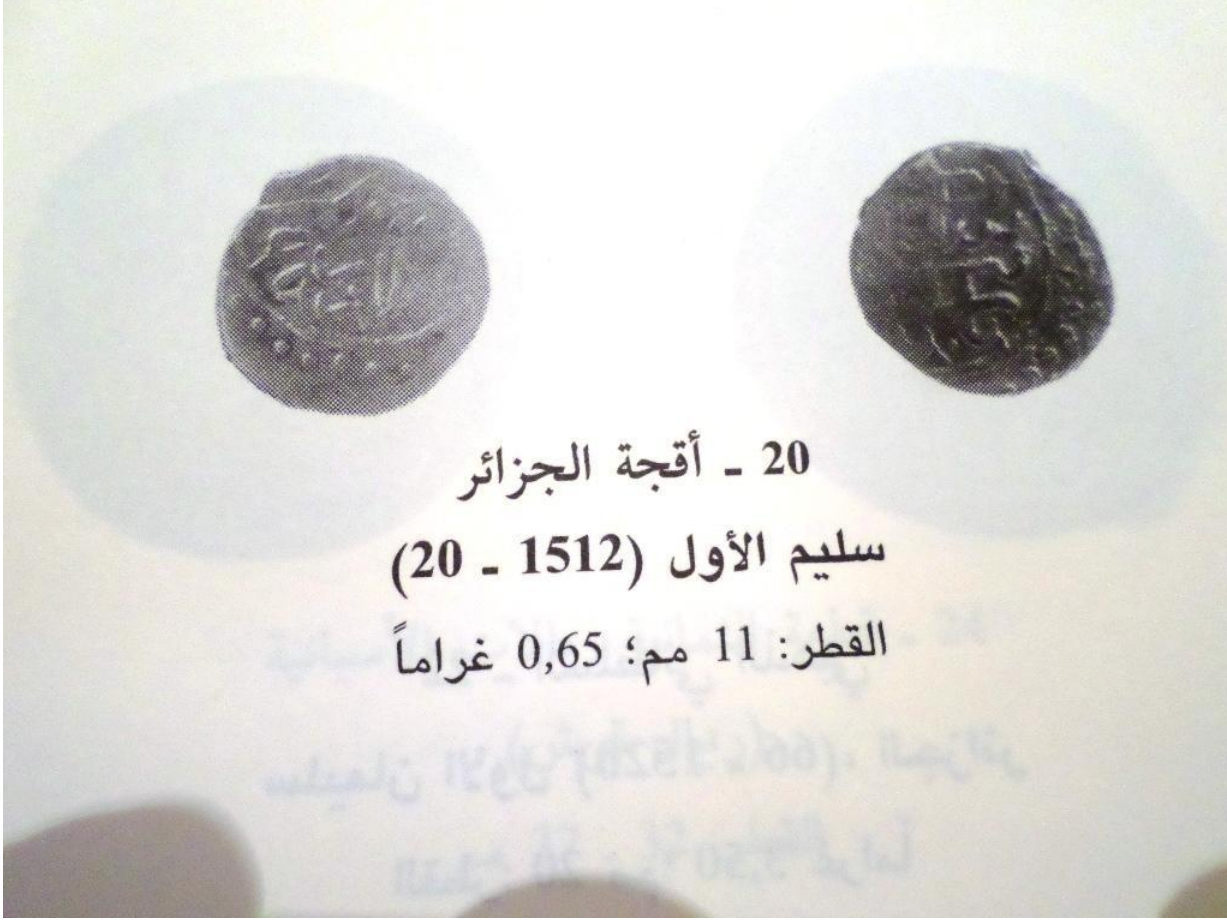
(1)

الملحق رقم (13): صورة لعملة جزائرية من العهد الزياني



(1) نقلا عن: علي زازو صورية، النشاط الإقتصادي بالمغرب الأوسط في العهد الزياني، المرجع السابق.

الملحق رقم (14): صور لبعض القطع النقدية المضروبة في الجزائر العثمانية. نقلا عن:
شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، دار المدار الإسلامي، طرابلس، الجماهيرية
الليبية، 2005م.





32 - ربع البودجو

سليم الثالث، 1214هـ (1799 - 1800)، الجزائر

القطر: 20 مم



33 - قرش الجزائر

محمود الثاني، 1237هـ (1822)

القطر: 40 مم؛ 19.95 غراماً



22 - السلطاني الذهبي
سليمان الأول (1520 - 66)، الجزائر
القطر: 20 مم؛ 3,50 غراماً



36 - السلطاني الذهبي
عثمان الثالث، 1170هـ (1756 - 57)، الجزائر
القطر: 23 مم؛ 3,40 غراماً

الملحق رقم (15) صور لأهم النقود التونسية المستعملة بالجزائر العثمانية. نقلا عن:
سعيدوني، النظام المالي للجزائر...، المرجع السابق، ص 277 وما بعدها.

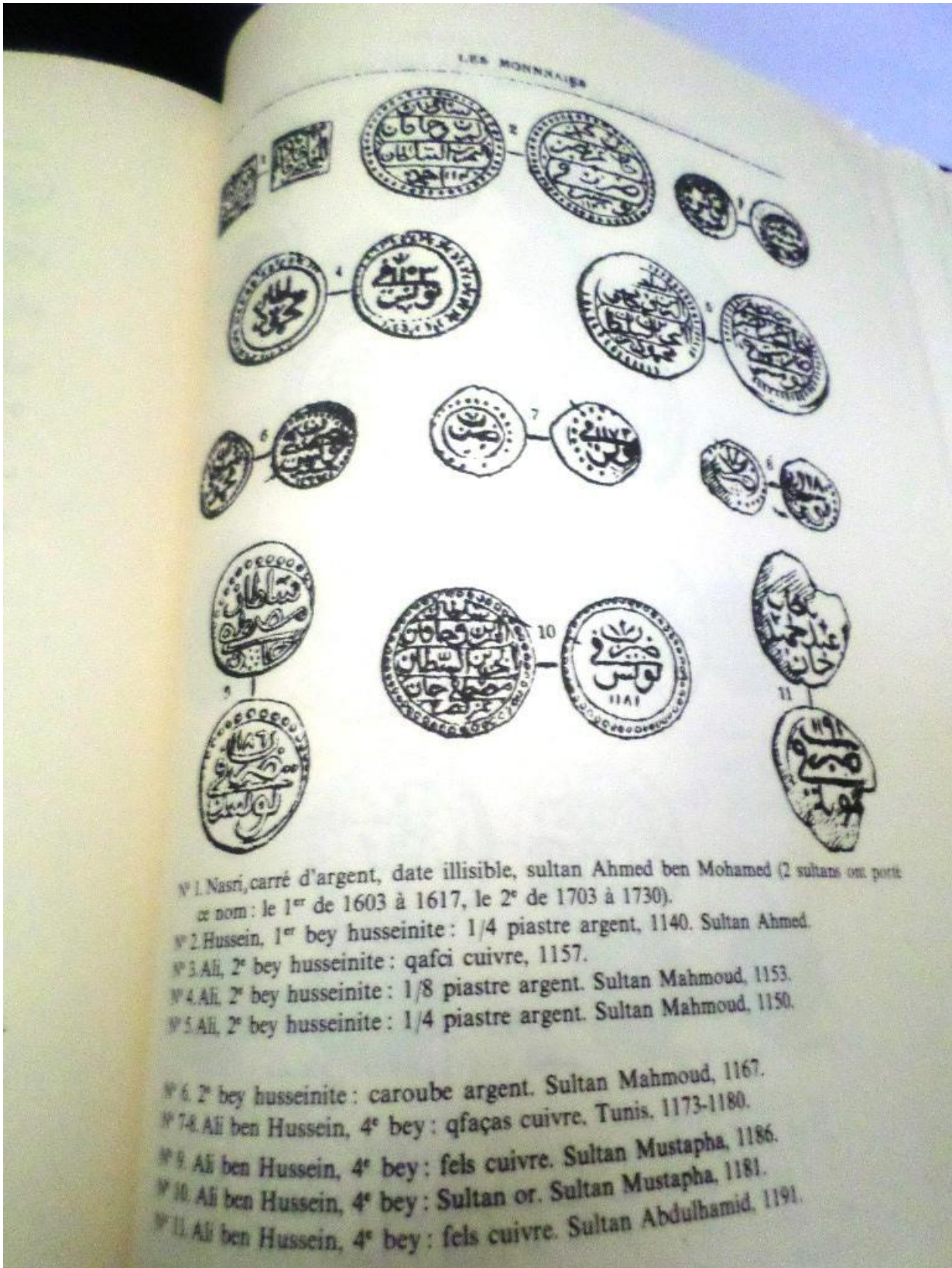
منحسب رقم : 13
لوحة تمثل بعض النقود التونسية المستعملة بالآلة الجزائرية



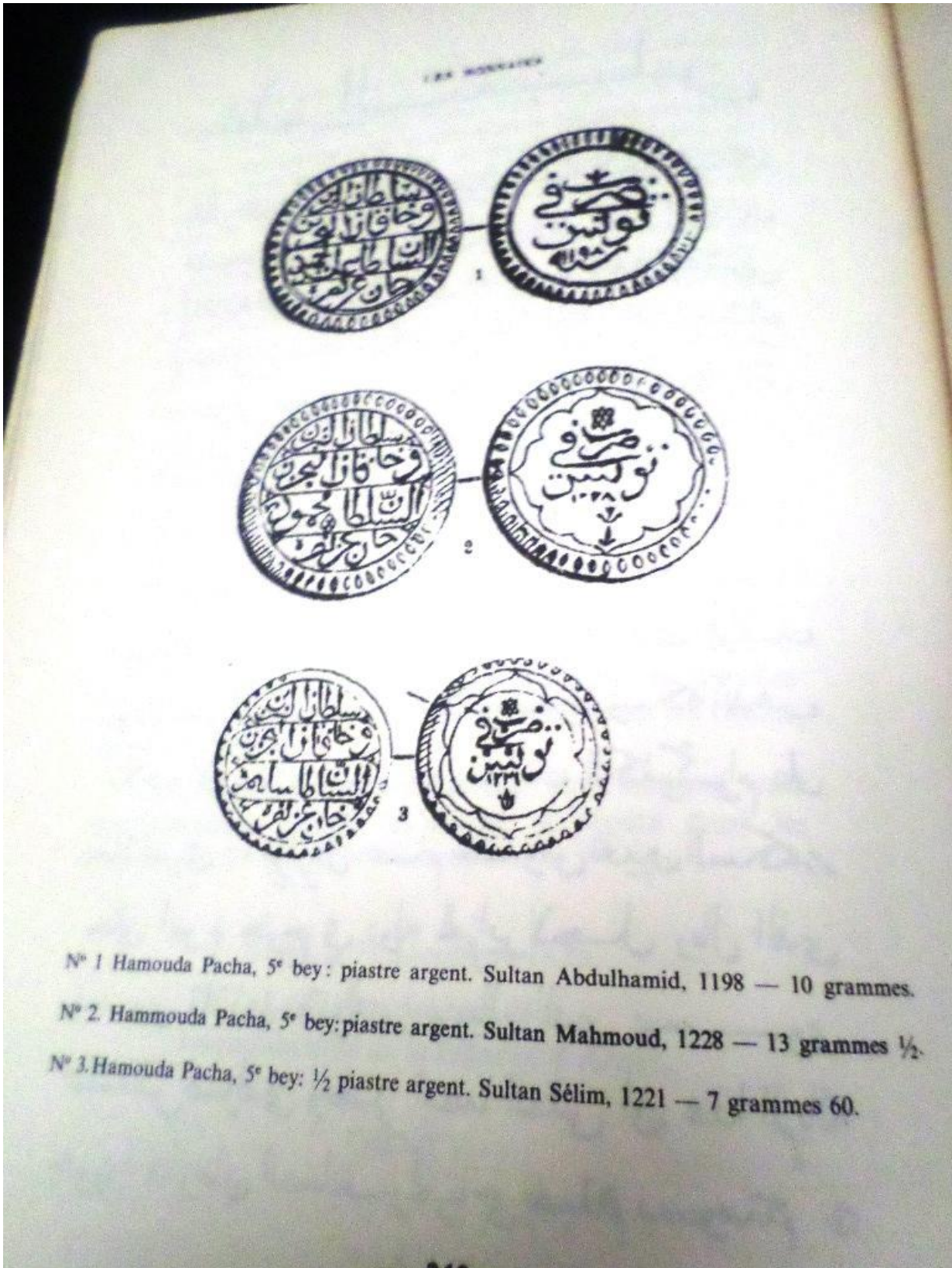
أ - نقود تونسية مضروبة في عهد الباي علي بن حسين ، 9 : فلس
« نحاس » باسم السلطان مصطفى (1186 هـ) 106 - سلطاني « ذهب »
باسم السلطان مصطفى (1181) ، الفليس « نحاس » باسم السلطان
مصطفى (1191 هـ) .

ب - نقود تونسية مضروبة في عهد محمود باشا (1782 - 1814)
من نوع القروش الفضية ، 1 - باسم السلطان عبد الحميد « 1198 هـ » .
2 - باسم السلطان محمود « 1228 هـ » . 3 - باسم السلطان سليم
« 1221 » . عن : Hugon (H) Les Emblèmes des Beys de Tunis,
E. Leroux, Paris 1913, p. 19 et 21.

تابع للملحق (15): أهم النقود التونسية المستعملة بالجزائر العثمانية



تابع للملحق (15) : أهم النقود التونسية المستعملة بالجزائر العثمانية

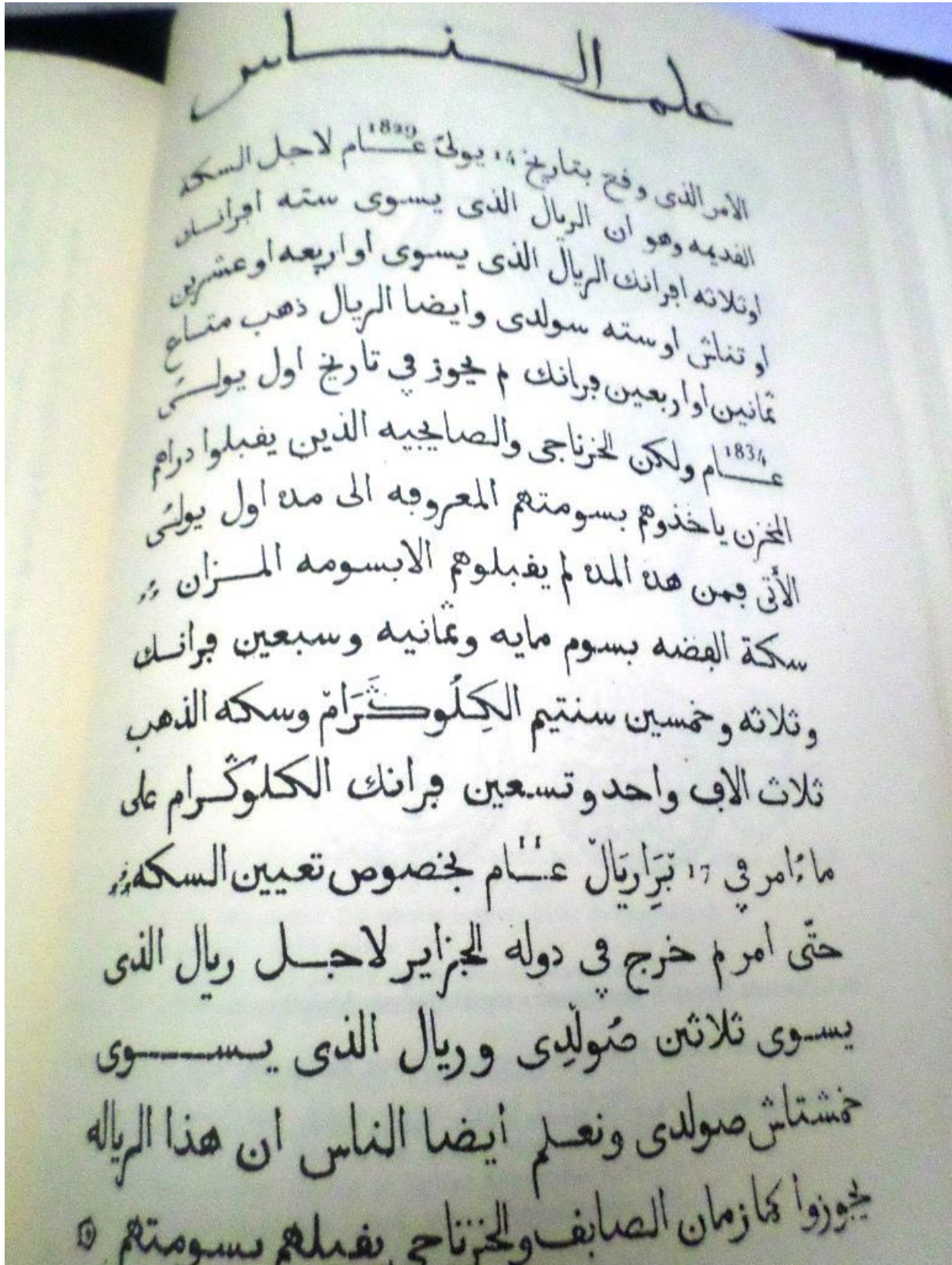


N° 1 Hamouda Pacha, 5^e bey: piastre argent. Sultan Abdulhamid, 1198 — 10 grammes.

N° 2. Hammouda Pacha, 5^e bey: piastre argent. Sultan Mahmoud, 1228 — 13 grammes $\frac{1}{2}$.

N° 3. Hamouda Pacha, 5^e bey: $\frac{1}{2}$ piastre argent. Sultan Sélim, 1221 — 7 grammes 60.

الهلحق رقم (16): المرسوم الفرنسي لعام 1834م، القاضي بتحديد استعمال النقود الجزائرية المضروبة في الفترة العثمانية نقلا عن: سعيدوني، النظام المالي...، المرجع السابق



L'article unique de la loi du 14 juin 1829, relative au cours des anciennes monnaies, est ainsi conçu :
« Les écus de six livres, trois livres, les pièces de vingt-quatre sous, douze sous et six sous tournois, ainsi que les pièces d'or de quarante-huit livres, de vingt-quatre livres et de douze livres, cesseront d'avoir cours forcé pour leur valeur nominale actuelle, au 1^{er} avril 1834. Néanmoins, les percepteurs, receveurs particuliers et généraux, les recevront au compte du Gouvernement pour leur valeur nominale actuelle jusqu'au 1^{er} juillet suivant. A compter de cette époque, ils ne seront plus reçus aux hôtels des monnaies que pour le poids qu'ils auront conservé, savoir : les espèces d'argent comme lingots, et payées comme lingots au titre de neuf cent-sept millièmes, sur le pied de cent quatre vingt-dix-huit francs cinquante-trois centimes le kilogramme ; et les espèces d'or au titre de neuf cents millièmes, sur le pied de trois mille quatre-vingt-onze francs le kilogramme, conformément au tarif du 17 prairial an XI. »

Aucune autre disposition de loi ou d'ordonnance n'ayant été publiée dans la régence, en ce qui concerne les pièces de trente et de quinze sous, le public est prévenu qu'elles doivent continuer d'avoir cours et qu'elles seront reçues comme par le passé dans toutes les caisses du gouvernement.

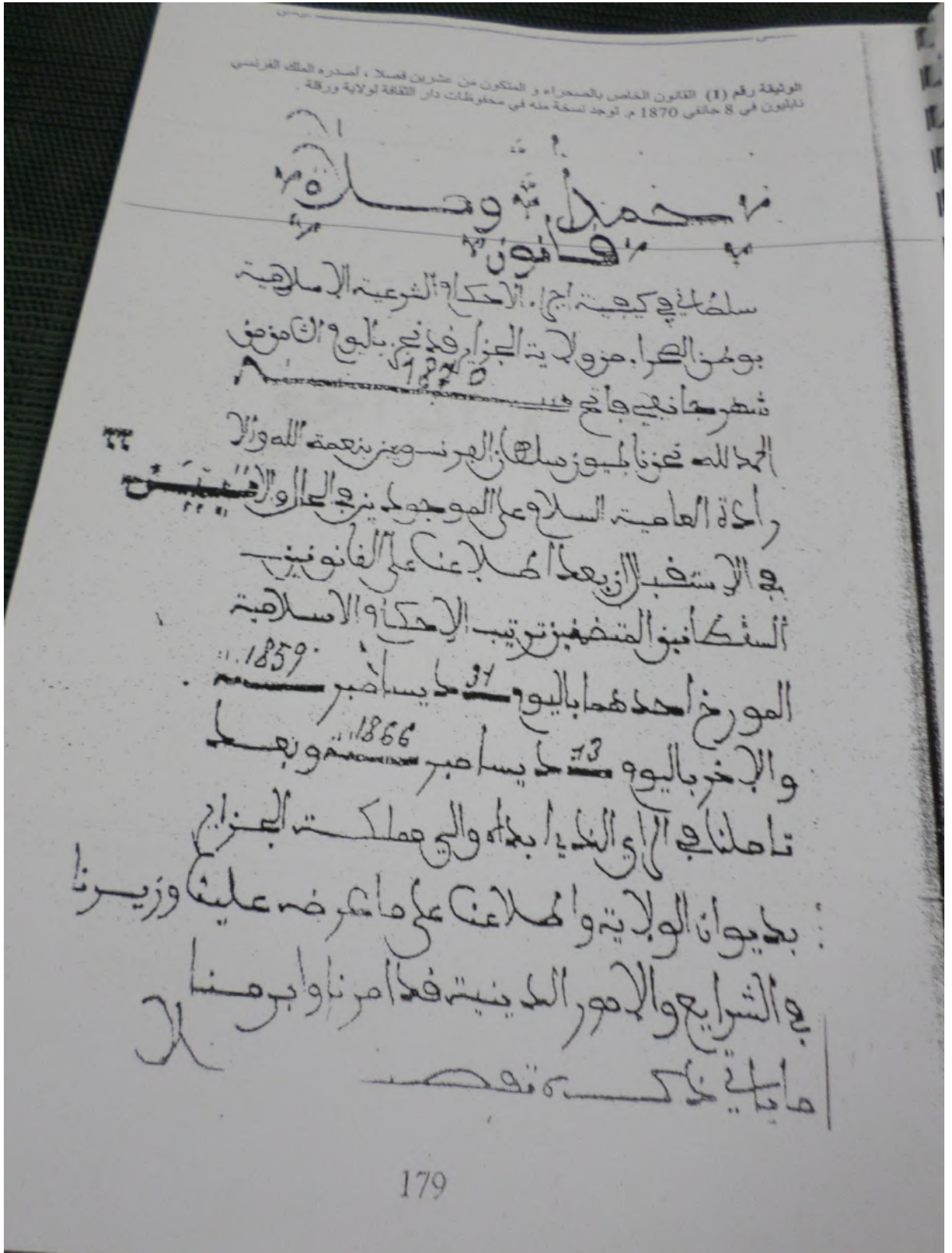
Le présent avis traduit dans les deux langues, sera immédiatement publié et affiché et répété dans les deux *Moniteurs* qui suivront sa date.

Alger, le 31 décembre 1833.

Le Maître des requêtes,
Intendant civil de la régence d'Alger,

GENTY

الملحق رقم (17): القانون الفرنسي الخاص بالصحراء الجزائرية الصادر يوم 8 جانفي 1870م⁽¹⁾



الملحق رقم (18): خريطة لإفريقيا جنوب الصحراء حسب أسفار واكتشافات الدكتور بارث⁽¹⁾

(1) نقلا عن: أحمد ذكار، حاضرة وارجلان...، المرجع السابق، ص 179.



Henri Barth: voyages et découvertes dans l'Afrique Septentrionale et (١) نقلا عن:
 Centrale, pendans les années 1849-1855, trad: Paul
 Ithier, 2^{ém} édition, T4, Firmin Didot Frères, Fils et C^{ie}, Bruxell, Belgique, 1863,
 p320.

الملحق رقم (19): نص معاهدة لالة مغنية المشهورة. نقلا عن: إبراهيم مياسي، الإحتلال الفرنسي للصحراء (1834-1837م)، دارهومة، الجزائر، 2005.

الشرط الاول اتقبل الوكيلان على ابقاء الحدود بين ايا التي المغرب
والجزائر كما كانت سابقا بين ملوك الترك وملوك المغرب السابقين
بحيث لا يتعدى احد حدود الاخر ولا يحدث بنا في الحدود والمستقبل
ولا تمييزا في التجارة بل تبقى كما كانت قبل استيلاء الفرنسيين على
مملكة الجزائر

الشرط الثاني عين الوكيلان الحدود بالاماكن التي في ممر الحدادة
وتراضيا عليها بحيث انها حارت واضحة معلومة كالخط بما كان غربي الخط
يعنى الحد ولاية مملكة المغرب وما كان شرقي الحد ولاية مملكة
المشرق

الشرط الثالث ذكر مبدأ الحدود والاماكن التي تمر عليها الحدادة بمبدأ
ملتقى وادي مجرود مع البحر واصعد مع الوادي الى ان تبلغ المشرق
المسمى كيس وسركذ لك مع الوادي الى ان تبلغ رأس العيون
الكائنة بحجر الكديات الثلاثة المسماة مناصب كيس وهذه الكديات
الثلاثة داخلية في الحد الشرقي وسرمن رأس العيون مع الجمار الى ان
تبلغ ذراع الدوم وافبط الى الوطا المسمى الاعوج وسركذ لك حوشي
سيدي عياد كالمقابل فك غيران الحوشي بنفسه يبقى داخل الجهة
الشرقية بنحو الخمسمائة ذراع وسركذ لك الى جوبي البارود الكائن بواي
بونعيم ومنه الى كركور سيدي حمزة ومنه الى زوق البغال وسرمنه
ميا سرا لبلد الطاح الى سيدي الزهمار المعروف للعملة الشرفية ومنه

2

تابع للملحق رقم (19): نص معاهدة لالة مغنية

س
سرح الطريق الجادة الى عين تغلبات التي هي بين البواردة والتزويجتين
المسماتين بالتوميات المعروفتين لايالة مملكة المغرب واحده من
عين تغلبات مع وادي ريان الى راس عصفور وسركة لك مع الكهبي
واترك شرفا فبة سيدي عبد الله بن محمد الحميلي وغرب مع ثنية
المشاميش وسركة لك غير مشرو وغير مغرب الى اة تبلغ فبة سيدي
عيسى الكائنة بمنتمى طرف مسيون والغبة وحرما داخلها في الالة
المملكة الشرفية وسر مستقبلا من الغبة المذكورة الى ان تبلغ كدية
الديغ وهي تمام حد التل ومنها سر مستقبلا الى ان تبلغ الى خنيز الجدا
ومنه الى ثنية الساسي المعلومة لايالة المملكتين والحدادة المذكورة
من البحر الى الصحراء من تمامها ذكر الارض الملاصقة للحدود شرفا
وذكر القبائل النازلة بما جاول الارض والقبائل ارض بني منقوش التواتة
وعظيمة الذين هم لايالة مملكة المغرب ومنزلهم ارض ايالة مملكة
المشرف وسبب نزولهم وفعة وفتح بينهم وبين اخوانهم الغرابة
بانهمزوا بانتموا الى المنازلة التي هي سكنناهم الان ولا زالوا يتصرفون في
المنازلة المذكورة بالكرا من مالكا ايالة المملكة الشرفية الى الان وحتى
الان لكة تكرم وتبرع النائب عن سلطان البرنسييس على نائب سلطان
المغرب بالوظيفة التي توديا هاتان القبيلتان المذكورتان لسلطان العملة
الشرفية بلايطابون بفليل ولا كثير ولا جليل ولا خطير رغبة في الاستيلاء
وابقاء للمحبة وجلبا للمودة بين العريفيين مدة الخير والصلاح والمهادنة
3

تابع للملحق رقم (19): نص معاهدة لالة مغنية

وطياجة من النائب المتبرع المذكور على السيد النائب من سلطنة المغرب
 المسطور ثم يباور ثواب العرفيين المذكورين ثواب مسيردة والاعشاش
 واولاد ملوك عرني بوسعيد وبنو سنوس واولاد نهار وهذه القبائل
 الستة من جملة عملة الجزائر وكذا ذكر الارض الملاصقة الحدود غربا
 وذكر القبائل النازلة فيها باول الارض والقبائل ارض اولاد منصور
 اهل تريعة وبنو ينناسن والمزاوير واولاد احمد بن ابراهيم واولاد العباس
 واولاد علي بن طاحنة واولاد عزوز وبنو بوجمدون وبنو حليل وبنو
 مطهر اهل راس العين وهؤلاء القبائل يمتاز لهم لعملة المغرب
 الشرط الرابع ارض الصحراء لاحد بيها بين الجانبين لكونها لا تحرك
 وانما هي مرعى فقط لعرب الاياليين التي تنزل فيها وتنتفع بخصبها
 وماها وكللا السلطانيين التصرف في رعيته بما شاء وكيفية شراء
 من غير معارض ان امتازت والا فمن اراد احداث امر في رعيته حالة
 اختلاطها برعية غيره فليكتب عن غير رعيته ويحدث في رعيته ما يشاء
 بالاعراب الغربية هم المهاية وبنو فيل واولاد سيدي الشيخ الغزابة
 وعمور الصحراء وحميان الجنبية والاعراب الشرفية هم اولاد سيدي
 الشيخ الشراقة وكافة حميان من غير حميان الجنبية
 الشرط الخامس في تعيين فصول اية المملكتين في الصحراء وعلى الملكين
 اتباع الطريق السابقة وتوفير اهل هذه الفصول رعايا الجانب المقامين
 اما فصول فيج وفضريش بلعملة المغرب واما العين الصحراء وسفيسية

تابع للملحق رقم (19): بقية نص معاهدة لالة مغنية

وعلة وتيوت وشلالة والابيض بوسمخون بالعملة الشرفية
 الشرط السادس ان الارض التي هي قبلة قصور العريفيين من الصحراء
 لا ما فيها ولا تحتاج لتعديد لكونها ارض فلات
 الشرط السابع ان جميع من التجا من رعية العريفيين التي لاخر جلا
 يرد من التجا اليه لموضعه جلا يتعرض له عامل ولا غيره وحيث غرم على البناء ببني
 الرجوع لموضعه جلا يتعرض له عامل ولا غيره وحيث غرم على البناء ببني
 تحت حكم عامل المكان الملتجا اليه ويكون امانا في نفسه وماله احتراماً
 من السلطانيين لبعضهما بعضاً وهذا الشرط لا تدخل فيه القبائل الذين
 عملتهم مبينة في الشروط اعلاء وغير حتى ان الحاج عبد الغادر ومن
 في حوزة غير داخل في هذا الشرط لان دخوله فيه موجب لبطلان الشرط
 الرابع في مكتوب الصلح المنبرم يوم ١٥ شتنبر سنة ١٨٤٤ فان العمل
 والعقايبه من اهم الامور الموجبة لزجود كل سنة السلطانيين في تصحيح
 المحبة وابفاء المودة بين الدولتين والابفة بين الجانيين بعبء
 المملوك من السلطانيين الرضى بما ذكر اعلاء والتوفاء به ولا بد من كتب
 نسختين لتفصيل الشروط المذكورة بتلخيص نسخة منهما بطابع سلطنة
 البرنسييس وياخذها سيادة سلطاه المغرب وتطبع نسخة اخرى بطابع سلطاه
 المغرب وياخذها سيادة سلطاه البرنسييس وتبدل النسختين انما يكون في نسخة
 عن قريب ان شاء الله بعد ان يضع كل واحد من النايبين المذكورين خط يده وخطه
 في كل نسخة من النسختين وذلك بغير الحدود

بتاريخ ٩ ربيع الاول سنة ١٢٦١ الموافق اليوم الثامن عشر من
 سنة ١٨٤٥ من تاريخ المسيح والله يصلح الخالي والمالي
 واسجله خط يد النايب البرنسوي

الجلينار كوت دولاروا
 واسجله خط يد النايب المغربي
 السيد حميدة بن علي

الملحق رقم (20): صور لبعض أشهر المستكشفين الأوروبيين في غرب إفريقيا. نقلا عن: عثمان
حساني، البيئة الإجتماعية والإقتصادية للصحراء الجزائرية من خلال تقارير الأجانب في القرنين
و19م، رسالة ماجستير، إشراف بن يوسف تلمساني، جامعة الجزائر، 2006-2007م.



بول فلاترس



صورة المغامر منجو بارك الذي جاء الى منطقة غرب افريقيا عام ١٧٩٥ م
ليكتشف منابع نهر التيجر . من اعداد المترجم .

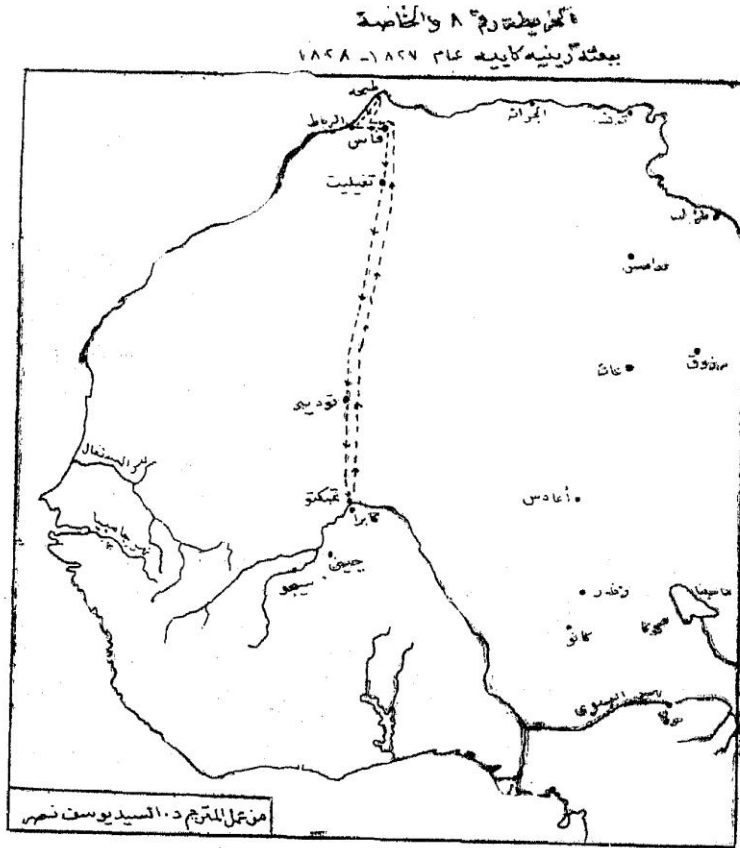


René Caillié

(1799 - 1838) (1799 - 1838)

الهلحق رقم (21): مخططات تبين خط سير رحلات بعض المستكشفين الأوروبيين في غرب إفريقيا. نقلا عن: جوزيف كام، المستكشفون في إفريقيا، دار المعارف، مصر، 1983م، ص 162 وما بعدها.

١٦٥



بدأ رينيه كاييه رحلته عام ١٨٢٧ من طنجة فالرباط ففاس فتغليت فتوديني تمبكتو ، التي مكث بها أربع عشر يوما ، واستغرقت رحلته ١٨ شهرا ، تطع مسافة طولها ٢٥٠٠ ميل .

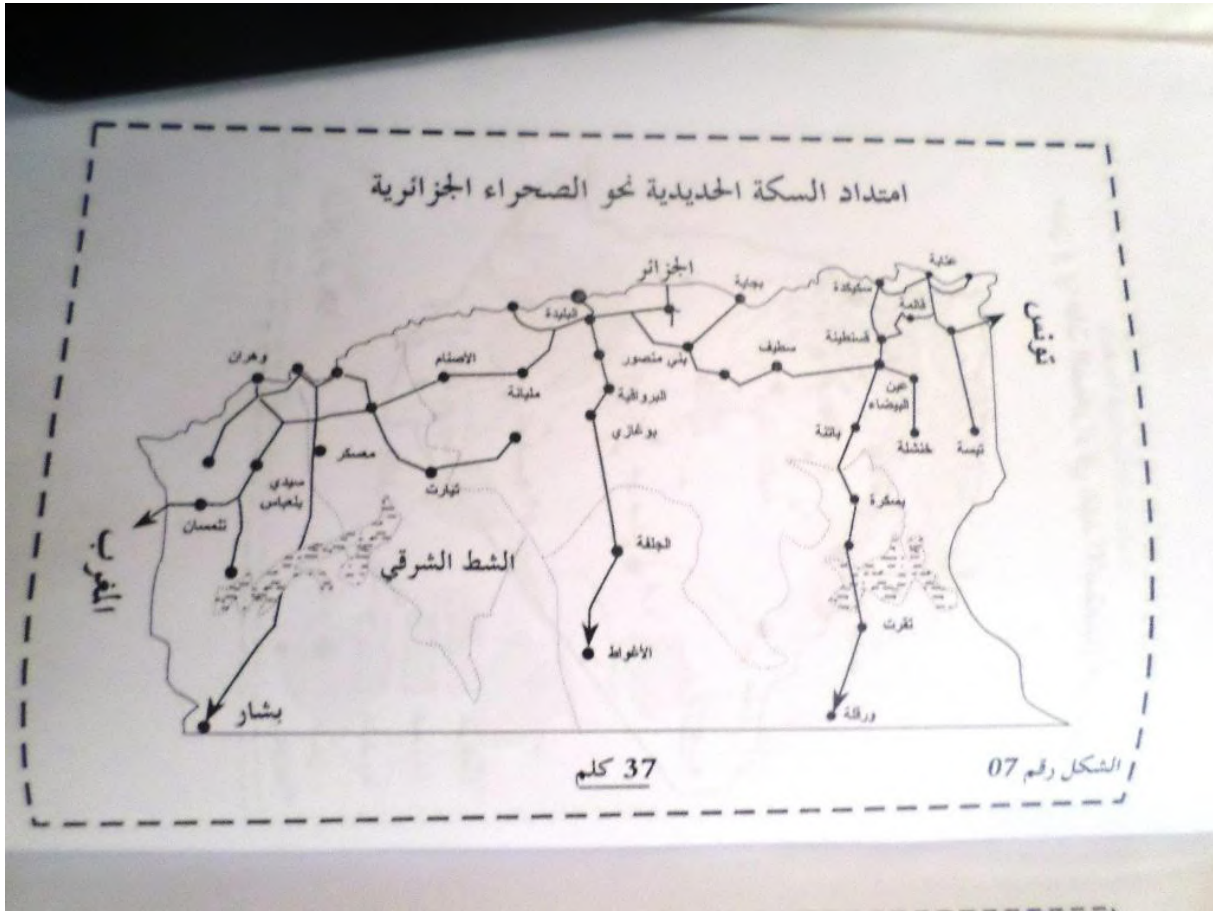
الخريطة رقم ٥ والخاصة
ببعثة لينج عام ١٨٢٥



بدأ لينج رحلته عام ١٨٢٥ م من طرابلس مارا ببغداد مس فواحة صالح
فتمبكتو ، وبعد أن مكث لينج فيها مدة خمسة أسابيع غادرها متجها صوب
الغرب نحو نهر السنغال . ولكنه اغتيل من قبل رجال الشيخ الذي كان
يستضيفه في تمبكتو والذي صحبه الى جهة الغرب .

(1)

الملحق رقم (22): إمتداد السكة الحديدية نحو الصحراء الجزائرية



الملحق رقم (23): نص خطاب الملك البلجيكي حول تجارة العبيد يوم: 06
1876/11م. نقلا عن: عطية، التحولات السياسية...، المرجع السابق.

¹ نقلا عن: عميراي، السياسة الفرنسية في الصحراء...، المرجع السابق.

DISCOURS PRONONCÉ PAR LE ROI

A LA SÉANCE D'INSTALLATION DU COMITÉ BELGE

TENUE LE 2 NOVEMBRE 1879, AU PALAIS DE BRUXELLES

MESSIEURS,

L'esclavage qui se maintient encore sur une notable partie du continent africain constitue une plaie que tous les amis de la civilisation doivent désirer de voir disparaître.

. Les horreurs de cet état de choses, les milliers de victimes que la traite des noirs fait massacrer chaque année, le nombre plus grand encore des êtres parfaitement innocents qui, brutalement réduits en captivité, sont condamnés en masse à des travaux forcés à perpétuité, ont vivement ému tous ceux qui ont quelque peu approfondi l'étude de cette déplorable situation et ils ont conçu la pensée de se réunir, de s'entendre, en un mot, de fonder une association internationale pour

APPENDICE

L'association internationale ne prétend pas résumer en elle tout le bien que l'on peut, que l'on doit faire en Afrique. Elle doit, dans les commencements surtout, s'interdire un programme trop étendu; soutenus par la sympathie publique, nous avons la conviction que si nous parvenons à ouvrir des routes, à établir des stations sur les lignes parcourues par les marchands d'esclaves, cet odieux trafic sera enrayé et que les routes et les stations, en servant de point d'appui aux voyageurs, aideront puissamment à l'évangélisation des noirs et à l'introduction, parmi eux, du commerce et de l'industrie moderne.

Nous affirmons hardiment que tous ceux qui veulent l'affranchissement de la race noire sont intéressés à notre succès.

Le Comité belge, émanation du Comité international et son représentant en Belgique, s'efforcera de procurer à l'œuvre le plus d'adhérents possible. Il aidera mes compatriotes à prouver une terre hospitalière, la Belgique est non seulement une terre hospitalière, mais qu'elle est aussi une nation généreuse où la cause de l'humanité trouve autant de défenseurs qu'on y compte de citoyens.

Je remplis un bien agréable devoir en remerciant cette assemblée et en la félicitant chaleureusement de s'être imposé une tâche dont l'accomplissement vaudra à notre patrie une belle page de plus dans les annales de la charité et du progrès.

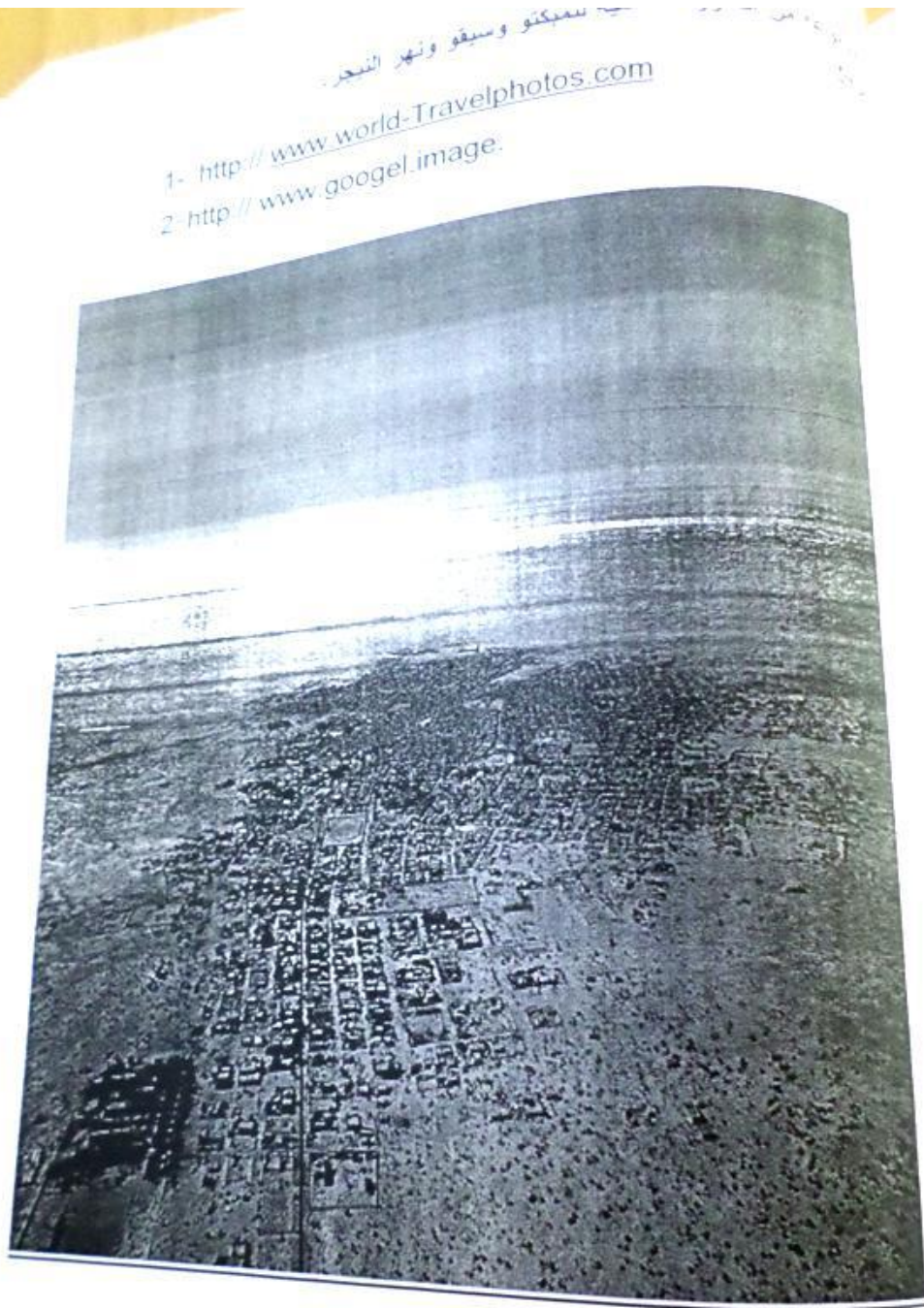
الوثيقة رقم: (7)

• خطاب الملك البلجيكي في جلسة بقصر بروكسل 6 تشرين الثاني 1876. يشين فيه تجارة الرقيق ويصف وضع البشر المزري، كما يدعو إلى إتباع أساليب أكثر تحضرا وفاعلية في نشر المسيحية، ويتقدم بشكره في الأخير إلى كل الجهود المبذولة في تقوية الوطن والتقدم له.

المصدر:

Banning, Émile: L'Afrique et la Conférence géographique de Bruxelles, C. Muquardt (Bruxelles), 1877. PP140-141

الملحق رقم (24): منظر جوي لمدينة تمبكتو⁽¹⁾

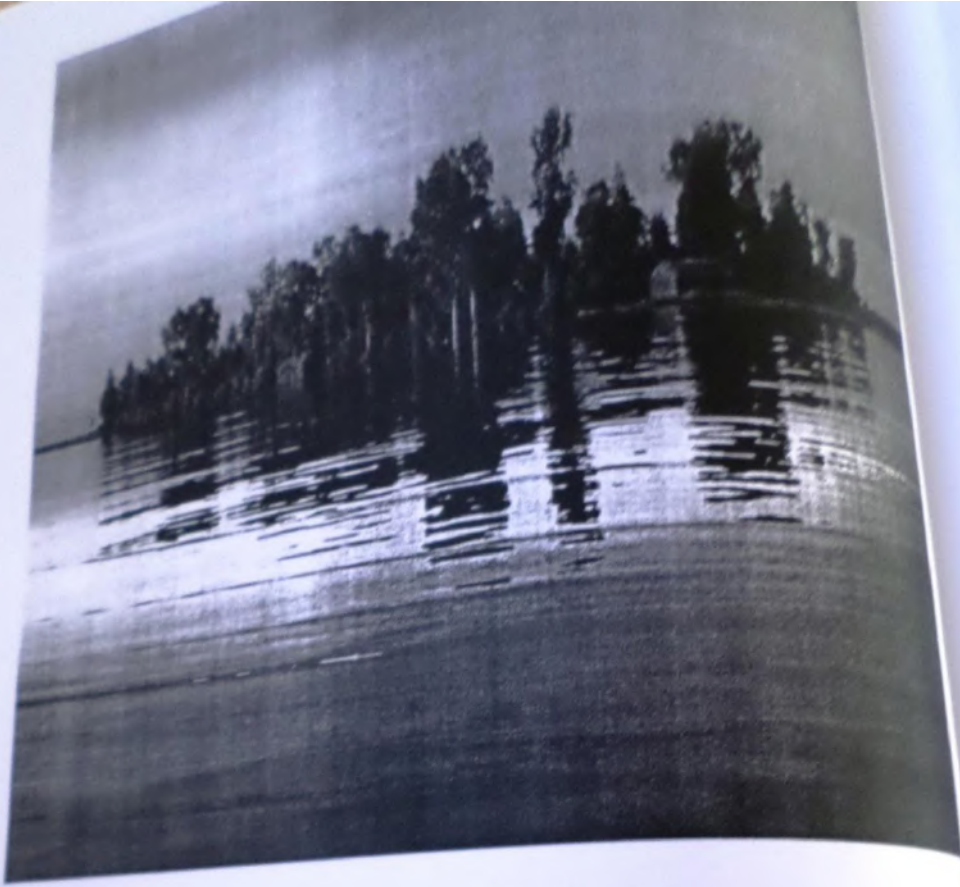


منظر جوي لمدينة تمبكتو

247

الملحق رقم (25): صورة لنهر النيجر⁽¹⁾

⁽¹⁾ نقلا عن: عطية، التحولات السياسية والإقتصادية...، المرجع السابق، ص 247.



نهر النيجر

253

(١) نقلا عن: عطية عبد الكامل، التحولات السياسية والإقتصادية...، المرجع السابق، ص 253.

الملحق رقم (26): بقايا مساكن العمال في موقع ملاحاة كلالة على بعد 3 كلم من بيلما (1).



(1) نقلا عن: Victor Enlebert : Les touaregs des dernières caravanes, in Paris Match, France, S.D

الهلحق رقم (27) : مادة الملح المستخرجة لنقلها إلى إفريقيا جنوب الصحراء (1).



el. *Ces champignons : les cônes de sel moulé.*

(1) نقلا عن: Enlebert : Les touaregs..., op.cit.

الملحق رقم (28): المسافات التقريبية بين مدينة عين صالح وأهم المراكز التجارية الصحراوية

في الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء⁽¹⁾

Amguid et dans le pays des Azdjer.
Voici les distances approximatives d'In Salah aux principaux points du Sahara, de l'Algérie et du Soudan :

In Salah à Adrar (Jouat) par In Belbel	290	kilomètres
— Timimoun (Gourara) par Afflissès . .	340	—
— El Goléa par Aïn el Guettara	420	—
— Ouargla par Hassi Inifel	640	—
— Alger par El Goléa et Ghardaïa . .	1.230	—
— Gabes par Ouargla et El Oued . .	1.170	—
— Amguid par Khanguet el Hedid .	350	—
— Tamamrasset par In Amdjel	620	—
— Timissao par In Zize	720	—
— Taoudeni par Taourirt	850	—
— Tombouctou par Araouan	1.350	—
— Agadez par Tamamrasset	1.400	—

(1) نقل عن: L. Voinnot: Le Tidikelt, Etude sur la Géographie L'histoire Les Mœurs du pays, Imprimerie L.Fouque, Oran, Algerie, 1909, p33.

بسم الله الم حمد الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله وصحبه و سلم ^{هذا} نفيق كتاب
 الحاجة مانحه بعد الحمد لله من الحاكم الكبير بلالة الاغوا طر سعادة السيد
 الكماندات جيمري الى جماعة بني مزاب كسر و صعب كافة اهليهم بان و غير
 دية و بنو بسف و بنو زره و بنو زره و المليك و العظيد السلام عليكم الالف و الرحمة
 و البركة اضعافا ما بعد اعلوا اذ الصيغاد منا عكم من بيان بايه هو ذون
 عن دية با عيسى بن روح هو و ذوا دينا با احمد و من اهلكه بنوح بن الحاج احمد و من
 بنو زره با كير بن علي و من بنو بسف زرقه و زوهج بن الحاج و عمر بن ذوا و
 و من العصف بكم من سليمان ذون الفزارة بكم من كاس و عيسى لاد ريب و هلنا
 بلالة الاغوا طر بخير و علمنا على و انكم اجتمعتم و التفتتم على ان تحضروا ال
 و لمة البمر اشوية و تحملوا اما اشترى كنه عليكم سيدنا الم شال و اليه عمالة
 الجز ايم و تر اهم دفعه الما الخيل مناع الفاده و قبلناهم منهم و هم حنا كشر ا
 بو با حكم على ذلك و هو عين اهاد نكم و به يتكون صلاحكم و سدا اذ كسر
 و قابلت الوا اذ كسر العمد كرهين اعلاه با حساد و خبثهم با طيب كلام و ذالك
 كما ان ظم لي ذكيات عفو لهم و انهم بعد ارضكم و ما فعلوه فدا بعلفتهم و كمرنا
 عليهم المش و طر التي هي للم شال و قبلوا ذلك و هم فاديين يوم السبت لاجد ان
 يدفعه الخيل با نفسهم الى سعادة السيد الفبا نوح و اليوم نعيد لكم المش و طر
 التي جعلها لكم عليكم سيدنا الم شال لاجد اذ ذهب الوهم و الغلظ و هذا امر
 ايم مناه و لا يجوز و من فقد العهد فسطه ما تخرجه و ذالك المش و طر اللازمة
 نكل سنة و هي التي جعلها سعادة الفبا نوح خمسة و اربعين الف درهم انك
 و اكن انتم فاس ففراء و وقع عندكم المش و سنطبا من جوده و حنانتهم
 انعطكم عليكم شيء من ذلك و كونه احد اما طابعين و نحن نكون لكم حفظا
 و امانا به جملة رعيتنا يد السعي و العقام و لا يكوننا قهرنا على سلعكم و ايضا
 بان

بأن لا يبيع من بلادكم ولا اسواقكم العرب الفنا فبين كما هي عادة الختام المطايعين
 ويحتم واما لسبب يعني البيع والشراء في انواع الفناح وبعد لكونهم من هذه اقطان
 واما ان من يتم تنسيبه ايد سلعة تو نسو او سلعة الغرب يعني بلاد هو لا يبيع
 الا حصصكم لتسريح ذلك لكون بشره تدفعه القمير فعليها كما هي عادة القمير
 تنسيب في السلعة البر اذنية ونحن لان تدخلوا في اموركم الداخلة عنكم
 في بعضكم بعضا وتم اكم على منه الك السابف بينكم وتحكم ايد بعضكم
 بعضا كما يطعمكم والنزوة التي تدفعها البابلد كل سنة مجموعها با
 نفسكم وتقرضوها كما منيتم ولا ياتكم مخزن ولا خزانة من عندنا ولا نحن
 كل عام تدفعوا هاليه اليوم الذي فاصركم به في الاعوان والحامل لان تدخل
 شيء من اموركم الا في الشيء الذي يناه في ارضنا و الخيم بنا في حف القمير انسيب
 والسلام باسم سعادة السيد الكايدات جبر ابي الحاكم الكيم بيلا الاعوان
 ومها لته لتسريح ٢٢٠٠ من قبل سنة ١٨٥٣ سنة ١٢٦٦ هـ رجب خديعة اسفل سنة

بيليوغرافيا الدراسة

ملاحظة: تسقط ابن وابو من البيبليوغرافيا وفهارس الأعلام والقبائل والجماعات.

القرآن الكريم: مصحف الجزائر، برواية ورش عن نافع، خطّه محمد سعيد شريفني، راجعه بكير بن محمد الشيخ بالحاج وآخرون، نشر: دار ابن كثير، ودار القادري، دمشق، سوريا، 1421هـ/2000م.

أولاً - المصادر العربية:

1- ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد: رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جزأين، تحقيق وتقديم وتعليق: علي المنتصر الكتاني، نشر: مؤسسة الرسالة، ط 4، بيروت، لبنان، 1405هـ/1985م.

2- ابن خلدون، عبد الرحمن: مقدمة العلامة ابن خلدون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، طبعة جديدة، بيروت، لبنان، 1428هـ/2007م.

3 -: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 8 مجلدات، نشر: دار الكتب العلمية، ط3، بيروت، لبنان، 1427هـ/2006م.

4- ابن عبد الحكم، أبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله القرشي المصري: فتح إفريقية والأندلس، تقديم: زهير إحدادن، مؤسسة إحدادن للنشر والتوزيع، الجزائر، 2004م.

5- أبو راس الناصري الجزائري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج 1، دراسة وتحقيق: محمد بوركبة، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، طبع: م.و.ف.م (ENAG)، الرغاية، الجزائر، 2011م.

6- أبو زكرياء محيي الدين، يحيى بن شرف النووي: رياض الصالحين، تحقيق: جماعة من العلماء، تخرّيج: محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير شاويش، نشر: المكتب الإسلامي، دمشق، سوريا، 1412هـ/1992م.

7- البكري، أبو عبيد: المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك، تصميم وإخراج وطبع مطبعة زيتا قرافيك، الجزائر، 1432هـ/2011م

8- الوفراي النجار المراكشي الوجار، محمد الصغير بن الحاج بن عبد الله: **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي أوتاريخ الأسرة السعدية بالمغرب (1511-1670م)**، تصحيح: السيد هوداس، نشر: مدرسة اللغات الشرقية الحية، السلسلة 3، حجم 2، طبع: مطبعة بوردين وشركاه، أنجيه، 1888م.

9- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح المعروف باليعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، لبنان، د.ت.ن.

10- الشريف الإدريسي، أبي عبد الله: **القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس**، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق، تحقيق وتقديم وتعليق: إسماعيل العربي، نشر: د.م.ج، الجزائر، 1983.

11 - الشريف الزهار، الحاج أحمد: **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار** نقيب أشرف الجزائر 1168-1246هـ/1754-1830م، تحقيق وتقديم وتعليق: أحمد توفيق المدني، ش.و.ن. ت، ط2، الجزائر، 1980م.

12 - الشويهد، عبد الله بن محمد: **قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117هـ/1695-1705م)**، تحقيق وتقديم وتعليق: ناصر الدين سعيدوني، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2006م.

13 العياشي، عبد الله بن محمد: **الرحلة العياشية للبقاع الحجازية المسماة ماء الموارد**، تحقيق وتخرىج وتعليق: الشيخ أحمد فريد المزيدي، المجلد الأول، منشورات دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2011م.

14 التتمكروقي، علي بن محمد: **النفحة المسكية في السفارة التركية (1589م)**، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، والمؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2007م.

ثانيا- المصادر المعربة:

1- دودو، أبو العيد(د): **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان (1830 - 1855م)**، م.و.ك، الجزائر، 1989م.

2- الوزان، الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي: **وصف إفريقيا، جزآن**، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، لبنان، 1983م.

3- مارمول، كرنخال: إفريقيا، ج3، ترجمة: محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المملكة المغربية، 1989م.

4- السعدي، عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران: تاريخ السودان، دراسة وتعليق وتحقيق: عبد النعيم ضيفي عثمان، نشر: دار الرشاد، طبع: عربية للطباعة والنشر القاهرة، مصر، 2010م.

5- شالر، وليام: مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824م)، تر وتو وتق: إسماعيل العربي، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982م.

6- التمبكتي، أحمد بابا: معراج الصعود، أجوبة أحمد بابا حول الإسترقاق، تحقيق وترجمة: فاطمة الحراق وجون هانويك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، جامعة محمد الخامس، الرباط، المملكة المغربية، 2000م.

7- خوجة، حمدان بن عثمان: المرأة، تقديم وتعليق وتحقيق: محمد العربي الزبير، تصدير: عبد العزيز بوتفليقة، منشورات ANEP، طبع: المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م.

ثالثا- المصادر الأجنبية:

1- Armagnac (Lieutenant) : **Le M'zab et les pays**

chaamba (sahara), Edition Baconnier Frères, Alger, 1937.

2- Barth, Henri: **voyages et découvertes dans l'Afrique**

Septentrionale et Centrale, pendant les années 1849-1855,

trad: Paul Ithier, 2^{ém} édition, T4, Firmin Didot Frères, Fils et C^{ie},

Bruxell, Belgique, 1863.

3 - Caillie, René : **Voyage à Tombouctou**, éditions la

déouverte, 2^{ém} tirage , Paris, 1985.

4- Déporter(Commandant): "**La question du Touat**", Sahara

Algérien, Gourara-Touat-Tidikelt, caravanes et transsaharien, deux

conférences, imprimerie Fontana et compagnie, Alger, 1891.

- 5– De Haedo, Diego : **Histoire des rois d'Alger**, trad de l'espagnol par Henrie.Delmas de Grammont, éd : Grand Alger Livres, Alger, Algerie, 2014.
- 6– de Haedo, Diego : **Topographie et Histoire générale d'Alger**, traduit de l'espagnol par MM. le Dr.D.Monnerau et A.Berbrugger en 1870, imprimé a Valladolid, Espagne,1612.
- 7– Durou, Jean marc: **L'exploration du sahara**, éditions Actes–Sud, France,1993.
- 8– Leselle, Roger (Capitaine): **Les noires du souf**, mémoire de candidature au centre des hautes études d'administration musulmane de l'université de Paris, France, 1957.
- 9 – Martin, A.G.P: **Quatre siecles d'histoire marocaine au sahara de 1504 a 1902, au maroc de 1894 a 1912**, librairie felixalcon, Paris, 1923.
- 10 – Rohlf's Gerhard : **Voyage et explorations au sahara**, tome1, Draa Tafilelt – sud Oranais – Touat – Tidikelt – Rhadames (1861–1864) traduits et publiés par Jacques Debetz, édité sous l'egide du centre d'études sur l'histoire du sahara,édition carthala,Paris,2001.
- 11– Shaw,Thomas : **Voyage dans la régence d'Alger au l'anglais par E.Mac carthy(1830), 18^{em}, siècle** trad de Edition Grand Alger Livres, Alger, Algerie, 2007.

12- Voinnot. L: **Le Tidikelt, Etude sur la Géographie, :
L'histoire, Les Mœurs du pays**, Imprimerie L.Fouque,
Oran,Algerie,1909

رابعاً- المراجع باللغة العربية:

- 1 -اسماوي، صالح بن عمر، العزابة ودورهم في المجتمع الإباضي بمزاب ، ج 2، نشر: جمعية التراث، القرارة، طبع: المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1426هـ/2005م.
- 2 -إسبر، أمين: إفريقيا سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، دار دمشق للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1985م.
- 3 -ابن الأحمر، إسماعيل: تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تقديم وتحقيق وتعليق: هاني سلامة، نشر: مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، مصر، 1421هـ/2001م.
- 4 -بابا حمو أعزام، إبراهيم بن صالح: غصن البان في تاريخ وارجلان ، دراسة وتحقيق: الأستاذ الدكتور إبراهيم بن بكير بحاز، والأستاذ سليمان بن محمد بومعقل، تصفيف وطبع: مطبعة العالمية، غرداية، الجزائر، جمادى الأولى 1434هـ/أفريل 2013م.
- 5 -الباشا، نجاة: التجارة في المغرب الإسلامي من القرن الرابع إلى القرن الثامن الهجري ، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تونس، 1976م.
- 6 -بحاز، إبراهيم بكير(د): الدولة الرستمية 160- 296هـ/777- 909م، دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية ، ط 2، نشر: جمعية التراث، القرارة، طبع: المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1994م.
- 7- بن صحراوي، كمال(د): الدور الدبلوماسي ليهود الجزائر في أواخر عهد الدايات ، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 8- بلحميسي، مولاي(د): الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1979م.
- 9- بلعالم، محمد باي: إرشاد الحائر إلى معرفة قبيلة فلان في جنوب الجزائر ، د.د.ن، د.ر.ط، الجزائر، 1433هـ/2012م.

- 10-: قبيلة فلان في الماضي والحاضر ومالها من العلوم والمعرفة والمآثر ، د.د.ن، د.ر.ط، الجزائر، 2004م.
- 11 -بوداود، بومدين: تجارة بني مزاب، تجسيد المنهج الإسلامي في إدارة الأعمال التجارية، تقديم: الأستاذ بكلي عبد الوهاب، دار رياض العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 1427هـ/2006م.
- 12 -بن خروف، عمار(د): العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/16م، الجزء الثاني، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م.
- 13 -.....: العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن 10هـ/16م، الجزء الأول، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م.
- 14 -برايم، باري عثمان: جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي ، دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1421هـ/2000م.
- 15 -بوعزيز، يحيى(د): تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين ويليهِ الإستعمار الأوروبي في إفريقيا وآسيا وجزر المحيطات ، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 16 -.....: موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر والعرب ، الجزء الأول، طبع: دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2009م.
- 17 -.....: مدينة وهران عبر التاريخ، دار الغرب للنشر والتوزيع، ط 2، وهران، الجزائر، 2002م.
- 18 -.....: مع الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 19 -جودت عبد الكريم، يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، سلسلة الدراسات الكبرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 20 -جعفري، مبارك بن الصافي: العلاقات الثقافية بين توات والسودان الغربي خلال القرن 12هـ/18م، دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 1430هـ/2009م.

- 21 -الدالي، الهادي المبروك: التاريخ السياسي والإقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن15م إلى بداية القرن18م، نشر: الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ربيع الثاني 1420هـ/ أوت1999م.
- 22 -هلايلي، حنيفة(د): أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1429هـ/2008م.
- 23 -زبادية، عبد القادر(د): دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر ومؤلفات العرب والمسلمين، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010م.
- 24 -.....: الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء، نشر: م. و.ك، الجزائر، 1989م.
- 25 -.....: مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، ش.و.ن.ت، الجزائر، د.ت.ن.
- 26 -الزيري، محمد العربي(د): التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1792-1830م، نشر: م.و.ك، ط2، الجزائر، 1984م.
- 27 -زوزو، عبد الحميد(د): تاريخ الإستعمار والتحرر في إفريقيا وآسيا، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012م.
- 28 -الحاج سعيد، يوسف بن بكير: تاريخ بني مزاب، دراسة إجتماعية واقتصادية وسياسية ، المطبعة العربية، ط2، غرداية، الجزائر، 1427هـ/2006م
- 29 -حسن محمد، نبيلة: تاريخ إفريقيا الإسلامية، طبع وتوزيع: دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، مصر، 2013م.
- 30 -حسين، أحمد إلياس(د): الإباضية في المغرب العربي ، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، السيب، سلطنة عمان، 1412هـ/1992م.
- 31 -حليمي، عبد القادر علي(د): جغرافية الجزائر، طبيعية- بشرية- اقتصادية، مطبعة الإنشاء، ط2، دمشق، سوريا، 1968م.
- 32 -حداد، حليم ميشال: قصة وتاريخ الحضارات العربية ، منشورات كريس، بيروت، لبنان، 1998-1999م.

- 33- حوتية، محمد الصالح(د): آل كنتة، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة ق 18- 19م، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، 2008م.
- 34-.....: توات والأزواد خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للهجرة/ الثامن عشر والتاسع عشر ميلادي، دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية ، الجزء الثاني، دار الكتاب العربي للطباعة للنشر والتوزيع والترجمة، الجزائر، 2007م
- 35- يحيى، جلال(د): تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ، نشر : المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، 2010م.
- 36-.....: أوروبا في العصور الحديثة ، نشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الإسكندرية، المطبعة العصرية، الإسكندرية، مصر، 1981م.
- 33 -محمد موسى، فيصل: موجز تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر ، مراجعة: ميلاد أ. المقرحي، منشورات جامعة قاربيونس، بنغازي، ليبيا، 1997م.
- 37 -المدني، أحمد توفيق: هذه هي الجزائر، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.
- 38 -سروش، المنور(د): دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخيل ، ج1، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009م.
- 39 -مزهودي، مسعود(د): الإباضية في المغرب الأوسط، منذ سقوط الدولة الرستمية إلى هجرة بني هلال إلى بلاد المغرب (296-442هـ/909-1058م)، نشر: جمعية التراث، القرارة، طبع: المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1417هـ/1996م.
- 40 -منصوري، عثمان: التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، مساهمة في تاريخ المغرب الإقتصادي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، طبع: مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، 1422هـ/2001م.
- 41 -سياسي، إبراهيم(د): مقاربات في تاريخ الجزائر، 1830 - 1962م، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007م.
- 42 -.....: قبسات من تاريخ الجزائر ، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010م.

- 43 -: الإحتلال الفرنسي للصحراء (1834-1837م)، دار هومة، الجزائر، 2005م.
- 44 - المليي، مبارك بن محمد: صحراؤنا، نشر: كتاب البعث، تونس، 1958م.
- 45 -: تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، تقديم وتصحيح: محمد المليي، ثلاثة أجزاء، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ودار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2009م.
- 46 - ناصر، محمد صالح(د): الشيخ القراذي، حياته وآثاره ، الجزء الأول، نشر: جمعية النهضة، العطف، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 1990م.
- 47 - النحوي، الخليل: إفريقيا المسلمة الهوية الضائعة، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1993م.
- 48 - سعد الله، أبو القاسم(د): الحركة الوطنية الجزائرية 1830 - 1900م، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992م.
- 49 -: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر ، الجزء الثاني، دار البصائر للنشر والتوزيع، طبعة خاصة، الجزائر، 2007م.
- 50 -: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث(بداية الإحتلال) ، نشر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط3، الجزائر، 1982م.
- 51 - سعيدوني، ناصر الدين(د): دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني ، نشر: م.و.ك، الجزائر، 1984م، طبع: م.وف.م، الجزائر، 1985م.
- 52 -: ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000م.
- 53 -: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830م)، م.و.ك، ط2، الجزائر، 1985م.
- 54 - حبد الظاهر، حسن عيسى: الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني ، نشر: الزهراء للإعلام العربي، د.م.ن، د.ت.ن.
- 55 - عباد، صالح: الجزائر خلال الحكم التركي 1514 - 1830م، د.ر.ط، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2014م.

- 56 -العربي، إسماعيل(د): الصحراء الكبرى وشواطئها ، نشر: م.و.ك، طبع: م.و.ف.م، وحدة الرغاية، الجزائر، 1983م.
- 57 -حمورة، عمار: الجزائر بوابة التاريخ ما قبل التاريخ إلى 1962م، الجزء الثاني، دار المعرفة، الجزائر، 2008م.
- 58 -حمر موسى، عز الدين: دراسات إسلامية غرب إفريقية، نشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2003م.
- 59 - عميراوي، احيدة (د): قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث ، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 1426هـ/2005م.
- 60 -.....، وآخرون: السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية (1844-1916م)، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، 2009م.
- 61 -حيسى، حمو محمد النوري: دور المزابيين في تاريخ الجزائر قديما وحديثا ، المجلد الأول، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، د.ت.ن.
- 62 -.....: نبذة من حياة المزابيين الدينية والسياسية والعلمية من سنة 1505 إلى 1962م، الجزء الأول، دار الكروان، باريس، فرنسا، جانفي 1984م.
- 63- فرج، محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، د.م.ج، الجزائر، أفريل 2007م.
- 64- شويتام، أرزقي(د): نهاية الحكم العثماني في الجزائر وعوامل انهياره 1800- 1830 م، دار الكتاب العربي للنشر والطباعة والتوزيع والترجمة (DKA)، الجزائر، 2011م.
- 65- شنوف، عيسى: يهود الجزائر 2000 سنة من الوجود، نشر: دار المعرفة، الجزائر، 2000م.
- 66- غطاس، عائشة (د): الحرف والحرفيون لمدينة الجزائر 1700-1830م، مقاربة اجتماعية اقتصادية، منشورات ANEP، الجزائر، 2007م.

رابعا- المراجع المعربة:

- 1- أندري، ريمون: المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة: لطيف فرج، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1991م.

2- باموك، شوكت(د): التاريخ المالي للدولة العثمانية، دار المدار الإسلامي، طرابلس، الجماهيرية الليبية، 2005م.

3- بوفيل: **تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير**، ترجمة: الدكتوران الهادي أبو لقمة ومحمد عزيز، ط2، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي، ليبيا، 1988م.

4- جغلول، عبد القادر(د): **تاريخ الجزائر الحديث**، دراسة سوسيوولوجية، ترجمة: فيصل عباس، مراجعة: خليل أحمد خليل، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، بيروت، لبنان، 1982م.

5- كام، جوزيف: **المستكشفون في إفريقيا**، دار المعارف، مصر، 1983م.

6- نياني، ج.ت: **تاريخ إفريقيا العام، المجلد 4، إفريقيا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر**، عن اليونسكو، باريس، طبع بالمطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988م.

7- سبنسر، وليام: **الجزائر في عهد رياس البحر**، ترجمة وتقديم: عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر، الجزائر، 2006م،

8- فالنسي، لوسيت: **المغرب العربي قبل سقوط مدينة الجزائر 1790-1830م**، ترجمة: إلياس مرقص، نشر: دار الحقيقة للطباعة والنشر، آب (أغسطس)، بيروت، لبنان، 1980م.

9- تشايحي، عبد الرحمن: **الصراع التركي الفرنسي في الصحراء الكبرى**، ترجمة: علي اعزازي، مراجعة: محمد الاسطي، تقديم: محمد الطاهر الجراي، طبع: مطابع المختار للطباعة والنشر، ط2، الإسكندرية مصر، نشر مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ليبيا، 1993م.

خامسا- المراجع باللغة الأجنبية:

1- Bonneval, Général: **circuits sahariens, Laghuoat, Le m'zab, Metlili**, circular saharian Tour, SD.

2- Brixi, Réda : **La Route du Sel de Tlemcen au Bilad es Soudan**, Editions ibn Khaldoun, Tlemcen, Algerie, 2013 .

3- Chentouf, Tayeb: **Etude d'histoire de l'Algerie(18^{ém} et 19^{ém} siècles)**, O. P. U, Alger, 2004.

- 4- cornevin, R.et M: **Histoire de L' Afrique des origines à nos jours**, 2^{em} édition, payot, Paris, imprimerie Bussiere, saint-Amand, France, 1966.
- 5- Crouzet, Le Colonel : **Tidikelt – Touat – Gourara** Librairie Militaire de L.Boudin, Paris, 1893
- 6- Dumas, Lieutenant Colonel : **le Sahara Algerien**, études géographiques, statistiques et historiques du sud, paris, 1845.
- 7-Enlebert , Victor : **Les touaregs des dernières caravanes**, in Paris Match, France, S.D
- 8-Gaid, Mouloud: **Les berberes dans l'histoire – les Ibadites –** T 6, imprimerie Merkouche, Alger, Algerie, SD.
- 9- M'bokolo, Elika et autres : **Afrique Noire et civilisation**, T2, 19^{em}–20^{em} siecle, Hatier–Aupelf, Paris, France, 1992.
- 10-Melia, Jean : **Ghardaia**, Bibliothèque, charpentier, Fasquelle Editeurs, Paris, 1930
- 11- Pillet, Denys: **Repères pour l'histoire de ouargla 1872–1992** trad :Ali Idder, imp ETI–SUD, Ouargla, Algerie, 1993.
- 12- Pottier, René: **Histoire du Sahara**, éditions Alger livres, Alger, 2013.
- 13- Verlet Bruno: **Le Sahara**, Imprimerie des presses niversitaire de France, paris, France, 1962.

- 1- أرديسي، لوسيانو: " مساهمة الصحراء الغربية في الحضارة المغربية والإفريقية محاولة بحث تاريخي "، مقال نشر في مجلة الأصالة، ج2، محاضرات الملتقى الثالث عشر للفكر الإسلامي المنعقد بتمنغست من 07 إلى 16 شوال 1399هـ / 30 أغسطس إلى 08 سبتمبر 1979م، نشر: وزارة الشؤون الدينية والتعليم الأصلي، طبع م.و.ف.م، الجزائر، 1995م.
- 2- أيت ايشو، عبد الله ، " معالم من حياة اليهود المغاربة "، مقال نشر في مجلة كان التاريخية، السنة الثانية، ع3، ربيع الأول 1430هـ/ مارس 2009م.
- 3- بلعربي، خالد: " تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى في العصر الوسيط "، مقال نشر في مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، ع 15، عدد خاص بأعمال الملتقى الدولي الأول حول الإنسان والصحراء الكبرى قراءات تاريخية واجتماعية، المنعقد يومي 27-28 ذوالحجة 1432هـ/23-24 نوفمبر 2011م بالمركز الجامعي بغرداية، طبع: المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، 2011م.
- 4- بن عتو، بلبروات: " رحلة الباي محمد الكبير إلى الجنوب الغربي الجزائري سنة 1785م "، مقال نشر في مجلة ارتباد الآفاق، ندوة الجزائر الأولى، الجزائر، 2004م.
- 5- بشار، قويدر(د): " القوافل التجارية المغربية (طبيعة التجارة وآثارها) "، مقال نشر في كتاب طريق القوافل، نشر: م.و.ب.م.إ.ت، مطابع عمار قربي، باتنة، الجزائر، 2001م.
- 6- بن زروال، جمعة: " الرق في الجنوب الجزائري في بداية الإحتلال من خلال وثائق أرشيفية فرنسية "، مقال نشر في كتاب أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الاجتماعية والإقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12-13هـ/18-19م من خلال المصادر المحلية، المنعقد بالمركز الجامعي بوادي سوف أيام 29 صفر - 01 ربيع الأول 1433هـ/24-25 جانفي، 2012م، مطبعة منصور، الوادي، الجزائر، 2012م.
- 7- بوباية، عبد القادر(د): " دور الرحالة والمستكشفين في عملية التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية "، مقال نشر في كتاب ملتقى التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، منشورات مديرية الثقافة، ورقلة، الجزائر، 1999م.
- 8- زبادية، عبد القادر(د): " ورقلة عروس مدائن الجنوب الجزائري "، مقال نشر في مجلة الأصالة، ع41، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، الجزائر، 1977م.

- 9-.....: "الأثر الحضاري لقوافل التجارة السودانية عبر العصور"، مقال نشر في مجلة الأصالة، ع 3، السنة الأولى، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية، طبع: دار البعث، قسنطينة، الجزائر، جمادى الثاني/ أوت، 1391هـ/1971م.
- 10- الحرير، إدريس صالح: "العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء الكبرى وأثرها في نشر الإسلام هناك"، مقال نشر في مجلة البحوث التاريخية، ع1، يناير 1983م.
- 11- حاضي، يمينة: "الحركة التجارية بالجنوب الشرقي الجزائري من ق 4-11هـ/10-16م"، مقال نشر في مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع16، جامعة غرداية، جوان 2012م.
- 12- حوتية، محمد الصالح(د): توات والقوافل التجارية، مقال نشر في كتاب طريق القوافل، نشر: م.و.ب.م. إ.ت، مطابع عمار قرني، باتنة، الجزائر، 2001م.
- 13-.....: إفريقيا الإسلامية جنوب الصحراء (391-1318هـ/1000-1900م)، مجموعة محاضرات مرقونة، قسم التاريخ، جامعة أدرار، الجزائر، د.ت.ن
- 14- لونيسي، إبراهيم(د): "أهمية الصحراء في إستراتيجية الإستعمار الفرنسي"، مقال نشر في كتاب ملتقى التوسع الفرنسي في الصحراء الجزائرية، منشورات مديرية الثقافة، ورقلة، الجزائر، 1999م.
- 15- الماحي، عبد الرحمن عمر(د): "مساهمة القوافل التجارية في نشر اللغة العربية والحضارة الإسلامية في منطقة الساحل الإفريقي"، مقال نشر في كتاب أعمال ندوة التواصل الثقافي والإجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، أيام: 15-17 محرم 1428 من ميلاد الرسول(ص)/12-14، 1998، افرنجي، تنظيم كلية الآداب، تطوان، المغرب، وكلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية، مراجعة وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الجماهيرية العظمى، 1429 من ميلاد الرسول(ص)، 1999 أفرنجي.
- 16-.....: "مساهمة قوافل الصحراء في نشر الإسلام والحضارة الإسلامية في السودان الأوسط"، مقال نشر في مجلة جامعة الأمير عبد القادر الإسلامية، ع4، مطبعة دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، رمضان 1413هـ/مارس 1993م.

17- المدني، أحمد توفيق: " وجود الأتراك العثمانيين بالبلاد الجزائرية "، مقال نشر في كتاب الأصاله، محاضرات ملتقى الفكر الإسلامي الثاني عشر المنعقد بباتنة من 04 إلى 11 شوال 1398هـ/7-14 سبتمبر 1978م، نشر وزارة الشؤون الدينية، الجزء الثاني، الجزائر، 1978م.

18- مريوش، أحمد(د): " السياسة الفرنسية في الجنوب الجزائري وردود الفعل الوطنية ما بين(1900-1930م) "، مقال نشر في مجلة المصادر، ع 20، إصدار: م.و.د.ح.ث.أ 1954م، الأبيار، الجزائر، 2009م.

19- مياسي، إبراهيم(د): " الصحراء الجزائرية من خلال الاستكشافات قبل وبعد الإحتلال "، مقال نشر في مجلة المصادر، ع12، إصدار: م.و.د.ح.ث.أ 1954م، الأبيار، الجزائر، السداسي الثاني، 2005م.

20-: " الإهتمام الفرنسي بالصحراء "، مقال نشر في كتاب طريق القوافل، طبع: مطابع عمار قرني، باتنة، نشر: م.و.ب.ع.ق.ت.ع.إ.ت، الجزائر، 2001

21- ناصر، بلحاج(د): " جوانب من المعاملات المالية بوادي مزاب في القرنين 18-19 الميلاديين من خلال دفاتر بعض التجار "، مقال نشر في كتاب أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الإجتماعية والإقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12-13هـ/18-19م من خلال المصادر المحلية، المنعقد بالمركز الجامعي بوادي سوف أيام 29 صفر- 01 ربيع الأول 1433هـ/24-25 جانفي 2012م، مطبعة منصور، الوادي، الجزائر، 2012م.

22- سيدهم، فاطمة الزهراء: " موارد إيالة الجزائر المالية في مطلع القرن 19م "، مقال نشر في مجلة كان التاريخية، السنة الرابعة، ع13، شوال 1432هـ/سبتمبر 2011م.

23- عباس، عبد الكريم: " الصلات التجارية بين المغرب والسودان الغربي "، مقال نشر في مجلة التربية الأساسية، عدد 4، جامعة بابل، العراق، سبتمبر 2010م.

24- عبد الله عبد الرازق، إبراهيم: " مؤتمر برلين وآثاره على الخريطة السياسية لغرب إفريقيا "، مقال نشر في مجلة الدراسات الإفريقية، د.ع، د.ب.ن، د.ت.ن.

25-: " المسلمون والإستعمار الأوروبي لإفريقيا "، مقال نشر في مجلة عالم المعرفة، ع139، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يوليو 1989م.

- 26- عوض الله، الأمين(د): " تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر الميلادي "، مقال نشر في كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، إشراف: الدكتور أحمد إبراهيم دياب، نشر: المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، العراق، 1404هـ/1984م.
- 27- علوي، مصطفى: " الأحوال الاقتصادية للمغرب الأوسط من خلال كتابات الرحالة والجغرافيين المغاربة ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين/الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين"، مقال نشر في مجلة كان التاريخية، ع 14، ديسمبر 2011م.
- 28- علوي، حسن حافظي: " طرق الإستدلال على وجود الماء وتديبير قلته ودفع مضاره بصحراء بلاد المغرب في العصر الوسيط "، مقال نشر في كتاب الندوة الدولية الثالثة حول الماء ببلاد المغرب في العهدين القديم والوسيط، المنعقدة بالمكتبة الوطنية بتونس أيام 15-16-17 نوفمبر 2007م، نشر كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس، 2009م.
- 29- الفيتوري، عطية مخزوم: " دراسات في تاريخ شرق إفريقيا وجنوب الصحراء "، مقال نشر في مجلة انتشار الإسلام، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، 1998م.
- 30- رمضان، رابح: " جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية بالصحراء الجزائرية من خلال رحلة الأغواطي "، مقال نشر في كتاب أعمال الملتقى الوطني الثاني حول الحياة الإجتماعية والإقتصادية في الجنوب الجزائري خلال القرنين 12-13هـ/18-19م من خلال المصادر المحلية، المنعقد بالمركز الجامعي بوادي سوف أيام 29 صفر- 01 ربيع الأول 1433هـ/24-25 جانفي، 2012م، مطبعة منصور، الوادي، الجزائر، 2012م.
- 31- غرايسة، عمار: " من الأدوار الحضارية للمدن الصحراوية وارجلان أنموذجا "، مقال نشر في مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع15، جامعة غرداية، الجزائر، 2011م.

ثامننا- المقالات باللغة الفرنسية:

1-Aucapitaine, Henri (Le baron):" **Etude sur la caravane de la Mecque et le commerce de l'interieur de l'Afrique(1857-1867)**",éxtrait des publications de l'academie nationale agricole, manufacturière et commerciale, France, juillet et aout 1861.

2-Feraud .L.charles : " **Délivrance D'esclaves Nègres dans le sud de la province de costantine** ",in RA, V16, 1872.

4-Lespes, René:" **ORAN, ville et port avant l'occupation francaise(1831)**" , in RA, vol75,3^{ém}trim,1934

5- Mondet, Arlette-Etienne: Article " **Du chameau, de L'auto, de L'Avion** ",dans Le Saharien, revue trimestielle édité par la Rahla, Amicale des Sahariens , n°200, Mars 2012.

6-Miege, Jean-Louis: "**Les Juifs et le commerce transsaharien Au Dix-Neuvieme Siècle** " ,in Abitbol M, communauté juives des marges sahariennes du Maghreb,S.D

7- Pliez,Olivier:"**Vieux réseaux et nouvelles circulations entre les deux rives du sahara** ,in Méditerranée, T 99, 3-4-2002

8- Sari, Djilali : " **La dimension civilisationnel de la route des caravanes** " , in La route des caravanes,C.N.R.P.A.H, Alger,2001.

تاسعا- الرسائل والأطروحات الجامعية:

1- بلعباس، إكرام: صورة الجزائر في الرحلات الجزائرية والمغربية خلال العهد العثماني ، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف أ.د. إبراهيم لونيبي، قسم التاريخ، كلية

الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجليلي لياس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 1429-1430هـ/2008-2009م.

2- بلبوري، سيد أحمد: **وهران وضواحيها: إجتماعيا، سياسيا، إقتصاديا، إبان الإحتلال الإسباني 1505-1792م**، أطروحة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف أ.د. نور الهدى بوخالفة، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة جليلي لياس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية: 1427-1428هـ/2006-2007م.

3- بن مصطفى، إدريس: **العلاقات السياسية والإقتصادية للمغرب الأوسط مع إيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية في عهد الدولة الزيانية**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، إشراف الدكتور مبخوت بودواية، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الإجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية، 2006/2007م.

4- بوتراة، سالم: **تاريخ شمال إفريقيا من خلال كتابات مارمول كربخال والحسن الوزان**، بحث مقدم لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور حنيفي هلايلي، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجليلي لياس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 1431-1432هـ/2010-2011م.

5- بوسليم، صالح(د): **المؤسسات الثقافية بإقليم توات دراسة تاريخية من خلال الوثائق المحلية أثناء القرنين 12 و13هـ/18 و19م**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف أ.د. محمد مجاود، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجليلي لياس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 1429هـ/2008م.

6- البياتي، بان علي محمد: **النشاط التجاري في المغرب الأقصى خلال القرن 3-5هـ/9-11م**، رسالة ماجستير، إشراف الأستاذة الدكتورة صباح إبراهيم الشخلي، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، العراق، السنة الجامعية 1425هـ/2004م.

7- وقاد، محمد وأمير، يوسف: **تركيبة مجتمع مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1700-1830م)**، مذكرة تخرج لنيل شهادة الليسانس في التاريخ الحديث، إشراف زكية زهرة، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2004-2005م.

- 8- زقب، عثمان: الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في منطقة وادي سوف 1918-1947م وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا ، مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور يوسف مناصرية، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، السنة الجامعية 2005-2006م.
- 9- الزين، محمد: الأوضاع الاجتماعية والصحية في الجزائر العثمانية 1518-1830م، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف أ.د. محمد مجاود بمساعدة أ.د. حنفي هيلالي، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية: 1431-1432هـ/2010-2011م.
- 10- حساني، عثمان: البيئة الاجتماعية والاقتصادية للصحراء الجزائرية من خلال تقارير الأجانب في القرنين 18 و 19م، رسالة ماجستير، إشراف بن يوسف تلمساني، جامعة الجزائر، 2006-2007.
- 11- مبخوث، بودواية(د): العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان ، رسالة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ، إشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد حاجيات، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، السنة الجامعية 1426-1427هـ / 2005-2006م.
- 12- مياسي، إبراهيم(د): توسع الإستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881-1912م)، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ المعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور مولاي بلحميسي، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1986-1987م.
- 13- قدان، عبد الرازق بسام كامل: تلمسان في العهد الزياني (633-962هـ/1235-1555م)، ماجستير في التاريخ، إشراف د. هشام أبو رميلة، كلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، السنة الجامعية 1422هـ/2002م.
- 14- سلطاني، أحمد: التجارة والتجار بمدينة الجزائر العثمانية على ضوء المصادر المحلية والأجنبية(1792-1830)، رسالة ماجستير، إشراف الأستاذ الدكتور حنفي هلايلي، جامعة جيلالي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية 2011-2012م.

15- عطية، عبد الكامل: التحولات السياسية والإقتصادية في السودان الغربي بين (1750-1914م)، ماجستير، جامعة الجزائر2، السنة الجامعية 2009-2010م.

16- علي زازو، صورية: النشاط الإقتصادي بالمغرب الأوسط في العهد الزياني من القرن السابع إلى القرن التاسع هجريين/الثالث عشر إلى الخامس عشر ميلاديين ، مذكرة التخرج لنيل شهادة الماجستير في تاريخ المغرب الأوسط الحضاري، إشراف د. بلهاري فاطمة، قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجيلاي ليايس، سيدي بلعباس، الجزائر، السنة الجامعية: 2010/2011م.

17- شعباني، نور الدين: علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية بين القرنين الرابع والتاسع الهجريين / 10 و 15م، رسالة ماجستير في تاريخ العلاقات بين السودان الغربي والمغرب الإسلامي، إشراف د. موسى لقبال، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1426-1427هـ/2005-2006م.

18- شويتام، أرزقي(د): المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519-1830م، رسالة مقدمة لنيل درجة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الأستاذ الدكتور عمار بن خروف، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2005-2006م.

19- خفيان، رشيد: الطرق والقوافل التجارية بين الحواضر المغاربية وأثرها الحضاري في العهد العثماني خلال القرنين 11-12هـ / 17-18م، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، تخصص: العلاقات الإقتصادية والثقافية بين الجزائر العثمانية ودول المغرب الكبير، إشراف الدكتور خليفة حماش، قسم التاريخ، كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، السنة الجامعية 2013-2014م.

20- ذكار، أحمد: حاضرة وارجلان وعلاقاتها التجارية بالسودان الغربي من سنة 1000-1301هـ/1591-1883م، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإفريقي الحديث والمعاصر، إشراف د. محمد حوتيه، قسم التاريخ، كلية العلوم الإجتماعية والعلوم الإسلامية، الجامعة الإفريقية العقيد أحمد درارية، أدرار، الجزائر، السنة الجامعية 1430-1431هـ/2009-2010م.

عاشرا- القواميس والمعاجم:

- 1- ابن منظور، الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب المحيط**، المجلد الخامس، تحقيق: عامر أحمد حيدر، مراجعة: عبد المنعم خليل أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م.
- 2- جاسر، محمد عبد الغني: **الموسوعة الإسلامية**، دار البرهان، القاهرة، مصر، 2006م.
- 3- الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي: **معجم البلدان**، خمسة أجزاء، دار صادر، بيروت، لبنان، 1377هـ/1977م.
- 4- مجموعة مؤلفين: **منجد اللغة والأعلام**، ط40، منشورات دار المشرق، توزيع: المكتبة الشرقية، بيروت، لبنان، 2003م.

- 5- مجموعة مؤلفين: **الموسوعة الإفريقية**، مج2، تاريخ إفريقيا، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، مصر، مايو 1997م.
- 6- نويهض، عادل: **معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحديث**، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ط2، 1400هـ/1980م.

إحدى عشر - مواقع الأنترنت:

- 1- مقالة بعنوان: " **الصحراء الكبرى** "، موقع: <http://ar.wikipedia.org/wiki/>، الزيارة لهذا الموقع كانت يوم 2015/06/29، الساعة 12:20.
- 2- مقالة بعنوان: " **ولاية غرداية** "، موقع: منتدى ثانوية الحاج علال بن بيتور: <http://ibnbitour47.ahlamontada.net/t4906-topic>، الزيارة لهذا الموقع كانت يوم 02.02.2013م، الساعة 12:00.

الفهارس

فهرس الأعلام

(أ)

- الإدریسی (الشریف): 107-110-131-132 أحمد المنصور
الأغواطي (بن الدين): 90-132-138-149
الأصطخري: 147
إيخنوخن: 179-215
أحمد شيخو بن الحاج عمر: 207
إبراهيم موسى الفولاني: 92
إيليزابيت الأولى: 169
أمينوكل (أهيتاقل): 180
أطفيش (القطب): 214

(ب)

- البكري (أبو عبيد): 47-109-110-112-113-117-124-127-128-131-145-
147-149-151-155
بطوطة (ابن): 68-69-71-72-77-90-94-95-116-126-138-141-146-
147-151
بارث (هنري): 90-126-128-175-176
بوبركر (حمزة): 178-187-214
برونو (فيرلي): 101
بابا حسن (الداي): 148
بارجيس (الراهب): 170
البكاي (سيدي أحمد): 175-179
بيهانزن: 207
بارك (مونغو): 171
بنيتو (فلورنتين): 122
بلحميسي (مولاي): 98
بريروس: 27-29
بوعزيز (يحيى): 149-155
باباني (الشيخ): 172
بوضرية (إسماعيل): 178
بوران (الملازم): 187
بيليسي (المارشال): 215

(ت)

- التميمي (عبد الجليل): 78
التمكروتي: 107
التومي (سالم): 143

(ج)

جامي (عبد القادر): 44 جودت (عبد الكريم): 199

(ح)

الحاج عمر بن سعيد الفوتي: 92-47 حوتية (محمد): 76
حوقل (ابن): 149-142-137 حمادوش (ابن): 138
حسين (الداي): 144-33 الحاج أحمد (باي): 144

(خ)

ابن خلدون (عبد الرحمن): 130-118-116-95-89-74-71-67-44-40
خوجة (حمدان): 35

(د)

دولافوس: 45 دوغا: 71 دوما: 68
الدرعي: 70 دورو: 75 دورنو: 210
دوتاسي (لوجي): 111 داموستا (أفيسكا): 132
دي فوكو (شارل): 146 الدالي (المهادي مبروك): 150
دي بوسي (جنتي): 153 الدرقاوي (ابن الشريف): 157
دا جاما (فاسكو): 166-165 دياز (بارنليمو): 166
دافيدسون (جون): 174 دوفيرييه (هنري): 179-178
دوكولمب: 178 دوليسبس (فرديناند): 178
ديسبوردي (برني): 204 دي موريس (المركيز): 210
دوبير: 210

(ر)

رولفس (جيرهاالد): 195-184-183-182-77

راندون (المارشال): 209-214 ريشاردسون (جيمس): 175

(ز)

الزياني: 35-36 الزبيري (محمد العربي): 97 زيادية (عبد القادر): 145

(س)

السعدي (عبد الرحمن): 121-123-125-126 سليم الأول: 143
سني علي: 50-123-126 سيف بن ذي يزن: 51
سيما (عبد الجليل): 51 سليمان (المحتسب): 147
ساموري توري: 207-213

(ش)

الشويهد (عبد الله): 32-107-147 الشريف الزهار: 36
شقوم: 68 شالر (وليام): 199-200
شانون: 205 شانزي: 209-211

(ص)

صالح باي: 112 صولاييه (بول): 184-185

(ط)

طارق بن زياد: 44

(ع)

العياشي: 35-70-95-98-117-118-119 عبد الرحمن بن رستم: 57
عروج: 143 العنزي (محمد الصالح): 30
عبد النبي: 214 عبد الوهاب بن عبد الرحمن: 57
علي باشا: 33

عبد الله بن ياسين:44	عثمان دان فوديو:42-43-92
عبد الرحمن (أبوتاشفين):59	عقبة بن نافع:45-56
علمومة (إدريس):52	علي بن إدريس:55
عثمان (الشيخ):179-214	عبد القادر (الأمير):144

(غ)

غاليقية (الجنرال):185	غراي (النقيب):173
-----------------------	-------------------

(ف)

فوليت:205	فلاترس (بول):100-180-181-182-189-211
فرناندز (فلتين):135	فاغنر (مورتيس):33-108
فيفالدي:165	فيرو (شارل):148
فورو:186	فيكتوريا (الملكة):176 فرسينيه:204
فلامون:187-188	فريديرب (الجنرال):204-212

(ق)

القلقشندي:126	قسطنطين:111-112
القزويني:135	القانوني (سليمان):143

(ك)

كارات:191	كاويه (رونيه):70-75-76-126-136-173-203
كولونيو:101	الكانيمي (محمد الأمين):53
كودراي:170	كعت (محمود):122-150
كولونيو (الرائد):187	كولومبس (كريستوف):165
كلابرتون:172	كام (دييغو):166

كامبون (جول): 211-212

كوهن (الإخوة): 195

(ل)

اللبان (التلمساني): 59

لوكاس: 170

ليسيل (روجي): 77-97-139

لانغ (غوردن): 172

لارجو (فيكتور): 209-210

ليسييس (روني): 111

لافيجري (الكاردينال): 188

لامي (الكابتن): 186-205

(م)

المقري: 59-192

محمد الكبير (الأسقيا): 50-96-125-126

ميوسي: 48

المغيلي (محمد بن عبد الكريم): 125 - 193

مارتن: 75

محمد بن عبد الله (الشريف): 213.

مياح: 79

محمد بن عثمان (الكبير): 111

ماسينيسا: 111

مارمول: 141

مصطفى باشا: 35

ماجد (ابن): 166

الملاح (هنري): 166

مالفانت: 167

مروش (المنور): 153

منسى موسى: 59-71

محمد بن عبدون: 110

مابا: 42

محمد بن عيسى: 70

منسى سليمان: 122

محمد بن أبي عون: 110

محمد الفقيه (الجازولي): 59

(ن)

نابوليون (بونابرت): 173

نيكولاس الخامس (البابا): 169

(هـ)

هوكنز (سرجون): 169

هلال القطلايني: 59

هيوتون (الميجر): 170

هورنمان (فريدريك): 170

(و)

الوزان (الحسن): 40-41-48-52-60-71-84-89-90-91-93-94-96-98-
-107-110-112-117-122-124-126-129-134-141-143-146-147-
150-166

واغ (أوفر): 175

الورثاني: 112-118

(ي)

ياجي (علي): 54

اليقوي (أحمد بن يعقوب): 48-51

يغمراسن بن زيان: 59

يندكان (أبو محمد) المسوفي: 68

فهرس الأسر والشعوب و القبائل

ملاحظة: أسقطنا ذكر: العثمانيين والجزائريين والمغاربة من الفهرس نظرا لورودها في كامل المذكرة.

(أ)

الأتراك: 18-28-88-107-138-139-216

الإسبان: 18-24-25-26-27-30-31-32-33-36-61-109-110-111-165

الأوروبيون: 32-33-78-108-109-110-137-139-165-167-169-170-

174-201

الأزقر: 216

أولاد سيدي الشيخ: 183-187-214

الإغريق: 169

الإنجليز: 165-168-170

28

168 الإنكشارية:

الإباضية: 58-114-الأفارقة:

أولاد نايل: 133

إيفوغاس: 214

86-97

85 الأرباع:

الأشوريون: 44 أولاد صالح:

120

أولاد عمور:

أولاد شعيب: 120

الأندلسيون: 110

أحمد(بني): 131

أولاد خليف: 120

الآباء البيض: 188

الإيطاليون: 199

أولاد عمران: 131

(ب)

البريطانيون: 203

البرتغاليون: 36-49-62-75-110-165-167-168-169

البرابيش: 45-155

البربر: 42-43-89-90-111-119-124-131-132

البوهل(قبائل): 88-91

البمبارا(قبائل): 42-43-141-171

البولالا(شعب): 51-53-54-55

(ت)

التوارق: 23-42-43-44-51-70-71-88-89-90-116-119-121-123-
-125-131-155-172-178-179-180-181-182-183-187-188-189-
215-214-211-210-192-191

التيحانية: 214

التبو(قبائل): 132

التكرور: 42-45-50-212

(ج)

جدالة: 44

(ح)

الحنانشة: 38

الحفصيون والحفصية: 60-61

(خ)

الحنافسة: 70-121-192

(د)

درقاوة: 28

(ر)

الرباع: 120

الرستميون والرستمية: 57-116-127

راشد(بني): 30

الرومان: 92-106-111-169

(ز)

الزيانيون وبني زيان والزيانية: 59-60-61-88-90-110

الزعاطشة: 185

الزئوج: 41-45

زغاوة: 51

زناتة: 58-127

(س)

سعيد عتبة: 86

السعديون والسعدية: 52-109-110-125

السوسية(الطريقة):182 السوشو(قبائل):48-50

السوافة:97-139 سليمان(بني):51

(ش)

الشعانة:85-116-149-180-192-211

شاش(عرش):101 الشوا(قبائل):51

(ص)

صنهاجة:40-44-89-98

(ع)

العرب والعربان:28-42-98-108-155-192

(غ)

الغدامسيون:182-210

(ف)

الفرنسيون:28-42-87-108-109-111-165-168-174-179-182-184-
185-187-189-203-204-209-210-211-214-215.

الفراعنة:92 الفلان:42-88-92

الفينيقيون:111 الفلسطينيون:44

(ق)

قداد:97 القطلانيون:111 القرطاجيون:56-106

(ك)

كننة:45-46 كنعان:111 الكراغلة:34-63-108-138

(م)

المخاليف: 86	المسلمون: 193-169-61-43-29
المخادمة: 85	المسيحيون: 193-167-26
المذاييح: 85	المرينيون والمرينية: 61-60
الماندينغ: 171	المادنغو (قبائل): 207-48
مسوفة: 72-44	المرابطون: 48-44-28
الماندي (قبائل): 42	الموحدون: 59
	مزغنة (بني): 107-18

(ل)

لمتونة: 44

(ن)

نوميديا: 106	نايل (أولاد): 26-22
النمامشة: 189	النصرانية: 60

(هـ)

الهلاليون: 61-44	الهوسا: 92-54-53-43-42
الهولنديون: 165	هوارة (قبيلة): 58

(و)

الولوف (قبائل): 42

(ي)

اليهود: 195-194-193-191-111-79-61-34-33-29

فهرس الأماكن والبلدان

ملاحظة: أسقطنا ذكر: الجزائر، والمغرب، والصحراء، وإفريقيا، والسودان من الفهرس نظرا لورودها في كامل المذكرة.

(أ)

أوروبا: 19-24-33-39-59-60-110-136-137-141-144-151-166-
168-169-172-183-193-198-199-201-204-208.

بسكرة: 26-35-83-88-93-99-100-101-117-118-131-178-179-
185-188-190-211-216.

الأغواط: 83-93-100-101-132-145-178-180-184-185-188-211-
213.

أغاديس: 40-89-99-100-116-121-128-129-155-186-209.

بريطانيا: 168-169-171-172-200-201-204-206-208.

أودغست: 48-58-127-128-131-137-142-147-149 أوجلة: 88

إسبانيا: 26-144-199-200-201-208. أنجاد: 93

إيطاليا: 122-167-199-200-201 أرزيو: 20

إنكلترا: 133-206-210-212 إكوزيوم: 18

الأندلس: 18-44-61-110 أغمات: 58

إيفروان: 99-122-122-186 أوقروت: 70

الأبيض سيدي الشيخ: 101-120 أولف: 88

الأوراس: 22-25-131 إليزي: 89

أير: 41-43-89-129 أقاديم: 100 أحير: 97

أقيرز: 118	أروان: 122-94-91-75	
أوتان: 122-101	أمقيدن وأمقيد: 181-99-70	
إيغلي: 101-100	الأزواد: 98-95-94-89	
ألمانيا: 208-204.	أقبلي: 122-101-100	
أمريكا: 168- 141	أدرار: 118-102-89	
إسطمبول: 216-107	إغرغر: 181-180-100	
إيقدي: 101	أوجيفت: 101	أوقلت: 101
أسيوط: 146	إيجل: 132	أوليل: 132
أم درينة: 101	إسكندنافيا: 201	إرهازار: 186
الألزاس: 204	أمدرار: 132	الإسكندرية: 199

(ب)

بسكرة: 26-35-83-88-93-99-100-101-117-118-131-178-179-	
185-188-190-211-216.	
البنين: 40	بورنو: 183-175-149-92-79-55-53-52-51-40
برقة: 45	البيض والبيوض: 180-187-100-93-83
باكل: 173	برلين: 212-208-207-206-205.
بوري: 47	بجاية: 199-138-107-84-36-20
بامبوك: 47	باماكو: 212-207 191-123-47
بلعباس: 21	بوركينافاسو: 207-91-48-44-42-40.
باجرمي: 55	البرتغال: 208-169-166
بوسمغون: 70	البليدة: 100-85-21-21

بيط: 12-126-125	بوروم: 99
البندقية: 61-110-199	بوغار: 100
بنيعباس: 102-183	بلجيكا: 208.
البنين: 48-204	برشلونة: 110
برج البحري: 20	بلما: 100-132
برج حمزة: 83	بشار: 101-102
بوتلان (حاسي): 101	بيزة: 111-199
برج عمر إدريس: 180	بئر الغرمة: 181
باريس: 180-215.	

(ت)

تبكتو: 40-43-45-50-76-77-83-84-88-89-91-94-97-99-100-
101-106-111-112-118-120-121-123-124-125-126-129-131-
134-135-150-151-152-154-155-167-172-173-174-175-182-
183-191-194-204-207-209-211.
توات: 23-46-58-79-91-93-100-101-106-111-114-118-119-
120-122-127-131-138-144-145-149-151-154-167-178-182-
183-184-187-193
تونس: 19-37-38-53-83-108-112-113 - 133-138-144-145-149-
196-197-198-199-202-208-211,
تلمسان: 20-21-29-30-35-36-59-60-61-71-83-88-93-94-107-
109-110-138-192-193-195
تشاد: 40-42-44-51-54-55-56-78-88-91-100-129-132-149-
175-176-183-186-206.

تقرت: 32-83-101-131-133-139-178-193-196-198-210-211-216.

تيدىكلت: 118-122-145-183-185-187-210.	تنس: 20
تافيلالت: 76-83-84-119-182-183-195	تبسة: 189
تغازى: 95-126-132-138-149-150	تيشيت: 90
تيميمون: 102-118-149-187-194	تكرور: 92
تيميساو وتمياسين: 90-100-122	تسايت: 119
التيطري: 21-27-28-29-156	تارودانت: 101
تمنيط: 75-101-114-193	توزر: 179-193
تمنغست وتمنراست: 89-101	تاجموت: 85-132
تيارت وتيهرت: 21-57-113	تيريشومين: 100-122
تادمايت: 22-181-185	تاوديني: 101-122-132
تاكداء: 126-146-151	تندوف: 101-102-175
تادمكة: 124-129-145	

(ج)

جنوة: 61-108-110-111-165-199-201	جبايو: 100
جني: 40-48-125-126-131	جزر الأنتيل: 173
الجريد(بلاد): 131-178-197	جزر نادوناو: 168
جرجرة: 21-25-31	الجلفة: 26-85
جويير: 40-43-53	جانت: 89-149
جبل طارق: 108-201	جزر الرأس الأخضر: 166

(ح)

حاسي أوليجن:186

الحجاز:37- 50- 134

(خ)

142

خيتر:100-111 خراسان:

خليج بيافارا:168

خنشلة:189

(د)

دلس:27

الداهومي:204-207-208.

درعة:58-183

دارفور:41-55-146

(ر)

رقان:102

رأس الرجاء الصالح:165-166

ري ودي أرو:165

رانو: 43-53

(ز)

زاوية الكحلة:180

الزاب(بلاد):22-116-131-190

الزيان:133

زنفرة:40-43-52-53

زويلة:124

زندر:156-186-209

زمور:101

زاريا:43-53-141

زوزوفانة(وادي):100

زكرك:40-52

(س)

السنغال:40 - 42-43-45-47-48-78-88-91-92-168-173-177-203-

204-205-206-207-208-212.

سجلماسة:58-59-60-68-91-93-94-106-113-118-119-127-128-
193-192-142-137-131

سنغاي:43-49-50-79-91-92-123-124-129-146-149-150

ساحل العاج:40-206-207-208. سناون:100

ساحل الذهب:167-168-206. سيرتا:111

سكيدة:20-83-99-178. سماميت:101

سعيدة:21-111-120-187. ساوتومي:168

سيغو: 43-126-171. سور الغزلان:88

الساورة:101-183. سوق أهراس:21

سيراليون:40-168. سيدي ناجي:133

سطيف:83-113. سدراتة:114-186

السوس:91-183. سوكوتو:100-172

سان لوي:168. سيدي عقبة:179

(ش)

الشلف:29. شبيكة:179. شرشال:27-29

الشام:45. الشفة:85

شنقيط:91. الشط:132

(ص)

صفاقس:199. الصومال:208

(ط)

طرابلس(الغرب):83-91-108-134-172-175-179-182-183-193-194-

198-199-209-210-216.

الطوغو: 40
طاسيلي: 89-178
طنجة: 173-174-183
طولون: 108-173

(ظ)

الظهرة: 21

(ع)

عين صالح: 23-68-78-83-88-89-100-101-106-118-183-184-186-
187-188-209-210-211.

عين الصفراء: 22-100-111-120
عين بسام: 21

عناية: 20-29-199
عين رنان: 101

عيسو (بئر): 100
عين قزام: 101

عين الناقة: 179
العراق: 142

(غ)

غدامس: 44-53-58-83-84-91-100-106-113-119-122-127-134-
140-179-180-183-188-189-198-199-209-210-214-215-216.

غاو (كاغو): 40-48-50-77-91-101-123-124-126-128-145-147-
151-191

غات: 53-83-89-97-99-100-106-119-155-178-179-180-182-
188-189-198-209-210-214.

غانة وغانا: 47-48-92-116-127-128-137-155-167-168-184-206.
غينيا: 40-45-47-48-141-204-207.

غرداية: 85-100-101-115-178-184
الغابون: 40

غامبيا: 40-42-168-170-171
غريس: 29

غرناطة:122-167

غوادلوب:173

(ف)

فرنسا:60-133-144-149-168-173-174-176-177-178-179-180-
182-184-185-187-188-189-198-200-201-202-203-204-205-
206-207-208-210-211-212-213-214-215-216.

فاس:61-83-94-100-101-122-193 فرندة:21

فقيق:22-83-100-183-195 فرجيوة:21

فزان:51-58-122-183-209 فولتا العليا:207

فارس:142-146 فلورانس:122

فوتا(السنغال):45 فوتاجالون:48

(ق)

قسطنطينة:21-26-27-28-31-32-36-38-62-83-88-99-107-111-112-
113-133-138-144-178-193-196-197-198

قورارة وتنقورارين:84-86-106-114-118-138-145-187-213

قفصة:83-179-193 قرونة:101 القالة:20

القليلة:29-30-131 القرارة:178 قطلونية:60

قابس:178-197 القاهرة:94 القلثة:101

القيروان:45-193 القسطنطينية:26 قصر البخاري:85

قصر البرشان:101 قصبه المخزن:101

(ك)

كانو:40-43-77-97-99-121-141-152-155-209.

كاتسينا وكاتشينينا:40-43-100-121-175 كابرا:173

كوكيا:50	كام: 48-51-52-53-55-123
كندا:204	الكامبيرون: 40-42-45-208.
كوار:175	كاوكا: 40-41-53-100
الكاف:83	الكونغو: 40-166-206.
	كاشنة:52
	الكانوري:51
كوت ديفوار:206	كمبي صالح:47-48

(ل)

ليبيا:19-21-41-44-45-51-88-89-94-175-183-184-198-208.	ليغورن:108-201
ليبيريا:40	لندن:172-176
لاغوس:183	

(م)

مالي:19-32-40-42-44-45-48-58-59-61-71-78-89-91-111-112-	مزاب وبني مزاب والمزابيون: 23-84-85-86-106-114-115-133-145-156-
204-116-123-146-147-151-167-191-192-	213-214.
المنبعة:100-101-102-106-120-178-184-185-186-187-192-195-	211.
موريطانيا:19-40-42-44-45-48-92-127-166-	مغنية:177
مصر:36-44-49-50-52-57-61-108-122-	مكة:128
مراكش:83-101-110-119-170-174-	ميلا:29
متليلي:68-178-184-188-192-194-	ماسينا:45
مرسيليا:108-111-110-199-201-	مستغانم:29

الملاح:79	المسيلة:131	معسكر:28-29-88
ماو:100	المسيتر:101	مرزق:90-175-209.
المنقب:101	موقادور:79	المدية:29-30-85
المعسف:101	مكناس:101	مليانة: 21-29-88
منغوغ(بحيرة):180	ممسينة:101	مبروك:99-101-122
متيحة:20-29	مجانة:29-88	مازونة:28-31-88
مشرية:86-100	مصر:134-146	مرسى الكبير:20-109

(ن)

النيجر:19-32-40-42-44-45-48-50-53-78-89-106-122-123-124-
125-128-132-170-171-173-174-175-191-204-206-207-212.

نيجيريا:32-40-42-43-44-51-53-91-100-168

نيس:108	نوميديا والنوميديون:84-116-132
نفطة:83	نوفي:121
النوبة:40	نقرين:179
نابولي:199	نيامي:128
	نجيمي(مدينة):55

(هـ)

الحقاروأهقار:23-41-89-90-99-106-132-155-179-183

الهند:139-165-166

هنين:59-109

(و)

ورقلة(وركلا) ووارجلان: 32-78-83-96-97-99-101-106-114-116-117-

124-127-128-131-132-134-138-139-148-149-176-180-182-

186-195-196-198-211-216.

وادي (سوف): 32-83-84-97-100-131-138-139-178-179-189-190-
210-198-197-196

وهران: 20-28-29-31-35-37-59-61-83-100-101-106 - 109-110-
193-183-111

ولاية وولاتن: 40-41-71-79-91-95-122-126-150-192

وادي ريغ: 95-190-198 وادي: 51-55

وانقارا: 58-92-138 واد قير: 101

الونشريس: 21-25 وادي العرب: 131 وادي جدي: 134

وادي زير: 183 وادي ماية: 180

(ي)

يولا: 175

اليمن: 44

فهرس المحتويات

البسمة

الإهداء

شكر وعرهان

قائمة المختصرات

المقدمة أ.

12..... الفصل الأول: المجال والإنسان

13..... أولا: الإطار الجغرافي والبشري للجزائر

13 أ. الإطار الجغرافي:

20..... ب. الإطار البشري

ثانيا: لمحة عن الأوضاع بالجزائر وعلاقتها مع دول الجوار في العهد

22..... العثماني

22..... أ. الأوضاع السياسية

25..... ب. الأوضاع الإقتصادية

30..... ج. الأوضاع الإجتماعية

34..... د. علاقات الجزائر السياسية مع دول الجوار

38..... ثالثا: الإطار الجغرافي والبشري لإفريقيا جنوب الصحراء

38..... أ. الإطار الجغرافي

40..... ب. الإطار البشري

46..... رابعا: لمحة عن الأوضاع السياسية في إفريقيا جنوب الصحراء

56..... خامسا: الجذور التاريخية للعلاقات التجارية بين الإقليمين

57..... أ. في العهد الرستمي

- ب. في العهد المرابطي.....60
- ج. في العهد الموحيدي.....60
- د. في العهد الزياني.....60
- 64.....خلاصة الفصل

الفصل الثاني: القوافل التجارية ومسالكها من الجزائر إلى إفريقيا جنوب الصحراء في العصر

- الحديث.....68
- أولاً: تنظيم وتحضير القافلة.....70
- أ. مفهوم القافلة.....70
- ب. مكونات القافلة وهيكلتها.....72
- ج. تنظيم القافلة.....79
- ثانياً: حركة القوافل التجارية وتأثيراتها.....83
- أ. تأثيرها الإقتصادي.....84
- ب. تأثيرها الاجتماعي.....87
- ج. تأثيرها الثقافي.....88
- د. القوافل التجارية المنطلقة من الجزائر والعبارة لها.....89
- هـ. نماذج للقوافل الجزائرية.....89
- 1- قافلة بني مزاب.....89
- 2- قافلة المشرية.....92
- ثالثاً: المخاطر والصعوبات التي تواجه القوافل.....93
- أ. المخاطر البشرية:.....93
- ب. المخاطر الطبيعية.....100
- ج. الحلول والإجراءات المتخذة.....100

106.....	رابعاً: مسالك التجارة بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء.
107.....	أ. المسلك الشرقي.
107.....	ب. المسلك الأوسط.
108.....	ج. المسلك الغربي.
111.....	خلاصة الفصل.

الفصل الثالث: الأسواق والمعاملات التجارية بالجزائر وإفريقيا

113.....	جنوب الصحراء.
114.....	أولاً: أهم المراكز التجارية بالجزائر.
115.....	أ. أهم مراكز الشمال.
122.....	ب. أهم مراكز الجنوب.
130.....	ثانياً: أهم المراكز التجارية بإفريقيا جنوب الصحراء.
140.....	ثالثاً: أهم البضائع والسلع المتبادلة بين الجانبين.
141.....	أ. أهم صادرات الجزائر إلى إفريقيا جنوب الصحراء.
147.....	ب. أهم واردات الجزائر من إفريقيا جنوب الصحراء.
153.....	رابعاً: المعاملات التجارية بالأسواق الجزائرية والإفريقية.
153.....	أ. طرق التبادل التجاري.
155.....	ب. العملات المستعملة.
161.....	ج. أسعار البضائع.
167.....	د. الموازين والمكاييل والمقاييس.
169.....	هـ. الرسوم والضرائب.
173.....	خلاصة الفصل.

الفصل الرابع: الإختراق الأوروبي للعلاقات التجارية بين ضفتي الصحراء وتطور الإهتمام

176.....	الفرنسي (1845-1900م).
----------	-----------------------

أولا: حركة الكشف الأوروبية في إفريقيا.....	177
أ. بدايات التوغل الأوروبي في إفريقيا.....	178
ب. أوروبا وتجارة العبيد.....	181
ج. أوروبا واستكشاف الصحراء الكبرى.....	181
1- البعثات الإستكشافية قبل احتلال الجزائر.....	182
2 - البعثات الإستكشافية بعد احتلال الجزائر.....	187
3- البعثات الفرنسية في الصحراء الجزائرية.....	171-183
أ. البعثات العلمية.....	191
ب. الحملات العسكرية.....	199
ج. الإرساليات التنصيرية.....	202
ثانيا: واقع التجارة الداخلية والخارجية.....	204
أ. واقع التجارة الداخلية.....	204
ب. واقع التجارة الخارجية.....	210
ثالثا: نتائج وانعكاسات السياسة الفرنسية.....	218
أ. النتائج السياسية.....	218
ب. الإنعكاسات السياسية لمؤتمر برلين.....	221
ج. النتائج الاقتصادية.....	225
1 تحويل التجارة التقليدية.....	226
2 تراجع تجارة القوافل الصحراوية.....	228
3 المنافسة التجارية عبر الصحراء الكبرى.....	229
4 الإتفاقيات الثنائية.....	230
د. النتائج الإجتماعية والثقافية.....	234

235.....	خلاصة الفصل
238.....	الخاتمة
242.....	الملاحق
292.....	بيبلوغرافية الدراسة
316.....	الفهارس
317.....	فهرس الأعلام
323.....	فهرس الأسر والشعوب والقبائل
327.....	فهرس الأماكن والبلدان
338.....	فهرس المحتويات
	الملخص

الملخص:

العنوان: العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء، من مطلع القرن 16 إلى نهاية القرن 19م.

عرفت العلاقات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء نشاطا كبيرا عبر مختلف العصور، وهذا بفضل القوافل التجارية التي كانت تجوب الصحاري والفيافي ذاهبة آبية، رابطة بين موانئ الشمال وأسواق واحات أعماق الصحراء الكبرى في كل من التشاد، ونيجيريا، وإفريقيا الوسطى، والنيجر ومالي، والسنغال، وغيرها. آخذة مسالك عديدة مُعرضة أصحابها إلى صعوبات ومخاطر لا تُعد ولا تُحصى. فرغم كون العلاقات التجارية بين المراكز التجارية بالجزائر من جهة ومثيلاتها في إفريقيا جنوب الصحراء من جهة أخرى قديمة. إلا أنها عرفت ازدهارا وتطورا كبيرين بداية من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، فاشتهرت عدة مراكز تجارية على جانبي الصحراء الكبرى مثل: مدن الجزائر، وتلمسان، ووهران، وقسنطينة، ومزاب، وورقلة، وبسكرة، وتوات، وغيرها أما من الجانب الآخر فنجد مدن: أغاديس، جني، تمبكتو، غاو، تاكدا، تغازي، أودغست، تادمكة وغيرها. والتي زيادة على دورها التجاري كانت تؤدي دورا علميا ودعويا مُهما، يُساعد على تقوية الروابط بين الأهالي فيما بينهم من جهة، وبين التجار الجزائريين والأفارقة من جهة أخرى. أما عن السلع والبضائع المتبادلة بين الجانبين فتشير أغلب المصادر إلى أن الجزائر كانت تُصدر: الحبوب، والزيت، والتمور، والملح، والأقمشة الصوفية والحيرية، والمرجان، والأسلحة، والبارود، إضافة إلى الكتب والمخطوطات التي كانت بمدينة تمبكتو سوقا رائجا لها، إضافة إلى السلع التي كان مصدرها أوروبا كالتفوة والشاي والسكر. أما عن أهم واردات الجزائر فهي بلا شك الذهب والعييد.

أما علاقة أوروبا بمنطقة إفريقيا جنوب الصحراء فقد بدأت طمعا في الاقتراب من مصادر السلع التي تجلب منها إلى شمال إفريقيا خاصة الذهب، فمنذ القرن التاسع هجري/الخامس عشر ميلادي انطلقت أولى الاستكشافات الجغرافية في غرب إفريقيا، بحيث أقامت بعض الدول

الأوروبية مراكز تجارية مؤقتة ثم قارة على السواحل الغربية للقارة، ثم أخذ الأوروبيون في التوغل داخلها تدريجياً. وقد اشتد التنافس بينهم أكثر بعد الثورة الصناعية من أجل كشف أسرار وأغوار الصحراء الكبرى والاستفادة من تجارتها الصحراوية خاصة تجارة الذهب والعبيد، معتمدين في البداية على كتابات الرحالة والمؤرخين المسلمين أمثال: ابن حوقل، والبكري، والإدريسي، وابن خلدون، وغيرهم. ثم بعد ذلك على جمعيات علمية وجغرافية، أخذت على عاتقها تنظيم البعثات الاستكشافية مدعومة مادياً ومعنوياً من قبل الدول الأوروبية، مُحاولاً تغيير مسار هذه التجارة نحو المحيط الأطلسي. وقد شرعت فرنسا بعد احتلالها لشمال الجزائر في تطبيق سياستها التوسعية في الجنوب، ونجحت أخيراً رغم كل الصعوبات أن تبسط نفوذها في الصحراء الجزائرية، وفي تشديد الرقابة على حركة القوافل التجارية وعلى الأسواق بفرض المكوس، والقضاء على تجارة العبيد بمنعها وتحريمها داخل الجزائر، مما أثر سلباً على المبادلات التجارية بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء وأدى إلى تراجعها وانكماشها مع بداية القرن العشرين ثم توقفها نهائياً بعد ذلك.

Le

Résumé :

Titre : les relations commerciales entre l'Algérie et l'Afrique subsaharienne, du début du 16ème siècle à la fin du 19ème siècle.

Les relations commerciales entre l'Algérie et l'Afrique subsaharienne connaissent un mouvement très actif à travers les époques, et ce, grâce aux caravanes commerciales qui traversent le désert en va-et-vient ; associant les ports du Nord et les marchés des oasis dans les profondeurs du grand Sahara, au Tchad, au Nigeria, en Afrique centrale, au Niger, au Mali et au Sénégal. Ces relations ont obligé les commerçants à rencontrer des difficultés et des risques innombrables. Malgré le fait que les relations commerciales entre les centres commerciaux de l'Algérie et leurs homologues de l'Afrique subsaharienne sont très anciennes mais elles connaissent un grand développement dès le début du troisième siècle l'Hégire / IXe siècle. Plusieurs centres commerciaux ont été très connus des deux côtés du Sahara, comme les villes d'Alger, Tlemcen, Oran, Constantine, Mzab, Ouargla, Biskra, et Touat, et de l'autre côté, nous trouvons les villes : Agadez, Djenné, Tombouctou, Gao, Takada, Tagazy, Aoudaghost, Tadamka et d'autres, qui en plus de leur rôle commercial jouent un rôle scientifique et culturel important. Ils contribuent aussi à renforcer les liens entre les populations africaines entre eux, d'une part, et entre les commerçants Algériens et Africains d'autre part.

En ce qui concerne les produits échangés entre les deux côtés, La plupart des sources scientifiques indiquent que l'Algérie exporte : les céréales, les huiles, les dattes, le sel, les tissus, la laine, la soie, du corail, des armes et de la poudre, en plus des livres et des manuscrits, ces derniers ont à Tombouctou un marché important, en plus des produits venus de l'Europe, tels que le café, le thé et le sucre. Quant aux importations de l'Algérie le plus important est sans aucun doute l'or et les esclaves.

Les relations entre l'Europe et les pays de l'Afrique subsaharienne ont commencé, dans l'espoir de s'approcher des sources des produits qui leur apportent l'Afrique du Nord, en particulier l'or. Depuis le neuvième siècle de l'Hégire / XV siècle, l'Europe a lancé les premières explorations géographiques en Afrique de l'Ouest, où certains pays européens ont mis en place des centres commerciaux temporaires puis permanents, sur la côte ouest du continent. Ensuite, les Européens ont commencé à pénétrer progressivement à l'intérieur. La concurrence entre eux a intensifié surtout après la révolution industrielle, afin de découvrir les secrets des profondeurs du grand Sahara et de tirer parti de son commerce, surtout le commerce de l'or et des esclaves. En se fondant au début sur les écrits des voyageurs et historiens musulmans comme Ibn Hawqal, al-Bakri, al-Idrisi, Ibn Khaldun, et autres. Puis sur les associations scientifiques et géographiques, qui ont pris sur eux-mêmes l'initiative d'organiser des expéditions soutenues financièrement et moralement par des pays européens, en essayant de changer la direction de ce commerce vers l'océan Atlantique.

La France s'est engagée après son occupation du nord Algérien, dans l'application de sa politique d'expansion dans le sud. Elle a finalement réussi à poser son influence dans le Sahara algérien, et à renforcer le contrôle sur la circulation des caravanes commerciales et sur les marchés, en imposant des péages. Elle a aussi réussi dans l'abolition de la traite des esclaves à l'intérieur de l'Algérie, qui a eu un impact négatif sur les échanges commerciaux entre l'Algérie et l'Afrique subsaharienne et a conduit à sa baisse et à son rétrécissement, avec le début du XXe siècle, puis après à son arrêt.